M I Q U A N D O U R

رواية
NOVEL

محي الدين قندور

أبناء الشتات

الجزء السادس من ملحمة القفقاس



روايـة
NOVEL

محي الدين قندور

أبناء الشتات

الجزء السادس من ملحمة القفقاس





CHILDREN OF DIASPORA
M. I. Quandour
HC, 2007, Jersey Publishing, UK
PC, 2007, Wingspan Press, USA

أبناء الشتات : الجزء السادس من ملحمة القفقاس / رواية
محي الدين قندور / مؤلّف من الأردن
ترجمهاعن الإنجليزيّة : محمّد أزوقة / مترجم من الأردنّ
الطبعة الأولى ، 2008



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 ، الأردنّ
هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكتروني : www.airpbooks.com
تنفيذ الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيب ®
لوحة الغلاف : **كازبك قندور / الأردنّ**
الصفّ الضوئيّ : **سمير اليوسف / عمّان ، الأردنّ**
التنفيذالطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-259-9

أيضاً بقلم نفس المؤلف

الروايات:

- عملية خطف الطائرة
- الصدع
- الأسطورة
- شروق الصحراء
- مفقود في بلاد الشيشان
- الصيد الأخير
- العراق: معابر الصحراء

روايات الملحمة الشركسية التاريخية:

- سيوف بلاد الشيشان
- كازبك
- المؤامرة الثلاثية
- قصة البلقان
- الثورة
- أبناء الشتات

كتب تاريخية:

- المريدية: دراسة للحروب الروسية في القرن التاسع عشر في القفقاس

إلى ذكرى عليم كيشوكوف، مؤلفنا/شاعرنا الشركسي العظيم في روسيا، الذي عرف على الدوام أن شراكسة الشتات والوطن الأم ظلوا متحدين في الروح، حتى لو فرقتهم الجغرافيا. لقد ترك رحيله فراغاً هائلاً في الحياة الأدبية للوطن الأم.

تقديم

يمثل هذا الكتاب، وهو المجلد السادس، المقطع الأخير من السلسلة التي كتبتها عن شعبي "الأديغه". نحن معروفون بالنسبة لبقية العالم باسم الشراكسة أو الشركس، شعب وحضارة قديمين تواجدوا في شمال القفقاس، وقد تم تهجير غالبيتهم إلى تركيا العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد تسبب الاستعمار الروسي لأراضينا عند نهاية الحرب الطويلة التي لم تعرف الرحمة عام ١٨٦٤، في عمليات التهجير هذه. إن القصص التي كتبتها مبنية جميعها على أحداث تاريخية وحقائق لكنها ليست "تاريخاً" حسب تعريف الأكاديميين والصفائيين.

تستطيع الحقائق التاريخية المجردة أن تقدم مجرد شذرات من أية قصة. ففي النهاية، التاريخ هو أكثر بكثير من تجميع حقائق جافة، وإحصائيات وتواريخ: إنه تفاعل شعوب متفرقة، يحركها الشغف، التطلعات، الفكرة، والإجحاف. كثيراً ما تكون السجلات الموصلة إلينا باعثة على الإحباط: كثيراً ما تكون بعيدة عن الدقة ومتناقضة إلى درجة اليأس، لأن من يكتبها هم المنتصرون على الدوام، لتلائم سياساتهم. كتب مؤرخ عظيم لعصرنا هو السير ونستون تشرتشل أن "أحد العوامل الأكثر تعليلاً في التاريخ هي ممارسة المؤرخين بناء قصة بشكل استثنائي من السجلات التي وصلت إليهم". قال جيمس ميتشينر، الروائي التاريخي الأمريكي العظيم "تتجرأ الروايات على المسير في ممرات تجفل المؤرخين الرسميين مبتعدين عنها".

الرأي الذي أحاول أن اثبته هنا هو أن القصص التي رويتها في المجلدات الستة للسلسلة قد تمت دراستها بحثياً وتوثيقها بدرجة من الدقة مشابهة لما يسمى بالأعمال الأكاديمية. ما آمل أن أكون قد حققته في الروايات هو فهم أفضل لتاريخنا إضافة إلى بعض المتعة في قراءة ذلك التاريخ.

هنالك ما يقرب من أربعة ملايين شركسي يقدَّر أنهم يعيشون في الشتات. قلما رويت حكاياتهم، والأمر المحير هو لماذا تم تجاهل هذا الأمر من قبل الشراكسة أنفسهم. لقد قدم الشراكسة العديد من الكتاب والأفراد المبدعين، العديد من السياسيين والجنرالات البارزين، لكن انشغالهم الرئيس ظل منكباً على رواية ماضيهم المحزن، قصص الحروب الروسية – القفقاسية في القرن التاسع عشر: قصة التهجير المأساوي الجماعي من القفقاس. يبدو أننا نقطن في الماضي ونشعر بالراحة في عملنا ذاك.

لم يكتب تاريخنا القديم بشكل لائق مطلقاً، ما سبب لنا غضباً مكبوتاً من نوع ما في شخصيتنا القومية. لذلك فقد استمر النظام التقليدي في تمرير المعلومات عن طريق الرواية الشفهية مع كل جيل جديد.

أمر منطقي أن نتعرف على ماضينا المأساوي، على تضحيات أسلافنا صعوبات ومعاناة أجدادنا ومحنهم. لكن ما حدث لنا في العالم الجديد، في المجتمعات الجديدة التي استقرينا فيها، الجنسيات الجديدة التي تبنيناها والتواريخ الجديدة التي كتبها آباؤنا بنفس المقدار من التضحية والكرم، كثيراً ما جرى تجاهلها. إن المجتمعات والثقافات التي تم توطيننا فيها، خاصة في الشرق الأوسط، لن تطري بالضرورة على إسهاماتنا وإنجازاتنا رغم أننا ولدنا في وسطها وأصبحنا مواطنين موالين صادقين بإخلاص في هذه الأقطار. لقد اندمجنا في هذه الثقافات كعناصر أجنبية في المجتمع. فقد كنا حتماً مختلفين جسدياً عن العرب، واليهود أو الأتراك، واحتفظنا بهويتنا الثقافية وتقاليدنا،

موسيقانا ولغتنا. لذلك، فإذا كنا سنطالب بالاعتراف بإسهاماتنا في هذه المجتمعات، فإننا بحاجة إلى المطالبة به بأنفسنا وبجهدنا الخاص. يمكننا أن نفعل ذلك فقط بالكتابة عن هذه الإنجازات والتجارب بأنفسنا.

مثل جميع أبناء جلدتي، بدأت هذه السلسلة من القصص بثلاثية القفقاس: قصص تقطن في ماضينا، وأنهيها الآن بقصة الحاضر.

قد يبدو هذا المقطع الأخير مثل سيرة ذاتية. مع أنه ستكون هناك مادة تاريخية غزيرة منغرسة فيه. إنه قصٌ لأقرب أحداث القرن العشرين والدور الذي لعبه شعبي فيها، في روسيا، في تركيا، في الشرق الأوسط وفي أمريكا. إنها أيضاً قصة عائلتي، وما زال قسم كبير منها ماثلاً في أذهان الشراكسة المعاصرين في الشتات.

إن الشخصيات الثلاثة: الوشا، عسكربي وألبرت (ابتداءً من الفصل الثاني) هي لأشخاص تاريخيين حقيقيين، قضوا سنواتهم الأخيرة في مقاطعة أورانج، بكاليفورنيا حيث قابلتهم وأجريت معهم محادثات منفصلين ومجتمعين. عندما قابلتهم، كان اليكس أو ألوشا، كما كان ينادى تحبباً، لا يزال قادراً على أداء رقصات شركسية بساقه الخشبية. إن شخصية كريم شيبزوكوف هي حقيقية أيضاً وقصته معروفة جيداً للشراكسة المعاصرين في أمريكا، خاصة في نيوجيرسي حيث اغتيل بمنتهى الوحشية. إن قصصي أو ربما يجدر بي القول المقتطفات القليلة من سيرتي الذاتية، هي بالطبع حقيقية جداً لأنني عشتها. مثل جميع الروائيين، سمحت لنفسي باختلاق بعض الشخصيات الوهمية لإكمال الأبطال الفعليين لروايتي. فقد تطلبت ذلك الإجراء استمرارية العمل وتقدم النص.

الأمر الذي خبرته من زيارتي الأولى لوطني الأم في أوائل الثمانينات، وحتى هذا اليوم هو حقيقة أنه تم قبولي من قبل شعبي على أساس واحد منهم. أنا شركسي من الشتات، لكن لا شيء يمكنه أن يتجاوز الشرف

والكبرياء الذي أحسست به واستمر في الشعور به، جراء قبولهم لي كواحد منهم. استذكر بكثير من الإعزاز ذلك الوصول الأول لي وحدي إلى نالتشك، بعد النشر بالروسية لثلاثيتي "القفقاس"، حين استقليت سيارة أجرة لتأخذني إلى فندق النارت. لاحظت أن السائق استمر في النظر إليّ من المرآة الخلفية. سألني أخيراً ما إذا كنت المؤلف محي الدين قندور الذي كتب "القفقاس"! فقلت له نعم. وعندما أوصلني إلى باحة الفندق، مددت يدي إلى جيبي وناولته الأجرة المطلوبة، لكنه رفض أن يأخذ نقودي بشكل قطعي.

"ما الذي تعنيه؟ لن آخذ كوبيكاً واحداً. ألست أنا أديغا؟" قال لي وهو يبتسم بفخر. استمر على رفضه برغم جدية محاولتي أن أدفع له أجرته. أخرج نسخة من الثلاثية من سيارته وطلب مني أن أوقعها له كبديل. ذكرني قوله أنه أديغا بما توحيه تلك العبارة البسيطة من حيث الكبرياء والمسؤولية. تكرر هذا الحادث أيضاً وأيضاً عدة مرات في الجمهوريات الشركسية الثلاث عبر السنوات الخمس والعشرين الماضية. كما قال لي عليم كيشوكوف في إحدى المرات، فقد أصبحت ثلاثية "القفقاس" مثل جواز سفر، يفتح لي جميع الأبواب في الوطن الأم. لكن تأليف هذا العمل سبب أيضاً بعض الحوادث غير السارة في حياتي. أتذكر محادثة غريبة حينما دعيت لتناول الغداء مع زعيم شيوعي سابق لجمهورية قباردينو بلقاريا، بعد أن نشرت "القفقاس" باللغة الروسية. ظننت أن للأمر علاقة بتعليق أو نقد للكتاب. في الحقيقة كان الأمر يتعلق بدراستي البحثية المستمرة حول بيطال قاليقوف للمجلد الخامس الذي لم يكن قد كتب بعد: "الثورة" من السلسلة. فقد أخبره ال كيه جي بي أنني أحفر عميقاً في حياة بيطال وأنني أستعلم عن وثائق سرية لتلك الحقبة. أمرني بأسلوب مباشر جداً بأنه يتوجب علي التوقف عن الكتابة عن بيطال والعثور على نظرية شتات أخرى للكتابة عنها. كان يعتقد أن الموضوع يجب أن يبقى غير

مطروق لأنه يؤثر على حياة كثيرين، وأنني لن أتمكن من إيجاد وسيلة لمعرفة الأحداث الحقيقية لتلك الحقبة. لم يستطع أن يفهم كيف أنني برغم ولادتي في الشتات، ما زلت شركسياً وقباردياً وأن كل ما حدث في قباردينو بلقاريا أثّر فيَّ بعمق. فليس خياري أنني ولدت في الشتات!

فوجئت بعض الشيء، وبكل صراحة، أقلقني تدخله، لكنني قلت له بكل الأدب الممكن إذا لم أكتب القصة، فقد يفعلها أجنبي ما في أحد الأيام بكل الأحوال. أفليس من الأفضل أن يكشف مؤلف شركسي الحقائق عما حصل في تلك السنوات؟ صرخ فيَّ بإجابته الرافضة. لا حاجة للقول بأننا افترقنا على خلاف كلي. عندما اكتشف أصدقائي أمر الحادثة، أصيبوا بقلق حقيقي على سلامتي ونصحوني بالمغادرة، لكنني لم أفعل. لقد أرهبني وأحياناً خانني بعض هؤلاء المدعوين "أصدقائي" في القفقاس أثناء أعمالي البحثية، لكن شعبيتي المتنامية لدى الجمهور العام شكلت أفضل حماية لي. توجب عليَّ الاستمرار في العمل.

أذكر كذلك حادثة أخرى مختلفة بعد بضع سنوات، بينما كنا نقود السيارة عائدين من أقليم تيريك وأوقفنا رجل "ميليتزا" قباردي شركسي. كان الوقت ليلاً، شديد البرودة والمطر ينهمر بغزارة، وقد أوقفنا هذا الشرطي المستوحش بدون أي سبب ظاهر عند مدخل مدينة نالتشك. ناقشه سائقنا وساومه، لأنه كان من الواضح أن الشرطي يريد دفعة للسماح لنا بالمرور وكان الجدال حول "كم!".

استغرق الأمر وقتاً أطول مما ينبغي، فنفذ صبري في نهاية المطاف وكنت على وشك الخروج من السيارة حينما سمعت تبادلاً عجيباً بين الاثنين. كان سائقي يقول أن "الميليتزا" يفترض فيه أن يخجل من إيقاف سيارتنا وطلب ذلك القدر من المال. ألا يعرف من هو الموجود في السيارة؟ إنه مؤلف "القفقاس" الأديغه. "ألست أديغا أنت؟" سأل السائق بانزعاج. بدأت أضحك حينما أجابه الشرطي بحماس "كلا. إنني ميليتزا" ذهبت باتجاه الشرطي مبتسماً وناولته النقود التي طلبها.

شرحت لاحقاً للسائق الغاضب أن "الميليتزا" يجب أن يطعم أطفاله هو الآخر.

ساء الوضع في الجمهورية، الفساد المطلق إلى درجة أنه حتى رواتب رجال الشرطة كانت تؤخر لغاية تسعة أشهر حتى يستطيع كبار الضباط والمسؤولين أن يستغلوا الأموال في أنشطة المتاجرة، لتسمين جيوبهم بدون أي التفات إلى الشعب. جزّت أصواف الناس كلهم ونهبوا إلى حد الاقتراب من المجاعة من قبل الرئاسة الفاسدة. حدث في تلك الحقبة الأكثر هولاً، التسعينات التي كان بإمكانك أن ترى فيها، للمرة الأولى على الإطلاق، رجالاً ونساءاً شراكسة طاعنين في السن: يستجدون في شوارع نالتشك. كذلك أكدت الإحصائيات الرسمية في نفس الحقبة، تصاعد نسب الوفيات أكثر من المواليد في الجمهورية. كانت تلك الفترة هي الأحلك سواداً في رأيي، بتاريخ الجمهورية القباردية البلقارية، وقد عشت معظم تلك الفترة بين أبناء شعبي، مشاركاً في معاناتهم وشاعراً بألمهم، لكنني لم أكن قادراً على إحداث أي تغيير لدى القيادة السياسية الفاسدة.

هناك بعض اللحظات الأخرى التي لا يمكن أن تنسى خلال أسفاري، كان بعضها مضحكاً وبعضها الآخر حزيناً ومرعباً. لا أستطيع أن أنسى ذلك الصباح المتجمد في شباط عام ١٩٨٨، حين وقفت إلى جانب تمثال بوشكين في ساحته بموسكو، أملاً في إيقاف سيارة أجرة مارة لتأخذني إلى فندقي. كانت الجلاسنوست والبيريسترويكا في أوجهما، وتسببان الكثير من الارتباك والقلق للروس العقائديين العاديين. لا بد وأن الحرارة كانت بحدود العشرين مئوية تحت الصفر وكنت قريباً من الانجماد. شاهدت سيدة مسنة تدفع بعربة على الرصيف الثلجي المتجمد، وبينما هي تقترب مني، ظهرت فتاة صغيرة من المجهول واشترت شيئاً من عربتها. الأمر الذي سبب ذهولي المطلق. إنها اشترت بسكوتة من البوظة!

كان الجزء الأصعب من سرد هذا المقطع الأخير "أبناء الشتات" هو بناء شخصية الراحل العزيز، والدي. فهو الذي دفعني إلى الكتابة عن شعبنا في البدايات الأولى لرحلتي. قال لي أن كل الأموال التي جمعتها من أعمالي أو كل الروايات التي أكتبها ستكون بلا معنى بالمقارنة مع الكتابة عن شعبنا الأديغه وتوثيق تاريخنا غير المروي. "يجب أن يعرف العالم من أين جئنا وماذا حدث لنا على الطريق".

هناك وقت في كل حياة بشرية يساعد فيه القرار الذي يتخذه الشخص على حفر المسار نحو قدره. في ذلك المفترق، يتم الاختيار، بدون معرفة ما يوجد أمامه، الذي يؤثر على جميع الأحداث التي تليه. وهكذا حدث معي حينما اتخذت ذلك القرار، نتيجة تشجيع والدي، بالتخلي عن جميع الأنشطة الأخرى والتركيز على إجراء الدراسات البحثية للمواد التي سأكتب منها تاريخ شعبي. تقوّى هذا القرار مرة أخرى حينما قابلت شاعرنا ومؤلفنا الشركسي العظيم عليم كيشوكوف في موسكو بعد بضعة أعوام. أخبرني بأنه قدري أن أستمر في كتابة قصتنا غير المروية وتصحيح التشوهات التاريخية التي خلقها المؤلفون الروس والسوفييت.

كان أبي "عملاقاً" بين الرجال، في رأي جميع الرجال الشرفاء الذين عرفوه. كثيراً ما وصف بالأكثر "إنصافاً"، "شجاعة" و "صدقا" خلال حياته كلها. لا أستطيع أن أسمح لنفسي بتكرار هذه المدائح لأنه كان والدي. فقد علمني التواضع وما كان ليوافق على أية مبالغات في شخصيته وأعماله. في الحقيقة كان هناك أفراد شراكسة آخرون منصفون، شجعان وصادقون، خدموا التاج الهاشمي في الأردن، إن قصتهم هي ما يجب روايته من قبل أولئك الذين عرفوهم عن كثب. لقد عرفت والدي ولدي مذكراته المكتوبة التي ترشدني. إنني قانع بوصف صاحب الجلالة الملك الحسين له خلال اتصاله للتعزية من سرير مرضه في مايوكلينيك بأمريكا، بعد رحيل والدي: "لقد كان

عزت رجلاً لا مثيل له، مفعماً بالتعاطف ورغم ذلك قوياً وصامداً بشكل استثنائي. لقد كان جندياً عظيماً وسوف يفتقده البلد".

بات منطقياً أن يكون والدي أحد الشخوص الرئيسة لهذه الحلقة. عندما باشرت في الثلاثية لم تكن لدي فكرة عن أنني سأغطي سيرة ستة أجيال من قصة العائلة. لكن دوره في تشكيل وبناء المملكة الأردنية الهاشمية لا يمكن تجاهله. ليس لحقيقة أنه الضابط الأول غير العربي الذي حقق مثل هذه المناصب الرفيعة في الجيش والتي توجت بتوليه منصب رئيس أركان الجيش: وليس لأنه كان قائداً بارزاً ومحترماً وحائزاً على العديد من الأوسمة الأردنية والدولية وإمارات التكريم، بل لأنه ظل، على الرغم من ذلك كله سيداً شركسياً مهذباً يحافظ على قيم وتقاليد شعبنا في الشتات.

عندما ذكرت آنفاً أن هذا سيكون القسم الأخير من السلسلة عن شعبي، لم يعن ذلك أنني أجبت على كافة الأسئلة التي أثرتها في مقدمتي لثلاثية "القفقاس". في الواقع أنني خرجت بأسئلة أكثر من الأجوبة. قد ينظر المحللون الأدبيون بعمق أكثر في الرمزيات، المجازيات والفلسفة الكامنة في هذه الروايات ويكتشف، كما فعلت، الخطأ الهائل الذي اقترفه قومي في رحيلهم عن وطنهم الأم. إن الأمة المهزومة لا تتخلى عن بيتها ومدفأتها لأجل الحفاظ على كرامتها. صحيح، لقد دفعنا أعداؤنا، كلاً من الروس القيصريين والأتراك العثمانيين في ذلك الاتجاه بما يلائم أهدافهم السياسية لكننا مشينا بسذاجة وبدون تفكير عميق أو مقاومة أخلاقية، ملتزمين بغرائزنا الكامنة في كبرياء "خادعة".

هناك حقيقة أخرى يعيها جميع أبناء جلدتي لكنهم لم يعترفوا بها كتابة أبداً. إن الشراكسة يكرهون الزعامة القوية وعندما يظهر أي واحد منهم علامات على ممارستها، يبدأون في محاولة ردعه. كثيراً ما نشير إلى تلك الخاصية على أنها "غيرة" كامنة. لم يكن لدى الشراكسة تاريخياً أي مفهوم حول الاتحاد أو الزعامة القوية.

فقد ظلوا يتوقعون أن يعيشوا في حرية متهورة، يقاتلون للحفاظ على استقلال قبلي أو عشائري ولذلك فقد أصبحت هذه الحرية نفسها محتومة حينما ووجهت بهجوم قوة أكبر وموحدة مثل ألوية القوزاق التابعة لروسيا القيصرية. لم يمتلك الشراكسة أية فرصة ليصبحوا هيئة سياسية موحدة أو يتبنوا مفهوم "الأمة".

إن الظاهرة تكرر نفسها في السياسة القفقاسية المعاصرة. يضطر كل قائد جديد لأن يحيط نفسه بالأقرباء وأبناء العشيرة الذين يمكنه "الوثوق" بهم للبقاء على قيد الحياة سياسياً، فيصبح اتهامه بمحاباة أقاربه أمراً طبيعياً. لكننا نعرف أنه لا توجد طريقة أخرى لتركه يحكم في سلام.

على أية حال فإن أحد أهم الدروس التي تعلمتها من كتابة هذه الروايات هي اكتشاف النواحي الروحية من "الأديغه خابزه" الخاصة بنا: ليس الوظائفية الطقوسية والاتيكيت لهذا القانون السلوكي الموغل في القدم، بل الأبعاد الغامضة لتعاليمها. لو أنها كتبت في أي زمن، ودرست وصنفت بشكل لائق، فيحتمل أنها تحولت إلى كنز قومي، قوة موحدة أو "ماجنا كارتا" لأمتنا. لربما قدمت مفهوم الوحدة والقيادة القوية: ربما قوّت مفهوم الأمة. لكن تلك حكاية مختلفة كل الاختلاف.

لقد أثارت رحلتي هذه شكاً جدياً ومهماً آخر في ذهني: هل سيحيا شعبي كشراكسة أم أنهم سيذوبون ويتفرقون في الثقافات الأخرى كما حدث مع سلالات المماليك الكبيرة في الماضي. بديهي أن التعاسة وسوء الحظ اللذين ابتلي بهما الشراكسة خلال الروايات الستة لم ينتهيا، خاصة في الوطن الأم. لكنني أشعر بالتفاؤل لأنني شاهدت تغييرات إيجابية تحصل مؤخراً مع الجيل الجديد من القادة في الجمهوريات الشركسية. قد لا يكون الوقت متأخراً جداً على تعلم دروس التاريخ والبدء بالعمل لأجل الانسجام والسيطرة الثقافية والسياسية.

سافرت كثيراً أثناء عملي البحثي في مواد الروايات الستة، خاصة في روسيا، تركيا، الشرق الأوسط، أمريكا ودول البلقان. أستذكر مساعدة وصبر العديد من الناس الذين أجريت معهم مقابلات والآخرين الذين كانوا مستخدمين مباشرة من قبلي لترجمة سجلات الأرشيف والوثائق التاريخية، والبعض الذين قاموا بأبحاث محددة نيابة عني.

إن ذكرهم جميعاً سينتج قائمة طويلة، وقد يورطني في مشكلة إذا نسيت بعضهم. إنني أتوجه إلى كل هؤلاء الذين ساعدوني معبراً عن أصدق امتناني. لقد كانت هذه رحلة طويلة ومسعى جديراً بها. آمل أن لا أكون قد خيبت ظنونهم بالنتائج. أستذكر رحلة المغامرة التي قمت بها مع أيمري زاغادي من صوفيا في محاولة لإعادة تأسيس الدرب الصعبة التي سلكها الشراكسة الشابسوغ من بلغاريا إلى ساحل الأدرياتيك أثناء الحروب البلقانية الأولى عامي ١٨٧٦/١٨٧٧. حدثت هذه الرحلة أثناء المشاكل البلقانية الأحدث بعد انهيار يوغوسلافيا (١٩٩٤)، حيث أصبحنا الهدف للكراهية والعنف المحتمل عدة مرات، خاصة في جبال مونتنيغرو (الجبل الأسود). كثيراً ما خيمنا في البرية وسط هذه الجبال الشاسعة واقتربنا من أن يتم اختطافنا لأجل الفدية. لقد كان الفضل فقط للسان الذرب للبروفسور زاغادي وبقية أوراق الدولار النقدية في جيبي في إنقاذنا في أكثر من مناسبة.

لقد كان هدفي هو السفر عبر كامل الطريق نزولاً إلى ميناء سبيك من أجل الإحساس بالصعوبات، ومعاودة معايشة الأحداث المأساوية لذلك الخروج، قدر استطاعة الفرد. إنني مدين لصديقي إيمري بالعرفان الأبدي والشكر العميق على تفهمه، شجاعته، وفوق كل شيء: صبره.

كذلك أنا مرغم على تقديم التقدير والثناء إلى مارال دزاسيج-كوميكوفا، السيدة القباردية ذات الكبرياء، التي تركت في نفسي انطباعاً دائماً وقدمت لي مساعدة هائلة في الحصول على صورة حية للاحتلال

الألماني في قباردينو بلقاريا. كانت امرأة شابة حديثة الزواج أثناء الفترة التي احتل فيها الألمان قريتها كامينوموست، بينما كان زوجها يخدم على الجبهة الأوروبية. تذكرت جميع الأحداث والانطباعات إلى درجة الكمال. إنني مدين إلى عقلها الموسوعي بالكثير من المواد المتعلقة بقباردينو بلقاريا أثناء الأربعينات.

أخيراً، أريد أن أجيب على سؤال طرح علي مرات عديدة، خاصة، في أوروبا: لماذا كتبت سلسلة الروايات التاريخية حول موضوع غير معروف مثل الشراكسة، حينما كان بإمكاني استخدام الوقت لكتابة مواضيع أكثر تجارية لجمهور على مدى العالم؟ حتى أجيب على السؤال بصدق، أنا مضطر للقول بأنني كتبت حتى يستطيع أبنائي أن يعرفوا تاريخهم الزاخر: من اين أتوا وماذا حدث لأسلافهم خلال رحلتهم الطويلة. آمل أن يرغب جميع الشراكسة، خاصة أطفال شراكسة المستقبل، في قراءة هذه القصص أيضاً، وأن يلقوا نظرة إلى داخل ماضي شعبنا.

وبالطبع، أريد أن أعبر عن امتناني الدافئ وأمنح زوجتي لوبا عناقاً صادقاً وإلى فرقتنا المؤلفة من صبيين رائعين، عليم وكازبك. إن الزواج بدوره رحلة مغامرة مع صعوبات وموانع غير مألوفة أثناء الطريق، خاصة عندما تكون مصحوبة بطفلين نشيطين وروح شاعرية كشريك.

أستطيع القول بصدق إننا تمكنا من التغلب على جميع الصعوبات بدرجة لافتة من السعادة حتى عندما كان مكتبي مغطى بالأطباق الوسخة، وصفحات الموسيقى والفروض المدرسية. لقد منحوني بيتاً وراحة حرمت منها معظم حياتي الراشدة. كثيراً ما أبعدوني بالقوة عن حاسوبي للقيام بنزهة في المتنزه أو لمشاهدة فيلم سينمائي. لقد استمعوا إلى مخاوفي وشاركوا في نجاحاتي وقدموا لحياتي توازناً كنت بأمس الحاجة إليه. أشكر لوبا وولدي على ذلك وسوف أحبهم دائماً.

وندسور، المملكة المتحدة

١٠ حزيران، ٢٠٠٧

الفصل الأول

خلال شهر آذار عام ١٩٣٨، اندفع الجنود الألمان إلى النمسا وباتوا على وشك البدء في الاكتساح الدموي الطويل شرقاً باتجاه بولندا وروسيا الشيوعية وغرباً نحو القنال البريطاني. كانت الفاشية، والتي اكتسبت جاذبية التقليعة تحت قيادة موسوليني في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تجتذب اليابانيين وقد أخذ العالم ينقسم إلى معسكرين متعارضين، لم يتمكنا من تجنب النزاع. أصبح مقدراً للصدام الناتج عن العقائد أن يسمى "الحرب العالمية الثانية"، أو "الحرب الثانية العظمى".

بعد الحرب العالمية الأولى لعام ١٩١٤، كانت بريطانيا قد استعمرت عدداً من الأقطار في الشرق الأوسط، ضمت العراق، إيران، مصر، فلسطين ودول الخليج العربي، بينما استعمرت فرنسا سوريا، لبنان ومعظم بلدان الشمال الأفريقي.

كانت شرق الأردن وقتها محمية لبريطانيا العظمى. خلال شهر آذار نفسه لعام ١٩٣٨، وفي حي المهاجرين من عمان، عبر نهر الأردن من فلسطين، وإلى جانب سيل راس العين الجميل المتعرج، ولد العديد من الأطفال الشراكسة في تلك السنة، بعيداً عن وطن أجدادهم الأم، القفقاس. أصبح هؤلاء أطفال الشتات الجدد. أحد هؤلاء الأطفال كان أنا.

بات قدرنا أن نولد، نعيش وندفن في أراض أجنبية. بعد وقت لاحق طويل، عندما هدم الستار الحديدي وأصبحت العودة إلى قفقاسنا

ممكنة، أصبحنا أجانب مرة أخرى في وطننا الأم. كثيراً ما يكون ذلك هو قدر أبناء الشتات: لديهم قدم واحدة مغروسة في الوطن المتبنى، بينما تمتد الأخرى خارجة لتبحث عن موطئ لها في الأرض التراثية لأجدادهم.

تعود أولى ذكرياتي إلى سن الثالثة أو قريباً منها، وترتبط برائحة الخيول. سمعتهم يقولون لاحقاً إنني زحفت "تحت حوافر الجياد" عندما كنت مجرد طفل يحبو. لحسن حظي أنني لم أداس "لأن الخيل حكيمة" حسب راي جدي! في حياتي اللاحقة بصحبة الجياد، توفر لي الكثير من البراهين لدحض منطقه، لكنني نجوت من مواجهاتي الباكرة معها.

كان والدي عزت، نجل حسن، نجل ناخو، ابن إمام وكازبك وأحمد العائدين إلى إقليم الحابساي في قباردا بالقفقاس، ضابطاً في سلاح الفرسان، واحتفظ جدي بمجموعة أفراس في ساحة بيتنا، مكملا التقليد العائلي في تربيتها. بدأت في سن الخامسة الركوب وكلفني جدي بمسؤولية سقاية الجياد مرتين يومياً. ذلك يعني سوق القطيع إلى رأس النبع في راس العين، الغدير الصغير الذي يتدفق نزولاً في حي المهاجرين من عمان. استمتعت بهذا الواجب وكنت أهفو إليه مرتين في اليوم. ما لم أكن أحبه هو التحديد الذي فرض علي وهو ركوب الفرس العجوز "بركة" دون غيرها. فقد كنت أصبو إلى ركوب أفراس والدي الدركية النشيطة.

بمجرد أن لاحت الفرصة في أحد الأيام، تسلقت إلى ظهر المهرة "سمّورة"، فرس والدي المخصصة للاستعراضات والمواكب، تمسكت بقوة بشعر عُرفها وأخذت أوجهها بركبتيّ داخل الساحة، مثل قطيطة طيّعة. لم أستطع أن أفهم خلفية اللغط كله. فقد تصرفت تماماً مثل الفرس العجوز. الواضح أنني فارس متمرس بما يكفي للسيطرة على مثل ذلك الحيوان. أقسمت على ركوبها للسقاية لاحقاً في النهار بدون

معرفة جدي، حتى أثبت للجميع أنني فارس بمثل مهارة والدي.

عندما حان وقت الركوب للسقاية بعد ظهر ذلك اليوم، تسلقت على ظهر سمورة العاري ودفعت بباقي الجياد خارجة باتجاه النبع، خرجت بنات وأمهات "الحابلة" (الحي) ولوحن لي بأيديهن إعجاباً، فشعرت بفخر وسعادة عظيمين للإعجاب الذي حظيت به. كن يعرفنني على أنني نجل عزت، الفارس الشهير ونقيب الفرسان، وقال الجميع "أن الولد سر أبيه".

كان الركوب إلى النبع قصيراً، مسيرة عشرين دقيقة متمهلة. ركبت على رأس القطيع الصغير وتبعتني بقية الأمهار والأفراس بحكم العادة. مرت العملية بسلام كما كانت على الدوام، شربت بقية الجياد حتى الارتواء والقناعة وكذلك فعلت سمورة العاقلة على ما يبدو. على أية حال، وبعد دقائق خمسة، لا بد أنها انتعشت بالماء أو أن ضفدعاً أو سمكة ما قد أجفلها، اجتاحتها هبة من الحيوية فنهضت على قوائمها الخلفية بدون سابق إنذار، وهي ترفس بقائمتيها الأماميتين إلى الأعلى، ثم استدارت إلى الخلف وانطلقت نازلة في الدرب الترابية السفلى لحي المهاجرين. تعلقت بعرفها بأقصى قوى تمتلكها أصابعي الصغيرة. فقد كان الحدث غير متوقع مطلقاً.

بدأ الناس يصيحون بينما نحن نعدو نزولاً في الدرب الترابي ويبتعدون عن طريقنا. وصلت سمورة إلى المنعطف عند نهاية الدرب السفلي وبدأت تتسلق نحو الشارع الأعلى. كان حي المهاجرين في عمان القديمة مقسماً إلى طريقين: العلوي والسفلي، اللذين كانا يلتقيان عند طرفيهما. كانت منطقة مأهولة بالمهاجرين الشراكسة استثنائياً عند بداية القرن العشرين، ومن هنا جاءت تسمية المهاجرين.

أدرك بعض كبار السن الجالسين على كراسي صغيرة أمام البقالات على جانبي الطريق، خطورة الوضع الذي أنا فيه، فنهضوا، رافعين أذرعتهم، محاولين أن يسدوا طريق سمورة، لكن بلا طائل. استمرت

في العدو صعوداً في الشارع حتى وصلت إلى النبع مرة أخرى، ثم استدارت وتوجهت عائدة بنفس الاتجاه الذي جاءت منه لتوها. بحلول هذا الوقت، فهم حداد شركسي مسن اسمه نقّور، خطة المهرة المجنونة، فقام بدحرجة عربة محملة بالتبن عبر طريقها.

ما يعني أنها ستضطر إلى الإبطاء بما يكفي لأن يسمح للرجال بالإمساك بها أو تحاول أن تقفز فوق العربة ذات الحمولة العالية. من حسن حظي أنها كانت قد تعبت بما يكفي لأن تقرر الإبطاء والتوقف أمام العربة، لاهثة مهتاجة. تدحرجت عن ظهرها بسرعة وسقطت نحو الأرض، بينما قام الرجال بإلقاء رسن حول رقبتها والسيطرة عليها.

وصلت إلى سمعي همسات متكررة ذلك اليوم، مفادها أن نجاتي حياً هي معجزة. بدأت أظن أنني سأكون بحاجة إلى معجزة أخرى لأنجو بحياتي من غضب والدي حين يكتشف ما فعلته. كان والدي جندياً أصيلاً، ومثل جميع الجنود العظام، لم يظهر أي تساهل تجاه أي شخص يعصى الأوامر. ذلك المساء، عندما عاد من واجبه وأخبر بما حدث، أحسست بصلابة حزام الفرسان مرة أخرى، لكنني تمكنت من الانصراف من عقوبتي محتفظاً بكرامتي غير مدنسة، الأمر الذي كان أشبه بالمعجزة. فقد رفضت أن أبكي بصوت عال أثناء المعاقبة، لكنني عوضت عن ذلك في غرفة نانا (جدتي).

كان جدي، دادا المحبوب، مثل جميع الشراكسة المهاجرين الآخرين في الحي، يمتلك عدة قطع من الأرض عند ضواحي مجتمعنا، وقد ورثها عن والده ناخو. كانت هذه الحقول تزرع في أشهر الشتاء بالحنطة والشعير وتحصد عند أواخر الربيع. كان وقت الحصاد دوماً فترة نشاط محموم يشارك فيها كل أفراد العائلة: النساء يجهزن وجبات الغداء للرجال العاملين في الحقول، وكانت مهمتي التي أؤديها بفخر هي توصيل هذه الوجبات إليهم على ظهر الفرس.

عندما يحين وقت البيادر، وقت درس المحصول لفصل الحبوب عن سوق النبات، كنت أقضي ساعات طويلة مع الرجال تحت الشمس الأردنية الساطعة، متظاهراً بالمساعدة. كان الدرس الفعلي يؤدى بالأسلوب القديم باستعمال ثورين يجران لوحاً خشبياً ثقيلاً في حركة دائرية فوق سيقان الحبوب لتكسير القش وفصل الحبوب. كنا نحن الأطفال نجلس على الألواح مسلحين بعصي طويلة لحث الحيوانين على المسير في دائرته التي لا تنتهي. كنا ننتظر هذا الركوب المرح بلهفة، فتتحول بشراتنا إلى السمرة تحت أشعة الشمس اللاهبة، بحيث نبدو أشبه بأخوتنا العرب الذين ظللنا نشعر على الدوام أننا ضيوف في بلدهم. مع قدوم الشتاء، كان البياض يعود إلى بشراتنا بحيث يستطيع أي شخص أن يعرف أننا شراكسة.

كذلك كانت مسؤوليتي أن أعود لجلب الماء أو الطعام من القرية، لكن كانت هناك وظيفة أخرى أتلهف على القيام بها ولا يسمح لي بها أبداً. إذ لا يمكن ترك البيادر بدون حراسة في الليل خوفاً من قيام اللصوص بسرقة الحبوب. كان جدي يتناوب مع اصدقائه ماميلا وطوطا، في القيام بوردية حراسة الليل، لكن لم يكن يسمح للأطفال بالانضمام إليهم. توسلت دادا أن يسمح لي بالمبيت لمرة واحدة فقط، لكنه لم يقبل. فقد كان ينظر إلى الأمر على أنه أخطر بكثير من اعتباره لعبة أطفال. رفضت الاستسلام وحاولت أن أكسب موافقة أعضاء آخرين من العائلة. أثمر إصراري أخيراً مع عم والدي طوطا، الذي كنت أعرف أنه يحبني كثيراً. عندما حان دوره في الخفارة، أقنع جدي أن يصطحبني. كنت في السادسة من العمر.

ركبنا، طوطا وأنا، إلى البيادر عند الغروب وحللنا محل الآخرين. إذ كنا قد أحضرنا وجبة عشائنا معنا، وهي المؤلفة من أرغفة خبز طازجة، بعض الجبنة، قليل من اللبن الزبادي وعلبتي حليب. أشعل طوطا النار، والتي ستبقينا دافئين لأن حرارة شمس النهار قد تلاشت،

رغم أن الطقس لم يبد لي بارداً على الإطلاق. أخرج بندقيته التركية من تحت عدة حصانه ووضعها إلى جانبه على الأرض بينما كنا جالسين سوية، نتناول وجبة عشائنا، ونراقب غروب الشمس يتحول إلى الزهري والقرمزي فوق التلال القريبة.

هبط السواد الحالك للّيل بفجائية مرعبة، وامتلأت السماء بمليون نجمة، لكن الضوء الوحيد كان يأتي من ألسنة اللهب المتراقصة من نار الحطب وكانت الأصوات الوحيدة هي الشخرات العريضة لجيادنا أو حركة الثيران القريبة وهم يبدأون استراحة الليل. دثرني طوطا ببطانية أخرى وطلب مني أن أخلد إلى النوم بينما هو يدندن بأغنية شعبية شركسية.

ولكن لم أستطع أن أنام لفرط شعوري بالإثارة. فاستلقيت هناك، أحدق في النجوم وأعجب لماذا لم يسمح لي الكبار قبلاً بالمشاركة في هذه المتعة معهم. كنت أستطيع أن أشتمّ رائحة سيقان القش المدروسة حديثاً وأحس بالأنسام الباردة فوق وجنتي. هذه مغامرة عظيمة وسوف أتباهى بها أمام ابناء عمومتي في الصباح.

لا بد وأنني غفوت في نهاية المطاف، لأنني عندما أفقت، كان ذلك على الأصوات المجنونة للجياد وهي تحاول أن تحرر نفسها. نهضت جالساً وبحثت عن طوطا لأجده مقرفصاً، يحدق في الدائرة الخارجية لمخيمنا الصغير بينما البندقية مذخرة بين يديه. كان يدير ظهره لي فلم ينتبه إلى أنني قد استيقظت. بذلت جهداً لأرى ما كان ينظر إليه لكنني لم أستطع أن أفهم ما رأيته. فركت عينيّ وأعدت التحديق. التمعت خمسة أو ستة أزواج من الأعين في الظلمة، تراقبنا وهي تتحرك مثل مشاعل صغيرة في الظلام. وقفت الشعيرات الناعمة على ذراعيّ وساقيّ وجف فمي حين أدركت أنها حيوانات متوحشة من نوع ما وعرفت أنها تشكل خطراً وإلا لما كان طوطا قد جهز بندقيته للإطلاق.

أحسّ بحركتي وأدار رأسه.

قال "لا تقلق، إنها مجرد ضباع. لن تهاجمنا طالما أبقينا النار مشتعلة".

ألقيت بنظرة إلى النار فرأيت أن طوطا قد غذاها وكبّرها أثناء نومي، ممّا جعل ألسنة اللهيب تقفز عالياً، دفاعاً عنا.

قال لي "عد إلى النوم"

لم تكن هناك إمكانية لأن أفعل ذلك بوجود هذه الوحوش المفترسة الجائعة تدور حولنا، لذلك جلست إلى جانبه، وبادلت العيون البراقة التحديق وأنا أرتعش بين الفينة والأخرى كلما فكرت بأنها قد تجمع ما يكفي من الشجاعة لتهاجمنا، وأنا أتعجب لماذا لم يطلق طوطا عليها النار بكل الأحوال. بعد وهلة، حمل حجراً وألقاه في وسطهم، جعلهم يتفرقون للحظة، قبل أن يعودوا إلى خفارتهم، وينتظرون جائعين أن تموت ألسنة اللهب أو أن نستغرق في النوم ونتخلى عن رقابتنا.

جلسنا في ذلك الوضع حتى انداحت العتمة وعندما أصبح النور كافياً لأن نرى، لم يعد هناك من أثر للضباع.

سألت "إلى أين ذهبوا؟" فهز رأسه.

"إنها تعيش في كهوف في مكان بعيد من هنا".

سألته "لماذا لم تطلق عليهم النار؟".

"يجب أن لا تقتل أية حيوانات إلا إذا كانت تؤذيك. تجيئ هذه الضباع كل ليلة آملة أن تحصل على بعض الفضلات لتأكلها. فهل ينبغي علينا أن نطلق عليها النار لمجرد أنها جائعة؟" فاجأني جوابه ومرت سنوات عديدة قبل أن أفهم فلسفته. علمت أيضاً فيما بعد أن الضباع الجائعة معروف عنها أنها تحمل الأطفال الصغار وتهرب بهم إذا وجدتهم بدون رعاية في الليل.

كان جدي، حسن ابن ناخو، رجل أعمال من طراز معين. فقد كان يشتري الأغنام والماشية من سوريا ويسوقها إلى عمان في أوائل الربيع من كل سنة. ثم يسوقها، بعد أن يتركها ترعى عشب الربيع اليانع وتتوالد في الأودية وعلى تلال الأردن الغربية، مرة أخرى إلى فلسطين لتباع في سوق الحيوانات الشهير "سوق الحلال" في القدس.

كنت قد بلغت السادسة لتوي عام ١٩٤٤، وقد حان وقت ذهابي إلى المدرسة في أيلول. ألححت على جدي حد الإزعاج حول الذهاب معه في رحلته السنوية، لدرجة أنه قرر في النهاية أن يأخذني معه. لم تكن والدتي سعيدة لهذا الأمر، ولا حتى نانا، لكنك لو سمعت جدي يتحدث لاعتقدت أنني قد وصلت مرحلة المراهقة. بدد قلق النساء ببساطة بأن أخبرهم أنني قد أصبحت شاباً وأنني سرعان ما سأذهب إلى المدرسة. أعتقد أن ما عناه هو أنني قد لا أحصل على هذه الفرصة أبداً بعد أن أبدأ الذهاب إلى المدرسة. استأجر واحدة من سيارات الأجرة الثلاث الوحيدة في عمان، والتي يقودها شركسي اسمه إسحق، وذهبنا إلى دمشق في الصباح الباكر لأحد الأيام. رافقنا محمود، البدوي المخلص لجدي، "المرابعي" الذي يعمل لديه لسنوات عديدة، والذي يصطحبه في رحلات العمل هذه بصفة دائمة. لم يكن "المرابعية" يتقاضون رواتب مقابل عملهم في الحقول، بل يشاركون في ربع المحصول، وهكذا جاءت تسميتهم.

جاء محمود للعمل لدى عائلتنا شاباً واضطر إلى تعلم اللغة الشركسية لحد الإتقان حتى يتمكن من التواصل مع دادا وبقية شراكسة المهاجرين. كان يتقاضى راتباً وكثيراً ما كان يتناول نفس الطعام الذي نأكله.

تجنبت سوريا الاحتلال الألماني وحكومة فيشي نتيجة لوجود قوات اللواء كلارك البريطانية، ويتوقع أن يكون الطريق آمناً نسبياً، وإلا فإنني أعتقد أن دادا ما كان ليأخذني معه. كانت دمشق عالماً آخر غريباً علي. البازار العظيم أو السوق الهائل يعج بالألوان والأبهة. لم يكن هناك

ما يشبهها في بلدتنا الصغيرة عمان. تجولنا فيه واشترى جدي بعض القماش والمواد الأخرى للبيت. أكلت الحلويات السورية التي التهمتها باستمتاع هائل واشترى جدي عباءة جديدة لمحمود.

سرعان ما عثر جدي على سوق الحيوانات والتقى بتجار الماشية، وبعد بضعة أيام من المساومة على الأسعار واتخاذ القرار حول الكمية التي يفترض شراؤها، غادرنا دمشق، ونحن نقود القطيع جنوباً نحو الحدود الأردنية. اشترى جدي أكثر من ثلاثين بقرة وقطيعاً كبيراً من خليط الشياه والماعز إضافة إلى ثلاثة جياد وبغل للتحميل. أعطيت فرساً جميلة كستنائية لأركبها في رحلة العودة.

قضينا الليل في العراء لأربعة أسابيع كاملة، كان طعامنا فيها الخبز والجبن و"اللغور"، اللحوم المدخنة التي جهزتها جدتي لأجل الرحلة. كان محمود يهذب راكباً إلى القرى الواقعة على طريقنا من حين لآخر، ليحضر لنا بعض البندورة أو الخيار وبعض الفاكهة، إلى جانب التموين الضروري من مياه الشرب. وكانت مشكلة جدي الكبرى هي العثور على الماء لشرب القطيع كل يوم. فكان يعرف مواقع الآبار والينابيع من رحلاته السابقة، لكنها كانت في هذه الآونة مستولى عليها من قبل البدو الذين يطلبون الدفع مقابل الخدمة. وكانت هذه الدفعات من الأغنام الحية على الدوام، لأنهم لم يقبلوا بأخذ النقود أو حتى الماعز.

في وقت لاحق من حياتي في أمريكا، قرأت عن سوق القطعان في الغرب الأمريكي والذكر المتكرر "لآلام السرج" التي كان رعاة البقر يشتكون منها. أفهم بالضبط ما كانوا يتحدثون عنه. فقد استغرقني الأمر بضعة أيام حتى شفيت من القروح على مؤخرتي، إذ أنني مشيت مقوس الساقين لبضعة أسابيع بعد عودتنا.

استقبلت لدى عودتي إلى البيت استقبال الأبطال لكوني تحملت المسيرة الصعبة من سوريا. لم أشعر بهذا القدر من الفخر أبداً، كما شعرت حين تحدث دادا عنها إلى أصدقائه في الوطن. أطلق علي طوطا،

وصديق العائلة ماميلا، لقب "شوتسوك" (الفارس الصغير) بعد ذلك، واستمروا في مناداتي بذلك الاسم لبقية حياتهما.

كان حي المهاجرين كالفردوس بالنسبة لنا نحن الأطفال. قضينا أيامنا سابحين في برك رأس العين، نصطاد السمك في الجدول الذي يجري بجوار بيتنا. كانت ضفتا النهير مزدانتين بأشجار الفاكهة وبساتين الخضار المحاطة بأشجارٍ الصفصاف المتهدل والحور. حين نجوع، كنا نغير على البساتين بحثاً عن الفواكه ونأكل حتى الشبع بدون أن نعاقب.

أظن أن معظم الجيران شاهدوا شقاوتنا لكنهم تجاهلوها. لم تكن لدينا أية هموم ولا مشاكل إلا كيف نخترع ألعاباً جديدةً أو نقوم بأفعال جديدة تنم عن الإقدام. لم نكن نعي أن هناك حرباً مستعرة في أوروبا. ولكننا كنا نسمع إشاعات بين الفينة والأخرى مفادها أن القوات البريطانية قد وصلت إلى عمان، فنتجول في الشوارع باحثين عنها. عصر أحد الأيام، حلقت طائرة صغيرة فوق عمان وألقت قنبلةً وحيدة. قالوا أنها كانت طائرة ألمانية، جاءت من سوريا. علمنا لاحقاً أن سوريا أصبحت تحت احتلال فيشي. كان والدي قد نقل إلى فلسطين مع وحدته لحراسة المنشآت البريطانية هناك بينما تتجمع القوات البريطانية في الأردن لقتال احتلال فيشي لسوريا. شارك الفيلق العربي الأردني الصغير في هذه المناورات تحت قيادة الرائد جون غلوب. أذكر بعد بعض الوقت أنني مشيت حوالي عشرة كيلومترات مع ابناء عمومتي إلى مكان اسمه ماركا لمشاهدة الطائرات القليلة التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني في المطار. وكانت تلك أول مرة نشاهد فيها آلة طائرة عن قرب.

خلال هذه الفترة، صدر الأمر لأبي بالعودة إلى عمان لتدريب وحدة الفرسان المشكّلة حديثاً، فاضطررت مرة أخرى لتلقي تعليمه الانضباطي على أساس يومي.

الفصل الثاني

بينما كنت أستمتع بطفولتي الريفية في الأردن، كان أعضاء آخرون في الشتات الشركسي يكافحون للبقاء أحياءاً في كل أوروبا، آسيا والشرق الأوسط. سيلعب ثلاثة رجال بشكل خاص دوراً دراميا في مستقبل شعبنا. كان الوشا شركسياً قباردياً بينما صاحبه عسكربي، شركسي بجدوغ من الكوبان والثالث، ألبرت: بلقارياً من جمهورية قباردينو بلقاريا، لكنه يتحدث الشركسية بطلاقة. كانوا أصدقاء يسافرون في قطار مزدحم عبر بولندا في شتاء العام ١٩٤٦.

رغم ظروف الازدحام في عربات نقل الماشية المظلمة، كان الرجال الثلاثة منفصلين بشكل واضح عن البقية، ولم يشاركوا في أي من الأحاديث العامة، التي كانت تراوح بين المد والجزر بينما كان القطار يطرقع ويهتز في طريقه نحو بولندا من النمسا. قاربوا بين رؤوسهم وتحدثوا همساً، ولم يكن أحد يهتم باستراق السمع. فقد حمل كل شخص أفكاره الخاصة وأحلامه ليركز عليها، آماله وأوهامه الخاصة، الأمور التي ستحملهم وتعينهم على تمضية الأيام التالية من انعدام الراحة وفقدان الإحساس بالاتجاه. بدا الأمر وكأنهم جميعاً معلقين في حالة انتقالية. ليس فقط لأنهم يسافرون في المنطقة الحرام لقطار مغلق، على سكك تمر عبر أمم وأقطار بدون أن تكون جزءاً منها، بل كانوا أيضاً في حالة من التعليق الذهني، غير واثقين بما يؤمنون به وما يأملون فيه، متعلقين بصور المستقبل الذي سيمكنهم العيش فيه، محاولين أن يبعدوا أية صور يمكن أن توحي بأن القطار يأخذهم رأساً إلى حتفهم

في وطنهم. كانوا يستذكرون الوجوه المبتسمة، المرحّبة لعائلاتهم وأصدقائهم، ويحاولون نسيان حقيقة أن البلد الذي يعودون إليه ما زال يديره الجيش الأحمر، جيش يعتبرهم فارين من الخدمة، بلد يعتبرهم خونة، وليسوا أسرى حرب. لم تفعل الجدران الخشبية السميكة لعربات الماشية شيئاً لإبقاء البرد الذي تحمله الرياح خارجاً ويجد طريقه إلى الداخل من خلال أي شق أو عقدة. كان نوعاً جليدياً قاطعاً من البرد، يحس به المرء مثل سكين على أي جزء مكشوف من لحمه، ويتمكن من التغلغل من خلال أي عدد من البطانيات وطبقات الملابس، يجمّد الدم وييبس مفاصل الرجال الذين تكوموا على بعضهم طلباً للدفء. لم يكد يكون هناك أي ضوء، مجرد كسف من ضياء القمر التي تجد طريقها إلى الداخل من خلال الشقوق مع الريح، منعكسة عن البياض الجهري للثلج الذي يغطي الأرض في الخارج.

كان القطار يكافح عبر المسافات الواسعة المكشوفة بدون وجود لأي شيء يكسر حدة هجوم الرياح التي تكتسح الحقول والغابات المكسوة بالثلوج، ترفع الطبقة العليا من الذرور الأبيض عن الجليد تحتها وتحمله في هبات تلسع الجلد.

تعرّق سائقو القطار أمام نارهم، وهم يلقون بالمزيد من الوقود بواسطة رفوشهم لإبقاء الغيمة السميكة ذات الرائحة النفاذة من الدخان تنفخ وتتلوى خارجة من المدخنة. توسّخ البياض الكلي للريف بغبارها الخانق وسناجها. كانوا قد نزعوا ثيابهم الخارجية أثناء عملهم في المقصورة، وجوههم تلتمع من الحراراة المنبعثة من الموقدة الحديدية أمامهم. تحولت هبات الثلج إلى بخار بمجرد سقوطها على المعدن الحار، لتزيد في الحرارة والجو الغريب للمقطورة. لم يعد لدى أي من الرجال أي وقت أو طاقة للتفكير بما يحتمل أنه يحدث في الشاحنات التي يقطرونها عبر أوروبا نحو الحدود الروسية. كانوا يحيون في نمطهم الخاص من الجحيم، جحيم من ألسنة اللهب والعمل

الشاق الذي لا ينتهي. لم يكنِ إلقاء الكثير من الأسئلة حول وجهات ركابهم فكرة طيبة. لأن أحداً ما كان سيخبرهم بالحقيقة لو أنهم سألوا، لذلك، أصبح من الأفضل الاكتفاء بتلقي الأوامر وتنفيذ العمل الذي يدفع لهم من أجله. قد يكون العمل في المقصورة شاقاً، لكنه أفضل من كون المرء واحداً من الركاب.

جرى تحميل القطار في النمسا وبقي السائقون في غرفتهم بالمحطة، يراقبون من خلال زجاج الشبابيك الوسخ بدون تعليق بينما تملأ شاحنات الماشية بحمولتها. كانوا يتعشون على الشاي الساخن الذي حضّره لهم مدير المحطة، وينتظرون أن يقال لهم أن وقت الخروج قد حان. لم تعد هناك مواعيد أو برامج حتى يلتزموا بها. يملأ القطار ثم يقال لهم أن ينطلقوا ويمضوا بأفضل وقت ممكن نحو بريست، داخل حدود الإمبراطورية الروسية، على الجانب القصي من بولندا. هنا، تنقل حمولة السجناء إلى قطار آخر وتؤخذ ماضية إلى داخل روسيا. ذلك هو الحد الذي أخبروا به.

كان السائقون نمسويين. يرشفون شايهم، فيصعد البخار ليدفئ وجوههم التي ظهرت فيها الخطوط قبل أوانها، ويحدقون إلى الخارج من خلال التعرق على الزجاج، في حشود السجناء وهم يساقون كالماشية إلى المنصات من قبل الحراس. ظهرت حافة حادة في مزاج الحشد. لقد شاهد السائقون أسرى حرب من قبل، وهم في العادة تبدو عليهم علائم الهزيمة، كأنما تخلوا عن كل أمل في أن يتمكنوا من استعادة السيطرة على أقدارهم. هؤلاء الرجال بدوا مختلفين. الحرب قد انتهت وهم عائدون إلى وطنهم، لكنهم لم يكونوا يحتفلون. بدوا مهتاجين متوترين. ظهر على بعضهم السرور، وقد اتسعت عيونهم بحدس توقعي، جعل خطواتهم تبدو مسرعة، بينما بدا آخرون خائفين بعض الشيء، تتقافز عيونهم يمنة ويسرة بينما يحاولون أن يفهموا حقيقة ما يحدث لهم.

فهل هم يؤخذون عائدين إلى بيوتهم وإلى الحرية حقيقة؟ أم أن هذا مجرد كذبة أخرى، وعد آخر سيتم الحنث به؟ وإذا كانت كذبة، فما هي الحقيقة عما سيحدث لهم في نهاية الرحلة؟ كان هناك العديد جداً من الإشاعات والقصص التي تنتقل من فم إلى أذن في خضم الثرثرة الكسولة التي كانوا يلجأون إليها لملء أيامهم. من المستحيل سلوك مسار ربما يكون قريباً من أية حقيقة يمكن الاعتماد عليها.

مع أنهم كانوا مصابين بكل شحوب السجناء في الشتاء، إلا أن الرجال لم يبد عليهم أنه أسيئت معاملتهم مؤخراً. فقد كان لدى معظمهم كسوة معقولة من اللحم فوق وجوههم الشاحبة، وكان معظمهم قادرا على المشي بقوة الرجال الذين أطعموا بدرجة كافية لإبقاء أجسادهم بصحة جيدة. لم يكن هؤلاء أسرى حرب لفترة طويلة، أناس سرقت منهم روحهم المعنوية وطاقتهم بطريقة منظمة. هؤلاء رجال ما زال لديهم شيء من القدرة القتالية، وما زالوا يفكرون بأنفسهم كجنود، رغم أن الجيش الألماني، الذي منحوه ولاءهم، قد هزم. كانوا رجالاً قادرين على التسبب بالمتاعب لو أعطوا أصغر فرصة سانحة.

بدت العصبية على الجنود الروس بدورهم، وكأنهم مدركون أن من أوكلوا بحراستهم ليسوا كلهم رجال محطمين يمكن الاعتماد عليهم لعمل كل ما يطلب منهم بدون أي تساؤل. لم يكن هؤلاء ماشية بسيطة يمكن سوقها من بلد لآخر بدون اعتراض. رغم عدم وجود أية إشارات على المشاكل في الحشد، بينما هم يدفعون باتجاه العربات، بدا للسواقين وكأن الحراس جاهزين لأي احتمال. أملوا أن لا يفقد الحراس السيطرة. فالله وحده يعلم ما يمكن أن يحصل للقطار إذا سيطر هؤلاء المساجين على القطار.

كان كل من الوشا، عسكربي وألبرت مدركين بنفس المقدار أن الحراس يتوقعون منهم أن يقوموا بمحاولة للفرار. زاد هذا في شكوكهم حول الإدعاءات بأنهم يعادون إلى روسيا لإطلاق سراحهم واستئناف

حياتهم السابقة. الحرب انتهت، هكذا قيل لهم، وهم ذاهبون إلى الوطن، حيث سيتم الترحيب بهم بأذرع مفتوحة. يكاد إغراء التصديق يكون طاغياً. فبعد كل هذه السنوات من الصراع، والتي تبعتها صعوبات السجن والإدراك بأنهم انضموا إلى حرب أصبحت الآن خاسرة، فإن فكرة القدرة على السير بحرية في أرض وطنهم، ورؤية عائلاتهم وإعادة بناء حياتهم، بدت رائعة إلى الحد الذي جلبت فيه الدموع إلى مآقيهم.

لكن الوشا، عسكربي وألبرت لم يعتقدوا أن هذا صحيح، فهم لم يكونوا مجرد جنود مشاة عاديين: فقد كانوا مناضلين سياسيين لسنوات عديدة قبل وصول الألمان. وهم يعرفون كيف تعمل العقول التي تدير الجيش الأحمر. يعرفون كيف يعمل عقل ستالين. بالنسبة له، فإنهم وجميع الرجال الذين يصعدون إلى القطار، هاربون من الخدمة العسكرية. وهم خونة انضموا إلى الجيش الألماني على أمل إسقاط الروس الذين يظلمونهم. قد يكون ستالين متحمساً للترحيب بعودتهم إلى روسيا، لكن ذلك سيكون لمجرد تمكنه من معاقبتهم، جعلهم أمثولة، وأن يظهر لبقية الإمبراطورية ما يمكن أن يحصل لأي شخص يجرؤ على تحدي حكم الحزب الشيوعي.

سمع الجميع إشاعات عن المذابح التي وقعت في القفقاس بعد أن انسحب الألمان، لكن العديد فضلوا أن يرفضوها على اعتبارها دعايات أطلقها الألمان. إن إمكانية تخيل أن العائلة التي تفكر فيها وأنت على وشك الخلود إلى النوم في أرض نائية، قد قتلت فعلاً وبدم بارد، هي أكثر مما يستطيع معظم الرجال أن يواجهوه. إذا وجد بصيص من احتمال التعلق بالإيمان أن أناس وأمكنة طفولتهم ما زالت كما يذكرونها، فهذا هو ما سيفعلونه. سيصبحون قادرين على تصوير المزارع التي ولدوا فيها، والمدن التي نشأوا فيها وعرفوها، ما زالت حية وعامرة بأصوات أصدقائهم، والديهم، أخوتهم وأخواتهم. وإذا سمحوا لأنفسهم تخيل

تلك المشاهد الرومانسية وقد خلت من الناس، وصمتت الشوارع، واقفرت الحقول، فسوف يجدون صعوبة في الاستمرار بالحياة.

لكن ألوشا، عسكربي وألبرت واجهوا الحقيقة. فقد سمعوا الهمسات ورفضوا تكذيبها كما فعل الآخرون. حاولوا في البداية التحدث إلى الرجال الآخرين، زملائهم المساجين، بأن يفتحوا أعينهم على حقيقة الوضع، لكنهم سرعان ما أدركوا خطأهم. فقد كان يظهر على بعضهم الخوف ويبدأون في الارتعاش، بينما غضب آخرون من الشباب الثلاثة الذين يحاولون أن يخبروهم بأنه ليس لديهم أي مستقبل، وصرخوا فيهم ليسكتوهم.

أدركوا أن هناك آخرين يشعرون بنفس مشاعرهم، لكنهم أدركوا أنهم إذا استمروا في البحث عنهم فإنهم ستتم الوشاية بهم إلى السلطة باعتبارهم مثيري فتنة.

قال ألوشا في الليلة التي سبقت تحميلهم إلى الشاحنات خارج معسكر السجن "سوف يعدموننا إذا اعتقدوا أننا نحاول إيقاف عملية إعادة التوطين". فقد اجتمعوا، بعد إطفاء الأنوار، في المرحاض الواقع عند نهاية مهجعهم. لم يكن هناك أي نور والرائحة خانقة، لكن الخصوصية متوفرة لهم بالتحدث بحرية طالما أبقوا أصواتهم منخفضة. تكلموا بلغتهم الشركسية الأصلية.

"يجب علينا الاحتياط لأنفسنا"

قال ألبرت "يحتمل أنهم سيعدموننا بكل الأحوال، بمجرد عودتنا إلى روسيا. إذا أثرنا المتاعب هنا، فعلى الأقل تصبح لدينا فرصة لتأخير عودتنا".

قال ألوشا "لا أحد يريد أن يسمع ما لدينا لنقوله. لقد أبرم الحلفاء اتفاقهم ولن يقبلوا بأي شيء يزعجه. لا يريد السيدان تشرتشل وروزفلت أن يزعجا صديقهما السيد ستالين بالاقتراح أنه يخطط لقتل

آلاف من أبناء شعبه. لقد عقدوا اجتماعهم الصغير في يالطا واهتدوا إلى حل يناسبهم كلهم. سترحب البلدان الأخرى بأسرى حربها لدى عودتهم إلى الوطن بالاستعراضات والميداليات. سيستقبلنا ستالين بالرصاص. لم يعد الألمان يحفلون بما يحدث لنا. فهم لديهم مشاكلهم الخاصة: ليس لديهم ما يكسبونه من إنقاذنا. ولن يستمع إليهم أحد بكل الأحوال. فهم أمة مهزومة".

أضاف عسكربي "قد لا يعدموننا كلنا، فنحن ما زلنا صغاراً واقوياء. ربما يرسلونا إلى معسكرات العمل في سيبيريا".

سأله ألوشا "وهل تظن أن ذلك سيكون أفضل؟ هل ترغب في قضاء بقية حياتك تحدق في الجليد وتشيخ قبل أوانك؟".

سأل ألبرت "إذاً، ما الذي تقترح أن نفعله؟".

نصحهما ألوشا "أقترح أن نحتفظ بأفكارنا لأنفسنا، ونرتب خططنا الخاصة بنا لأجل الهروب".

سأل عسكربي "كيف يمكننا أن ننظم الخطط ونحن ليست لدينا أية فكرة عما سيحدث لنا؟".

قال ألوشا "سنحتاج إلى خواطر سريعة وكثير من الحظ. ستكون أمامنا رحلة طويلة بالقطار حتماً. منذ اللحظة التي ننطلق فيها من المعسكر، يجب أن نبدأ بالعمل على الفرار. سيكون الأفضل أن نهرب في طريقنا إلى المحطة. ولكن إذا لم يكن هذا ممكناً، سيترتب علينا أن نخرج من القطار خلال الرحلة. بمجرد أن نبتعد عن الحراس، لن يكلفوا أنفسهم بمطاردتنا. هناك كم هائل من الاضطرابات والارتباك، لذلك لن يلاحظ أحد إذا كان هناك ثلاثة سجناء أقل عند نهاية الرحلة من بدايتها".

سأل ألبرت "وماذا إذا لم نتمكن من مغادرة القطار؟".

أجابه ألبرت "يمكننا أن نطبع قبلة الوداع على بقية أعمارنا بمجرد أن نصل إلى داخل حدود الاتحاد السوفييتي. سيقتلوننا على الفور، أو سيتم إرسالنا إلى بلاد حيث الطريقة الوحيدة للهروب منها هي السماح لنفسك بأن تتجمد حتى الموت خلال ساعات".

استمر ثلاثتهم في التحدث خلال الليل، بينما كان السجناء الآخرون يشخرون في مهاجعهم، قانعين بالنوم حتى تخبرهم السلطات بأن الوقت قد حان لذهابهم إلى بيوتهم.

تحول المعسكر صباح اليوم التالي إلى دوامة من النشاط. وصل الحراس الروس الذين يفترض فيهم مرافقتهم في الرحلة داخل قافلة من الشاحنات. وتسلموا المسؤولية من حراس المعسكر البريطانيين. بات واضحاً أن هؤلاء رجال أكثر نشاطاً ويقظة. فقد أصبح حراس المعسكر أكثر تساهلاً باطراد في الأسابيع القليلة السابقة مع استقرار عباءة السلام فوق أوروبا واحتمال أن القتال والقتل قد انتهى حقيقة. فقد بدا أن المسألة قد تحولت إلى شأن إداري أكثر منها مسألة حرب. إذ توجب نقل الناس إلى الأماكن الصحيحة، إجراء التبادلات، إعادة بناء الجسور الدبلوماسية والعلاقات الطيبة بين الأمم التي كانت حتى وقت قريب جداً تحاول أن تمزق إحداها الأخرى إلى أشلاء. انتقلت عدوى هذه الحالة النفسية إلى الحراس، كما فعل كثير من السجناء. بدأ تبادل السجائر بحرية، إلى جانب النكات والتخاطب في أنحاء مختلفة من العالم، بينما بدأ رجال اكتشفوا أصدقاء جدد في العداوة، يبنون خططاً للبقاء على تواصل. عندما رأى الجنود الروس يقفزون من مؤخرات الشاحنات، تمنى الوشا لو أنه تصرف في وقت أبكر. فهؤلاء الرجال نشيطون متوقدو الهمة والواضح أنهم عازمون على التعامل مع واجباتهم بجدية.

همس الوشا لألبرت من زاوية فمه "لو كانوا هنا لمجرد اصطحابنا عائدين إلى الوطن، فأنت تتوقع منهم أن يكونوا أكثر استرخاءً بقليل".

أطلق ألبرت لمحة باتجاهه والتقت عيناهما للحظة. عرف كلاهما أن قلقهما لم يكن ناتجاً من مجرد البرد وساعات السهاد الليلي. حتى هنا، في الصباح الشتائي الساطع، بات واضحاً لكلا الرجلين أن الجيش الأحمر قد جاء إلى هنا لأخذهم عائدين إلى الوطن للعقاب، وليس كجزء من عملية إبلال كما تأملت القوى الحليفة الأخرى بلا شك.

جلس الأصدقاء الثلاثة سوية، صامتين طيلة الطريق نحو المحطة في مؤخرة شاحنة تتقافز، تنزلق وتسقط في الحفر على الطرقات الجليدية. تجمدت الحفر الطينية الصيفية وتصالبت لتصبح مسار صعوبات لم تتمكن الشاحنات ذات النوابض السيئة أن تتجنبه. كانت عيونهم تتحرك في جميع الاتجاهات بينما كانوا يقذفون إلى الأمام والخلف وعلى بعضهم البعض، في الوقت نفسه. لاحظ الوشا أن الحراس الجالسين معهم بدوا على نفس الوتيرة من التوتر. حاول بعض السجناء أن يتحادثوا مع هؤلاء الرجال. ربما يكونوا من جيش كان عدوهم لسنوات أطول من أن يتذكرها معظمهم، لكنهم على الأقل يشتركون في لغة وجغرافية واحدة. يفترض أن يتمكن الطرفان من إيجاد نقطة تواصل، لكن الحراس لم يسمحوا أبداً بسقوط الحاجز بينهم وبين عهدتهم، وكأنما هم غير عازمين على تشكيل أي نوع من العلاقات البشرية الدافئة مع رجال يصطحبونهم إلى المشانق.

حاول الوشا أن يقنع نفسه، بين الفينة والأخرى، أثناء الرحلة، أنه يتخيل الأمر كله، أنه متشائم بدرجة مبالغ فيها وأنه يفترض فيه أن يشارك في المعنويات الطيبة لأولئك المحيطين به الذين يعتقدون أنهم في طريقهم إلى الحرية. لكنه لم يشاهد أي شيء يجعل ذلك الاحتمال وارداً. لم تكن هناك أية إمكانية لأن يستطيعوا التحرر من عربة القطار.

بدأ كل شيء في ذلك اليوم من نيسان عام ١٩٤٥ حينما جاء الضباط

الإيطاليون إلى معسكرهم وطلبوا تسليم كافة أسلحتهم ومغادرتهم الفورية للأراضي الإيطالية. كانت ألمانيا في حكم المهزومة، وقد كانوا يقاتلون في جانب الألمان. فأصبح من الطبيعي أن يستسلموا. كانوا ينتمون إلى ألوية تيريك والكوبان تحت قيادة الجنرال دومانوف، القائد الشركسي الذي ترفع إلى رتبة جنرال ألوية القوزاق. جلب دومانوف جميع الضباط الشراكسة تحت جناحه لحمايتهم، وقد استقروا مع القوزاق التابعين له في معسكر بشمال إيطاليا. لذلك مشوا طيلة الليل عبر جبال الألب ودخلوا النمسا ثم نصبوا خيامهم قرب بلدة كوتزباخ – ماوثون. في الأسبوع التالي، أجبروا على المسير مرة أخرى مع حشود من القوزاق نحو وادي دراف، عبر ممر جايلبرغ، ونصبوا خيامهم مرة أخرى قرب بلدة لينز التيرولية الصغيرة. تذكر الوشا سماع استسلام ألمانيا غير المشروط يوم الثامن من أيار. يفترض أنهم أصبحوا أسرى حرب رسمياً. زار قائداهم، كريم شيبزوكوف وسلطان جيراي الضابط البريطاني المسؤول عن معسكرهم في النمسا، وهو الرائد آربوثنوت، الذي أكد لهم أنهم أسرى حرب وأنه ستكون لهم حقوق معينة بموجب معاهدة جنيف. لكن أسرى الحرب يعاد توطينهم في العادة إلى بلادهم الأصلية. لقد فر هؤلاء الضباط والجنود الشراكسة من بلادهم وانضموا إلى قوات الجيش الألماني. أرادوا أن يتم اعتبارهم كأسرى حرب ألمان لأنه لا يمكن التفكير في البديل. إن إعادة توطينهم كانت ستعني حكماً بالإعدام عليهم جميعاً. فقد سمعت الوحدات القفقاسية الموجودة ضمن قوات القوزاق إشاعات حول احتمال إعادة التوطين إلى روسيا. فقد علم معظم الضباط القوزاق والشراكسة عن الاتفاقيات السرية التي أجريت بين تشرتشل، روزفلت وستالين في يالطا.

لكن الشائعات استمرت. أصرت الأنباء عن الضباط القوزاق الذين جرى تسليمهم بالقوة إلى الوحدات الروسية من قبل البريطانيين عند

الجسر على نهر مور، الحدود بين المنطقتين البريطانية والروسية، على الانتشار. وهكذا، تم تسليمهم عزلاء وتحت تهديد البنادق البريطانية، مثل الماشية، إلى ضباط جهاز NKVD على نفس الجسر فوق نهر مور. حينما وصلت القافلة إلى المحطة، طبق الحراس إجراء تدربوا عليه بشكل مفصل، يدفعون السجناء ويزحمونهم باتجاه المنصة، صارخين بأوامرهم طيلة الوقت. حتى أولئك السجناء الذين كانوا الأكثر تفاؤلاً، بدا عليهم الانزعاج من جلافة معاملتهم.

غمغم ألبرت "آه، خراء" أثناء خروجهم إلى المنصة وشاهد شاحنات الماشية الهائلة الحجم والتي لا نوافذ لها، تلوح فوقهم ملقية ظلالها الباردة على الحشد المتدافع تحتها. تبادل ثلاثتهم النظرات السريعة. أصبح جلياً أنهم سيقضون بضعة أيام غير مريحة إذا كانت هذه العربات ستشكل وسيلة نقلهم، وسوف تتضاءل فرصهم في الهروب بدرجة هائلة بصلابة هذه الوسائط. فقد بنيت هذه لتتحمل حوافر الثيران الغاضبة في طريقها إلى المسلخ. فما هو الأمل القائم للرجال الثلاثة الذين سيعملون بأصابعهم المجردة؟ أصاب الوشا لمحة من السائقين الذين يراقبون من دفء بناء المحطة أثناء قيام الحراس بفتح أبواب العربات وإجبار السجناء على الدخول إليها. وقفت القاطرة صامتة وباردة عند نهاية الرصيف، لم يتوقع أحد أن يغادر هذا القطار في وقت قريب.

أبقى ألوشا رأسه منخفضاً وحاول أن لا يلفت انتباه وأعين الحراس إليه. فمن المهم أن لا يلفت الانتباه إلى شخصه. ظل يسمح لعينيه أن ترفّا بين الفينة والأخرى في محاولة لاقتناص فرصة للتسلل هارباً وسط الفوضى. ولكن لم تكن هناك أية إمكانية: فقد كان الرصيف المكتظ محاطاً بأسيجة عالية ولم يكن هناك أي شخص خلفها. أي شخص يتحرر من الحراس سيصبح هدفاً سهلاً لبنادقهم بمجرد أن يصل إلى الطرف الخارجي. بينما اندفع الحشد إلى الأمام، مدفوعاً

بالصرخات وأعقاب البنادق، أحسّ الوشا بنفسه يفصل عن رفيقيه. صارع ليعود إليهما، دافعاً بمرفقيه الأجسام المتراصة ومتعلقاً بردن المعطف العسكري لعسكربي، مثل طفل خائف من أن يجر بعيداً عن أمه. أصبح أمراً في غاية الضرورة أن يبقوا قريبين ويتم سوقهم إلى داخل العربة نفسها. ستتضاءل إمكانية رؤية أحدهم للآخر مرة أخرى إذا افترقوا. حتى لو تمكن الرجال الثلاثة من الهروب، فسيكون ذلك في أوقات وأماكن مختلفة على الطريق. ستظل فرصهم أفضل إذا بقوا سوية، يستعملون قواهم وذكاءهم المدمج للعثور على مخرج.

عند اقترابهم من أبواب العربات المفتوحة على اتساعها، لاحظ الوشا الفسحة بين طرف الرصيف ودرجة الصعود. شد ذراع عسكربي ليلفت انتباهه. التقت عيناهما ورمش الوشا بعينيه باتجاه الفسحة. إذا استطاعوا أن ينزلوا تحت القطار، فربما يتمكنوا من الزحف إلى الجهة الأخرى، مختفين عن الأنظار. أو ربما يستطيعون أن يختبؤا تحت ثنية الرصيف حتى يغادر القطار.

طأطأ عسكربي برأسه ولكز ألبرت في أضلاعه بمرفقه، مشيراً إلى الفسحة برأسه. طأطأ ألبرت مؤشراً على فهمه للرسالة. مع اقترابهم من الباب، تعثر الوشا بالناس على جانبيه. كانت أجسادهم مضغوطة بقوة إلى درجة أن الحركة تسببت في تأثير الدومينو فتعثر الناس وسقطوا. وقع الأصدقاء الثلاثة معهم. تدحرج الوشا باتجاه الحافة وانزلق إلى الجانب. سقط ألبرت وعسكربي إلى جانبه. اندلعت الفوضى فوقهم عندما تدخل الحراس، يصرخون غاضبين، قلقين من احتمال فقدانهم السيطرة على الوضع.

صاح به سجين زميل "لا بأس عليك، لقد أمسكت بك" وأحس الوشا بيدين قويتين تمسكان بذراعيه بقوة وترفعانه، تعيدانه إلى الرصيف، ليحتك صدره بالحافة الحادة بطريقة مؤلمة. شاهد كذلك صديقيه يرفعان إلى جانبه. رفعتهم أيدي مساعدة أخرى ودفعتهم باتجاه

العربة المنتظرة بعد أن أنهضتهم على أقدامهم. دفعتهم قوة الحشد من خلفهم إلى الطرف القصي، ولم تمنحهم الفرصة لمحاولة الهروب مرة أخرى. "أشكرك" قال الوشا للرجل الذي ساعده، وهو يدفع بغضبه إلى الاختفاء. كان رجلاً ضخماً من القوزاق.

ابتسم القوزاقي بفخر وكبرياء "على الرحب والسعة. لن ترغب في أن تسحق حتى الموت تحت العجلات، خاصة وأنت على وشك الذهاب إلى الوطن، أليس كذلك؟".

طأطأ الوشا باقتضاب، غير قادر على الوثوق بنفسه من أن يقول شيئاً آخر. كان عسكربي وألبرت قد أقعيا على خشبات الأرضية العارية، عيناهما تتقافز حولهما، محاولين أن يتذكرا كل تفاصيل الداخل الفارغ قبل أن توصد الأبواب ويختفي الضوء. جلس الوشا إلى جانبهما، فردوا سيقانهم ومعاطفهم ليحتلوا أكبر مساحة ممكنة، لعدم تشجيع الحراس على الدفع بمزيد من الناس، أكثر مما تتسع له العربة. ستصبح الفرص المتاحة للهروب أسوأ إذا لم يكن هناك مجال سوى للوقوف. فهم بحاجة إلى ما يكفي من المساحة ليتمكنوا من العمل على الأرضيات الخشبية والجدران التي تحيط بهم، ليحاولوا الحفر إلى الخارج. استمر الحراس في إجبار المزيد والمزيد من الأجساد عبر الأبواب، مصممين على إدخال كل سجين موجود. لم يكن بوسعهم ترك أي شخص خلفهم. لأن أوامرهم واضحة. لم يرغبوا حتى في التفكير بعواقب الإخفاق في تنفيذ أوامرهم. مع ازدياد الضغط عليهم، وضع الرجال الثلاثة سيقانهم على الجوانب، يصدون المد البشري بأكتافهم. كان الحشد المتزايد يسد منافذ الضوء من الباب المفتوح ولم يعد أحد يرى ما يفعلونه بوضوح. تصاعد صراخ غاضب في الخارج بينما استمر الجنود في دفع المزيد من الناس إلى الداخل وأخذ آخر الداخلين يتوسلون للمزيد من المجال. أجبر الوشا، عسكربي وألبرت أنفسهم على الاستمرار في الصمم. فهم لا يمكنهم التخلي عن المزيد من المجال.

أغلق الحراس الأبواب عنوة، ليمنعوا السجناء من التدفق عائدين إلى الرصيف. فرغ الرصيف، ولم يعد بإمكان أي شخص يصادف مروره من هناك أن يخمن أنه كان قبل دقائق قليلة يغص بكتلة متدافقة من الرجال. مع دفع الأقفال الثقيلة في أماكنها، تبادل الحراس نظرات الانفراج، وتهدلت أكتافهم بدرجة ملحوظة. أفرغ السائقان فنجانيهما ونهضا، تثاءب كلاهما وتمطيا. فقد حان وقت إحماء المحرك. اتخذا طريقهما إلى الرصيف. كان بالإمكان سماع تحركات الناس داخل الشاحنات المغلقة، لكن أحداً ما كان ليعرف أنها ليست أصوات ماشية تتحرك متضايقة من احتجازها.

لم تسمع أية أصوات. بل ساد صمت صباحي مفاجئ غريب. بدأت الجبال المكسوة بالثلوج تظهر من ضباب الصباح، شاهقة وهادئة. أمكن سماع تغريد الطيور على الأغصان العارية للأشجار المحيطة بالمحطة الريفية الصغيرة بينما تسلق السائقان إلى داخل المقصورة وبدآ يلقمان النار.

فرك كبار الحراس، الذين أحسوا فجأة بلسعة الريح الباردة، أيديهم ببعضها واحتضنوا أنفسهم وهم يتخذون طريقهم نحو عربتهم الخاصة في آخر القطار، تاركين رجالاً واقفين عند كل عربة في حالة حدوث أي طارئ قبل أن يصبح القطار جاهزاً للتحرك خارجاً. داهمهم الدفء مع خطوهم إلى الداخل. كانت مدفأة نفطية مشتعلة والبخار يتصاعد من إبريق فوقها. كان أحدهم يعد حساءاً، فجعل الشذى كل واحد منهم يدرك مدى جوعه. انتشرت مقاعد خشبية على جوانب هذه العربة ووقفت أكوام من البطانيات تنتظر في الركن. ستكون هذه رحلة طويلة، باردة وأرادت السلطات أن تتأكد من أن لا يطوّر الجنود أية أفكار عصيانية. فقد تم اختيار الرجال بعناية على أساس اعتماديتهم، ولكن، في أيام الخديعة واليأس هذه، لا يمكنك أبداً أن تتأكد من الشخص الذي يمكنك أن تمحضه ثقتك الكاملة.

سأل الرجل الذي يحرك الحساء "هل تم تخزين جميع الخونة بسلام؟".

أكَّد أحد الضباط ذوي الرتبة العالية "مثل الغنم في رحلتهم الأخيرة إلى المسلخ".

زاغ واحد أو اثنان من الجنود الأصغر سناً بعيونهم، وكأنما أزعجتهما صورة رجال يشحنون من مكان لآخر مثل الحيوانات.

قال نفس الضابط "لا تضيعوا تعاطفكم على هذه الحثالة"، مخاطباً الغرفة بشكل عام "ربما يبدون مثلي ومثلك، لكنهم مختلفون. إنهم خونة. لقد أرادوا أن يروا بلادنا الماجدة وقد هُزِمت من قبل الألمان. كانوا سيجعلون أبناءكم وأحفادكم يتكلمون الألمانية لو نجحت طريقتهم. لقد قاتلوا وخسروا والآن سيدفعون الثمن".

أجلس نفسه مع نخرة اقتناع وشفط بنهم من قصعة الحساء التي ناوله إياها الطباخ. غمغم واحد أو اثنان من زملائه الضباط موافقتهم وطأطأ غير المرتاحين رؤوسهم بقوة لإظهار أنهم ليسوا المخالفين. ابتسم الضابط برضى.

سأل أحدهم "كم سيمضي من الوقت قبل أن ينطلق هذا القطار اللعين؟".

أجابه آخر "وماذا يهمك؟ طالما أنك لست الواقف هناك خارجاً وتكاد خصيتاك تتجمدان وتسقطان؟".

ضحكوا كلهم واستقروا جالسين، ينتظرون. غرق كل رجل في أفكاره الخاصة.

في اللحظة التي انصفق فيها باب العربة منغلقاً، بدأ الوشا، عسكربي وألبرت العمل في العتمة. أخرج كل منهم أداة من جيب معطفه ليعمل بها. لدى ألبرت ملعقة هرّبها من طبقه أثناء وجبتهم الأخيرة في

المعسكر، لدى عسكربي مقبض مقلاة وجده ملقى خلف بناء المطبخ، وحمل الوشا مفصلاً كان قد خلعه من باب مهجعهم، مستخدماً مقبض مقلاة عسكربي بدل مفك. استغرق العمل عدة ليالي في ظل خطر داهم من اكتشاف أمرهم في كل مرة يغوص فيها الباب كلما فتحه شخص أو أغلقه بعد ذلك.

بدأوا يزيلون طبقات الأوساخ بحركات مجنونة من أصابعهم، منكفئين على الأرضية، غير عابئين بشظايا الخشب التي أخذت تنحشر بطريقة مؤلمة تحت أظافرهم. تلك الأوساخ التي تراكمت عبر السنين، لتصبح مزيجاً غضاً من روث الحيوانات والسخام من المحرك، الذي ديس بحوافر الماشية حتى تيبس، بمساعدة درجات الحرارة المتباينة بشدة والتي خبرتها العربة أثناء تحركها جيئة وذهاباً عبر القارات. كانوا يبحثون أثناء دفعهم طبقات الأوساخ جانباً، عن الشقوق بين الألواح، ما يسمح لهم بالحصول على فائدة معينة بأدواتهم. ساعد العمل على بقائهم دافئين.

تزامنت أنّات الانزعاج مع جهودهم بينما انطلق زملاؤهم السجناء يتمتمون ويتحركون في محاولات غير مجدية لإيجاد وضعيات مريحة لأطرافهم المتعبة، المتألمة. كان الجميع جائعين وزاد الوضع سوءاً في العربة، الروائح المنطلقة من أفواه ومؤخرات الرجال بينما ناضلت أمعاؤهم في التعامل مع كميات الطعام القليلة التي تناولوها في الأشهر القليلة المنصرمة. عانى العديد منهم من آلام صارخة في أسنانهم، تجاهلها طبيب المعسكر، مفترضاً أنهم سيتلقون العلاج في بلادهم بمجرد عودتهم إليها.

مضت ساعة على الأقل قبل أن تند عن العربة دفعة مفاجئة إلى الأمام، لتقذف النزلاء أحدهم ضد الآخر لتصدر عنهم لازمة جماعية من الشتائم وصرخات الألم. استمر الأصدقاء الثلاثة في العمل، رغم إدراكهم أن أصابعهم قد بدأت تدمى، ظلوا غير قادرين على الإحساس

بأي شيء. إلا مجرد معرفتهم باضطرارهم إلى الاستمرار في الكشط. اعتقد ألوشا في نهاية الأمر أنه قد عثر على شق في الخشب. أدخل زاوية المفصل وبدأ يستخدمه كمغرفة، يتحسس بأصابعه المخدّرة محاولاً أن يعرف اتجاه العوارض الخشبية. عثر على خط طري يمكن للمعدن أن يحفر فيه. أخذ يد ألبرت بصمت ومشى بها بمحاذاة الاتجاه الذي اعتقد أن الفتحة تسير فيه. ثم كرر الأمر مع عسكربي. بعدها بدأ ثلاثتهم يحفرون على نفس الخط. ثبت أنها عملية بطيئة إلى حد مؤلم بينما هم ينتزعون كميات مجهرية من الأوساخ مع كل غرفة.

بدأ أحد الأسرى القوقاز يبكي في الطرف القصي من العربة، لكنهم أبقوا رؤوسهم منخفضة واستمروا في الحفر. كانت تلك صرخات شخص قد وصل إلى نهاية احتماله. استطاع ألوشا أن يسمع أصواتاً أخرى تحاول أن تخفف عن الذي يعاني، يقول له أصحابها أنه يجب عليه الجلوس هادئاً، يصمد ويتوكل على الله ليعيده إلى الأمان.

كان أحد الرجال يقول "سرعان ما ستضم حبيبتك بين ذراعيك، وسوف تحتضنك أمك، وكذلك سيفعل أبوك. سيكون كل الناس الذين بقيت تحلم بهم منذ أن غادرنا موجودين هناك لرؤيتك".

قال صوت آخر "لا تبنِ آمال الفتى. إنه يعرف أن كل عائلته قد قتلت. اتركه يبكيهم في هدوء".

أمره الصوت الآخر "لا تتكلم بهذه الطريقة، إذا لم يكن لدينا أمل بأن أحلامنا ستتحقق فلن ننجو من هذه الرحلة أحياء".

قال صوت آخر "ستنجو، لكنك ربما تتمنى لو لم تفعل حين تكتشف ما خططوه لنا".

"لا تصدق تلك الدعاية. نحن ذاهبون إلى بيوتنا. سنذهب لنشاهد أحبتنا!".

انطلق صوت آخر في اغنية قوزاقية مرحة ترافق الشراب وتغنى في العادة أثناء حفلات الأعراس والاحتفالات. انضمت أصوات أخرى

واستغل الأصدقاء الثلاثة غطاء الموسيقى لإخفاء جهودهم المتجددة بينما هم يكافحون لقضم طريقهم خلال الألواح السميكة.

مع تزايد سرعة القطار، بدأت الريح تصفر من خلال شقوق الجدران. مررت الدلاء التي ألقاها الحراس إلى الداخل في الدقيقة الأخيرة نحو أولئك الذين أرادوا أن يقضوا حاجاتهم فازداد ثقل النتانة. بعد ثلاث ساعات من الحركة الأولى للعجلات تحتهم، اخترقت ملعقة ألبرت إلى الخارج، فبعثت بانبثاقة ضوء مفاجئة في حدة الدبوس نحو وجوههم. اقتربوا من بعضهم أكثر، فردوا معاطفهم لإخفاء الثقب عن أولئك القريبين منهم، وبدأوا يعملون بجد متزايد لتوسيعه. مع استطالة الشق أصبحوا قادرين على رؤية الحركة تحتهم وهدير الخط المكسو بالثلج أثناء مرور العجلات عليه.

عندما توقف القطار مصدراً صريره في منتصف ما بعد الظهيرة، فوجئ الجميع، حتى السائقين. كانا قد لمحا الأشكال العاملة على الخط في الوقت المناسب، لكن بالكاد. ارتمى الجميع، السجناء والحراس على حد سواء في كل مكان داخل العربات وكأنهم خرزات داخل طبل. وقع الطباخ في عربة الحراس وسكب الزيت المحترق على الأرضية. بينما تمكن الجنود من استعادة السيطرة على أنفسهم، اشتعل الزيت فاضطروا إلى إلقاء بطانياتهم العزيزة فوق اللهب لمنعه من الانتشار خارج السيطرة. بدأ الضباط يطلقون الأوامر بكل اتجاه وفي نفس الوقت، وقد ارتاعوا من احتمالية أن تبقى عهدتهم في قطار ثابت، فقد أدركوا أن عربتهم نفسها يمكن أن تتحول إلى جحيم مستمر.

فتحوا الأبواب بقوة وارتموا خارجين إلى الثلج، لفوا معاطفهم حول أجسادهم وهم يكافحون لجعل بنادقهم في وضع الجاهزية. وقفت القاطرة، تفح بغضب، على بعد بضع ياردات من عمال سكة الحديد، الذين استمروا في ضرب القضبان بمطارقهم، رؤوسهم محنية إلى أسفل وأشكالهم مخفية بكتل من ملابسهم، متجاهلين صرخات

وشتائم السائقين.

بعد أن تمكن السجناء من استعادة توازنهم، أخذوا يدقون على أبواب العربات بغضب، يصرخون طالبين السماح لهم بالخروج لتفريغ دلاء البراز ومطالبين بالطعام والماء. جمع الضابط المسؤول رجاله وبدا يصدر الأوامر. خاضت مجموعة صغيرة خلال الثلج السميك نحو العمال لمعرفة كم من الوقت يحتمل أن يستغرق التأخير. عادوا ليخبروا أن الوقت سيكون ساعتين على الأقل وأن الرجال ليسوا في مزاج تعاوني.

قال القائد "إذاً، سنطعم السجناء ونسقيهم. كل عربة على حدة. سيحرس كل عربة رجل واحد. البقية تعالوا معي وابدأوا من مقدمة القطار".

كان ألوشا، عسكربي وألبرت في العربة الثانية. عندما سمعوا الأبواب تفتح بقوة في العربة الأولى، والحراس يصرخون على السجناء بأوامرهم، عادوا إلى توزيع أكوام الأوساخ بسرعة عبر الأرضية لإخفاء أعمالهم. ستكون العودة إلى العمل سهلة بمجرد عودة القطار إلى التحرك، فقد تمت زحزحة المكان.

استمر الآخرون في عربتهم بالصراخ والدق على الأبواب، لكن الأصدقاء الثلاثة ظلوا صامتين، يركزون على عملهم، لم يشاؤوا أن يغفلوا عن أية نقاط ضعف في القطار وفي نظام الحراسة، يحتمل أن يكشف عنها هذا التوقف.

بعد مرور ما بدأ وكأنه دهر، انزلقت الأبواب لتفتح بقوة، وانفجر نور الشمس المنعكس على الثلج المبهر في الخارج، إلى العتمة، جالباً معه هبة محببة من الهواء النقي. أخذ الحراس يغطون وجوههم بلفاعاتهم، اتقاء لسعة الريح الباردة من جهة، ولصد نتانة المساجين من جهة أخرى. بدأ الرجال يقفزون إلى الخارج والجنود المتوترون

يصرخون بالأوامر، يسوقون الناس نحو بقعة محددة على مسافة بضع ياردات من الأبواب. كان الأصدقاء الثلاثة آخر الذين خرجوا، يطرفشون بأعينهم، إلى شمس الشتاء الساطعة. استطاع الوشا، وهو يتلفت حوله، أن يشاهد بقعة ديست بالأقدام أمام العربة الأولى، حيث سمح للمساجين أن يفرغوا دلاءهم وقضاء حاجاتهم. أحدث هذا تناقضاً حاداً مع أميال من البياض العذري الناعم المحيط بهم على مدى أميال. تحرك مبتعداً نحو طرف المجموعة بأقصى ما أمكنه لقضاء حاجته، فأحدث بوله بقعة صفراء داكنة. التقت عيناه بعيني عسكربي فحرك نظرته باتجاه مؤخرة العربة، إلى جانب المكان الذي كانوا مقرفصين فيه في العتمة.

تظاهر عسكربي أنه يتفرج حواليه على الريف التشيكي العاري الجميل، ثم نظر في الاتجاه الذي أشار إليه الوشا، كان هناك باب. لا بد وأنه كان على بعد مجرد بوصات منهم. وهو مغلق بقضيب حديد يبدو أنه ثقيل، مربوط من أحد طرفيه بقفل، بينما يرتكز الطرف الآخر على خطاف. إذا تمكنوا من إيجاد طريقة لرفع ذلك القضيب عن الخطاف، فمن الممكن أن يفتحوا الباب ويخرجوا بين العربات، ولا يراهم أحد في العربات الأخرى. وقد يتمكنوا بعد ذلك من القفز مبتعدين عن القطار أثناء تحركه، رغم أنهم سيضطرون إلى الاحتراس من عدم صدمهم من قبل العربة التالية قبل أن يبتعدوا. قد يكون ذلك رهاناً أفضل من الاستمرار في حفر الأرضية.

إذا تمكنوا من رفع ألواح الأرضية، فإن تمرير أنفسهم من خلالها مروراً بالعجلات، سيكون عملاً خطراً حتماً. تخيل الوشا أنهم سيمزقون إرباً إذا أساؤا تقدير سقطتهم بمجرد بوصات قليلة. ارتعش نتيجة لمزيج من البرد والتوجس. فمهما حدث في اليوم أو اليومين التاليين، فمن المحتمل أن واحداً منهم على الأقل سينتهي به المطاف مصاباً بدرجة بليغة، لكن ذلك سيكون أفضل بما لا يقاس من انتهاء أمرهم إلى الموت

جميعاً. استفاق من حلم يقظته بضربة بندقية على ذراعه بينما بدأ الحراس يسوقونهم عائدين إلى العربات. كان الطباخ يقترب حاملاً دلاءاً من الماء وأرغفة من الخبز التفه الذي سيلقى به داخل العربة حتى يتقاتلوا عليه. وصل رجال آخرون إلى الباب أولاً وعندما تسلق ألوشا عائداً إلى الداخل لاحظ أن مكانهم في مؤخرة العربة قد استولى عليه اثنان من القوزاق هائلي الحجم، حدقا بتحدٍ من خلف لحيتهما وشعرهما المتبلد.

وقف ألوشا عند الباب للحظة، منتظراً انضمام عسكربي وألبرت إليه، ثم تحرك الثلاثة سوية نحو المكان الذي كانوا فيه من قبل.

لم يقم الرجلان بأية محاولة للتحرك. أدرك الخمسة كلهم أنهم إذا أصدروا أية ضجة فسوف يجيء الحراس لتأديبهم. توجب عليهم تصفية هذا الخلاف في صمت. لم يتردد الوشا وصديقيه. عرف ثلاثتهم أنه يتوجب عليهم التواجد في نهاية العربة إذا أرادوا أن تتوفر لديهم فرصة للهروب. أقحموا أنفسهم بالدفع إلى حيث يريدون من خلال الحشد وحشروا مرافقهم في معدتي الدخيلين. خففت سماكة معاطفهم من ضرر ضرباتهم ولم يتحرك الرجلان الضخمان سوى بوصة أو اثنتين إلى الخلف.

استمر الأصدقاء الثلاثة في الدفع، واضعين أكتافهم وصدورهم أمامهم، محاولين أن يديروا الرجلين ليبعدوهما عن المؤخرة حيث يعلمون الآن أن هناك باب غير مرئي.

انطلقت صرخة خلفهم لحظة كانت الأرغفة تلقى بين وسط الحشد وكل شخص يقاتل ليسيطر على الطعام. تبادل المعتديان النظرات. ترددا للحظة ثم هجم كلاهما عائدين باتجاه الباب. أشار الوشا إلى وجوب جلوس الاثنين الآخرين على الأرضية، مسندين ظهريهما إلى الجدار المحتوي على الباب، بينما يقاتل هو للحصول على طعام لهم كلهم.

جلس كلاهما، ينظران بقلق إلى العراك الصاخب خلفه.

ركع الوشا على يديه وركبتيه ودفع بطريقه داخلاً إلى وسط الأجساد الملتوية. تمزقت الأرغفة إلى قطع من قبل أوائل الأيدي التي وصلت إليها، وبدأت قطع من القشرة تسقط إلى الأرضية بين الأحذية الدائسة والأيدي الباحثة. خطف الوشا وأمسك ودفع بكل قوته، مدركاً أن صديقيه يعتمدان عليه بالعودة مع الطعام. كلما احتصل على كسرة خبز يدسها في جيبه ويتحرك باحثاً عن المزيد. خلال أقل من دقيقة، لم تعد هناك كسرة متروكة على الأرضية وبدت الأفواه في كل مكان حوله، محشوة حد الامتلاء، وقد ضمت القبضات بقوة حول ما تبقى من الوجبة.

حمل الحراس دلاء الماء وأدخلوها بين السيقان ثم صفقوا الباب مغلقاً. تعثر الناس وسقطوا جراء العتمة المفاجئة، دلقوا الدلاء وأرسلوا المحتويات الثلجية في برودتها تنداح فوق الأرضية. تحسس الوشا في العتمة حتى اتصلت يده بالمعدن البارد لدلو كان قد انزلق لكنه ما زال يحتوي على بقايا. خطفه وضمه إلى صدره ثم أسرع عائداً إلى عسكربي وألبرت. جلس معهما وقسَّم الطعام ثم مرروا الدلو جيئة وذهاباً. ران الصمت على العربة بأسرها بينما كان الجميع يأكل ويشرب أي شيء تمكن من وضع يديه عليه. كان بوسعهم سماع أصوات السجناء في العربة التالية في الخارج وهم يخرجون لدورهم في الهواء الطلق.

عادت المعنويات العالية إلى بعض السجناء مع وجود شيء ما في معدتهم، فأخرج أحدهم هارمونيكا. بدأ شخص آخر بالغناء بصوت خافت مع الموسيقى. لم تعد النفسيات المرحة الدافقة التي انطلقوا بها موجودة، لكن كان هناك نوع من الأمل التوّاق الذي تشوبه الكآبة في كلمات الأغاني أثناء جلوسهم، ينتظرون انطلاق القطار مرة أخرى. جاءت أغلبية شاغلي العربة من القوزاق، لذلك كانت الأغاني قوزاقية دائماً. تواجد بضعة قفقاسيين، أغلبهم من الشراكسة، مثل ألوشا

وأصدقائه، لكنهم كانوا قلة في العدد ولم يشاركوا في الغناء كثيراً.

سأل ألوشا، مقرباً فمه من أذن عسكربي "هل نستمر في العمل على الأرضية؟ أم نركز على الباب؟

قال عسكربي "يمكن أن نستمر في حك الأرضية لمدة سنة ولا نحفر ثقباً أكبر مما يتسع لمرور صرصار. يجب أن نحاول رفع القفل والمرور من خلال الباب".

قال الوشا "أخبر ألبرت بذلك".

مال عسكربي وهمس في أذن ألبرت أثناء نهوض الوشا بطريقة عرضية، وكأنه يمدد أطرافه المتيبسة. استند إلى الخلف على الجدار ولم يفعل أي شيء لبضع دقائق، منتظراً حتى يتأكد من أن أحداً لا يرى ما يفعله. فقد كان هناك أناس في العربة يمكن أن يعترضوا على محاولتهم الهروب، الذين يمكن أن يشتكوا بأنهم يعرضون حياة الجميع للخطر بإغضاب الحراس.

بدا أن إخلاء المجرى وإعادة السجناء إلى عرباتهم يستغرق الأبدية. بعد ساعات عديدة أطلق المحرك نفثة هائلة وتم ربطه إلى العربات ثم انطلق القطار إلى الأمام مصدراً أنيناً هائلاً لدى عودة مفاصله الباردة إلى العمل. تزايد مستوى الضجيج مع ازدياد السرعة، وعاد الرجال الثلاثة إلى العمل باصابعهم المجرحة الدامية، يبحثون عن الشق حيث يدخل الباب في هيكله.

لا بد وأن الشخص الذي بنى العربات قد استأجر حرفيين ماهرين: فالواضح أن العربات مقصود بها الاستمرار حتى نهاية القرن. لأن الخشب القوي للهيكل ملائم بدقة لتركيب الباب السميك. أصبحت معرفة أي من الوصلات هي التي تفصل الاثنين عن بعضهما وإعطائهم أفضل مدخل إلى القضيب المعدني الذي يمسكهما، قريبة من المستحيل.

تشاوروا بهمسات خفيضة واتفقوا على المكان الذي ينبغي عليهم تركيز جهودهم فيه ثم بدأوا العمل بجدية، متناوبين في الحفر بأدواتهم، بينما يقف الاثنان الآخران أمام الشخص الذي يعمل. بعد عدة ساعات من الحفر واللي، انكسرت يد الملعقة إلى قطعتين، وتركت لهم قطعة لا يزيد طولها عن بوصتين ليعملوا بها. تناوبوا بين تلك والمفصل، غير قادرين على جعل مقبض المقلاة يشتغل بدون أن يتقوس. بدأ الثقب يتسع ببطء ولكن بثبات.

لم يعد السائقان راغبين في التوقف مرة أخرى حتى يصبحا بحاجة إلى المزيد من الوقود، بسبب الوقت الذي فقداه في التوقف. ولم تكن لدى الحراس بدورهم أية رغبة في مغادرة عربتهم الدافئة للوقوف في البرد القارس، ليراقبوا رجالاً لا يكنون لهم سوى الاحتقار، وهكذا استمر القطار في السفر عبر الحدود البولندية وشمالاً باتجاه بريست، حيث كان مقدرا لهم إنهاء الرحلة.

بعد معاودة المسير باثنتي عشرة ساعة، توقفوا في محطة لتحميل المزيد من الفحم. أثناء انتظارهم، دخل السائقان إلى مبنى المحطة للأكل والشرب والتحدث إلى زملاء لهم يعملون في السكك الحديدية. شعرا بالانفراج لتوقفهما عن العمل لفترة. فقد كان كلاهما مرهقاً نتيجة عملهما ويرغبان في النوم، لكن الجندي الأرفع رتبة أوضح لهما أن ذلك ليس خياراً متاحاً.

قال لهما بحدة "بعد وصولنا إلى بريست، لن يهمني إذا نمتما لمدة اسبوع. حتى ذلك الوقت، استمرا في العمل".

رغم كونهما رجلين فظين إلا أن السائقين فضلا عدم المجادلة. لأنهما سيكونان تحت رحمة الجيش الأحمر عند بلوغهما بريست. فيصبحان قابلين للاستغناء عنهما. لم يكونا غبيين: أدركا متى تكون الحكمة كامنة في المعاناة بصمت.

لم يفتح الحراس عربات الماشية خلال ذلك التوقف، برغم صرخات الرجاء والطَّرْقِ اليائس الذي أمكنهم سماعه على الجدران. اكتفوا بالتمشي صعوداً ونزولاً على الرصيف وعلى جانب الخط بينما انهمك العمال المحليون في تحميل الفحم بالرفوش ببطء باعث على الحنق، مفكرين فقط في أسرع وقت يعودون فيه إلى الداخل.

استغل الأصدقاء الثلاثة التوقف ليستريحوا. جلسوا على الأرضية، اثنان في كل مرة، بينما وقف الثالث مستنداً إلى الثقب في الجدار، مخافة أن يلاحظ النزلاء الآخرون بصيصاً من النور ويقرروا أن يستكشفوا أمره. حاولوا أن يناموا، رغم أن الضجة من السجناء الآخرين جعلت ذلك صعباً. بدأ الرجال الذين كانوا متفائلين في بداية الرحلة يظهرون عواطف مختلفة في هذا الوقت. أصبح الكثير منهم يغضب من المعاملة السيئة، وقد عزز البرد والظمأ والجوع من إحساسهم بالغضب. لم يهيئهم أي شيء مما حدث لهم في معسكرات السجون في إيطاليا أو النمسا للمعاملة كماشية. صرخوا بشتائمهم على الحراس غير المرئيين، مهددين بالشكوى عليهم جراء سلوكهم اللاإنساني بمجرد وصولهم إلى وجهتهم. بدأ بعضهم يظهر إمارات الفزع عندما خطر لهم أنهم قد لا يرجعوا إلى أحضان عائلاتهم كما أملوا سابقاً. انهار بعضهم إلى يأس ونواح، ما زاد في غضب الآخرين. كانت هناك قلة تحملت العذاب بصمت واجم، مثل الوشا، عسكربي وألبرت. انطلقوا مرة أخرى بعد أربع ساعات، بدون أن يعطى السجناء مجرد نسمة هواء أو حسوة ماء واحدة. عاد الأصدقاء الثلاثة إلى عملهم، رغم إحساسهم بخفة في رؤوسهم مع مزيج من الجوع والتعب، وقد ثقلت أطرافهم نتيجة الإعياء.

كبر الثقب مع استمرار مناطق بولندا المكسوة بالثلوج في الانزلاق خلفهم. مرت بهم قرى جميلة وغابات ساحرة ببطء. لم يهتم أي شخص تصادف وجوده في المنطقة للقطار الذي مر متلوياً عبر البلاد. فقد كان لديهم كفايتهم من المشاكل في العناية بأنفسهم ورعاية عائلاتهم: لم

يكن لديهم الوقت ليحزروا ويفكروا فيما يحتويه قطار ماشية.

أخيراً، نجح ألبرت في دفع مقبض المقلاة عبر الثقب الذي أحدثوه. دخل بسهولة وعندما رفعه إلى الأعلى، بدا وكأنه يصطدم بمعدن.

همس للآخرين: "أعتقد أننا تحت القضيب مباشرة. إذا استمرينا في الحفر إلى الأعلى سنصبح خلفه".

عادوا إلى العمل بقوة ونشاط متجددين، يقصون ويثقبون بينما تسقط جزيئات صغيرة من نشارة الخشب عند أقدامهم. الآن، كلما دفعوا زاوية المفصل إلى الداخل مثل نصل، أصبح يقابل المعدن على الجهة الثانية، عملوا بجنونٍ مع اقتراب بريست، حتى كبر الثقب إلى ما يقارب ست بوصات طولاً وأصبحوا قادرين مرة أخرى على إدخال المقبض نحو العالم الخارجي. قال الوشا "نحن فوق القضيب الآن. يجب أن نحاول رفعه".

حرك مقبض المقلاة رجوعاً نحو قاعدة الثقب ثم دفعه إلى أقصى ما يجرؤ بدون أن يفقد السيطرة عليه. ثم دفعه بحدة إلى الأعلى في محاولة لرفع القضيب المعدني خارج مكان ثباته. لم يتحرك. حاول مرة أخرى.

همس قائلاً "لقد صدئ حتى الصلابة".

قال عسكربي "دعني أحاول" وتسلم السيطرة على مقبض المقلاة.

دفعه إلى فوق بكل القوة التي أمكنه استحضارها. اصطدم المقبض بالقضيب المعدني وانفلت من قبضته المخدرة، ثم سقط خارج الثقب.

قال "لقد فقدته" وقد أفقده الرعب القدرة على الشتيمة.

قال ألبرت: "دعني أحاول بواسطة يدي".

أدخل أصابعه بحركات لولبية داخل الفتحة وتمكن من لمس طرف القضيب الصلب، البارد على أطراف أنامله. بدأ يؤدي حركات ضاربة

إلى الأعلى، مصمماً على إرغام المعدن على التحرك، بغض النظر عن الضرر الذي يحدثه للحمه وعظمه. أصبحت محاولاته جنونية. فالاحتمال أنه لم يعد لديهم سوى ساعات قليلة قبل أن يصل القطار إلى بريست ويتم إنزالهم لتلقّي مصيرهم.

استمر في الحركات لحوالي ساعة. خدّر البرد الألم في يده وأصبحت بعيدة عنه وكأنها أداة. ثم جاء صوت احتكاك وكشط، لم يستطع أن يسمعه غيره لأن أذنه كانت مضغوطة بشدة إلى الجدار.

قال "أعتقد أنه يتحرك". انتظر الاثنان الآخران، لا يكادان يجرؤان على مجرد التنفس بينما استمر ألبرت في العملِ على زحزحة القضيب، حتى سمعوه يقفز خارجاً من مستقره، محدثاً صوت احتكاك وضجة بعيدة. سحب ألبرت يده.

أشار عليه ألوشا "أنظرِ إذا كان الباب سيتحرك". ضغط عليه ألبرت بثقله فانزلق مفتوحاً بشق صغير. حدثت اندفاعة من الهواء الليلي وغمغم بعض الناس حولهم متضايقين من البرد. خيم ظلام دامس في الخارج.

سحبه ألبرت ليغلقه بسرعة. قال "إن القطار يتحرك بسرعة كبيرة. إذا ذهبنا الآن فسوف نقتل جراء السقطة".

قال ألوشا "يجب أن نجازف".

حدث صرير مكابح وانقذفوا إلى الأمام نزولاً في العربة، فوق أجساد زملائهم المسافرين، الذين كان العديد منهم يغط في النوم واستيقظوا بإجفال غاضب. اندلعت عدة شجارات بينما كان الرجال يتصارعون لاستعادة المجالات الشخصية التي حجزوها لأنفسهم على الأرضية.

أمكنهم سماع الحراس يركضون في الجوار خارجاً، يصرخون. بدا وكأن هناك شجرة ساقطة على الخط. بدأ السجناء الموقظون يصيحون ويدقون على الجدران حين أدركوا أن القطار قد توقف. انتهز الوشا

الفرصة ليدفع الباب ويفتحه مرة أخرى. وقف على بعد بضع بوصات منه جندي خافر يحمل مصباحاً، وينظر في الاتجاه الآخر. سحب الباب وأغلقه مرة أخرى بسرعة.

همس "إنهم يحرسون كل عربة. علينا أن ننتظر حتى يعودوا إلى ركوب القطار".

قال ألبرت "ربما يكون الوقت قد فات".

قال الوشا: "إذا حاولنا الآن فمن شبه المؤكد أننا سنقتل بالرصاص".

جادله ألبرت "إذا انتظرنا حتى يتحرك القطار، يحتمل أن نقتل في السقطة".

أصر الوشا "إنها فرصة أفضل. عسكربي، ماذا تعتقد؟".

قال عسكربي "ننتظر حتى يذهب الحراس" مدلياً بصوته.

استغرقت إزالة الشجرة من قبل الحراس أقل من ساعة، وأصدر الأمر إلى السائق بالاستمرار. أمكنهم سماع الجنود يعودون إلى عرباتهم. كانت أصواتهم عالية وصدرت عنهم ضحكات. فقد اقتربوا من نهاية رحلتهم وبدأت معنوياتهم ترتفع. قال ألبرت "لقد ذهبوا، افتح الباب".

"انتظر" أمر ألوشا فوقفوا صامتين وسط الثرثرة الغاضبة للنزلاء الآخرين الذين أدركوا أن الرحلة سوف تستأنف وأنه لن يقدم لهم ماء ولا طعام.

صدرت عن القطار دفعة صغيرة إلى الأمام ثم فتح الوشا الباب عنوة، وتسلق خارجاً فوق المقارن التي تربط العربتين. كان هواء الليل بارداً لدرجة العض لكن طعمه يشبه ماء النبع في عذوبته. صرخت عدة أصوات محتجة على اندفاع الهواء البارد إلى داخل العربة بينما أخذ

القطار يزيد من سرعته. وازن الوشا نفسه للحظة فوق المقارن ثم ألقى بنفسه في أحضان العتمة. هبط وسط الثلج وأحسّ بألم حارق حينما اصطدمت ركبته اليسرى بصخرة. رقد ساكناً أثناء عبور القطار هادراً مبتعداً. ظن أنه سمع صوت جسمين آخرين يصطدمان بالأرض، ثم لا شيء. انتظر ليسمع صوت صرخات أو صرير المكابح لكن المحرك استمر في زيادة سرعته وبدا أن أحداً لم يصدر أي إنذار.

رقد ألوشا بمنتهى السكون في الحفرة التي أحدثها سقوط ثقل جسمه في الثلج، إلى أن اختفت كل أصوات القطار. أطبق الليل عليه، وصمت كل شيء حوله. رفع رأسه وتلفت حواليه. لم يستطع أن يرى أي شيء. رفع نفسه ليقف على قدميه. غمره الألم في ركبته وهوت ساقه، لتسقطه عائداً إلى الثلج، وكأنما أسقطته ضربة فأس.

نادى بحذر "ألبرت؟ عسكربي؟".

لم يكن هناك جواب. أطبق صمت هائل على جميع الاتجاهات.

حاول أن ينادي بصوت أعلى "ألبرت، عسكربي، هل أنتما هناك؟".

قفز ضوء القمر مرتداً عن الثلج وجعله يبدو ساطعاً بعد ساعات الظلام داخل عربة القطار.

رفع الوشا رأسه مرة أخرى. بات يخشى أن يفقده الألم في ركبته الوعي.

سأل الموقع الفارغ حوله مرة أخرى "هل أنتما هناك؟".

سمع ضجة دمدمة ورأى شكلاً أسود لرجل يهم بالنهوض واقفاً على بعد حوالي مائة ياردة. نهض شكل آخر أثناء مراقبته، وكأنما ينهض من القبر، بينهما.

لوّح الوشا "أنا هنا. أظن أنني قد كسرت ساقي".

استدار الشكلان ومشيا بتثاقل بطيء في الثلج الذي يصل إلى الركبة.

قال عندما وصلا إليه "أظن أنني ضربت ركبتي على صخرة أثناء هبوطي، لا اقدر أن أمشي عليها".

قال ألبرت "ضع ثقلك علينا" ثم انحنى ورفع الوشا واقفاً. وضع الوشا ذراعاً حول كتفي كل منهما. هاجمته اندفاعة ألم أخرى وأحس بجسمه يتراخى. تعثروا لكنهم ظلوا واقفين. عاد إليه وعيه.

قال ألبرت "يجب أن نختفي عن الأنظار، توجد غابة هناك". أشار إلى مكان بعيد عن خط السكة الحديد.

انطلق ثلاثتهم، يتعثرون، مرهقين من البقاء ساعات بدون نوم أو طعام أو شراب، وكل خطوة تصبح أصعب بمئات المرات بسبب الثلج. أثناء سيرهم، اختفى القمر وبدأ المزيد من الثلج يسقط من السماء، مغطياً الآثار خلفهم، بصمت.

الفصل الثالث

ظل مصراً على الجيش بعناد. كان صديقاه يونس ورجب قد قررا الانضمام إلى قوة الحملة البريطانية الموجودة قاعدتها في فلسطين. الواضح أنهم كانوا بحاجة إلى مجندين من الخيالة وكان البريطانيون مصرين على تجنيد شباب من منطقة شرق الأردن.

"ولكن يا عزت، يجب أن تكمل تعليمك. يمكنك أن تذهب إلى القاهرة، أو ربما إلى دمشق، أنا متأكد من أنك قادر على إنهاء دراستك الثانوية هناك". نصحه والده بهدوء، لكن عزت هز رأسه رافضاً.

"يا أبت، ما الفائدة في قضاء المزيد من السنوات في المدرسة؟ سأذهب إلى فلسطين مع رجب ويونس. إنهما ينويان الانضمام إلى الجيش. أرجوك أن تسمح لي بالذهاب معهما".

ابتسم حسن فقد كان رجلاً هادئ الطباع ولم يرَ أية فائدة في الضغط الزائد على نجله. فهو شخصياً لم ينل أي تعليم رسمي يمكن التحدث عنه ولم يجد له أية حاجة فعلاً. على الأقل، يستطيع عزت أن يقرأ ويكتب وهو ذكي بما يكفي للتقدم في الجندية. ربما كان هذا هو قدره.

"هو خيارك يا ولدي. أنا فقط أخبرك أننا نمتلك المال اللازم لإرسالك لإكمال تعليمك إذا رغبت فيه". نهض حسن وغادر الغرفة.

يكره عزت أن يختلف مع والده. فهو يعلم تمام العلم لو أن والده أمره لكان أطاعه بدون اي تساؤل أو تردد. لكنه أحسَّ بالارتياح لأنه منح الخيار. بات خياره واضحاً. هو يريد أن يرافق صديقيه. ويريد أن يوضح لهؤلاء البريطانيين مدى براعة الشركسي في الفروسية.

هو النجل البكر والأكبر بين أربعة أطفال: شقيقان أصغر منه وشقيقة. وقد نشأ وهو يشعر بالمسؤولية التي يحملها الابن الأكبر في أية عائلة شركسية.

عائلته متحدرة من النبلاء، "الوَرْق"، في القفقاس وقد هاجروا من تركيا بعد مولده عام ١٩١٥ مع مجموعة من الجياد المطهمة الجميلة وبعضاً من القطع النقدية الذهبية التي جمعها جده. لذلك أصبح مركزهم بارزاً في مجتمع المهاجرين الجديد، في بلدة عمان الناشئة. بنى والده أول بيت من طابقين في المجتمع وهو أول من أدخل الكهرباء. تمَّ تمديد أول خط هاتفي إلى بيته، تبعه بعد ذلك بوقت قصير أول جهاز مذياع "راديو". لكن حي المهاجرين في عمان كانت تقطنه على الأغلب عائلات مزارعين فقراء، بالمقارنة مع المساكن الأكثر ارستقراطية للشراكسة المقيمين في وسط البلدة – عمان. كان أولئك المهجرون الأوائل إلى شرق الأردن، من قبيلة الشابسوغ. كان بإمكان جده ناخو شراء بيت في أي من أحياء عمان لكنه اختار أن يكون قريباً من أقربائه قباردي الحابساي الذين هاجرت العائلة معهم أصلاً خارجين من القفقاس. لذلك لم يكن سراً أن يشعر عزت بأنه مميز بطريقة ما في المجتمع: لم يكن مدللاً بالذات بسبب وضعه المادي، ولكن رغم ذلك، ظل فخوراً بنسبه ومنزلة عائلته. طوَّرت هذه العوامل جرأة وثقة بالنفس في الطفل فظهرت صفاته القيادية تدريجياً قبل أن ينهي عامة السابع في المدرسة.

كان فارساً مثل جميع أسلافه ويعرف ويمارس الكثير حول تربية الخيول وإكثار الماشية منذ طفولته. ربما كان سيكمل دراسته الثانوية لو

توفرت مدارس ثانوية لإكمال دراسته فيها بعمان. لكن لم تكن هناك أية مدرسة. الاستمرار يعني اضطراره للسفر إلى مصر أو سوريا. شجعه والده، إلا أنه اختار أن يفعل ما فعله صديقاه الآخران: الانخراط في الجيش. كان الجيش في تلك الأيام يعني القوات البريطانية المتواجدة في صفد، فلسطين، وسرعان ما غادر مع صديقيه إلى معسكرات الجيش للتدريب.

سافر الفتية الشراكسة الثلاثة، بصحبة خمسة متطوعين عرب آخرين من عمان، إلى صفد بفلسطين في شاحنة عسكرية، يقودها سائق مرح، إنحليزي من يوركشاير. لم يكن يتحدث العربية ولم يكن لدى الفتية أي لسان إنجليزي. لذلك كانت رحلة هادئة خالية من المتاعب طيلة النهار. وصلت الشاحنة إلى صفد في وقت متأخر من المساء، وانضم الفتية إلى متطوعين عرب آخرين في المعسكر. يفترض فيهم بدء التدريب في اليوم التالي وشعروا ببعض العصبية من تناول البطاطا المهروسة وطبق اللحم البقري غريب الشكل الذي قدم لهم في خيمة المقصف.

أبصرهم الصباح الباكر التالي واقفين في حالة انتباه مغ عشرين مجند عربي آخرين يستمعون إلى تعليمات ضابط بريطاني يتكلم بلغة عربية مثقلة باللكنة إلى درجة رهيبة. كان قد أحضر جواداً واحداً من الاسطبلات لشرح عمليتي الإسراج والركوب الأساسيتين. ابتسم الشراكسة الثلاثة لبعضهم بينما استمر المدرس يتحدث بكلمات جدية رتيبة عن استخدامات السرج والعناية المناسبة به. كان يوضح كيفية وضعه بطريقة صحيحة على الحصان وكيف يستخدم الرسن وأدوات الفروسية الأخرى. بعدها قرر المدرب أن يعطي مثالاً بواحد من المجندين. فاختار عزت على أساس فأر اختباره. فتقدم عزت ووقف منتصب القامة، ينصت بانتباه مركز لكلمات المدرب. امتطى المدرب الحصان وبدأ يوضح الخطوات لعزت، وهو يدير الحيوان في دوائر

مشدداً على الدوام بأنه يجب عمل كل شيء بهدوء وبمشية ثابتة، لأن جعل الحيوان يخب أو يعدو أمر ينطوي على خطورة كبيرة.

ظل المدرب يكرر بلا انقطاع أو توقف "يجب أن نمشي، أليس كذلك؟ قبل أن نركض؟"، وكأنه يكلم أطفال مدرسة لم يشاهدوا حصاناً من قبل في حياتهم. أشار أخيراً إلى عزت طالباً منه أن لا يخاف وسلمه السروع.

"والآن أيها الشاب. دعنا نرى إن كنت تعرف كيف تنزع السرج عن الحصان بطريقة صحيحة!".

نظر عزت إلى الخلف باتجاه يونس ورجب وأطلق ابتسامته الماكرة المعروفة. نزع السرج بهدوء ثم قفز إلى ظهر الحيوان وانطلق مثل خفاش هارب من الجحيم، يؤدي حركات ومناورات صعبة على الظهر العاري. تجاوب الحصان، والذي بات واضحاً أنه مدرب بدرجة جيدة، مع الضغوط الخفيفة من ركبتي عزت وأدى بضع خطوات، دورات وإيماءات معقدة، منطلقاً في طراد سريع مفاجئ ثم عائداً إلى مشي هادئ، خبب وهذاب، كل ذلك بتوقيت أجزاء من الثانية. صفر المجندون الصغار وصفقوا، ولكن وجه المدرب امتقع وتحول إلى القرمزي الأزرق وقد فغر فاه على اتساعه، حتى أنقذه الضابط الآمر الذي قدم لنجدته. فقد أخرجته الضجة في الخارج من خيمته ليشاهد ما يجري.

"هؤلاء صبية شراكسة أيها الرقيب. لقد تعلموا الركوب قبل أن يحسنوا المشي. الأفضل لك أن تنقلهم إلى تكتيكات أكثر تقدماً لتشكيلات المعارك".

لم يعد الفتية الشراكسة الثلاثة بحاجة إلى المزيد من دروس الركوب في ذلك اليوم، وأصبحوا مساعدين للمدرب خلال ذلك الأسبوع، يدربون المجندين العرب الآخرين. لكنهم حرصوا على تجنب الرقيب السيء المزاج مهما كلف الأمر.

أمضى عزت ثمانية أشهر في صفد، يعمل كمدرب ولكن يتدرب أيضاً

على استعمال الأسلحة. عند بداية الشهر التاسع، استدعي إلى خيمة القائد وتلقى أمراً بالعودة إلى عمان. فقد وصل الضابط البريطاني جون غلوب الذي كان مركزه مع القوات البريطانية في العراق، إلى الأردن للبدء في تشكيل وحدة دورية حدود من الفرسان، تلبية لأمر الأمير عبد الله. وقد تمت التوصية بعزت على أنه أفضل مدرب خيالة للقيام بالمهمة.

كره عزت أن يفارق صديقيه خلفه، لكن لم يكن لديه خيار سوى العودة إلى عمان. كان الأمير عبد الله، المتحدر من السلالة الهاشمية قد أسس قاعدته بين الشراكسة في عمان وانتقى حراسه الشخصيين من بينهم. جاء هذا مؤشراً طيباً لهم ووعداً بمستقبل مشرق للبلاد. طلب من عزت أن يعود إلى عمان ليدرب وحدة الخيالة الجديدة التي يجري تشكيلها من قبل الضابط البريطاني، الرائد جون غلوب. سيطلق على هذه الوحدة اسم "قوة دوريات الحدود". ثبت أنه الشاب المثالي للمهمة وأبدع فيها بما فاق جميع التوقعات. كانت هذه بدايات بناء الدولة لما سيسمى لاحقاً المملكة الأردنية الهاشمية. اختار عزت أن يبقى في القوات المسلحة وسرعان ما تم ترفيعه إلى رتبة رقيب وحصل لاحقاً على رتبة ضابط في الجيش الأردني المشكل حديثاً: الفيلق العربي.

تطلّب بناء الدولة أشخاصاً متعلمين، فأخذ الأمير الهاشمي يبحث عن أمثال هؤلاء بين أبناء المجتمع الشركسي بلا طائل. سرعان ما أدرك أنه يتعين استيراد المتعلمين الشراكسة من تركيا، فدعيت عدة عائلات شركسية من استنبول للاستقرار في الإمارة الجديدة. وسرعان ما أدرك حسن، والد عزت أهمية التعليم في البلاد الجديدة فسافر إلى استنبول ليغري شقيقه الأصغر شمس الدين (شمس) للارتحال إلى الأردن. كان شمس متعلماً بدرجة عالية، متخرجاً من الأكاديمية العسكرية في استنبول بامتياز، وصل إلى رتبة رفيعة كضابط في الجيش

التركي. كانت لديه فرصة بمستقبل لامع في الدولة الجديدة، ليصبح وزيراً، دبلوماسياً أو جنرالاً مهماً في الجيش الجديد. لكن مع الأسف، فقد عاد حسن بخفي حنين.

لذلك لم يكن مفاجئاً أن يدرك عزت أن أي تقدم مستقبلي سيعتمد على تعليمه الشخصي. فبات يتطوع ويسجل لأي تدريب إضافي أو برامج تعليمية تدار من قبل الضباط البريطانيين الواصلين حديثاً، والذين يفترض فيهم تنظيم هذا الجيش الجديد وقيادته. تقدم، ولكن ليس بالسرعة التي تمناها، لأن السياسة التي اتبعها البريطانيون كانت لسلطة استعمارية، يحافظون فيها على مراكزهم المسيطرة ولا يشجعون تقدم الأردنيين المحليين حيثما كان ذلك ممكناً. أراد الرائد جون غلوب أن يركز على إغراء بدو الصحراء الأردنية لإخلاصهم، لشخصه أولاً وللحكم الهاشمي في نهاية المطاف. كثيراً ما كان يتم تجاهل العناصر الشركسية في الجيش وما كانوا ليتقدموا بدون إصرار الأمير عبد الله شخصياً. على أية حال. فقد جاءت اللحظة المصيرية في سيرة عزت الوظيفية، مع اندلاع الحرب العربية – الإسرائيلية عام ١٩٤٨.

لعب عزت دوراً مهماً في هذه الحرب التاريخية وجرت عليه محاولات اغتيال من قبل القيادة الإسرائيلية لأكثر من مناسبة. بحلول هذا الوقت، أصبح يوجد ضباط شراكسة آخرون في الجيش، ولعبوا جميعهم دوراً بارزا في المعارك القادمة على جانبي خط الجبهة. لكن مأساة الحرب تكررت مرة أخرى مع الشراكسة. فقد كان هناك ضباط إسرائيليون شراكسة من كفار كما قاتلوا قوات عزت في معارك باب الواد وعمليات أخرى أثناء المعارك للاستيلاء على القدس.

الصراع العربي – الإسرائيلي أحد النزاعات الدولية الأكثر حدة وعسراً في الأزمنة الحديثة: حرب هزمت فيها الدولة المولودة حديثاً، إسرائيل، الفلسطينيين والجيوش النظامية العربية للدول المجاورة بشكل حاسم، في لحظة التعريف هذه في تاريخ الشرق الأوسط.

يسمي الإسرائيليون حرب عام ١٩٤٨ "حرب الاستقلال". بينما

يسميها العرب "النكبة". تصور الرواية الإسرائيلية التقليدية حرب عام ١٩٤٨ على أنها صراع غير متكافئ بين داود اليهودي وجولياث العربي، وبشكل معركة يائسة، بطولية ومنتصرة في نهاية الأمر من أجل البقاء ضد ظروف ضاغطة. في هذه الرواية أرسلت جميع الدول العربية جيوشها إلى فلسطين لتخنق الدولة اليهودية في مولدها وغادر الفلسطينيون البلاد تلبية لأوامر من زعمائهم متوقعين عودة ظافرة. هذه ليست كلها اختلاقاً ولكنها قطعاً مبالغة في الحقائق وتشويه للوقائع لكسب التعاطف مع إسرائيل. لم تكن الجيوش العربية تشكل جولياث، وكانت القوات اليهودية أفضل تسليحاً ومدفوعة أكثر من القوات العربية الصغيرة الفوضوية التي يفترض أنها زحفت ضدهم. يقال أن المنتصرين يكتبون التاريخ دائماً وفي هذه الحالة فإن السجل الغربي الرسمي للحرب أقرب إلى رواية المنتصر. حدث التصويت في الأمم المتحدة واندلعت الحرب كما كان متوقعاً. يوم الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨، تحركت الفرقة الأردنية الأولى إلى داخل فلسطين واتخذت مواقع مهمة على الجبهة وحول القدس بدون أن تدخل المدينة المقدسة.

لعب الضباط الشراكسة أدواراً بطولية حاسمة في هذا الصراع على كل من الجبهتين الأردنية والسورية. لكن التاريخ الرسمي لهذه الصراعات يتجاهل هذا الدور. فمثلاً، في سوريا، كانت المعركة الفاصلة في الحرب هي معركة "تل العزيزات". وهي تلة ذات موقع إستراتيجي على مرتفعات الجولان السورية، وقد احتلها اليهود في بداية الحرب. قام الجيش السوري بعدة محاولات لاستعادة هذه التلة لكنها باءت بالفشل كل مرة. طلب القائد السوري المسؤول عن الجبهة، حسني الزعيم من مقاتلين عشائريين آخرين من الدروز أن يساهموا في المعركة فرفضوا. يقال أن سلطان الأطرش، شيخ الدروز قد أجاب بعبارة "هل أنت مجنون، أتريدنا أن ننتحر؟".

أخيراً طلب حسني الزعيم من القائد الشركسي جواد أنزور أن يقوم

بمحاولة. زحف أنزور صاعداً التلة مع مقاتليه الشراكسة واستولى عليها بعد معارك شرسة، وقدم حياته ثمناً لهذا النصر. توفي شهيداً وهو يدافع عن الأرض السورية ومع ذلك فإن المؤرخين السوريين يتجاهلون بطولته وشجاعة مقاتلية الشراكسة. ينسبون الفضل إلى ضابط سوري عربي آخر على أنه كان بطل معارك مرتفعات الجولان. لكن الكثير من السوريين يعرفون بشكل غير رسمي، التاريخ الحقيقي عن كثب ويؤكد الذين شاركوا في المعارك هذه الحقائق حول البطولة الشركسية.

كان جون غلوب، قائد الفيلق الأردني العربي يتميز غيظاً في مكتبه بقيادة الجيش في عمان. تواجد العديد من الضباط الأردنيين والبريطانيين في الاجتماع.

"هذا أمر مرفوض كلياً. نحن لا نستطيع أن نخالف قراراً للأمم المتحدة" . قال وهو يضرب بيده المتورمة اليمنى على الطاولة الخشبية أمامه. كان وجهه الضارب إلى الحمرة يتوهج غضباً من إصرار ضباطه العرب على الدخول إلى القدس.

فقد كان اليهود يمارسون ضغطاً شديداً جداً على المدينة المقدسة. أصر غلوب على القول "لقد قررت الأمم المتحدة أن تصبح المدينة دولية مفتوحة، وليس مسرحاً للحرب" أجابه حابس المجالي، الضابط البدوي الأرفع رتبة "ولكن يا سيدي، اليهود لا يحترمون قرار الأمم المتحدة. إنهم يهجمون على المدينة بينما نحن نتكلم، مع المزيد من الأسلحة والأشخاص" .

"نحن لا نعرف ذلك بالتأكيد. ربما يقومون بإعادة تزويد مواطنيهم في القدس الغربية بالطعام" . أجاب الرائد غوردون، وهو مساعد بريطاني لغلوب.

خفض حابس رأسه بإحباط وكبت. لم يكن سياسياً، بل مجرد جندي، لكنه يتساءل عما إذا كان قائده يتبع أوامر عليا من لندن، أو

أنه فقط يصدق أن اليهود سوف يحترمون قرار الأمم المتحدة بإبقاء القدس مدينة دولية مفتوحة. أشار إلى مواطنيه الأردنيين بما يفيد أن الجدال لن يجدي. فقد أصبحوا بحاجة إلى سلوك سبيل عمل آخر قبل أن تضيع القدس كلياً.

صرف غلوب ضباطه بعد أن أعطاهم أوامر محددة لتوزيع الجنود في فلسطين وكرر تعليماته مرة أخرى بإطاعة أوامره فيما يتعلق بالمدينة المقدسة. يجب أن لا تصبح القدس ميدان معركة في هذه الحرب.

لكن القوات اليهودية لم تكن لديها مثل هذه التحفظات، وسرعان ما احتلوا القدس الغربية وبدأوا يرسلون العون والأسلحة إلى المستوطنات اليهودية داخل المدينة. اشتكى الضباط الأردنيون المرة تلو الأخرى بأنه يجب عليهم دخول القدس لينقذوها من الاحتلال اليهودي التام.

عند عودته إلى قيادة اللواء، دعا حابس المجالي ضباط كتيبته الرابعة وأعطاهم التعليمات بالتحرك إلى جبهة باب الواد التي تسيطر على الطرق المؤدية إلى القدس الغربية. كرر أوامر غلوب بعدم دخول القدس "ولكن أقسم بالله أننا سنمنع اليهود من الوصول إلى المسجد الأقصى".

زمجر غاضباً من فرط إحباطه. انتحى بعزت حسن جانباً بعد الاجتماع وأمره أن يقود الكتيبة الرابعة وأن يحافظ على مواقعه بأي ثمن. قرر حابس أن يتخلف في عمان ويحاول أن يقابل الملك عبد الله ليشرح لجلالته خطورة الوضع فيما يتعلق بالقدس.

"يا عزت، يجب أن تغلق الطريق إلى القدس في وجه اليهود. نحن بحاجة إلى الوقت حتى نقنع جلالته" قال حابس "امنحني ذلك الوقت قبل أن يحتل اليهود كامل المدينة".

"حابس، سيكون لديك الوقت. ولكنني بحاجة إلى الاستعانة ببعض الشراكسة وبعض البدو من وحدات أخرى. إنني بحاجة إلى مقاتلين

أشداء".

"يمكنك أن تأخذ أي شخص تريده. فقط اكتب ما تريده ومرره إلى القيادة. تمسك بباب الواد لأجلي يا عزت!".

"لا تقلق، لن يمر شيء من خلال ذلك الطريق، ليس طالما أنا حي". أجابه عزت مبتسماً.

"ولكن لا تأخذ كل وقتك وأنت ترشف الشاي مع جلالته! سوف نحتاج إلى التعزيزات وكثير من الذخيرة. لأن مدافعي لن تتوقف".

شكلت باب الواحد حلقة الوصل للطرق المؤدية إلى القدس على طريق القدس / تل أبيب. حرك عزت حسن الكتيبة الرابعة إلى الجبهة في مساء ذلك اليوم نفسه واتخذ مواقعه بمحاذاة الصخور العالية التي تشرف على طريق القدس. اضطر إلى طرد بعض المدافعين اليهود الذين كانوا قد خيموا على بعض المرتفعات فوق الطريق في توقع للنزاع. أمضى اليومين الأولين وهو يبني المنحدرات، المواقع الدفاعية ومرابض المدفعية لتأمين موقع كتيبته. لكن تدفق حركة السير على الطريق كان قد بدأ مع وصوله وانشغل جنوده منذ البداية، يمنعون أية حركة على طريق القدس. لم تبدأ المعارك الشرسة إلا بعد انقضاء أسبوع آخر. قابل حابس مليكه بصحبة ضباط آخرين ذوي رتب رفيعة، بعد ثلاثة أيام من المواجهة المحبطة مع غلوب، وشرح جدية الموقف فيما يتعلق بالقدس. كان جلالته مدركاً للحقائق لكنه لم يقدّر الأوامر التي أصدرها غلوب. فقد افترض بأن جيشه سيتحرك إلى داخل المدينة بمجرد انتشاره. كرر غلوب الموقف السياسي نفسه لجلالة الملك والقائل بأنه يعتقد أن القدس يجب أن تظل مدينة مفتوحة وأخّر أية قرارات حاسمة لأسبوع آخر. في النهاية، أمر الملك عبد الله غلوب باشا بأن يسمح لجنوده بالقتال في القدس وقال "وإلا فسوف أذهب وأقود الجنود بنفسي!".

لم يعد لدى القائد البريطاني أي خيار سوى الموافقة، وبدأت القوات

الأردنية تستعد لدخول المدينة: كانت كتيبة عزت قد اتخذت مواقع آمنة في باب الواد لتسيطر على الطريق الرئيس الذي يصل القدس بتل أبيب وبذلك يعزل المدينة المقدسة عن المناطق الباقية التي يسيطر عليها اليهود، ويوقف تدفق الأسلحة والجنود إلى المدينة.

عقد اجتماع في وقت سابق في منزل والدي عزت قبل أن يغادر إلى الجبهة بين كبار الشراكسة في منطقة المهاجرين من عمان. كان هو الضابط الشركسي الأرفع رتبة في الجيش وقد عرفوا أنه لا مناص من ذهابه إلى الحرب. فقد امتلأت الصحف والإذاعات بأنباء الفظاعات التي يرتكبها الصهاينة في فلسطين. وانطلقت المظاهرات في الشوارع كل يوم، تدعو الدول العربية إلى الانتقام. وقعت المذبحة ضد الفلسطينيين في دير ياسين وكان الدم العربي يغلي مطالباً بالانتقام. إذا صوتت الأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية فإن الحرب محتومة. بات كثيرون على قناعة من أن مثل هذا التصويت سيحدث وتعهدت معظم الدول العربية بخوض الحرب إذا حدث التصويت.

انصب قلق الكبار على القريتين الشركسيتين في فلسطين: الريحانية، وكفاركما. كانت هاتان القريتان مسكونتان بقبيلة الشابسوغ بشكل رئيس، وهم أحفاد المهجرين الأصليين من القفقاس عبر بلاد البلقان. وسيصبحون جزءاً من الدولة اليهودية إذا حصل التصويت. فهل سيقاتلون نيابة عن اليهود. وهل سيجد الشراكسة أنفسهم يقاتلون بعضهم بعضاً في هذا الصراع كما حدث قبل وقت غير بعيد في تركيا العثمانية على الجبهة الروسية؟ لدى العديد من العائلات في هاتين القريتين أقارب من العائلات الشركسية في الأردن.

نصح الملك عبد الله، ملك الأردن، الفلسطينيين سابقاً بحكمته المعهودة، أن يأخذوا ويقبلوا بما هو معروض: أن يقبلوا تقسيم فلسطين وإقامة دولة فلسطينية معترف بها على جزء كبير من الأرض المقدسة.

لأن خطة التقسيم التالية منحت الفلسطينيين أكثر من نصف الأرض، وبدا ذلك كريماً بما يكفي في نظر الملك الحكيم. أدرك أنه إذا اندلعت الحرب، فإن العالم الغربي سيهب لنجدة اليهود، خاصة بسبب التعاطف الذي حصلوا عليه بعد مذابح هتلر الوحشية في ألمانيا. لم تكن الجيوش العربية جاهزة لمثل هكذا قتال. لكن الفلسطينيين لم يستمعوا إليه واتهموه بالتآمر لكونه اقترح مسار عمل كهذا. رغم ذلك، فمن بين جميع القادة العرب في الإقليم، كان الملك عبد الله أول من أرسل جيشه الصغير لنجدتهم.

قام الإسرائيليون ببث دعاية مفادها أن عبد الله قد تفاوض مع القادة اليهود لتقسيم فلسطين بين الأردن ودولة إسرائيل الجديدة، معتمدين بهذا على انعدام رضى الفلسطينيين على موقف الملك. وهم يبنون هذه الافتراضات على اجتماعات حدثت بين جولدا مائير والملك عبد الله قبل اندلاع الأعمال الحربية. أكثر من ذلك، لم تنشر أية تقارير أو وثائق عن هذه المحادثات أبداً لتأكيد مثل هذه الإدعاءات، وكل ما هو متوفر بشكل مطبوع لا يتعدى الإدعاءات المجردة حتى الآن.

ما سماه اليهود "حصار القدس" وسماه العرب "تحرير القدس". كان أهم معركة في الحرب. ركز الفلسطينيون جهودهم على قطع الطرق نحو البلدات والأحياء اليهودية في المناطق ذات السكان المختلطين، خاصة في القدس. حيث يعيش سدس يهود البلاد. هاجموا كذلك عدة قوافل يهودية على طريق القدس – تل أبيب. قصفت المنشآت اليهودية الرئيسة، بما فيها رئاسة الوكالة اليهودية ومركز بريد فلسطين. قتل حوالي مائة شخص في عملية قصف شارع بن يهودا. بحلول نهاية آذار، قدرت السلطات البلدية اليهودية أن حوالي ١٤٠٠ يهودي قد قتلوا في المدينة وعلى الطرق المؤدية إليها، وهو رقم لم تناقضه المصادر العربية.

سلحت عصابات الهاجانا نفسها بأسلحة مشتراة من تشيكوسلوفاكيا

وبدأت، بتنسيق مع ألوية "بيشوف"، تعمل على خطة سميت خطة داليت، ترمي إلى نجدة مدينة القدس واحتلالها قبل تصويت الأمم المتحدة على حل الدولتين. أرادوا أن يخلقوا وضعاً واقعياً بوجود القدس تحت السيطرة اليهودية.

أثبتت القوات اليهودية أنها أقوى عسكرياً مما توقعه العرب. وبحلول أيار، كانت هذه القوات تهاجم البلدات والقرى العربية، وتسيطر على الطرق المؤدية إلى السكان اليهود المعزولين، خاصة في القدس وما حولها.

كانت الطريق إلى القدس مقطوعة بالمقاتلين الفلسطينيين المتواجدين في القرى المحيطة بالطرق. هوجمت القوافل المتعددة من الشاحنات التي تجلب تموين الطعام والأسلحة إلى المدينة المحاصرة ومنعت من الوصول إلى القدس الشرقية. استمر الهاغانا، في عملية ناتشسون في هجماتهم على القرى العربية، يقتلون المدنيين ويشيعون الذعر في مسعى لإفراغ القرى المحيطة بالقدس من أجل فتح الطريق نحو المدينة. دمر معظم القرى المحاذية لطريق القدس وقتل سكانها أو طردوا. استنكر بن غوريون مذبحة دير ياسين التي وقعت في التاسع من نيسان وقتل فيها مائة وسبعة من العرب، لكن المذبحة الهبت مشاعر العرب المتعطشة أصلاً، للانتقام. على أية حال، فقد سببت جريمة دير ياسين الذعر بين القرويين العرب، ودفعت العديد منهم إلى الهروب باتجاه الأردن، رغم أن هذا الوضع كان سيفيد القوات اليهودية، الذين واجهوا مقاومة أقل من القرى المفرغة من سكانها، إلا أنه من الناحية الأخرى أشعل الرأي العام العربي في مختلف البلدان، وأعطاها سبباً آخر لإرسال جنود نظاميين إلى الصراع. وبعد أربعة أيام، أي يوم الثالث عشر من نيسان، شن الفلسطينيون هجوماً على قافلة طبية متوجهة إلى مستشفى هداسا. تدعي المصادر اليهودية أنه قتل في هذا الهجوم سبعة وسبعين طبيباً وممرضة ومدنيين يهوداً آخرين، انتقاماً لدير ياسين.

أصبح باب الواد هدفاً عسكرياً حيوياً لليهود. فهو الطريق المباشرة الوحيدة إلى القدس من تل أبيب والمناطق الساحلية اليهودية الأخرى. لذلك فقد ركزوا أكثر جهودهم جدية للتغلب على المدافعين العرب في باب الواد، تمهيداً للانطلاق نحو القدس.

لكن أفشلت عدة هجمات من قبل كتيبة عزت حسن الرابعة. جرح العديد من الضباط والجنود الأردنيين خلال الهجمات المتكررة على المواقع الأردنية. كان قائد اللواء آنذاك، حابس المجالي موجوداً في القيادة العامة بعمان للتشاور حول إستراتيجية الدخول إلى القدس، تاركاً مسؤولية قيادة القوات للرائد الشركسي عزت حسن. صمدت صلابة العناصر الشركسية في اللواء وصدت هجمات القوات اليهودية المتكررة. بعد أن أرغمت القوات اليهودية على التراجع على إثر عدة محاولات بنتائج كارثية، أدركوا في نهاية المطاف أن باب الواد طريق يستحيل أن يؤدي إلى القدس.

عرفت القوات اليهودية اسم الضابط الشركسي الذي حافظ على وحدة القوات العربية وتماسكها، فصممت على القضاء عليه في غارة ليلية جريئة. ربما افترضوا أنه بدون وجود هذا القائد الشركسي على دفة القيادة، فإن القوات العربية سوف ينفرط عقدها وتترك طريق القدس مفتوحة للقوات اليهودية.

كان الوقت عنصراً حاسماً بالنسبة لطرفي النزاع. لأن عمليات باب الواد ستقرر نتيجة مصير القدس. أصبح الأردنيون بحاجة إلى كسب الوقت لتجميع اللواء الأول وتحريكه إلى داخل المدينة. أراد اليهود أن يحتلوا المدينة كلها وأن يجعلوا احتلالهم عنصر أمر واقع بالنسبة لوقف إطلاق النار الذي ستفرضه الأمم المتحدة.

لا يحدث كثيراً أن أقابل إسرائيلياً يمكن أن يساعدني في أبحاثي حول أنشطة والدي الحربية، لكن ذلك حدث مرة واحدة في ظرف بمنتهى الغرابة.

عام ١٩٩٦، وبعد توقيع اتفاقية السلام الأردنية - الإسرائيلية، سنحت فرصة طيبة لبدء التطبيع بين البلدين، حدث تدفق من النشاط الإسرائيلي لإقامة مشاريع مشتركة مع رجال الأعمال الأردنيين. شجعت الحكومة هذا التوجه، خاصة من قبل ولي عهد الأردن في ذلك الوقت. كان زياد صلاح، أحد جيراني، رجل أعمال ريادياً سيتولى قيادة هذا المسار، فبدأ يؤسس الاتصالات والعلاقات مع رجال الأعمال الإسرائيليين بهدف تأسيس بعض المشاريع المشتركة. هو فلسطيني من نابلس أصلاً، ويشعر أنه يفهم نظراءه الإسرائيليين وأنه قادر على التعامل معهم.

خابرني زياد في أحد الأيام ليقترح أنه يفترض في أن أقابل بعضاً من أصدقائه الإسرائيليين، فدعوتهم إلى بيتي لتناول المشروبات. فقد انتابني فضول حول الفرص القائمة للأردنيين والإسرائيليين لتشكيل شراكات في الأعمال. فالأمر يحمل بشائر طيبة لقيام سلام صحيح بين الأمتين. قابلت ثلاثة رجال إسرائيليين وقضينا أمسية بهيجة ونحن نتحدث عن المشاريع ونتعرف على بعضنا بعضاً. قبل انتهاء الأمسية، دعاني الضيوف للسفر إلى تل أبيب لتفحص المشاريع المقترحة على الطبيعة وبحث إمكانياتها وربحيتها. اعتقد أن زياد كان يقف خلف الدعوة، آملاً أن تسهل انطباعاتي الإيجابية عليه السعي إلى مشاركة ممولين أردنيين بارزين آخرين. كنت في ذلك الوقت مستشاراً في التمويل والتسويق أعمل على نطاق دولي انطلاقاً من مكتب في لندن. قبلت الدعوة، بسبب فضولي في رؤية إسرائيل، بقدر اهتمامي في المشاريع.

جاءت الرحلة إلى تل أبيب متعة حقيقية، لم يدخر مضيفيّ الإسرائيليون جهداً في الاحتفال وإطلاعي على تفاصيل الأعمال المقترحة. إلا أن الاستنتاجات التي توصلت إليها على أية حال، لم تكن ما أمل فيه جاري زياد لأنني نصحته لدى عودتي بعدم المشاركة في المشروع. فقد كانت العملية بكاملها مصممة بطريقة تعود بالنفع على

رجال الأعمال الإسرائيليين بدرجات أكثر بكثير من الشركاء الأردنيين. فقد كانت عملية التسويق لكامل الإنتاج ستظل في أيديهم من خلال شركة مختلفة يسيطرون عليها في نيويورك. أعتقد أنها بديهية ابتدائية تلك التي تقول أن من يسيطر على التسويق يسيطر على الأرباح. ما يحصل عليه الإسرائيليون من العملية هو أجور العمل الأردنية الرخيصة.

لم يقتنع زياد باستنتاجاتي ومضى قدماً في المشاريع، التي أفلست بعد سنوات قليلة وأدت إلى خسارته مع مموليه ملايين الدنانير الأردنية. لكنني قابلت في تلك الرحلة إلى تل أبيب مقاتلاً إسرائيلياً مثيراً للاهتمام، كان يعرف موضوع والدي.

في الأمسية الثانية لزيارتي، دعاني مضيفي الإسرائيلي لتناول وجبة العشاء في مطعم يقدم السمك، على شاطئ البحر. بعد العشاء، اقترب رجل مسن منا أثناء رشفنا القهوة، لتحية مضيفنا. قدموه إليّ على أنه ياكوف هاروتي، وانضم إلى طاولتنا لتناول فنجان القهوة معنا. ثار فضول لدى السيد هاروتي، الذي قدرت عمره بحوالي الثمانين، حول وجودي، وزاد فضوله حول اسمي. سألني عما إذا كنت شركسياً، ثم ما إذا كان عزت حسن قريبي، فأكدت له أنه في الحقيقة، والدي. توقف هاروتي طويلاً وهو ينظر إلى مبتسماً ثم طلب إحضار زجاجة كونياك فرنسي ثمينة حتى "يعيد إشعال الذكريات" حسب كلماته.

قال هاروتي أنه يعرف عن سجل والدي الحربي خلال الصراع العربي – الإسرائيلي الأول في فلسطين. وقال أن والدي كان شوكة في ظهورهم وأن عصابتي الهاجانا والليهي حاولتا أن تغتالاه في أكثر من مناسبة، لإخراجه من طريقهما. لم يشكل هذا الكلام صدمة بالنسبة لي، لأنني كنت قد عرفت بعض التفاصيل من مذكرات والدي، لكنه كان مفاجأة لمضيفي الذي لم تكن لديه أية فكرة عن خلفيتي العائلية. شعر مضيفي بالقلق من احتمال انزعاجي من اعترافات هاروتي، لكنني طمأنته إلى أنني في غاية الاهتمام لسماع كل ما لديه. فقد تذكرت

اسمه بعد تفكير قصير من مكان ما في دراساتي البحثية لوثائق وزارة الخارجية في لندن.

فقلت له: "لقد قرأت في بعض سجلات الأرشيف عن شخص اسمه هاروتي، ذهب إلى لندن في عمل سري". محاولاً أن ألتزم الأدب.

قال مبتسماً "لا أعرف شيئاً عن السرّية. لقد ذهبت إلى لندن لكي أغتال بيفن. ثم أعلن بخجل "في حدود معرفتي لم يكن سوى هاروتي واحد يعمل مع العملاء الإسرائيليين".

فسألته "إذاً كنت مع ليهي شتيرن، أليس كذلك؟".

فأكد لي "كنا معروفين أكثر باسم عصابة شتيرن. نعم كنت معه. وكان هذا عام ١٩٤٦ على وجه الدقة. أرسلت إلى إنجلترا لغاية محددة هي قتل شخصيات بريطانية مهمة بمن فيهم وزير الخارجية بيفن".

ثم استطرد هاروتي ليخبرنا أنه كان أيضاً عضواً في مؤامرة حيكت في باريس لتفجير أبنية البرلمان البريطاني. فقد باشروا بحملة خطيرة من الاغتيالات ضد الشخصيات البريطانية البارزة من أجل دفع بريطانيا إلى مغادرة فلسطين ونقلوا الأنشطة الإرهابية إلى أوروبا. نسفوا في البداية السفارة البريطانية في روما ثم ساعدهم حاخام يهودي أمريكي (الحاخام كروف) في شراء طائرة صغيرة في فرنسا للطيران بها عبر القنال وقصف مبنى البرلمان في لندن. وقد أبطلت الشرطة الفرنسية هذه المؤامرة. سحرتني حكاياته، وتوفرت لي الفرصة في تاريخ لاحق لأتحقق من صحة جميع قصصه، من خلال وثائق وزارة الخارجية وأرشيف هيئة الإذاعة البريطانية في لندن.

لكن أكثر ما شكل أهمية بالنسبة لي هو المؤامرة التي نفذتها عصابة شتيرن في محاولة التخلص من والدي. اعترف هاروتي أنه كان أحد القادة في كلتا العمليتين. أكدت مذكرات والدي قصته. حدث ذلك في وقت متأخر من ليلة ٢٧ أيار عام ١٩٤٨، حيث تسلم عزت حسن أوامره

بالاحتفاظ بموقعه الحصين في باب الواد بأي ثمن، على الرغم من كثرة أعداد الجرحى بين جنوده. فقد أعطيت الأوامر سابقاً للواء الأول من الفيلق العربي للتقدم نحو القدس وأصبحت بحاجة إلى الوقت لتتخذ مواقعها استعداداً للهجوم. كان العديد من المشاة ما زالوا في الزرقاء، إلى الشرق من عمان وأكثر بعداً عن الجبهة. وهكذا فهم بحاجة إلى عدة أيام لإعادة التجمع، فأصبح الدفاع عن باب الواد إلزامياً لمنع القوات اليهودية من محاصرة المدينة. سأل حابس المجالي عبر جهاز اللاسلكي بصوته المتقطع "كيف هي وضعية صمودكم؟" فقد عرفوا منذ فترة أن القوات اليهودية قادرة على التنصت على كل ما يقولونه عبر أنظمة الاتصال البدائية التي يستعملونها، ولكن لم تكن لديهم بدائل، إلّا أن كانت بعض الأوامر الضرورية والتحركات السرية كانت ترسل إلى الكتيبة كتابة باستخدام مراسلين على الدراجات النارية. أكّد عزت حسن "لدي بعض الجرحى ولكننا بخير". لقائده في عمان. لم يستطع أن يكشف له أن الذخيرة تكاد تنفذ وأنهم بحاجة إلى التعزيزات بدرجة يائسة. فاستمر بالقول "هل تلقيت رسالتي الأخيرة"....

"نعم، نعم، والأمر كله تحت السيطرة يا عزت. سوف نصلي سوية قريباً" أكد حابس بغموض، مشيراً إلى نشر اللواء الأول والقرار المتخذ بدخول القدس. فقد أشارت "الصلاة" إلى المسجد الأقصى في القدس.

"إذاً، لا داعي للقلق على أي شيء يا أخي، لدينا كل ما نحتاجه، طالما أننا سنلتقي قريباً". أجابه عزت بنفس درجة الإبهام. في الحقيقة كان بحاجة إلى الكثير، لكن بما أن قائده تلقى تقاريره المكتوبة، فقد علم أن التعزيزات بكثير من الذخيرة يحتمل أن تصل لتدعيم مخزونه.

كان عمر تحابزو، صديق عزت القديم، الشركسي القادم من سوريا، والذي انضم إلى الكتيبة قبل مجرد ثلاثة أشهر، من بين الجرحى ذوي الإصابات البليغة، وقد أمر عزت بإحضاره إلى خيمته حتى يقوم طبيب الكتيبة برعايته بدرجة خاصة. أعطاه عزت سريره العسكري ليرقد

عليه ويستريح، وانتقل هو مع ضباطه الصغار ليستريح للساعات القليلة المتبقية على بدء القصف مع انبلاج الفجر.

كان لدى وحدة ليهي من القوات اليهودية، (عصابة شتيرن) مخبر فلسطيني موقعه في باب الواد، أعطى الموقع المحدد لخيمة القائد عزت، وهو أمر لم يعرفه عزت ولا أحد من جهازه المباشر. لا بد وأن هذا الشخص كان واحداً من المقاتلين الفلسطينيين غير النظاميين الذين انضموا إلى المواقع الدفاعية في باب الواد. لم يكن عزت سعيداً جداً بهذه المجموعة لكنه لم يستطع أن يصد المقاتلين الذين يتطوعون للدفاع عن أرضهم. أبقيت هذه المجموعة، التي يقودها رجل ذو مظهر شرس من القدس اسمه محسن، في خيام منفصلة عن الكتيبة، واستخدمهم عزت على الأغلب في عمليات الاستطلاع في الوادي. صرفت لهم مناظير ميدانية قوية من صنع ألماني لإبقاء الرقابة على تحركات قوات العدو، وكان العديد من الأفراد الجرحى من بينهم. لم يكن لدى أي أحد سبب للتشكيك في ولائهم. قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تم إرشاد خمسة أعضاء من فرقة خاصة من الليهي بقيادة صهيوني خطير اسمه "ياكوف"، سراً عبر الدفاعات الخارجية للقوة الأردنية، وزرعوا قنابل بدائية ومتفجرات حول خيمة عزت، ثم اختفوا في الوادي. خلال دقائق من مغادرتهم، انفجرت وغرقت خيمة القيادة في اللهيب، ما أدى إلى مقتل الضابط الشركسي عمر تحابزو واحتراقه حد التفحم. فقد ضمت خيمة القيادة بعض الذخيرة الحية التي انفجرت بدورها وساعدت على خلق المزيد من الفوضى، الأمر الذي أشاع انطباعاً بوجود هجوم ليلي مباشر على القاعدة.

دبّت الفوضى في المعسكر، في محاولة لتحديد وجهة الهجوم. لكن عزت ركض نحو خيمته وأدرك بسرعة أن الهجوم قد كان موجهاً ضده. هو الهدف الحقيقي. هلك صديقه الشركسي بسبب التعاطف الذي رغب في إظهاره لزميل وضابط رفيق. ألقى عزت باللوم على نفسه لعدة

أشهر بعد ذلك ولم يعد هناك حد لتعطشه إلى الانتقام. أول ما فعله في الصباح هو دعوة الفلسطينيين إلى الاجتماع في الصباح، وتم التحقق بسرعة من غياب أحدهم. توصل محسن، قائد المجموعة إلى معرفة اسم الخائن ووعد عزت أنه سوف يلاحقه ويقتله جزاءاً على خيانته.

لكن عزت لم يكن ليقتنع بالوعود. دفع بوحداته إلى القيام بغارات جريئة ضد معسكرات العدو عبر الوادي، وتسبب في الكثير من الدماء والإحباط لقوات العدو في باب الواد، وقتل العديد منهم حتى اضطروا في نهاية المطاف إلى التفكير بطريق آخر للوصول إلى القدس لفك حصار المدينة. في النهاية، أنقذت أعمال عزت الطريق الإستراتيجي ومنحت للجيش الأردني الوقت الكافي للتحشد ودخول المدينة القديمة (القدس الشرقية) وإنقاذها للعرب. لكن الإسرائيليين لم يتخلوا عن فكرة التخلص من عزت حسن. فقد حاولوا مرة أخرى، بعد سنتين، أن يكمنوا له في منطقة الخليل.

بعد أن تخلت القوات اليهودية عن طريق باب الواد نحو القدس، طورت خطة جريئة للوصول إلى المدينة. لجأوا إلى إعادة تخطيط "طريق" بورما، بقيادة عقيد الجيش الأمريكي دافيد ماركوس (والتي سميت كذلك نسبة إلى الطريق التي شيدها الحلفاء من بورما إلى الصين أثناء الحرب العالمية الثانية). كان هذا ممراً مؤقتاً، متعرجا صعباً عبر الجبال نحو القدس. سمحت طريق بورما للقوات اليهودية بنجدة العناصر اليهودية في القدس الغربية يوم ٩ حزيران، أي مجرد أيام قبل أن تبرم الأمم المتحدة اتفاقاً لوقف إطلاق النار. روى الجنود الذين خدموا في هذه المعارك كثيراً من القصص عن بطولة عزت والضباط الشراكسة الآخرين، لم يذكر أي منها أبداً في التواريخ الرسمية للحرب. لكن ذلك هو قدر أبناء الشتات. أصبح ضباط عرب أقل شأناً، الأبطال الرسميون لمعارك باب الواد، أحياناً حينما لم يكونوا حتى قريبين من الجبهة بأي شكل. فقد كانت البلاد بحاجة إلى أبطال في زمن الحرب ولم يكن الأبطال الشراكسة يفون بالغرض!

يوم ١١ حزيران عام ١٩٤٨، جرى توقيع الهدنة الأولى وتوقفت الحرب لوهلة، الأمر الذي مكنني من السفر إلى رام الله، على الضفة الغربية لنهر الأردن، على مسافة حوالي خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال الغربي من القدس، للانخراط في مدرستي الداخلية.

كانت هناك بعض القصص المحزنة والبعض الآخر مضحك، تخرج من الحرب في فلسطين. اعتقد أن واحدة من أكثرها إضحاكاً هي تلك التي سمعتها بعد سنوات عديدة عام ١٩٦٩. كنت موجوداً في دبي لرحلة عمل لحساب هانز آمون، صاحب شركة نفط آمون، دوسلدورف (ألمانيا)، للتفاوض على عقد بترول. سمعت لدى عودتي إلى فندقي في أحد الأيام، شخصاً يناديني باسمي بلفظ شركسي نموذجي (موحادين)، في بهو الفندق. توقفت واستدرت باحثاً لكنني لم أشاهد اية وجوه شركسية حولي. لذلك استأنفت اقترابي من النضد لأخذ مفتاح غرفتي. فجأة لمس أحدهم كتفي، متحدثاً بلغة شركسية سليمة: "ألم تعد تعرف اسمك؟".

استدرت، فتعرفت على اللواء علي أبو نوار، رفيق أبي في السلاح من الجيش العربي. كانت والدة اللواء أبو نوار شركسية وكان يتحدث اللغة الشركسية بطلاقة رغم أنه أسمر البشرة مثل معظم العرب الأردنيين. سلمت عليه بحرارة، واصرَّ على أن نذهب لتناول الغداء سوية في مطعم الفندق. أدركت أن جلالة الملك قد أصدر عفوه عن أبي نوار على محاولته الانقلابية في الخمسينات.

استعاد أثناء وجبة الغداء ذكرياته عن والدي، ثم تحدث عن محاولة الانقلاب الفاشلة التي قادها ضد الحسين، ملك الأردن، بتحريض من الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والتي كان هو البطل الرئيس فيها، وعن فراره بالتالي إلى سوريا ثم مصر. ألمح إلى أن فشل الانقلاب كان على الأغلب سببه وجود ضباط شراكسة مثل والدي.

لكنه ظل يحتفظ لوالدي بأعلى درجات التقدير. ثم أخبرني عن الحرب. قال أن موقعه كان في القيادة العامة بعمان أثناء الحرب، مسؤولاً في حقل الاتصالات حين كان والدي مع الكتيبة الرابعة على جبهة باب الواد.

قال: "كنا بحاجة إلى الاتصال على أساس شبه يومي، والدك وأنا، فيما يتعلق بتحركات الجنود والتموين. لكن معدات اتصالاتنا كانت بدائية في تلك الأيام وكان الإسرائيليون قادرين على قراءة وسماع كل ما نقوله. ثم خرجت بالفكرة الرائعة المتمثلة بإجراء اتصالاتنا على اللاسلكي بالشركسية. لأن هذا سيربك الإسرائيليين حتماً ويعتقدون أنها شيفرة خاصة! وافق والدك، وأجرينا اتصالاتنا باللغة الشركسية حوالي أسبوعين". استغرق أبو نوار في الضحك والقهقهة قبل أن يكمل.

"في أحد الأيام، وبينما نتحدث، والدك وأنا، على اللاسلكي كالعادة، قاطع محادثتنا صوت شركسي" أيها السادة، هل يمكنكما، بحق الله، أن تختارا وقتاً آخر لاتصالكما؟ هذه هي ورديتي الآن، وأنا أصغي إلى كل ما تبحثان فيه، وأنقله إلى ضابط استخباراتي". فقد كان شركسياً ولكن من الجيش الإسرائيلي. الواضح أنه شركسي إسرائيلي من كفاركما أو الريحانية. لقد كنا، والدك وأنا، ننقل كل أسرارنا إلى الجيش الإسرائيلي من خلال مترجم شركسي".

صدر العفو عن اللواء أبو نوار من ملك كريم شجاع، وعاد إلى الأردن لتعرض عليه مناصب وامتيازات رفيعة. خدم كسفير للأردن في فرنسا. كنت حاضراً حينما زار والدي في إحدى الأمسيات، بعد سنين طويلة، وتحدث حتى ساعات الفجر الأولى عن الانقلاب الفاشل، تجربته مع عبد الناصر في مصر، والسياسة في الشرق الأوسط.

تشبث الأردنيون بالقدس الشرقية تسعة عشر عاماً، وحتى الخامس

من حزيران عام ١٩٦٧. كانت هذه سنة حرب الأيام الستة التي غيرت وجه الشرق الأوسط إلى الأبد، حينما نفذت إسرائيل ضرباتها الاستباقية ضد الجيوش العربية في مصر، سوريا والأردن. أحد أبطال هذه الحرب هو طيار شركسي شاب اسمه إحسان شردم، الطيار الأردني أو العربي الوحيد الذي أسقط أربع نفاثات مقاتلة إسرائيلية في قتال جوي وعاش ليتحدث عن إنجازه. ظل يرتقي في الرتب حتى أصبح قائداً لسلاح الجو الأردني. ولكن للأسف عندما نقرأ سيرة الأبطال الأردنيين في الحرب لا نرى اسمه يتردد كثيراً.

بدأت الأسباب الحقيقية لهذه الحرب في زمن سابق بكثير، حينما حولت إسرائيل مجرى نهر الأردن إلى صحراء النقب، وحرمت بذلك المزارعين الأردنيين من الماء حرماناً شبه كامل، وتسببت في خفض مستوى البحر الميت الذي ظل النهر يغذيه منذ بدء الخليقة. يمكن القول بأن هذه الحرب جرى القتال خلالها حول حقوق المياه لأن الأردن كان قد بدأ بتحضير خطط لإعادة تحويل تدفق النهر إلى مجراه الأصلي. سيناقش السياسيون بأن الحرب سببها احتلال القوات المصرية لمضائق تيران، مهددين بذلك ملاحة إسرائيل في البحر الأحمر. لكن في الحقيقة، كان هدف إسرائيل على الدوام هو احتلال القدس الشرقية، وقد استخدمت جميع الوسائل لتحقيق تلك الغاية. ظلت إسرائيل تحضر بجدية للحرب من أجل تلك الغاية بينما ظل العرب قانعين ومكتفين بالدعاية القتالية وإطلاق الأكاذيب من مختلف أجهزة الإعلام.

ناورت إسرائيل بقوة لأشهر عديدة لإغراء العرب بالمواجهة. لم تكن لدى العرب نية لخوض حرب برغم تهديداتهم الدعائية وبرامج الإذاعات الميالة إلى الحرب والمتحدثة عن استرداد الأراضي الفلسطينية من إسرائيل. كان ثلث الجيش المصري مشغولاً في اليمن، ولم يكن جيش الأردن الصغير الحجم نداً لجيش وسلاح جو إسرائيل المتسلح بمعدات أمريكية. إن حقيقة احتلال إسرائيل لجميع الأراضي

الفلسطينية غربي نهر الأردن في المحصلة، جائزة هائلة سببها تفوقها العسكري والدعم الغربي الطاغي لعدوانها على العرب. ستطت القدس الشرقية بيد الإسرائيليين خلال مجرد ١٣٠ ساعة من القتال. كانت كارثة، ليس فقط بالنسبة للأردن بل لجميع المسلمين حول العالم بسبب وجود الصخرة المشرفة، ثالث أقدس حرم للعالم الإسلامي. بهذا العمل، خلقت إسرائيل لنفسها مشكلة عالمية هائلة، قد لا تحل دبلوماسياً إلى الأبد. فقد تصبح القدس الدافع لعدة حروب وصراعات دموية قادمة بين العرب واليهود. فقد زرعت إسرائيل بذور الصراع لأطفالها، كي يحملوها لأجيال عديدة قادمة. إنها تحتل أراض يسكنها العرب استثناءاً. واليوم تواجه إسرائيل أحد خيارين: إما أن تعيد الأرض أو تضمها إلى دولتها. والخيار الثاني هو سيناريو يوم القيامة بالنسبة لليهود لأن منح العرب حق التصويت سيعني خسارة الهوية اليهودية للدولة. والبديل هو دولة ذات فصل عنصري لن يقبل بها أي أحد في القرن الحادي والعشرين، ولا حتى الأغلبية الأخلاقية لليهود أنفسهم. وقد صرح شمعون بيريس، الزعيم الإسرائيلي المخضرم مراراً عديدة "إذا نزعت الأساس الأخلاقي للوجود اليهودي، فلن يعود لديك وجود يهودي". فهل ذلك "الأساس الأخلاقي" يمكن العثور عليه في الطوب والإسمنت وقطع الأراضي، أم في الكرامة الإنسانية؟

هناك نتيجة أكثر مباشرة لحرب الأيام الستة، ستظهر في المسرح السياسي للشرق الأوسط والعالم. فقد خلقت إسرائيل، بهذه الضربة الاستباقية ضد جيرانها العرب، بمعرفة ودعم كاملين من القوى الغربية الرئيسة، حجة دامغة جديدة للعنف في الإقليم، موجهة ليس فقط ضدها بل أيضاً ضد العالم الغربي الذي ساندها في غزوها العسكري للأراضي العربية. لقد حطم التدمير السريع لثلاثة جيوش عربية كبرياء معظم العرب وثقتهم بأنفسهم، وخلق فراغاً في تطلعاتهم السياسية التي احتضنت الاشتراكية الوطنية تحت قيادة جمال عبد

الناصر. جرى اختراق هذا الوضع واستبداله ببطء في بعض المجتمعات العربية بشكل من العنف الإسلاموي. ظهر الانتحاري التفجيري إلى الوجود، وازدهرت منظمات مثل القاعدة، حماس وحزب الله.

يعرف الغرب أن إستراتيجية إسرائيل في الاستيلاء القسري على الأرض غير شرعي: يدرك كل من بوش وبلير أن بناء المستوطنات على الأراضي العربية المحتلة غير شرعي، وأن مصادرة الأملاك الفلسطينية وطرد المزارعين من أراضيهم غير شرعي تحت كل القوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة. لكن لا بوش ولا بلير قالا ذلك أو فعلا أي شيء لثني الاعتداءات الإسرائيلية. لذلك فمن المنطقي أن يرى العرب في السياسة الغربية مؤامرة من الغرب للسيطرة على الإقليم من خلال صنيعته ونسله، إسرائيل. يستطيع المرء أن يقول في التحليل النهائي أن إسرائيل كانت مسؤولة عن ولادة التوجهات الإسلامية العنيفة في العالم الإسلامي: ولادة الانتحاري التفجيري ومنظمات مثل القاعدة. وقد يجادل البعض بأن تلك كانت الغاية المرغوبة من الدولة الصهيونية، ولكنها أسيء فهمها أو تفسيرها.

السؤال الذي ينبغي على المرء أن يطرحه الآن هو: إلى متى سيستمر العالم الغربي في دفع الثمن عن اعتداءات إسرائيل ضد العرب والفلسطينيين؟ كم تفجير مثل الحادي عشر من أيلول يجب أن نشهد قبل أن تثوب أمريكا إلى رشدها؟ إن إسرائيل قادرة على أن تكون البطل الرئيس وتشعل كارثة نووية رهيبة بسياستها الأنانية ضيقة الأفق تجاه جيرانها، الأمر الذي سيؤدي إلى دمارها في أكثر الاحتمالات: "شمشون" التوراتي الذي هدم المعبد على رأسه هو إضافة إلى رؤوس أعدائه. من الذي يمكنه أن ينقذ إسرائيل من نفسها؟

القدس: مدينة السلام الخالدة هذه، حيث التقت الديانات السماوية الثلاث في رقعة متميزة من الأرض، لتعلم الإنسانية مفهوم السلام، التعايش وقبول الآخر. هذه المدينة الحزينة لم تشهد السلام لأكثر

من ألفي عام. إن إخفاق القدس كنموذج للسلام هو اخفاقنا كبشر جشعين ومتحاملين على بعضنا. نحن جميعاً أبناء الله. ليس هناك شعب "مختار" بامتيازات محددة تجاه القدس. لأن تلك هي الوصفة للكوارث المستمرة، للحروب وإراقة الدماء لأجيال قادمة. إن المنظور الأصلي للأمم المتحدة بأن القدس مدينة دولية مفتوحة لجميع الشعوب والأديان هي الحل العملي الوحيد لمشكلة تصبح خلاف ذلك هائلة وعصية على الحل. يجب أن لا يطالب دين أو مجموعة عرقية واحدة بالقدس بشكل استثنائي. كم مرة يتوجب على التاريخ أن يكرر نفسه قبل أن نفقه دروسه؟

الفصل الرابع

عام ١٩٤١، وفي قرية تدعى كامينا موست، تحتضن سفوح جبال القفقاس العظيمة، في جمهورية قباردينو بلقاريا التابعة للاتحاد السوفييتي، شق أحمد، جد ألوشا طريقه ببطء إلى حيث كان حفيده يعمل بهمة، وقد التمع وجهه الوسيم من التعرق. لم يشاهد ألوشا الرجل المسن قادماً، فقد كان جل تركيزه منصرفاً إلى فلق قطع الحطب.

كامينا موست قرية شركسية نموذجية، مكنّسة حد النظافة ومنسقة برغم الفقر ونواقص الحقبة. أبقيت الطرق المفروشة بالحصى منظمة نظيفة وبدت البيوت الصغيرة التي انتشرت على جانبي الطريق نظيفة إلى درجة مدهشة، المداخل خالية من التراب والممرات المزروعة بالورد غاية في النظافة. قد ينسى الغريب الذي يدخل هذا القرية أن حرباً يستعر أوارها في الشمال، أو أن الناس الذين يعيشون في هذا المجتمع ليس لديهم ما يكفي من الطعام. كان رجالها بعيدين في الجيش، ولم يبق سوى الصبية الصغار والرجال المسنين للقيام بالأعباء اليومية للحياة. ربما كان ألوشا في مجرد الخامسة عشرة من عمره، لكنه كان يتباهى ببنية وقوة رجل مكتمل النمو. كان يلوح بالفأس في قوس عريض، يضرب الحطب في الأمكنة الملائمة تماماً، ويشعر به ينفلق تحت الضربة، وتتناثر القطع وهي تدور إلى الجانبين. يضع الفأس على الأرض بين الفينة والأخرى وينحني ليجمع القطع، يضيفها إلى الكومة المنسقة التي تكبر بمحاذاة الجدار الخلفي لبيت العائلة.

حتى لو لم يتوفر ما يكفي من الطعام، فعلى الأقل يمكنه التأكد من

وجود الدفء لديهم حينما يعود الطقس البارد، ويعزل القرية عن باقي العالم لشهور متواصلة. لم تترك السلطات لهم سوى أقل القليل من كل شيء في حياتهم، فقد صادرت وسائل عيشهم، قطعان الماشية والغنم، بقي تكسير الحطب واحداً من الوسائل القليلة التي يستطيع الشاب أن يشعر بواسطتها أن مصيره، ومصير أحبته، ما زال تحت سيطرته.

كانت أمه تقوم بالطبخ في الداخل، تحاول أن تبتدع شيئاً من الأرنب الذي اصطاده بواسطة الفخ في الصباح، حبات البطاطس القليلة التي تمكن من الحفر عليها وحبات الفطر التي جمعها من أرضية الغابة حول بحيرة "شَنْت خوريه". لقد كانت وجبة متواضعة ليتم اقتسامها بين العديد منهم، لكنها شيء ما على الأقل. زمجرت معدة ألوشا بالتوجس بينما كانت روائح الطبخ تأخذ طريقها عبر الشباك إلى الخارج.

كان الناس في القفقاس أفضل حالاً بكثير من مواطنيهم الآخرين في روسيا نفسها، لأنهم كانوا قادرين على تدبر أمرهم من خيرات الأرض، حتى عندما كان إنتاجهم من المواد الغذائية يرسل بعيداً إلى الجبهة لتموين الجيش الأحمر. كانت الأغذية الاحتياطية تدفن في الأرض ويتم الحفر عليها وإخراجها بين الفينة والأخرى لتدعيم وجباتهم الهزيلة.

وقف أحمد، متكئاً بثقله على العصا التي شذبها لنفسه قبل أعوام عديدة، يراقب الشاب أثناء عمله. كان فخوراً بأكبر أحفاده. ألوشا قوي وذكي، لذلك كان أحمد يخاف عليه. الأذكياء ميالون إلى الصعود للقمة وذلك ما يجعلهم عرضة للفت الانتباه إليهم. لقد كان والد ألوشا رجلاً ذكياً وعبرَ عن رأيه بدون خوف من العواقب. وصلت العواقب في منتصف الليل وأخذته بدون كلمة تفسير أو تبرير واحدة. لم يعرف أحد من القرية ما إذا كان حياً أو ميتاً. لم تتحدث والدة ألوشا، لوسا، أبداً عن زوجها المختفي، كما لم تتحدث عن الأطفال الذين فقدتهم في طفولتهم.لم يكن ذلك الوقت ملائماً ليكون الفرد قائداً محتملاً للرجال، فقد تواجد عدد كبير من الأفراد ذوي العقول الصغيرة الذين

ينتظرون أناساً مثل ألوشا أن يرفعوا رؤوسهم فوق الحشد، حتى يتمكنوا من قطعهم إلى الحجم المناسب. هذا زمن أفضل طريق محتمل للنجاح والبقاء على قيد الحياة فيه هو مزيج من القوة الغاشمة والقدرة على التلفظ ببلاغة خطابية حزبية جوفاء.

قال الرجل العجوز "أنت تهاجم الحطبات المسكينة وكأنك تكرهها".

قفز ألوشا مجفلاً. فقد كان غارقاً في أفكاره فلم يسمع اقتراب الرجل العجوز البطيء. ابتسم ألوشا بكآبة، ثم أهوى بالفأس مرة أخرى، مرسلاً نصفي قطعة الحطب تدوران مبتعدتين أحداهما عن الأخرى، قبل أن يضع الفأس من يده ويبدأ بتجميع حطام جهوده.

اعترف لجده "إن وجود شيء ما أنفّس فيه عن إحباطاتي وكبتي يمنحني شعوراً طيباً".

اقترح أحمد "ربما يجدر بك أن تصبح جندياً وتجد قضية تقاتل من أجلها. خاصة وأنت تخطو إلى الرجولة". لم يجبه ألوشا لفترة، مركزاً على تستيف الحطب، يجعل منه قطعة صغيرة منتظمة وسط الفوضى الشاملة التي تعم المناظر الطبيعية حوله.

سأل، وهو يمسح العرق عن جبينه وذراعيه بخرقة صغيرة "هل تعتقد يا جدي، أنني يجب أن أذهب إلى أوديسا؟ هل ترى أن أقدم نفسي للقتال مع الروس؟" تكلم ألوشا وكأنه يمتلك خياراً واسعاً في المسألة. فهو يعرف أن المفوضين الحزبيين سيصلون قريباً لتجنيده، برغبته أو بالإكراه.

قال الرجل العجوز وهو يهم بالجلوس بحذر على جذع شجرة يقف جاهزاً للتقطيع، بينما تطرقع مفاصله القديمة أثناء نزوله. "يتحتم عليك أن تتبع ما يمليه ضميرك فيما يتعلق عن وماذا تقاتل من أجله. هل يمكن أن تخبرك أصواتك الداخلية أنه ينبغي عليك أن تذهب إلى

أوديسا وتقاتل الألمان؟".

قال ألوشا، وهو يتلفت حوله "إن الحديث بهذا الشكل مسألة خطيرة، يجب أن تكون حذراً يا جدي، لأنك لا يمكن أن تعرف من الذي يسترق السمع".

"آه" لوَّح الرجل العجوز باعتراضاته جانباً "إنني رجل عجوز، يمكنني أن أقول ما يعجبني. ما هو أسوأ شيء يمكنهم أن يفعلوه بي؟ يقتلوني؟ سأموت قريباً بكل الأحوال".

"يحتمل أن يقتلونا كلنا. لمجرد أننا أقرباؤك".

"ذلك صحيح" طأطأ الرجل العجوز برأسه دلالة على قبول النقطة. "يجب أن أنتبه إلى لساني، لكنني لا أمتلك القوة لتقطيع الحطب. إن إحباطاتي وكبتي يظلان في داخلي. الطريق الوحيد لإخراجها هو من خلال فمي".

قال ألوشا، وهو يجلس إلى جانب جده "إذا انضممت إلى الجيش. سيشكل ذلك فماً أقل يتوجب على أمي إطعامه".

ربَّت أحمد على ذراع حفيده "وطاقم آخر من الأذرع لتكسير الحطب. أنت عزيز لدينا. ولكننا سنتفهم عندما تضطر إلى الذهاب".

"لماذا سأضطر إلى الذهاب؟".

أشار أحمد إلى القرية الصامتة "انظر حواليك. ما هو الإسهام الذي يمكنك أن تقدمه للعالم من هنا؟ لقد انتهينا. لم تعد حتى الكلاب والقطط تتواجد هنا.

ضحك ألوشا قائلاً "لقد تم أكلها جميعاً". رغم إدراك كليهما أنه يمزح. فالشراكسة لا يمكن ابداً أن ينزلوا إلى ذلك الدرك: هو على الأقل يعتقد أنهم لن ينحدروا. لكن كان يشاع أن القرى الروسية قد جردت فعلاً من مثل هذه الحيوانات الأليفة.

"لم يكن الأمر هكذا دائماً، كما تعلم. كنا نمتلك السلطة على مصائرنا. لم نكن مضطرين إلى الاعتماد على الحزب ليدس قليلاً من الخبز في أفواهنا كلما أعجبهم أن يفعلوا ذلك".

"هششش!" وضع ألوشا أصبعه على شفتيه، مبتسماً للرجل العجوز بحنان. "ها أنت تنطلق مرة أخرى. سوف تتسبب في نفينا إلى سيبيريا كلنا إذا استمريت في الكلام بهذه الطريقة".

سأل أحمد "ومن بحق الجحيم سيصغي إلى رجل عجوز مثلي؟"

أجابه ألوشا "أنا أصغي إليك".

"أعرف أنك تصغي، يا فتى" ضغط أحمد على ذراع الشاب. "ربما أنت على حق، ربما يجب علي أن ألتزم الهدوء. لكن مجرد التزام الهدوء لن يضمن لك النجاة بحياتك. طالما أنت تسمح للآخرين أن يقرروا مصيرك، لن تتمكن من النوم في سريرك آمناً. الأمر لا يحتاج إلا إلى مسؤول حزبي واحد ليقرر أن هذه القرية يجب أن تسوى بالأرض ويذبح جميع سكانها، حتى يحدث ذلك. ليس هناك أمان في البقاء صامتاً".

"أعرف يا جدي" قال ألوشا "أنا فقط بحاجة إلى بعض الوقت للتوصل إلى أفضل السبل للتقدم". "صحيح تماماً" ضرب أحمد الشاب على ركبته تحبباً ثم دفع بنفسه إلى النهوض. فوجئ ألوشا بمقدار القوة التي يحتفظ بها الرجل المسن في قبضته.

"لنر الآن إن كانت أمك جاهزة لتقدم لنا يخنة الأرنب التي يمكنني شمها. إذا لم ننتبه فسوف تكون النساء قد التهمن كل شيء بينما نجلس نحن هنا في الخارج نتحدث بكلام فارغ".

ضحك ألوشا وتمشى عائداً بتمهل إلى داخل البيت مع العجوز، غارقاً في أفكاره. كانت أمه وعماته قد خبزن رغيفاً لجعل الوجبة الصغيرة أكثر إشباعاً، لكن رائحة الطهي جلبت المزيد من الناس من

البيوت المجاورة، ولم تقدر العائلة أن ترد أحداً منهم. فالجيران في هذه القرية، أو أية قرية شركسية، هم مثل أفراد العائلة. مع سكب الطعام ومناولته للحضور، لم يكن هناك ما يكفي لإشباع الأطفال، ناهيك عن البالغين.

أصبح ملحوظاً أن ألوشا غارق في التفكير أثناء الوجبة. أدرك الرجل العجوز أنه قد زرع بعض البذور في عقل الفتى، وأنه سيحتاج إلى بعض الوقت لفلاحتها. ظلت المحادثة حول الطاولة بعيدة عن السياسة. تحدثوا عن الحصاد، إذا كان سيكون هناك حصاد، وأطلق الرجال النكات، لكن أحداً لم يقل أي شيء يمكن ترديده ضدهم. فقد وقع الكثير جداً من الناس في ذلك الخطأ في الماضي.

لقد اتخذ المخبرون كل الأشكال والأحجام، وقد رحب الحزب بهم جميعاً. أي طفل صغير يذهب إلى المسؤولين المحليين ويخبرهم أن والديه يكرهان الشيوعية ويتحدثان بحنين عن الأيام التي كان يمكنهم فيها حيازة جوادهم وبقرتهم، يكافأ بالمديح والوعود بمستقبل عظيم. أي شقيق يخبر عن شقيقه، يمكن أن يجد نفسه في موقع قوة، بينما يسحب شقيقه من فراشه، في منتصف الليل، ويحمل إلى سيبيريا في قطار. لم تكن هناك عائلة واحدة في المنطقة لم تخسر شخصاً ما نتيجة الهمسات والإشاعات.

بقيت فراغات متعددة حول المائدة في ذلك اليوم. كان لدى المرأة التي تعيش في البيت المجاور زوج قوي صحيح الجسم، يساعدها في الواجبات المنزلية، رجل طيب السريرة، لم يخلق لنفسه أعداء طيلة حياته، لكنه يحب شرب الخمر ويكثر من الكلام بمجرد تخليه عن الحيطة.

كثيراً ما تكلم هو ونجله الأكبر وضحكا حتى ساعات متأخرة من الليل، يبحثان فيما آلت إليه حياتهما من أخطاء، وما تقتضيه عودتها إلى جادة الصواب مرة أخرى. لم يتخيلا أبداً أن يعيرهما أحد أي

اهتمام، أكثر مما كان أحمد راغباً في السماح لنفسه بأن يتم إسكاته طيلة الوقت.

حضر إلى القرية مدرس شاب قادماً من مدينة نالتشك الكبيرة، رجل متحمس يؤمن بشغف بالمساواة بين الناس وبإمكانية بناء فردوس على الأرض لجميع البشرية، فقط إذا أمكن إقناع الجميع بالتفكير بنفس الطريقة والعمل لنفس الأهداف. أحب أطفال القرية هذا الرجل ومنحوه ثقتهم لأنه كان قادراً على تحويل دروسهم إلى ألعاب وجعلهم يضحكون ويصفقون في سرور داخل غرفة الصف. ابتسم القرويون الأكبر سناً لبعضهم بعضاً بتساهل حينما كانوا يستمعون إلى الطريقة التي يتكلم بها مدرسهم الشاب حين يحضر إلى بيوتهم لتناول الوجبات. كانوا سعداء بإطعامه لأنهم ممتنون له على تعليم أطفالهم، لكنه حين يتحدث عن الكيفية التي ستنقذهم بها الشيوعية، كانوا يعتقدون أنه يتحدث مثل طفل. أصبح يشعر بكبت متزايد من عدم قدرته على إقناعهم بأنهم على خطأ حين يشككون بإمكانية وجود نظام سياسي مثالي. بدأ يكرههم لعدم النظر إليه بجدية.

وجد جمهوراً أكثر جاهزية للاستماع إلى أحلامه بين الأطفال الذين كانوا راغبين في السماح له بأن يريهم الطريقة الصحيحة في الحياة. أحد الأسباب التي أحبوا المدرس الشاب من أجلها هي أنه كان على الدوام راغباً في الاستماع إليهم، عندما كان آباؤهم والكبار الآخرون منهمكين في محاولة استخراج لقمة عيشهم من البرية العارية، يكافحون للبقاء دافئين والطعام في جوفهم. كان هذا الرجل يسألهم عن أنفسهم وما يؤمنون به، ثم يسألهم عن والديهم وأصدقاء والديهم. ما الذي يقولونه عندما يمسون داخل بيوتهم ليلاً؟ ما الذي يؤمنون به؟ ما هو رأيهم في الشيوعية والحكام الروس؟ كان الأطفال دوماً متشوقين للتحدث، يندفعون ليكون أحدهم أول من يسمع له، حريصين على كسب اهتمام الأستاذ بقصصهم. كان الصبي الصغير الذي سمع

والده وشقيقه الأكبر يبحثون مستقبل بلادهم المظلم في حالة سكرهما، مسروراً بتمرير آرائهم إلى الشاب الذي يصغي بتركيز شديد، وحتى يدون كلماته، وهو يطأطئ برأسه متفكراً طيلة الوقت.

عندما كان الجنود يجيئون في الليل، يدقون على الباب ويسحبونهما من فراشهما، لم تكن لدى الطفل أية فكرة أن كلماته هي التي جرمتهم. كان يراقب برعب بينما يضرب والده وأخوه ويركلان، يجران إلى الثلج في الخارج، نصف عراة وغير قادرين على تقديم أي إيضاح عن نفسيهما إلى الرجال الخشنين الذين يصرخون فيهم بالسباب ولا يمنحاهم الفرصة للإجابة. حين ذهبت أمه لحمايتهما، ضربت هي الأخرى وألقيت على الأرض، ركلت في رأسها وتركت غائبة عن الوعي. انكمش الصبي وجلس مرتعداً في زاوية حتى ذهب الجنود، آخذين الرجلين معهم، فاستطاع بعدها أن يخرج ويحتضن رأس أمه بين ذراعيه حتى استعادت ما يكفي من القوة لتنهض على قدميها.

عندما فهم حقيقة ما حدث، أدرك الصبي أنه كان الخائن لعائلته، وأنه بدوره قد خانه المدرس الذي اعتقد أنه بطل عظيم. أراد أن يرضي ضميره بمساعدة والدته، يأخذ مكان الرجلين اللذين دمرهما بدون قصد أو إدراك. لم تكن لدى الأم القدرة لتجادله وتخبره أنه يتوجب عليه الذهاب إلى المدرسة. أصبحت فكرة الذهاب إلى المدرسة والاستماع إلى الرجل الذي خانه بهذه الدرجة من السوء، لا تطاق بالنسبة للصبي، لذلك توقف نهائياً عن الذهاب إلى المدرسة. سرعان ما لوحظ غيابه، ولم يكن الوحيد. فقد سمع أطفال آخرون بما حدث وأدركوا أن الرجل الذي أضحكهم وأقنعهم بأنه صديقهم، قد خانهم: وأنه ينوي جلب الموت إلى عائلاتهم. جاء المدرس يقرع الأبواب في القرية، محاولا اكتشاف السبب في توقف الأطفال عن المجيء إلى المدرسة. ففي الاتحاد السوفييتي، لا خيار للأطفال سوى الذهاب إلى المدرسة. هرب الأطفال من الأبواب الخلفية أو اختبأوا خلف تنانير أمهاتهم السميكة، لم يقدم

له أحد اية إجابة. اصبح الوضع وكأن القرية بكاملها قد فقدت القدرة على استخدام ألسنتها. بحلق البعض فيه بحرد بينما هو يحاضرهم بصوت عطوف عن أهمية التعليم بالنسبة للجيل القادم. بدا وكأنه ما زال يصدق كلماته. تجاهله معظمهم كلياً. تصاعد غضبه، مدركاً أن مدرسة لا تجتذب أياً من الأطفال سوف تنعكس عليه وأن وظيفته ومهنته التي يحبها سرعان ما ستصل إلى نهاية.

كتب تقريراً إلى السلطات المحلية، يوصي بأن الأطفال، الذين هم في نهاية المطاف، أطفال الدولة وليسوا أبناء تلك العائلات الجاهلة التي أنشأتهم، بحاجة إلى التعليم في مكان ما، بعيداً عن التأثير الشرير لكبارهم، في مدارس منظمة بشكل ملائم. استقبل تقريره بالترحاب والتهليل، وأعطي وظيفة مهمة في مدرسة كبيرة تديرها الدولة على بعد خمسين ميلاً. أخذ جميع أطفال القرية من بيوتهم ونقلوا إلى المدرسة، حيث يمكن تعليمهم الطريق الصحيح لإدارة حياتهم مرة أخرى، وشرح لهم لماذا كانت عائلاتهم على خطأ طيلة القرون الطويلة الماضية في عاداتها ومعتقداتها.

أصبحت المرأة التي تعيش في المنزل المجاور لعائلة ألوشا وحيدة لتحاول أن تتدبر أمرها بأفضل ما يمكنها. كلما خطت خارج بيتها، تمسح الأفق بعينيها على أمل أن ترى أشكالاً صغيرة تقترب، لكن لم يكن هناك أحد أبداً.

لم تكن عملية أخذ الأطفال نهاية المطاف. فقد ظلت زيارات الجنود آخر الليل مظهراً منتظماً، ولم يبق بيت في القرية لم يخسر شخصاً يحبه أهله.

بمجرد ذهابهم، لم يعد أحد يتحدث عنهم مطلقاً، وكأنما مصيرهم يسبب العدوى، بحيث تنتقل من الفم إلى الأذن على أنفاس أولئك الذين يحزنون على الأحبة والآباء والأشقاء والأبناء المفقودين.

رغم كل ذلك، ظل القرويون يجدون السلوى في صحبة بعضهم البعض، خاصة في الصيف، حين يكون بإمكانهم الجلوس في الخارج، يرشفون "الباخسما"، المشروب التقليدي المخمَّر في البيت، ويستمتعون بالأنسام العليلة. وهكذا، رغم أن الوجبة الشحيحة انتهت خلال دقائق قليلة، لم يغادر الجيران على الفور. لم يكن هناك مكان يذهبون إليه بكل الأحوال، لا ماشية لرعيها، ولا محاصيل لحصادها. فقد صودر كل ذلك من أيديهم وأعطي إلى العمال في المزرعة التعاونية، في سبيل قضية العدالة والكفاءة.

بدا كل ذلك منطقياً حينما وضعت الخطط في البداية. فأين هو المنطق في أن تكدح كل عائلة للاحتفاظ ببقرة واحدة أو حصان، وربما شاة أو اثنتين؟ لماذا لا تؤخذ كلها ويحتفظ بها في مكان واحد حيث تستطيع حفنة من المزارعين أن تعتني بهم كلهم، وتترك بقية السكان حرة لتفعل أشياء أخرى. ولكن ما هي الأشياء الأخرى المتوفرة حتى تعمل؟ ذلك أيضاً أمر صممه الحزب: أصبحوا جميعاً ملزمين بالانضمام إلى "الكولخوز" والعمل في أية وظائف تفرضها عليهم قيادة الحزب، في هذا المجتمع على الأقل، لم يكونوا مضطرين للسفر بعيداً إلى الكولخوز. فقد كان بوسعهم العودة إلى بيوتهم بعد يوم عمل في الحقول. بينما اضطرت مجتمعات أخرى إلى المعيشة في ملاجئ جماعية، ولا يرون بيوتهم سوى مرة واحدة في الشهر.

تصاعدت وتيرة وضجيج المحادثة وانخفضت بأسلوب ممل، وخلال إحدى فترات الصمت، بينما هم جالسون متحلقين، مسرورين بمجرد الحصول على إلهاء أحدهم للآخر، سمعوا ضجيجاً يقترب في الخارج. كان ألوشا أول من هب واقفاً على قديمه واسترق نظرة من الشباك الصغير. انتظر كل الآخرين في صمت متوتر تقريره عن أي رعب يحتمل أن يكون وشيك القدوم إلى حياتهم.

قال "إنهم جنود"، انطلقت هسهسة من الانزعاج بين النساء بينما قمن بتحضير أنفسهن بطريقة آلية، لفقدان شخص ما أو شيئاً

يحبونه.

"إنهم يسوقون الماشية!".

"ما الذي تعنيه؟" تحامل أحمد على نفسه ونهض عن المقعد الخشبي الطويل حيث كان شبه غافٍ بعد الوجبة القليلة. "أية ماشية؟".

"هناك جنود يحضرون مواشي باتجاه القرية" كرر ألوشا.

"لماذا؟" نطقت امرأة بالسؤال نيابة عنهم كلهم.

ذهب ألوشا إلى الباب "يستحسن أن نستطلع الأمر".

"ألوشا لا!" خطت أمه إلى الأمام باندفاع آلي لإيقافه. فما من امرأة تريد لابنها أن يجتذب الانتباه إلى نفسه أمام الجنود.

قال أحمد "اتركيه يا لوسا،" وهو يضع يده على ذراع كنته "إنه محق. إذا لم نخرج إليهم فسوف يدخلون باحثين عنا".

جادلته لوسا "ربما لا، ربما يكونوا مجرد عابري سبيل. إذا بقينا هادئين، يحتمل أن يكملوا طريقهم نحو القرية التالية".

"منذ متى يمر الجنود خلال أية قرية بدون أن يريدوا شيئاً على الإطلاق؟" سأل أحمد وعرفت لوسا أن حماها محق.

خرج ألوشا من البيت الصغير إلى شمس العصر التي بدأت تضعف، وتجمع بعض الآخرين خلفه. لم يبد على الجنود المقتربين أي تهديد، لكن ذلك لم يعني أنهم لن يتسببوا بالأذى. كانوا مسلحين بالبنادق، وهذا أكثر مما لدى القرويين.

ظهر عليهم السخط فعلاً أكثر من الخطورة وهم يحاولون أن يبقوا مجموعة الحيوانات التعيسة التي يقودونها في حالة حركة على الطريق الترابي المغبر. أصبح بالإمكان سماع صرخاتهم الغاضبة لدى اقترابهم،

وكلمات السباب التي يطلقونها على الأكثر عناداً من الماشية وهم ينتقلون من جانب إلى آخر لقضم قطعة عشب مغرية بشكل خاص، أو للتحديق في المنظر، بكل بساطة. وقف القرويون ساكنين، يراقبون بينما أصبحت وجوه الجنود المضمخة بالعرق على مرأى منهم، وقد تكومت الأوساخ والغبار على أزيائهم وأحذيتهم. كان هناك حوالي دزينة من الماشية، بعضها عينات ممتازة، إضافة إلى عدد من الماعز. كان هناك جوادان يعدوان خبباً في مؤخرة الاستعراض. جاءت خلف الخط المتحرك ببطء شاحنة صغيرة، محملة بصناديق خشبية، استطاع القرويون أن يروا أنها مليئة بالدجاج والبط، لدى اقتراب الشاحنة.

اقترب ضابط على صهوة جواد من مقدمة الحشد، متخذاً طريقه بشكل واضح نحو جمع الفلاحين الواقف، يحدق في المشهد.

أعلن بنبرة أهمية عندما وصل أمامهم. "أنا النقيب مراد بشير وفيتش". تكلم اللغة الروسية بلهجة شركسية واضحة. "يجب عليكم أن تستلموا هذه الحيوانات وتحتفظوا بها. وزعوها بين العائلات في القرية.

سأل أحمد "من أين هي؟" وهو يخطو إلى الأمام متكئاً على عصاه. تكلم أحمد بالشركسية. أجابه النقيب "إنها من الكولخوز" أصر مرة أخرى على التكلم بالروسية. أصبح جلياً لدى كل الذين سمعوه أنه أراد أن يؤسس سلطته. وأنه لن يتمكن من ذلك باللغة الشركسية: لأن استخدام لغته الأم سيفرض عليه التقيد بالاحترام والتوقير للأكبر منه سناً.

اعترت أحمد حيرة حقيقية "لماذا تسوقها إلينا؟" فقبل مجرد سنوات قليلة، كان قد وقف في نفس البقعة وراقب الجنود وهم يأخذون كل رأس ماشية من القرية إلى الكولخوز. تذكر النقيب الذي نفذ المهمة، رجل شبيه تماماً بهذا الشاب الوسيم الجالس على صهوة الجواد أمامه في هذه اللحظة. شرح الرجل وقتها أن امتلاك الماشية يعتبر جريمة

وأية عائلة يظهر عليها مثل ذلك الثراء المادي سيتم قتلها مباشرة أو نفيها إلى سيبيريا، وتوصم بأنها رأسمالية وعدوة للبروليتاريا. فلماذا يعيدون الحيوانات نفسها الآن ويعيدون توزيعها؟ هل هي حيلة؟ هل سيأخذ القرويون الحيوانات وبالمقابل يعودون إلى العناية بها، ليكتشفوا بعد بضعة أشهر قدوم المزيد من الجنود واتهامهم بأنهم رأسماليين؟ لقد كان هذا هو النمط من الأحداث التي سمع أنها تحصل.

ترجل النقيب عن جواده وطلب شربة ماء بدون أن يجيب على سؤال أحمد. انتظر العجوز حتى أحضرت له لوسا شربة الماء وأطفأ مراد ظمأه. استدار الجميع وحدقوا بالجنود المنهكين الذين باتوا قريبين مع قطيعهم غير المطيع.

كرر أحمد "لماذا تحضرونها إلينا؟".

"ينبغي عليك أن لا تشكك في مثل هذا الحظ السعيد." قال النقيب، وقد بات واضحاً أنه تضايق من السؤال. بدا عليه أنّه مفوض سياسي أكثر منه مجرد عسكري. "إذا طرحت من الأسئلة أكثر مما ينبغي، يحتمل أن نغير رأينا ونصادرها مرة أخرى". لم يعتقد أحمد أن النقيب الشاب سيكسب مزيداً من الشعبية لدى جنوده إذا أخبرهم أنه يفترض فيهم إعادة الحيوانات كل الطريق إلى المزرعة التعاونية.

قال أحمد بطريقة ماكرة "إغفر لرجل عجوز غباءه، لكنني فقط أحاول أن أفهم حكمة حكامنا. لماذا اختاروا أن يخصوا مثل هذه القرية المتواضعة بكرمهم؟".

ابتسم مراد على تواضع الرجل العجوز المصطنع. استطاع أن يفهم بأن أحمد ليس رجلاً يستسهل أن يضع من قدر نفسه أمام الجنود. أعجب مراد به على المحاولة، رغم أنه شكك في مصداقيته.

قال ببساطة "كل شخص لا يمتلك حيوانات سيتم ترحيله. لسنا بحاجة إلى الكسولين والمختلسين في الاتحاد السوفييتي المجيد. يجب

على كل شخص أن يتحمل حصته من العبء. إذا أردت أن تطعم عائلتك، أيها العجوز، عليك أن تعمل مثل كل شخص آخر. يجب أن تعتني بمعيزك وتحلب بقراتك. هل تفهم؟ والإ فسوف نجد لك عملاً مفيداً في غابات الشمال".

عرف الجميع أنه يشير إلى معسكرات العمل في سيبيريا، حيث يرسل أولئك المحظوظين، أو غير المحظوظين بإعفائهم من الإعدام، ليشيخوا قبل أوانهم.

"ليس من سبب يدعوك إلى طرح المزيد من الأسئلة" قال مراد بنزق، حين لاحظ أن العجوز يهيئ سؤالاً ملتوياً معقداً آخر. "فقط تقبل دورك في الخطة العظيمة وقم بعملك بدون التسبب في متاعب".

بينما ابتعد النقيب ليتحدث إلى رجاله، الذين نجحوا أخيراً في سوق القطيع إلى داخل القرية، تقدم ألوشا ليقف إلى جانب جده. كان يغلي من غضبه على قلة الأدب التي عامل بها الروسي الرجل الذي يحترمه هو فوق كل الآخرين.

فحَّ بنفس مكبوت "لو كنت أمتلك مسدساً، يا جدي، لقتلته على الطريقة التي كلمك بها. ليس لدى الشيوعيين أي احترام لكبار السن".

وبخه أحمد بقوله "سيكون ذلك أمراً غبياً تفعله، يا ألوشا، فأنت بذلك تخاطر بحياتنا كلنا من أجل قليل من الكبرياء. آمل أن لا تضيع حياتك سدى بهذا القدر من الحماقة بعد أن تغادرنا".

أحمر وجه ألوشا، بسبب الإحراج من ناحية، والغضب المكبوت من ناحية أخرى. عرف أن جده على حق، لكنه ظل راغباً في قتل النقيب صاحب المشية المتعالية.

لوَّح مراد بيده منادياً القرويين بنفاذ صبر "تعالوا، تعالوا وتحملوا المسؤولية عن هذه الحيوانات اللعينة، وامنحوا رجالي فرصة لالتقاط

الأنفاس. ألم يخدموكم بما يكفي ليوم واحد، أيها الفلاحون الكسالى؟ هل تعتقدون أننا سنشتغل عنكم إلى الأبد؟".

اندفع القرويون كلهم إلى الأمام وفصلوا الحيوانات، دفعوها إلى الزرائب والحظائر القليلة الباقية في القرية، بينما تهاوى الجنود المرهقون في الظلال، وجلب لهم الماء وآخر فتات الطعام الذي خزنته النساء للطوارئ. لم يتكلم أحد مع الجنود أثناء استراحتهم ودردشتهم بين أقرانهم. كان الجنود خليطاً من الشراكسة، البلقار وبعض الروس. أصيب الجميع بالارتباك، متسائلين عما إذا كانت العملية مكيدة وأنهم على وشك أن يلقى عليهم القبض أو يقتلون. لم تبد على الجنود أية عدوانية، ما عدا النقيب المختال في مشيته، والذي طفق يفتش حول البيوت وكأنه يتوقع أن يعثر على أكوام مخفية من الذهب أو جنودٍ ألمان مختبئين.

في نهاية المطاف، بدا عليه الاقتناع بأن القرويين أبرياء بقدر مظهرهم وجلس إلى جانب أحمد.

قال وهو يتمطى مثل قطة تحت أشعة شمس المساء "وهكذا، ايها العجوز، الحياة تتحسن بالنسبة لنا، أليس كذلك؟"

سأل أحمد، محاذراً السقوط في أية كمائن "وبأي طريقة يمكن أن يتحقق ذلك؟".

"إننا نربح الحرب ضد ألمانيا وسرعان ما سيعرف العالم كله أننا أعظم إمبراطورية على وجه الأرض".

قال أحمد "نحن لا نسمع كثيراً من الأنباء، عن الحرب هنا. إذ لا يمر كثير من الناس في هذه الأنحاء. هل نحن نربح حقاً؟".

"طبعاً" ظهرت على مراد الصدمة لكون العجوز يشكك في الأمر.

طأطأ أحمد برأسه مع ابتسامة وهمسة "طبعاً، طبعاً".

"إننا نهزمهم على جميع الجبهات. ليسوا نداً لشجاعة جنودنا ولا عبقرية قادتنا".

"طبعاً" طأطأ أحمد. "إذاً فالحياة في الجيش طيبة، أليس كذلك؟".

أغمض النقيب عينيه وانزلق نحو نومة خفيفة بينما كان حصانه يشرب من مذود قريب ويرعى عشب الصيف.

لم يغادر الجنود حتى صباح اليوم التالي. ناموا ليلتهم في أسرة القرويين وأخذوا كل ما تبقى من الطعام، قبل أن ينطلقوا مرة أخرى عندما أشرقت الشمس. أبقى القرويون أعينهم متجنبة أعين زوارهم: خوفاً من احتمال أن تظهر فيها الكراهية. خرجوا مع أول بصيص للنور للعناية بالحيوانات. كان الأمر أشبه بمعجزة أن يعثر المرء على مثل ذلك الثراء يسقط من السموات. كانوا يجدون صعوبة في تصديق حقيقة ما يجري، وأن أحداً لن يحضر ويسترد كل شيء منهم مرة أخرى، ويعاقبهم على مجرد التفكير بأنهم يمكن أن يكونوا محظوظين إلى تلك الدرجة. عادت إليهم مهارات تربية وإكثار الحيوانات، والتي اعتبروها أمراً مفروغاً منه لمئات السنين وبسرعة، حتى أن بعضهم تجرأ على أن يحلم بالاستيلاد من الحيوانات التي أعطيت لهم، وزيادة أمنهم لفصول الشتاء القاسية المقبلة. منذ لحظة وصول الروس تقريباً، وألوشا يشعر بنظرات مراد بشير وفيتش مسلطة عليه. اصبح الوضع وكأن النقيب مرتبك من عثوره على صبي في مثل هذه القدرة والقوة الواضحة في قرية غادرها كل ذكر آخر ببنية سليمة تقريباً.

في وقت متأخر من المساء، عندما كان معظم الآخرين يغطون في النوم، ترك كليهما جالسين إلى جانب جمرات النار التي كانت تتوهج بأواخر أضوائها البارقة. كانا في غرفة جلوس منزل ألوشا، تستخدم للأكل والنوم إضافة إلى استقبال الضيوف. سأل مراد "لماذا أنت لست في الجيش؟ ألا يتوق شاب مثلك إلى المغامرة؟".

"أهذا ما هو عليه الجيش، إذاً؟" سأل ألوشا، متصنعاً البراءة "القيام بالمغامرات؟"

"طبعاً هو كذلك. إذا كنت جندياً صالحاً وذكياً بما يكفي لتتم ترقيتك." هندم مراد ملابسه وهو يفكر بالحياة العظيمة التي يحياها.

ركل ألوشا النار بحذائه فقفزت بضع ألسنة لهب صغيرة للمرة الأخيرة "لا أدري. إن خبرتي مع الجنود هي أنهم في العادة يدفعون الناس الأبرياء، تماماً مثل المتنمرين في المدرسة، أو أنهم يتم تمزيقهم إلى أشلاء في ميدان معركة في مكان ما. سأكون بحاجة إلى الإيمان بعمق وثقة بأنني أؤمن بالقضية التي يطلب مني القتال لأجلها قبل أن أقوم بأعمال مثل تلك".

انتفض مراد إلى الأمام، دافعاً بوجهه قريباً من وجه ألوشا، ما جعل الشاب الأصغر سناً يقفز إلى الخلف لشدة مفاجأته.

"أنت" بصق الكلمة ثم بدا عليه أنه يكافح للعثور على طريقة يعبر فيها عن الغضب الذي يغلي في داخله بشكل واضح. "يجب أن تكون حذراً بذلك اللسان الذي تملكه، أيها الشاب، وإلا فسوف ينتهي بك المقام وقد أوجدت لنفسك أعداءاً أقوياء".

قال ألوشا "لا أريد أن أجعل لنفسي أي أعداء". وقد فتح عينيه على اتساعهما بصدق هازل "أرجوك أن لا تفكر بذلك، أيها النقيب. أنا فقط أريد أن أعرف المزيد عن العالم قبل أن أكون راغباً في وضع حياتي على المحك في سبيل قضية ما".

قال مراد "إن عظمة الاتحاد السوفييتي هي القضية الأكثر تمجيداً. إن هزيمة الفاشيين الألمان نصر عظيم بالنسبة لنا، من الناحيتين العسكرية والأخلاقية. عندما يرى العالم أن الطيبة والعدالة قد انتصرتا

وأن إمبراطورية راسمالية شريرة ليست نداً لجنودنا الشرفاء، سيرى أن الشيوعية هي السبيل الوحيد للتقدم في العالم للمستقبل".

قال ألوشا "من الصعب عليَّ، وأنا أعيش في القرية هنا، على بعد أميال من أي مكان. أن أتابع جميع الأحداث السياسية الهامة. ربما تستطيع أن تشرحها لي بتفصيل أكثر".

"طبعاً". استند مراد إلى الوراء، مستريحاً في كرسيه، سعيداً لأن يلعب دور المثقف والناصح" ما هو الشيء الذي لا تفهمه؟".

"حسناً، قبل مجرد أشهر قليلة كان ستالين يخبرنا عن الاتفاق العظيم الذي أبرمه مع الألمان، مؤكداً لنا أنهم عرق نقي وأن نبوغهم ومهاراتهم الهندسية سوف تساعدنا على بناء إمبراطورية قوية وتحسن مستوى معيشتنا. كنا شركاء مع هؤلاء الناس الذين يقال لنا الآن أنهم أقل شأناً من القذارة وينبغي هزيمتهم. لماذا غيرَّ قائدنا العظيم رأيه بهذه الدرجة الكلية؟".

فتح مراد فمه لكن شيئاً لم يخرج منه، بقي ألوشا يحدق فيه بعينين مفتوحتين على اتساعهما، مثل صبي صغير في غرفة صفية، لكن مراد شك في أنه يسخر منه. قال، وهو يهم بالوقوف ويتمطى "لقد تأخر الوقت، يجب أن تخلد إلى النوم".

أصر ألوشا بشقاوة ماكرة "أتمنى لو تستطيع أن تفسر هذا لي".

"أعتقد أنه يجب عليك أن تقبل بوجود بعض المسائل الأكثر أهمية من أمثالك وأمثالي بحيث لا نتمكن من فهمها بشكل كامل". قال مراد، وهو يربت على كتف الصبي. "هناك اعتبارات سياسية يعرف عنها قادتنا، ولا يمكن أن نعرفها نحن أبداً. يجب أن نتحلى بالإيمان والثقة. تصبح على خير". استدار ومشى إلى حيث الفراش الذي أعدّ له قبل أن يتمكن ألوشا من طرح سؤال آخر. ابتسم ألوشا ابتسامة صغيرة واستقر على الأرض، إلى جانب المدفأة، وسحب بطانية لفها

حول جسمه.

لاحظ صباح اليوم التالي أن النقيب يتجنبه، مشغلاً نفسه باستعجال الرجال أثناء استعدادهم البطيء للمغادرة. أحنى رأسه باتجاه ألوشا حين هموا بالرحيل وقال: "يجب عليك أن تفكر بحديثنا الليلة الفائتة، هنالك مكان للرجال الصالحين في الجيش على الدوام. سيظل هناك دوماً أعداء ينبغي قتالهم. سوف أكتب تقريراً عن وجودك هنا وعن حماسك وتشوقك للتطوع إلى الجبهة".

ابتسم ألوشا قائلاً: "سرعان ما ستكون الإمبراطورية السوفييتية حاكمة للعالم، ولن تحتاجوا إلى مساعدتي".

قال مراد لأحمد الذي حضر إلى حيث وقفا "أيها العجوز: أخبر حفيدك عن مدى خطورة الاستخفاف الزائد بالأمور".

قال أحمد "أعتقد أنه يأخذ الحياة مأخذاً مفرطاً في الجدية"، ووضع ذراعه حول كتفي ألوشا، ليوضح للنقيب أنهما متحدان، بغض النظر عما يمكن أن يكون ألوشا قال له. قال مراد، وهو يهم بامتطاء جواده "لديه شك في أننا سنلتقي مرة ثانية".

رفع ألوشا يده بتحية الوداع، وغادر الجنود بدون أن يلتفتوا خلفهم. وقف أحمد وألوشا سوية، يراقبان الجنود وهم يصغرون.

سأل ألوشا "هل هذه حيلة، ألا تعتقد ذلك؟".

"ما هي الحيلة؟".

"الحيوانات! هل سيحضر المزيد من الجنود في الغد ويتهموننا بالرأسمالية؟ هل هم بحاجة إلى مجرد حجة لذبحنا؟".

قال أحمد "لم يزعجوا أنفسهم بالبحث عن أعذار في الماضي".

"إذاً لماذا أتعبوا أنفسهم بإحضار بضعة حيوانات كل هذه المسافة إلينا؟ لا أصدق أنهم يفعلون ذلك لمجرد أنهم مهتمون برفاهيتنا".

ضحك أحمد وهز رأسه قائلاً: "لا، لا أعتقد أن ذلك هو سبب عملهم هذا".

"لماذا إذاً؟".

"ربما لأنهم لا يهزمون الألمان على كل جبهة كما يدعون. ربما أصبح الألمان على وشك الغزو وهم يقومون بعمل التحضيرات. هناك من الناس من يقول أنهم اصبحوا على عتبة بيوتنا تماماً".

"لم قد يهتم الألمان ببضعة حيوانات؟".

"الجيش يحتاج إلى الإطعام. سوف يبحثون عن الماشية. سيكون أصعب عليهم العثور عليها إذا كانت مبعثرة في القرى المتفرقة. إذا كانت كل الحيوانات موجودة في الكولخوز، فكل ما على الألمان هو الاستيلاء عليها ببساطة، وسوف تتحقق لهم السيطرة الكاملة على تموين الطعام. بهذه الطريقة هم مضطرون إلى نهب آلاف الفلاحين الأبرياء من مصادر رزقهم. ربما يفكرون مرتين قبل أن يقدموا على ذلك العمل. وإذا فعلوا ذلك فسوف ينقلب الفلاحون ضدهم بقوة".

"هل تعتقد أن ذلك هو الجواب؟ هل نحن على وشك تلقي حشود من الألمان ينزلون علينا ويعيدون سرقة كل شيء منا؟".

"هذا ممكن، ربما يريد ستالين أن يحدث تأثيراً لدى الألمان عن مدى ازدهار الشيوعية. ربما يريد من هتلر أن يركب إلى هنا ويرى كيف أن كل فلاح لديه بقرته الخاصة وعنزته، حتى يستطيع القول "أنظر كيف يعمل النظام الشيوعي بكفاءة. كل الشائعات التي سمعتها عن أناس يهلكون جوعاً غير صحيحة". ربما ذلك هو السبب الذي فعلوها من أجله".

طأطأ ألوشا برأسه متفكراً. إذا كان يحتمل أن يستولي الألمان على الجمهورية، فقد كان مراد محقاً، لأنه سيتحتم عليه أن يقرر ما يؤمن به للمستقبل. سوف يضطر إلى القتال مع جانب أو الآخر، لكنه كان يعرف

القليل جداً عما يحدث في أمكنة مثل موسكو وبرلين. القضية برمتها مربكة جداً. سيقاتل، مثل جميع الرجال الآخرين في القرية، الذين انضموا إلى الجيش، ليحمي بلاده وبيته ضد الغازي. كان جميع الرجال اللائقين جسدياً يقاتلون الغزاة على جبهات القتال في الشمال.

لقد كان الدفاع عن أرضهم ضد الغزو واجباً. ولكن لماذا كان مرتبكاً وغير واثق إلى هذه الدرجة؟

استرخى الفلاحون لبضعة أسابيع في إحساس بالأمان. لم يحدث شيء على الإطلاق. لم يحضر إلى القرية أحد، لذلك لم تصلهم أية أخبار عما يحتمل أنه يحدث في الحرب الدائرة رحاها فوق أوروبا كلها. أمضوا أيامهم كما أمضوها على الدوام، يكافحون للعثور على ما يكفي لإطعامهم، ويعتنون بالحيوانات. تجرأ بعضهم على الأمل بأن الوضع سيظل هكذا على الدوام، وأنهم سيتركون لشأنهم من قبل العالم الخارجي للاستمرار في حياتهم: إنهم سيكونون قادرين على الاستنسال من مواشيهم وزيادة ثروتهم المتواضعة حتى يصبحوا أقل عرضة للجوع في الأعوام القادمة. أصبح تركهم لشأنهم ببساطة ترفاً لشعب لم يعرف أبداً متى ستنزل عليهم المصائب التالية.

مع أن ألوشا استمتع بالحياة الهادئة بقدر أي شخص آخر، إلا أن قلبه كان مثقلاً بالهموم. أدرك أنه لن يتمكن من قضاء بقية حياته في القرية حيث لا يكاد يوجد أناس صغار السن آخرون. فمهما كانت درجة صمت الأيام هنا، عرف أن هناك معارك هائلة تستعر في كل أنحاء العالم، وأنه، طال الزمان أم قصر، سيضطر إلى الانضمام لهذه الحرب. بشكل خاص، لم تكن هناك فتيات يافعات في القرية، يمكن أن يرغبن في الزواج وإنجاب الأطفال. عرف أنه لن يصبح من ذاك الطراز من الرجال الذي سيفرح بمجرد العمل في الحقول أثناء النهار، والنوم طيلة الليل.

راقب أحمد حفيده أثناء عمله، وقد ثقل جبينه بالتفكير وابتعدت عيناه، وعرف أنه لن يطول الوقت قبل أن يختفي الصبي في داخله كلياً وتستولي عليه شخصية الرجل. لم يعتقد بوجوب استعجال عملية التحول، فهي ستحصل طبيعياً. فقد كان بدوره يستمتع بأيام السلام، يراقب الحيوانات وهي ترعى ويتذكر الأزمنة السابقة، لكنه عرف أنها لن تدوم وقتاً أطول بكثير.

استمر ألوشا يعمل في الحقول حينما سمع ضجة أشبه بالطنين. اعتقد بداية أنها حشرات ولم يزعج نفسه بالنظر إلى أعلى. مع تنامي حدتها، رفع رأسه، متسائلاً عما إذا كان هناك خطر من أن يلسع هو أو الحيوانات من قبل شيء ما. أدرك أن الصوت قادم من مسافة بعيدة وأنه أعلى بكثير من أن يصدر عن أية حشرة لم يصادفها من قبل أبداً. رفع قامته واتكأ على مجرفته، يحدق في الأفق بالاتجاه الذي ظن أن الصوت قادم منه. كانت الشمس ساطعة فاضطر إلى زم عينيه ضد السطوع حتى يستبين النقاط القادمة. وقف لدقيقة كاملة، يراقب بينما ظل الصوت يتعاظم وأدرك أنه ينظر إلى ثلاث طائرات صغيرة، تقترب من القرية.

استمر يحدق مسحوراً لوهلة بالمنظر النادر لدرجة أنه لم يستطع أن يفكر في أي شيء آخر. ثم أدرك أن الطنين يمكن أن يشير إلى الخطر، تماماً مثل صوت دبور لاسع عملاق. أصبح بحاجة إلى الاحتماء. كان بعيداً جداً عن البيوت حتى يستطيع أن يعود إليها مع وصول الطائرات فوق رأسه، لذلك ركض باتجاه الأشجار. أجفلت الحيوانات من حركته المفاجئة، ونبهتها الضجة في السماء، فأخذت تدير عيونها في محاجرها، تثغو وتخور وتركض بعصبية في أنحاء الحقل. لم يعرفوا كنه الطائرات، لكنهم عرفوا أن أي شيء قادم من السماء يمكن أن يكون مرعباً، فقد تحركت ذكريات جينية مظلمة في رؤوسهم الغبية وكونت صوراً لطيور مفترسة وعقبان، جعلتهم الضجة يشعرون بالانزعاج.

راقب ألوشا من مخبئه بين الأشجار بينما وصلت الطائرات إلى مجال تركيزه البصري. كانت روسية، عرف ذلك لأن جده قد شرح له كيف يتعرف عليها، لكنه مع ذلك لم يعرف لماذا هي هناك. غضب لأنها تزعج الحيوانات، في اللحظة التي كانت تستقر فيها بعد رحلتها من "الكولخوز".

كانت تطير في تشكيل، ورأى ألوشا شيئاً ما يسقط من الطائرة الوسطى. لم يستطع أن يتبينه. فهو أصغر من أن يكون رجلاً. بعد خروجه من الطائرة ببضع ثوان، بدا الشيء وكأنه ينفجر إلى سحابة بيضاء. تمددت السحابة وتفرقت القطع اثناء مرور الطائرة، مسببة ريحاً لعشرات القطع فوق مساحة أوسع وهي تتخذ طريقها البطيء نزولاً على مجرى الرياح، تتلوى وتطفو باتجاه القرية تحتها، وتبتعد في الأثناء عن بعضها بعضاً طيلة الوقت. كانت قصاصات ورق. بعضها، وقع في ريح متعاكسة، رفرف بدعة واستقر على أرض الحقل، ما سبب للحيوانات موجة هلع متجددة.

مع بداية زوال طنين المحركات مرة أخرى، سلك ألوشا طريقه خارجاً من الدغل والتقط واحدة من قطع الورق. كانت مرطبة من الندى الذي ما زال يغطي الحشائش. قرأ الرسالة المطبوعة. "هذه رسالة أمل إلى الجمهوريات القفقاسية: ستكونون أحراراً من ظالميكم قريباً. إن الجيوش الألمانية العظيمة تزحف لتحرركم وستعبر حدودكم قريباً لتساعد على تخليصكم من الحكم الروسي والشيوعي الذي أوصلكم إلى حالة الفقر. فقط اصبروا لمدة أطول قليلاً وسوف يكون الجنود الألمان عندكم لتخليصكم من التسلط".

مشى ألوشا غارقاً في التفكير عبر الحقول، يلتقط المزيد من الأوراق. كانت متطابقة. لاحظ أن البقرة، التي عادت في هذه اللحظة إلى الجلوس والاستقرار بعد صمت السماء وزوال الخطر، تمضغ واحدة من الرسائل بكل دعة وهدوء.

لدى عودة ألوشا إلى القرية، أصبح بوسعه رؤية الناس يقرأون المنشورات في كل مكان. بعض منها كان يتطاير بين المنازل، ويزين الأشجار والسطوح. دخل إلى البيت وألفى أمه وجده جالسين إلى الطاولة، وقد أمسك كل منهما بصحيفة ورق.

سأل ألوشا: "لماذا يخبروننا بهذا؟ لقد كانت تلك طائرات روسية".

"لا بد وأن الألمان في طريقهم إلى هنا، ولا بد أن ستالين يأمل في عقد اتفاق ما مع هتلر". نفض أحمد كتفيه. فقد كان مرتبكاً بقدر حفيده. فقد أصبح فهم ما تحاول السلطات أن تحققه، ضرباً من المستحيل. أصبح يتساءل أحياناً عما إذا كان العالم كله قد أصيب بمس من الجنون، تساءل ألوشا "لماذا يتكلمون عن الروس على أنهم ظالمينا؟" وهو يجلس إلى جانبهما.

"ربما يريدون أن يتعاونوا مع هتلر، ولكن لماذا قد يرغبون في طلاء أنفسهم بمثل هذه الألوان الداكنة؟" وافقه أحمد "أنه أمر غامض". لم تقل لوسا أي شيء. فقد يئست منذ وقت طويل من الرجال والطريقة التي يحكمون بها شعوبهم. كل ما تعرفه هو أنه لم يزل هناك نقص في الطعام، وإذا استطاع أي من الروس أو الألمان أن يعثر على طريقة لتغيير ذلك الوضع، فهي ستكون قانعة تماماً. استمر القرويون يفكرون في معنى الرسائل الهابطة من السماء، حتى وصل مراد بشير وفيتش عائداً إلى وسطهم. جاء هذه المرة في عربة جيش، وليس على ظهر جواد. اصطحب معه حارس وسائق ودخلوا القرية وسط زعيق الكوابح وغيمة من الغبار.

قال ألوشا حينما رأى النقيب يخطو باتجاهه مسرعاً "هكذا إذاً، جئت لتستعيد الحيوانات. لقد ظننت أنك ستجعل هذه الخطة تستمر سنة على الأقل قبل أن تعكسها".

أجابه مراد بحزم "ما الذي تتحدث عنه؟". فقد قضى النهار بطوله مسافراً من قرية إلى الأخرى وكان متعباً من التعامل مع غباء وعناد المحليين. لم يستطع أن يفهم السبب في عدم فهمهم على الفور لاستحالة النقاش مع سلطة عظيمة مثل الجيش الروسي، ولا السبب في عدم رغبتهم بإطاعة أوامره بمثل استجابة الرجلين اللذين يسافر معهما.

سأله ألوشا ببراءة هازلة "ألم تحضر لاستعادة الحيوانات وأخذها إلى الكولخوز؟"

اقترب منه مراد، وهو يعاني لمنع غضبه من الانفجار "أنت! يفترض فيك أن تبدأ بالتعامل مع الحياة بمزيد من الجدية. أنت لم تعد طفلاً: يجب أن تظهر المزيد من الاحترام وتؤدي دورك الكامل في الكفاح العظيم من أجل شعبنا".

"اي شعب سيكون ذلك إذاً؟" سأل ألوشا، وهو يلتقط قطعة ورق من الشارع حيث كانت ترقد. "هل سيكون ذلك الألمان المحررون أم الروس الظالمون؟".

خطف مراد الورقة من يده. صرخ قائلاً: "دعاية هزلية! إذا حاول الألمان مجرد وضع قدمهم في القفقاس فسوف نفجرهم إلى أشلاء. يظنون أن بإمكانهم إخافة الحمقى مثلك بقطع ورقهم الصغيرة وتحطيم معنوياتكم. إنهم يريدون أن يمنعوكم من القتال في سبيل القضية. ألا ترى ذلك؟".

قال ألوشا "لقد جاؤا في طائرات روسية. إن قومك هم الذين يبعثون بهذه الرسائل. ماذا يفترض فينا أن نفكر؟".

زمجر مراد بغضب "لقد سرقوا طائراتنا حتى يتمكنوا من الطيران فوق حدودنا بدون مقاومة. إنهم أجبن من أن يسافروا تحت ألوانهم الخاصة."

"أتقول أن الألمان سرقوا الطائرات؟" بدأ ألوشا يجمع قطع الأحجية إلى بعضها.

قال مراد متبجحاً "طبعاً فعلوا ذلك. هل تعتقد أننا يمكن أن نوزع قمامة مثل هذه؟" كوّر الورقة حتى أحالها إلى كرة صغيرة صلبة، ورماها في التراب. "إنهم يلقون بها على كل الريف". قال ألوشا "إذاً فالألمان ليسوا بعيدين عنا؟ إذا كان يسرقون طائراتكم ويطيرون فوق مناطقنا...".

استرد مراد سيطرته "الحرب في كل مكان". وقد أدرك أنه لا يعطي انطباعاً جيداً. "ذلك هو السبب الذي يدعوك إلى أن تهب نفسك للدفاع عن وطنك وعائلتك. لا يمكنك أن تكتفي بالجلوس هنا وانتظار قدوم الألمان وسرقة كل ما تملكون، ليغتصبوا نساءكم ويعدموا جميع الرجال. يجب عليكم أن تقاتلوا. تعال إلى الجبال. إننا نقوم بتشكيل مجموعات من قوات الدفاع المدربة بدرجة عالية لإبقاء العدو بعيداً. لا يمكنك أن تسمح للألمان بمصادرة كل الحريات التي كسبناها. يجب أن نتوحد".

حدّق ألوشا بقوة في عيني النقيب. شعر بالإطراء لأن الرجل كان يحاول أن يجنده ولم يكن متأكداً كلياً من الأمر الصحيح الواجب عمله. كان بحاجة إلى الوقت للتفكير. هناك شيء في مراد لا يثق به. لا شك أن الرجل جندي صالح، لكن ألوشا لم يصدق أنه يقول الحقيقة. بل كان أكثر ميلاً إلى تصديق ما قرأه على قطع الورق. لم تفعل الشيوعية شيئاً سوى جعل حياتهم أسوأ، وقد ظل الحكم الروسي قاسياً ومدمراً.

لقد جرى امتداح الألمان على أنهم محرريهم المحتملين، ولا تعني حقيقة انقلاب ستالين ضدهم أي شيء. ما هي الحريات التي يتحدث عنها النقيب؟ كيف يمكن للحياة أن تصبح أسوأ بوجود الألمان كمحتلين أكثر مما هي مع الروس؟

استمرت هذه الأفكار تدور في راس ألوشا بينما طفق النقيب يدق الأرض برجليه بنفاذ صبر.

"يجب أن تقرر. أنا رجل مشغول. لدي دزينة أخرى من القرى يفترض في زيارتها قبل الغسق. هناك العديد من الشباب التائقين إلى القتال دفاعاً عن بلادهم وشعبهم، حتى لو لم تكن أنت تنوي ذلك".

قال ألوشا "إذاً ربما يحسن بك أن تمضي في طريقك، ليس لك شيء هنا".

"ياه! عندما تنتهي الحرب سوف يتم تقييمك على جبنك... سوف تتم محاكمتك". أصيب النقيب بحالة تهيج واضحة، وربما كان سيسحب مسدسه الماكاروف ويطلق النار على ألوشا. كان سيفعلها لو لم يكن هو نفسه شركسياً. بدلاً من ذلك، استدار على عقبيه وخطا مسرعاً عائداً إلى عربته، مشيراً إلى السائق بالتحرك لحظة جلوسه في مقعده. لم يزعج نفسه بمجرد إلقاء نظرة خلفية باتجاه ألوشا.

دخل ألوشا إلى بيته ببطء وجلس بقرب المدفأة حيث كانت والدته تعد يخنة من التوت البري الذي جمعته من الغابة. لم يقل شيئاً، واستطاعت لوسا أن ترى من تعبيره أن ولدها يريد لو يترك لشأنه.

في تلك الأمسية، وبينما كانت وحماها جالسين بهدوء، وقد بدأت عيناهما تغمضان من الإرهاق بعد يوم من الكفاح للبقاء على قيد الحياة، تكلم ألوشا قائلاً "أنا ذاهب".

سأل أحمد "إلى أين أنت ذاهب؟".

أجاب ألوشا "سأذهب إلى نالتشك، أنا بحاجة إلى معرفة المزيد عما يحدث. ربما أكون بحاجة للانضمام إلى المقاتلين... لا أعرف. من المستحيل أن يعرف المرء من يقاتل أو ما الذي يؤمن به طالما ظل يعيش هنا. نحن نعتمد على كلمات الناس الآخرين، لكن ليست لدينا أية فكرة عمن يكذب علينا منهم. سأكون في المدينة قادراً أن أكتشف حقيقة الوضع بنفسي. ربما أنضم إلى الحزبيين".

شهقت لوسا وظهر عليها اليأس. لكنها لم تقل أي شيء.

الفصل الخامس

مع خفوت صوت القطار واختفائه في صمت الليل البولندي، استمر الرجال الثلاثة في السعي الحثيث نحو الظلال المعتمة للأشجار التي لم يكادوا يرونها على بعد بضع مئات من الأمتار. كان الألم في ركبة ألوشا يسحبه باتجاه فقدان الوعي، لكنه أجبر نفسه على البقاء صاحياً، وهو يقفز على ساقه السليمة، محاولاً تخفيف الوزن الذي يضعه على أكتاف صديقيه. بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى وأصبحوا يجدون صعوبة متزايدة في شق طريقهم من خلال التيارات. استحال عليهم قياس الأمكنة التي يحتمل وجود ثقوب عميقة تحت السطح فيها، بحيث أصبح الواحد منهم يندفع ليغوص حتى حوضه في الثلج، ويفقد الاثنين الآخرين توازنهما، فيضطرون كلهم إلى إخراج أنفسهم قبل أن يتمكنوا من الاستمرار.

الحسنة الوحيدة للبرد الشديد هي أن يد ألبرت المعطوبة وصلت إلى حد التبلد الكامل فاستطاع أن يركز جهوده كلها على مجرد تحريك ساقيه بضع خطوات إلى الأمام في كل مرة. كانت كل خطوة مجهوداً مضنياً، لكنهم كانوا على الأقل قد خرجوا من القطار أحراراً. لم يتكلم أي منهم، بل ركزوا طاقاتهم على النجاة في رحلتهم القصيرة نحو الأشجار، بدون أن تكون لديهم أية فكرة عما سيفعلونه تالياً، أو ما قد ينتظرهم.

بعدما بدا لهم كدهر، أحسوا بمظلة الغابة المعتمة تنغلق عليهم، وأصبح الثلج خفيفاً. استطاعوا حتى أن يسمعوا طقطقة تكسير الأغصان

المتجمدة الصغيرة وهي تتحطم عبر الغطاء الثلجي الخفيف.

قال عسكربي "نحن بحاجة إلى عمل ملجأ والنوم لبضع ساعات حتى يأتينا النور. يجب أن نبقي بعضنا البعض دافئين".

حل ظلام دامس حجب عنهم رؤية ما يفعلونه حينما احتجب القمر، لذلك اضطروا إلى الزحف فيما حولهم بحثاً عن الأغصان المتساقطة التي يمكنهم أن يغطوا أنفسهم بها، وفي الأثناء، تشخط الفروع والأغصان التي لا يرونها وجوههم وأيديهم. حفروا في الثلج وأحدثوا ثقباً في الأرض كبيراً بما يكفي ليتسع لتكوم ثلاثتهم، يحتضن أحدهم الآخر طلباً للدفء. انتقلوا إلى نوم خفيف غير مريح، وكل منهم يخشى إذا استغرق في نوم عميق، أن لا يصحو بعده أبداً.

حتى عندما انبلج الفجر، لم يكن الضوء يخترق الأشجار المظلمة، المكسوة بالثلوج. استفاق الأصدقاء الثلاثة في نفس الوقت على اختلاط آلام الجوع والإرهاق مع العذاب الفعلي لإصابتهم والبرد القارس. لكنهم ما زالوا أحياء، ولديهم الآن الفرصة لإنقاذ حياتهم.

قال ألوشا "يجب أن نعثر على الطعام والمأوى. حتى أستطيع أن أريح هذه الساق بما يكفي لأن نتمكن من السفر عائدين إلى النمسا".

"إذا كشفنا عن وجوهنا خارج هذه الغابة، فسوف يقبض علينا الروس في لمح البصر".

قال ألبرت "لن يكون بمقدورنا أن نسبقهم في الجري".

أجاب عسكربي "ليس لدينا خيار آخر. إذا لم نأكل ونعثر على المأوى، سنكون ميتين في مثل هذا الوقت من صباح الغد بكل الأحوال".

قال ألوشا "أتفق معك، يجب أن نصل إلى مكان آمن حيث نستطيع أن نستريح ونأكل لبضعة أيام. بعدها سنصبح قادرين على المضي قدماً".

صمت ألبرت هنيهة، وهو يقلّب الخيارات المتاحة لهم، ثم قال في النهاية "أنت محق". بما أنه لم يكن هناك أي أمل في العثور على أي شيء يمكن أكله في الغابة، نهضوا على أقدامهم واتخذوا طريقهم باتجاه النور. أوصل الألم في ساق ألوشا الرجل إلى الرغبة في الصراخ مع كل حركة. عض على لسانه بقوة إلى درجة أنه أصبح بإمكانه أن يتذوق طعم الدم الذي يتقاطر إلى حلقه، دافئاً إلى حد التطمين. ولكن مهما بلغت حدة الألم، لم يكن ألوشا على وشك إظهار الضعف أمام صديقيه: لأن "الخابزة" التي فطر عليها، منعته من ذلك.

هبت ريح جعلت تذرو الثلج من الأرض، فاستحال عليهم معرفة ما إذا كان هناك ثلج جديد يتساقط. جعلت العاصفة الثلجية الدوامة تقدمهم أبطأ، لكنها وفرت لهم التغطية على الأقل، بحيث حجبتهم عن أية عيون متلصصة وغطت آثار أقدامهم بمجرد أن رفعوها للخطوة التالية.

لم يكن بإمكانهم، ورؤوسهم محنية إلى الأسفل اتقاء الريح، أن يروا أكثر من بضعة أمتار أمامهم، ولم تكن لديهم اية طريقة للحكم على الاتجاه الذي ينبغي عليهم سلوكه، أو ما إذا كانوا ببساطة، يخوضون في دوائر. فقد ألقوا بأنفسهم إلى رحمة الأقدار، آملين أن يقادوا إلى السلامة بحظهم المجرد.

لم يستطع أي منهم أن يقدر المدة التي مشوا خلالها. فقد بدت كل خطوة وكأنها تستغرق الأبدية وهم يخوضون ضد العناصر المعادية. كان واحد منهم يتعثر كل بضعة أمتار، ليسقط الآخرين على ركبهم، فيصرخ ألوشا من شدة الألم، فيتساءلون ما إذا كانوا سيهلكون قبل الوصول إلى السلامة. لكنهم ينهضون بعد كل سقطة ويستأنفون المسير. بعد ساعتين، لاح الشكل الأسود لحظيرة أمام أعينهم، رغم أنه لم تكن لديهم فكرة عما يكون. لم تكن لديهم أية فكرة عما إذا كانوا يشقون طريقهم نحو ملاذ أم أنهم يسيرون إلى فخ محتمل. منحتهم الثلوج

الدوامة بعض الغطاء أثناء اقترابهم من البناية. مدَّ عسكربي يده وتلمس الجدار فأحس به خشبياً. تحركوا بمحاذاته بحذر، متحسسين طريقهم، حتى وصلوا إلى باب. هو يفتح إلى الخارج، مسدود بالثلج. سقطوا على ركبهم، يحفرون بأيديهم ليفتحوا ما يكفي من المجال لفتح الباب بالقوة، حتى يزحفوا داخلين. بعد لأي، وصلت الفتحة إلى حوالي نصف متر واستطاعوا أن يلقوا بأنفسهم إلى الداخل، فرقدوا هناك، يلهثون على الأرضية، وقد نجوا أخيراً من الريح المؤلمة. همس ألوشا "نحن بحاجة إلى التغطية". تلفتوا حولهم فلمحوا أكواماً من التبن عند الطرف القصي من المبنى. زحفوا باتجاهها، وحفروا طريقهم إلى داخل التبن ذي الرائحة المحببة. بمجرد أن اختفوا عن الأنظار، انتقل ثلاثتهم إلى نوم عميق مرهق.

تغلب التعب على آلام إصاباتهم والجوع الذي كان يعض معدهم. منحهم إغفاءً قريباً من الموت، لكن أحداً منهم ما كان ليهتم في تلك اللحظة لو لم يستيقظ بعدها أبداً، فقد كانوا ببساطة، بحاجة إلى النوم. عندما أفاقوا، كان النور ما يزال سائداً في الخارج، مع أن ألوشا تولد لديه شك في أنهم ربما خسروا يوماً كاملاً وليلة أخرى. لم تكن لديهم طريقة للتأكد، لكن ذلك لم يكن مهماً. أحسَّ بالخوار والهذيان. بقي الألم في ركبته ثابتاً، ينبض إلى داخله مثل نبضة القلب. بات يخشى من أن الألم سرعان ما سيدفعه إلى الجنون. قال عسكربي "يجب أن نعثر على طعام. سأخرج وألقي نظرة حولي. سأعود ببعض الثلج الذي يمكن أن نذيبه إلى ماء لنشربه".

"نعم" سحب ألوشا بضعة أنفاس عميقة "أنا مضطر إلى البقاء هنا. لا أعتقد أنني سأتمكن من تحريك هذه الساق حالياً".

قال ألبرت "يجب أن نلقي نظرة على الجرح".

نظر إليه عسكربي ملياً ثم طأطأ الرجلان رأسيهما معاً.

أشار عليه عسكربي "لا تتحرك" وفعل ألوشا كما قيل له.

مزق ألبرت قماش بنطال ألوشا، وكشف عن الركبة. سحب كلا الرجلين شهقة حادة لحظة رؤيتهما للجرح. فقد انكسر العظم. واندفع من خلال الجلد عنوة. ما جعل الوضع يبدو وكأن عظمة الركبة كلها قد انفجرت مفتوحة. قسم من الدم تجمد فعلياً، وتحول إلى لون أسود قبيح. وفاحت رائحة خفيفة، منفرة.

قال عسكربي "بمجرد أن نأكل شيئاً ما، سنحاول أن نعثر على طبيب".

قال ألوشا "الأمر في منتهى الخطورة" غير راغب في النظر إلى الجرح بنفسه: فقد استطاع من رؤية النظرة المرتسمة على وجهي صديقيه أن يدرك مدى سوء منظره. أحسّ بالرغبة في التقيؤ تصعد إلى حلقه، وأجبرها على التراجع.

أجابه عسكربي بواقعية "إذا لم تعرضه على طبيب، فقد يقتلك هذا".

قال ألوشا "إذاً يفترض فيكما أن تتركاني هنا وتستمران بدوني. سيقبض عليكما حتماً إذا اضطررتما إلى حملي معكما".

لم يقل عسكربي شيئاً لوهلة، ثم "سأذهب للبحث عن طعام. سيبقى ألبرت معك. لن أغيب طويلاً".

جاءت اندفاعة الهواء البارد والضوء الساطع، لحظة فتح الباب شقاً صغيراً بمنتهى الحذر. كان الثلج قد تكوّم مرة أخرى في الخارج، ما جعل خروجه صعباً، لكنه على الأقل توقف عن التساقط. كل شيء في الخارج صامت وهادئ. الحظيرة التي بات فيها جزء من مستوطنة زراعية صغيرة. استطاع عسكربي أن يشاهد بيت المزرعة من خلال شق الباب، منزل متواضع يتصاعد من مدخنته شريط دخان يعزز الحرمان الذي يحسه. استطاع أن يتخيل الوضع المحتمل في داخل ذلك

المطبخ، بوجود النار المشتعلة ورائحة طبخ الطعام. أجبر نفسه على عدم التفكير بذلك. لأن الاحتمال الآخر هو أن الناس الذين يعيشون هنا، يزودون الروس الذين يحكمون بولندا في هذه اللحظة، بالتقارير مباشرة.

لم تظهر أية علامة على الحركة، لذلك دفع بطريقه خارجاً من الباب، وحذاؤه يسحق الثلج المتساقط حديثاً. اتخذ طريقه حول الحظيرة، حريصاً على البقاء قريباً من الجدار، عيناه تتقافزان فيما حوله طيلة الوقت. شاهد المزيد من الأبنية على مرمى البصر: أصغر من الحظيرة وتكاد تكون مغمورة كلياً بالثلج. اتخذ طريقه نحوها. استطاع لدى اقترابه أن يسمع قرق وحركات الدجاج وبطبطة بطة. انقض على القن مثل ثعلب، عثر على الباب وفتحه ثم انسل إلى الداخل. رفعت الدجاجات والبطات أصواتهن قليلاً، بالتحية على ما يبدو، أكثر منها بالذعر، ثم عدن إلى الهدوء مثل بضع نسوة عجائز يثرثرن وهن يتابعن أعمالهن المنزلية. احتوى القن على دزينة من الدجاج على الأقل. هذه مزرعة مدارة بكفاءة على ما يبدو. لأن دزينة الدجاج كانت ستجعل الرجل غنياً في القرية التي نشأ فيها عسكربي.

وقف للحظة يتشرب دفء القن، ولم يتضايق مطلقاً من الرائحة النفاذة التي تحرق دواخل منخريه. ثم بدأ بالبحث عن البيض. لا بد وأنه مر يوم كامل على الأقل منذ تواجد أي شخص هناك، لأنه ظهر وكأن البيض موجود تحت كل دجاجة تقريباً. بدأ يملأ جيوبه ببطء وأناة بينما الدجاجات تزمجر وتتمتم معبرة عن اعتراضها، ثم تراجع خارجاً، وأغلق الباب خلفه بهدوء. لحظة همّ بالتوجه عائداً إلى الحظيرة، لمح دلواً مركوناً تحت إفريز القن، موجود هناك ينتظر أن يملأ بالعلف أغلب الظن. تناوله وجرّه على الأرض من مقبضه، بحيث ملأه بالثلج، قبل أن يتخذ طريقه بغنيمته نحو باب الحظيرة.

في الأثناء، تمكن ألوشا من رفع نفسه إلى وضعية الجلوس، لكن

ألم التحرك أوصله إلى حافة الإغماء مرة أخرى. جلس ألبرت إلى جانبه، يراقب صديقه بقلق واهتمام بينما استمر ألوشا يكافح للبقاء صاحياً ومسيطراً على الألم الذي يسعى إلى قتله. ركع عسكربي إلى جانبهما وأخرج البيضات من جيوبه. لم ينبس أي منهم بكلمة بينما اشغل الثلاثة أنفسهم بكسر قشور البيض ومص محتوياته إلى معدهم الخاوية المكتوية بالحموضة. جاء طعم الغذاء السلس المنزلق في روعة الرحيق الإلهي حيث بدأ يهدئ ثورة عصائر المعدة. عندما استهلكت البيضات كلها، بدأ عسكربي يعمل على دلو الثلج بيديه ليسرع عملية الذوبان ويقدم لهم ماء شرب نظيفاً.

سأل ألوشا "كيف هو الوضع في الخارج؟".

"هي مزرعة صغيرة، لكنها مزدهرة فيما يبدو".

"هل رآك أحد؟"

"لا أظن ذلك. لكنها مسألة وقت قبل أن يلاحظوا غياب البيض والدلو".

سأل ألبرت "هل يعني ذلك أنه يفترض فينا معاودة التحرك بسرعة؟".

"نعم" قال عسكربي "ربما يفترض فينا ذلك، حفاظاً على سلامتنا. الله يعلم ما يمكن أن يفعلوه باللصوص".

قال ألوشا "سيتحتم عليكما السفر بدوني، لن أتمكن من التحرك قبل بضعة أيام على الأقل".

أجاب ألبرت "إذاً سنخاطر وننتظر لبضعة أيام. لن نتركك خلفنا" وهو يعلم أنه بهذا القول، يتحدث نيابة عن عسكربي أيضاً.

لم يقل عسكربي أي شيء بل مال مقترباً من ساق ألوشا ليلقي نظرة فاحصة على الجرح، ثم قال بعد هنيهة "سنضطر إلى استدعاء طبيب

لك. هذا الجرح لن يشفى من تلقاء نفسه، لا في بضعة أيام، ولا حتى في بضعة شهور" .

أصر ألوشا "إذاً ينبغي عليكما أن تتركاني. سيستدعي المزارعون طبيباً لي وتكونان قد ابتعدتما" .

انتهره عسكربي "وفّر أنفاسك إذاً، ألبرت محق. لن نذهب إلى أي مكان بدونك" .

"في هذه الحالة، امنحوني مجرد يوم لأستريح ثم سأحاول المشي. إذا لم أتمكن من المشي بعد ذلك اليوم، لن يبقى لديكما خيار غير الذهاب" .

وافق عسكربي "سننتظر يوماً، وبعده نتحدث مرة أخرى.

• • •

جلس ستينكو صامتاً يراقب زوجته، ماريا، وهي تعمل على المدفأة. نفث من غليونه في رضى وقناعة. لم يعودا بحاجة إلى التحدث ليشعرا بالارتياح في صحبة أحدهما للآخر. فقد مضت عليهما أكثر من أربعين سنة سوية. ربيا ولدين، وكانا سوية حينما توفي الولدان. بكيا سوية وكرها سوية، لكنهما لم يرغبا في أي شيء آخر سوى البقاء سوية. رائحة العصيدة التي تحوسها شهية. أثناء شبابه، كان ستينكو يجد أيام الشتاء صعبة على التحمل. فهو يكره الاحتجاز في البيت، لأن عضلاته تؤلمه لتوقها إلى التمرين وعقله يحن إلى مشاهدة مناظر الريف التي تحيط بالمزرعة.

أما الآن، مع دبيب الشيخوخة في عظامه، والألم في عضلاته، فقد أخذ يجد بعض السلوى في قضاء بضعة أسابيع محتجزاً داخل البيت مع ماريا، مكتفياً بالتفكير في كل الأوقات التي مرت بهما.

قالت ماريا "أنا خارجة لأجمع البيض" وهي تضع اللفاع على رأسها

وتلف الوشاح على جسمها. "وسوف أعلف الدجاج. راقب العصيدة واحرص على أن لا تحترق".

ابتسم ستينكو وطأطأ، وهو يعض بأسنانه على غليونه، واقفاً عند المدفأة، يحرك الخليط السميك المدهن. اتخذت ماريا، التي أصبح شكلها شبه كروي لكثرة ثيابها الشتوية، طريقها عبر الثلج نحو قن الدواجن. مدت يدها بطريقة آلية لتناول الدلو الذي تستخدمه لاغتراف علف الدجاج وأجفلت عندما اكتشفت غيابه.

تمتمت لنفسها "ستينكو! أيها الأحمق العجوز، لم لا تستطيع أن تترك الأشياء في أمكنتها الصحيحة؟".

تلفتت إلى كل جهة حولها، محاولة أن تكتشف ما يمكن أن يكون زوجها قد فعله بالدلو، لكنها لم تره في أي مكان. ستضطر للعودة إلى البيت لتسأله. كلا! غيرت رأيها. ستعود وترسله ليقوم بعملية الإطعام، بما أن حماقته هي التي تسبب كل هذا الإزعاج. دفعت باب القن وفتحته لتجمع البيض. كان العش الأول فارغاً، الأمر الذي فاجأها. فقد ظلت هذه الدجاجة بياضة نشيطة في العادة. تحركت نحو التالي والتالي والذي يليه.

لم تكن هناك أية بيضات في أي مكان. تراجعت ماريا ووقفت مندهشة، تحدق في الدجاجات. قرقت الدجاجات معاتبة غاضبة. تتساءل أين هي وجبتها؟

عادت ماريا أدراجها خارجة من القن وأغلقت الباب. وقفت لحظات طويلة، تفكر في الموقف. ربما قام ستينكو بجمع البيض في وقت مبكر، وضعه في الدلو، ثم تركه في مكان ما ونسي الموضوع. إنه ينسى الأمور بشكل مطرد في شيخوخته. لا بد وأن ذلك هو ما حصل. خفضت رأسها وانطلقت عائدة إلى البيت لتوبخه على فعلته. إنها تحب أن تدوس في مواقع أقدامها أثناء رجوعها، حتى تترك أقل ما يمكن من آثار الأقدام

في الثلج الجديد. هي لعبة تمارسها مع نفسها منذ أن كانت فتاة يافعة. لحظتها فقط، وهي تراقب آثارها، انتبهت إلى أنها لم تكن الآثار الوحيدة. فقد رأت آثار أقدام لرجل.

فكرت في البداية أنها تعود إلى ستينكو بالضرورة، وقد تقودها إلى الدلو المفقود. ثم فكرت أكثر قليلاً. إن زوجها جالس في الغرفة نفسها، معها منذ ساعات عديدة. هذه الآثار تبدو جديدة: هي حتماً حدثت بعد زخة الثلج الأخيرة.

تبعتها وهي تتحرك بحذر، محاولة أن تدوس في داخلها، لكنها وجدت الخطوات واسعة جداً على ساقيها القصيرتين المكتنزتين. دارت حول زاوية الحظيرة ورأت أن الآثار تؤدي إلى الباب. وقفت ساكنة للحظة، تفكر، ثم دارت على عقبيها وعادت إلى البيت.

"هل ذهبت إلى الحظيرة اليوم؟" سألت وهي تستعيد الملعقة من زوجها وتستأنف التحريك.

"الحظيرة؟" فكر ستينكو بجدية. فقد أصبح من الصعب أحياناً التفريق بين يوم وآخر، لأنها غدت متشابهة جداً. قال بعد لأي "لا، لا. لم أذهب إلى الحظيرة منذ أيام".

"وهل ذهبت إلى قن الدجاج؟".

"ليس اليوم".

"وهكذا أنت لا تعرف أين يوجد الدلو؟".

"أي دلو؟" لم يستطع ستينكو أن يفهم ما تحاول التوصل إليه.

"الدلو الذي أستعمله للعلف. ليس موجوداً في مكانه المعتاد".

قال ستينكو "لا بد وأنك تركته في موضع آخر. فأنا لم ألمسه".

حدقت فيه ماريا بتركيز للحظة طويلة، وكأنها تحاول أن تجبره على

الاعتراف بأنه يكذب ويغطي على حماقة من نوع ما، سببها الخرف.

قالت في النهاية "حسناً إذاً، هناك شخص ما، يختبئ في حظيرتنا ويسرق البيض".

سأل ستينكو "من؟".

أجابت "وكيف لي أن أعلم أيها العجوز الأحمق؟" ثم رفعت العصيدة عن المدفأة وغطت الوعاء. "شخص لا يريد أن يتم العثور عليه، على ما أظن: شخص هارب مّن الروس".

قال ستينكو "لا بد وأنهم ضباط بولنديون. إن الروس يقومون بتجميعهم ونقلهم إلى جهة ما".

وافقته ماريا "ذلك ما ظننته، سيرغب أي ضابط بولندي في البقاء مختبئاً في هذه الأيام، بدلاً من الاختفاء في معسكرات العمل أو حفر الإعدام".

ران الصمت على كليهما لحظات قليلة، بينما يكوّن عقلاهما نفس الصور لولديهما المتوفين. ملأت كراهية غير مصرح بها للروس جو الغرفة. فقد ظلت بعض الأشياء أشد إيلاماً من القدرة على البوح بها.

قالت ماريا أخيراً "كل ما نعرفه هو أنهم جائعين بالضرورة، إذا كان يسرقون بيضنا".

وافق ستينكو "لا بد أنهم جائعون، ويعانون من البرد".

قالت ماريا "سأخرج هذه إليهم" مشيرة إلى القدر ذات المقبض.

"وسأخبز لهم بعض الخبز".

اشتكى ستينكو "وماذا عنا؟".

انتهرته ماريا "لن تموت جوعاً. في الحقيقة، سيفيدك أن تخسر بعضاً من وزنك، أيها العجوز".

نفث ستينكو دخان غليونه وتمتم لنفسه، لكنه اقتنع بأن زوجته محقة. فأياً كان الذي يختبئ في الحظيرة، فهو بحاجة أمسّ إلى الطعام منه.

احتضن عسكربي رأس ألوشا بينما انطلق صديقه يئن في نومه، حينما أجفله الطرق على الباب. كان ألبرت جالساً على مقربة من الاثنين الآخرين، يحدق فيهما بعينين فرغ منهما التعبير، غير قادر على التفكير بأفضل الطرق للمضي قدماً، وقد أذهله الجوع والتعب والقلق عن القدرة على التفكير السوي.

جاء الطرق من لا مكان على التحديد، وكان عنيفاً إلى درجة جعلت قلوبهم تخفق هلعاً. توقف ألوشا عن الأنين وانفتحت عيناه على اتساعهما فجأة. ازداد وجيب قلوبهم. تجمدت أوصالهم، مثل حيوانات متوحشة أحست بالخطر فجأة، ولكنها غير متأكدة من وجهة قدومه. لم يتكرر الصوت. بينما هم يشنفون آذانهم للإصغاء، سمعوا صوت خطوات تجر نفسها بما يبدو كالابتعاد عن الباب. انتظروا حتى ساد الصمت التام مرة أخرى ثم طأطأ عسكربي رأسه باتجاه ألبرت ليستطلع ما يجري. لم يبد على ألوشا أنه يمتلك القوة لمجرد رفع رأسه، ولم يشأ عسكربي أن يتركه.

سار ألبرت بحذر إلى الباب وضغط أذنه على الألواح على أمل الحصول على لمحة مما ينتظرهم في الخارج. لم يكن هناك شيء. رفع المزلاج ودفع الباب. اندفعت الريح الباردة إلى الداخل، تلسعه كسوط، وتصفع وجهه مثل كف غاضبة. زمّ عينيه وحملق فيما حوله. لم يكن هناك شيء ليراه، لكنه استطاع أن يشتمّ شيئاً ما جعل لعابه يسيل بلا سيطرة. دفع الباب بضع بوصات أخرى ونظر إلى الأسفل. رأى إناءً واقفاً في بركة من الثلج المذاب، غطاؤه يهرّب بخاراً يتصاعد في الهواء المتجمد. تبيّن فوقه رغيفين من الخبز ملفوفين بقطعة قماش. تلك كانت الرائحة.

سلب الجوع منه جزءاً من الحذر، دفع برأسه إلى الخارج وتلفت فيما حوله. ما عدا آثار الأقدام المؤدية عوداً إلى البيت، لم يكن هناك شيء. انحنى بسرعة، تناول الإناء، الذي أحسّ بحرارته حد الصدمة على يديه الباردتين، وغاص عائداً خلف الباب. راقب الآخران في صمت متوجس وهو يحضر الجائزة إليهما. عندما فك الرباط عن الخبز، عثر ألبرت على بضع ملاعق. رفع الغطاء وكشف العصيدة التي عكفت ماريا على طهيها، وتصاعدت إلى وجهه سحابة دافئة من البخار، لتشيع فيه الراحة.

قال "يعرف أحدهم أننا موجودون هنا. لا بد وأنهم أدركوا أن بيضاتهم مفقودة".

قال عسكربي "لا يبدو عليهم أنهم يحملون ضغينة ضدنا".

اقترح ألبرت "ربما يريدون فقط أن يبقونا هنا، بينما يذهبون إلى السلطات".

"ربما" قال عسكربي "لكن إذا كان الأمر كذلك، فليس هناك ما يمكننا عمله تجاه الأمر. يمكننا على الأقل أن نملأ أجوافنا أثناء انتظارنا لمصيرنا".

قال ألوشا "يمكن لكليكما أن تفعلا شيئاً حيال الوضع". وقد أجفله الألم الذي هاجمه حين رفع نفسه ليأخذ دوره في الملاعق وقطع الخبز التي كان ألبرت يقطعها.

تجاهله الاثنان الآخران وركزا على تناول الطعام.

بعد اختفاء الطعام، قال عسكربي "سوف تكون بحاجة إلى طبيب. ربما سنضطر لأن نلقي بأنفسنا تحت رحمة هؤلاء الناس ونطلب مساعدتهم".

قال ألوشا "هي مخاطرة جسيمة. لا يمكنكم أن تفعلوا ذلك. إذا

كانوا قد ذهبوا لإحضار السلطات، ينبغي عليكما الانطلاق وتركي هنا. إذا لم يفعلوا، وقتها علينا أن ننتظر حتى تشفى ساقي بما يكفي لأن أغادر معكم".

قال عسكربي "لن تشفى بدون عناية طبية ملائمة، إن وضعها لا يتحسن، بل يسوء".

"سوف تشفى" قال ألوشا، عاجزاً عن التفكير بأية إمكانية أخرى.

"دعنا ننظر إليها مرة أخرى" قال عسكربي، فرفع ألوشا ساق بنطاله مرة أخرى. حدق ثلاثتهم في الجرح صامتين. أصبح أسوأ من ذي قبل، فقد تحول الجلد إلى اللون الأسود وبدأ القيح البشع يتشكل على العظم وينز من الجانبين.

"ينبغي أن ننظف ذلك الشيء قدر الإمكان". قال عسكربي وطأطأ ألبرت برأسه، وقد تجهم وجهه لشدة محاولته ضبط مشاعره ليمنع نفسه من الصراخ. تناول عسكربي إحدى قطع القماش التي لفت بها الأرغفة وغمسها في دلو الثلج المذاب. مسح بلطف حواف الجرح، محاولاً أن يزيل الصديد والقيح والدمِ الجاف. سرعان ما تحولت قطعة القماش إلى لون قبيح، وأصبح جلياً أن الألم اشتد على ألوشا إلى درجة لم يعد يحتملها. انسابت الدموع من زوايا عينيه المطبقتين بقوة. غطى عسكربي الركبة بقطعة القماش الأخرى، وسحب ساق البنطال فوقها مرة أخرى. لم يطل الوقت قبل أن يسيطر الإرهاق من شدة الألم، فأغمي على ألوشا مرة أخرى، وسقط رأسه في حجر عسكربي.

ظل يتقلب ويرمي بنفسه في كل اتجاه طيلة الليل، يصرخ بين الفينة والأخرى، بصوت عالٍ في بعض الأحيان إلى درجة يضطر معها عسكربي إلى وضع يده فوق فمِ صديقه النائم، خوفاً من أن تسمعه دورية مارة. كان ثلاثتهم ما زالوا يغطون في النوم عندما انبلج الفجر في اليوم

التالي، وجاء طرق آخر على الباب. انتظروا مرة أخرى، متسائلين عما إذا كانت هناك مكيدة هذه المرة، لكن عندما دخلت ذكرى الطعام الذي تناولوه في اليوم السابق إلى أذهانهم، لم يعودوا قادرين على المقاومة. ذهب هذه المرة عسكربي إلى الباب ووجد الطعام ينتظرهم في الخارج، تماماً مثل المرة السابقة. تناولوا إفطارهم في صمت، وقد أدرك ثلاثتهم أن هناك رائحة جديدة، قوية، تختلط مع رائحة الخبز والعصيدة.

عندما انتهوا من تناول الطعام، تكلم عسكربي مخاطباً ألوشا:

"لم يعد لدينا أي خيار، يجب علينا أن نعثر على طبيب لركبتك. ألا تستطيع أن تشتمَّ رائحة الغرغرينا؟

طأطأ ألوشا برأسه موافقاً "نعم، أستطيع، لكن الأمر في منتهى الخطورة. سيكون من الأفضل أن أترك لأموت بسلام هنا. فقد لا يستطيع أي طبيب أن ينقذني الآن بكل الأحوال".

صرخ ألبرت "نحن لن نتخلى عنك" وقد أفلت زمام أعصابه.

"حسناً، رفع عسكربي يده ليهدئ الرجل الآخر ونهض واقفاً. "سوف أتحدث إلى ملاكنا الحارس وأطلب المساعدة. انتظر أنت مع ألوشا حتى أعود".

فتح ألوشا فمه ليجادل، لكن عسكربي لم ينتظر حتى يسمع. ذهب إلى الباب وأخرج نفسه، حاملاً إناءي العصيدة الفارغين. أجال بصره فيما حوله فلم يتمكن من رؤية أحد، قبل أن ينطلق متابعاً آثار الأقدام في الثلج، المؤدية إلى البيت. وصل إلى الباب المنخفض وقرع.

سمع اصواتاً عصبية في الداخل، وبعد ما تخيله دهراً، انفتح الباب بمقدار شق صغير. رأى عسكربي الوجه المتغضن لرجل عجوز يحدق في الخارج".

قدَّم عسكربي الآنية مع ابتسامة امتنان، فقال له ستينكو شيئاً

ما باللغة البولندية. استطاع عسكربي أن يفهم ما يكفي من الكلمات السلافية للتواصل والفهم. عرف أن الرجل المسن لم يكن معادياً. فتح ستينكو الباب وأشار إلى عسكربي بالدخول، بعد أن دفع برأسه إلى الخارج وتلفت حواليه ليطمئن نفسه بأن أحداً لا يراقب، ثم أغلق الباب خلفهما. "أشكرك" قدّم عسكربي الآنية إلى ماريا المنشغلة بتنظيف سطح الطاولة بفرشاة قديمة مهترئة.

قالت "لقد كان ولدانا في الجيش. سنظل دائماً نساعد الضباط البولنديين إذا استطعنا".

سأل عسكربي "ولداكما؟".

قال ستينكو بخشونة "لقد توفي كلاهما". مشيراً إلى وجوب جلوس عسكربي.

قال عسكربي، وهو يتقبل الدعوة ويجلس إلى الطاولة المنظفة لتوها. "نحن لسنا ضباطاً بولنديين، نحن من القفقاس. إننا نختبئ من السلطات الروسية التي تريد أن تعيدنا إلى روسيا وتعدمنا على اعتبارنا خونة".

انشق وجه ستينكو عن ابتسامة "آه، القفقاس. لقد قاتل جدي ضد جيوش القيصر في القفقاس في القرن الماضي. القفقاسيون شعب يتميز بالرقي. لقد عوملوا من قبل الروس بطريقة سيئة، تماماً مثلما عوملنا".

سمحت ماريا لزوجها أن يثرثر قبل أن تسكته. سألت عسكربي "كم واحد منكم يوجد هناك؟" بمجرد توقف ستينكو عن الكلام.

قال "هناك ثلاثة منا. لقد هربنا من قطار يحمل أسرى حرب عائداً بهم إلى الروس. لقد آذى صديقي ساقه لدى سقوطه من العربة المتحركة. أعتقد أن الغرغرينا قد انتشرت فيها. إنه بحاجة إلى طبيب".

"غرغرينا؟" سجل وجهاهما الصدمة عند سماع الكلمة التي يفهمان معناها بشكل تام.

"ليس هناك أي طبيب على ماسفة مائة ميل في أي اتجاه". قالت ماريا "الأمل الوحيد هو العثور على بعض الجنود الروس وتسليمه إليهم، حتى يتمكنوا من العناية به".

نفض عسكربي رأسه رافضاً بقوة وقال "لن نسمح بذلك ابداً، لأنهم سيقتلونه ولن يساعدوه. يجب أن نعثر على شخص يتعاطف مع وضعنا".

أفردت ماريا ذراعيها في استسلام نادم "ليس هناك أحد".

قال ستينكو "هناك كوفيليتش، يمكن أن يتعاطف. إنه يكره الروس حتى أكثر منا بعد الطريقة التي عاملوه بها".

وبخته ماريا "إن كوفيليتش طبيب بيطري، أيها الأحمق العجوز، وليس طبيباً. إن صديقه رجل وليس حصاناً أعرج أو خنزيرة ثمينة في حالة وضع".

اشتكى ستينكو "إنه مدرب طبياً. لقد أتم تدريبه في فيينا. هو طبيب حاذق".

وصلت ماريا إلى حافة اليأس من زوجها "لست أعارضك في كونه بيطرياً جيداً، أو إنساناً فاضلاً! لكننا بحاجة إلى طبيب".

قاطعهما عسكربي "إذا كان صديقك يستطيع أن يساعدنا، فقد يكون أملنا الوحيد. إذا لم يتم عمل شيء ما بسرعة، فأنا أخشى أن صديقي سيموت. إن الطبيب البيطري يمثل فرصة أفضل من أي شيء آخر يمكنني أن اقدمه".

أطلق ستينكو باتجاه زوجته نظرة انتصار، التي صرفتهما بإشارة جانبية من يدها، كأنهما مجنونان لم تعد لها رغبة بالحديث إليهما.

بدأت تلمّع المقالي المعلقة على جدارهما، اللماعة أصلاً، بحركات سريعة غاضبة.

قال ستينكو "سآخذ العربة وأستدعي كوفيليتش". ثم نهض ليرتدي معطفه وقبعته ويلف رقبته بلفاعات سميكة قذرة.

سأل عسكربي "هل آتي معك؟".

"كلا" هز ستينكو رأسه "اعتنِ أنت بصديقك. إذا أوقفني الروس، فهم سيرون مجرد فلّاح مسن لا ضرر منه، يقوم بعمله. إذا كنت أنت موجوداً، فستصبح تلك مسألة مختلفة. ستطرح أسئلة كثيرة تصعب الإجابة عليها".

خفض عسكربي رأسه موافقاً.

"إليك" أشغلت ماريا نفسها بتوضيب طرد من الطعام ليأخذه زوجها في رحلته. "ستكون أنت وصديقك بحاجة إلى المزيد من الطعام أيضاً. فأنا لم أخرج إلا ما يكفي لشخصين". قطعت المزيد من اللحم المقدد المتدلي من السقف ووضعته على النار، ثم أخرجت أرغفة خبز طازجة من الفرن. تناول ستينكو طرد مؤونته وخرج ليربط بغله العجوز إلى العربة. لم يبد السرور على الحيوان لإخراجه من اسطبله الدافئ وإرغامه على العمل. رفض بعناد أن يتحرك في أي شكل مفيد لستينكو، تاركاً الرجل العجوز يشتم ويضربه في محاولة عبثية لجعله يتعاون. في النهاية، توصلا إلى تسوية وسطية، إذ رأى عسكربي، أثناء عودته إلى الحظيرة حاملاً مؤناً جديدة، ستينكو يغادر، منكفئاً على السروج، بينما تقبّل البغل الأمر المحتوم وانطلق على الطريق غير المرئي.

كانت السماء مثقلة بالغيوم الرمادية، وبدت وكأنها تستعد لتساقط جديد للثلوج.

أثناء دخول عسكربي إلى الحظيرة، أصبح بمقدوره أن يرى، من

النظر إلى وجه ألبرت، أن الأمور تسير إلى الأسوأ. فقد توقف ألوشا عن الأنين وغط في نوم عميق، لكن وجهه كان يلتمع بتعرق من الحمى، برغم البرد.

جلس عسكربي إلى جانبه وقسموا الطعام إلى ثلاثة أقسام، تاركين حصة ألوشا على حدة. لم يكن من الحكمة إيقاظه ليقاسي المزيد من الألم حتى يضطران إلى ذلك.

سأل ألبرت هامساً "ماذا حدث؟ هل كانوا متعاطفين؟".

"نعم" قال عسكربي "لقد ذهب الرجل العجوز لإحضار طبيب". لم يعتقد أنّ الوقت قد حان ليخبره أن الرجل قد تدرب على معالجة الحيوانات.

"كيف يمكنك أن تتأكد من أنه لم يذهب لإحضار أقرب دورية روسية؟".

نفض عسكربي كتفيه "لا أظن ذلك، لكنني لا أعتقد أن لدينا أي خيار سوى الوثوق به".

"هل يمكننا فعلاً؟ أعني نعم، ليس لدينا أي خيار".

نظر عسكربي إلى صديقه بعينين مرهقتين.

"يبدو أنهم أناس طيبون. يعرفان أننا من القفقاس وقد بدا عليهما التعاطف. علينا أن نثق بالقدر".

طأطأ ألبرت وتقبل مصيرهم. نظر إلى ألوشا وهز رأسه حزناً على صديقه.

بعد ساعتين بدأت السحب تطلق أحمالها وتساقط الثلج بغزارة إلى درجة أصبحت معها رؤية بيت المزرعة من باب الحظيرة مستحيلة. لم تكن هناك ريح هذه المرة، لكن تساقط الثلج كان غزيراً بحيث لم تعد هناك إمكانية لأن يستطيع العجوز أن يعود قبل أن يخف أو يتوقف.

في الواقع، لم يكن ستينكو قد وصل إلى القرية التي يعيش فيها كوفيليتش حينما ساء الطقس. بدأ البغل ينخر ويزمجر بينما طفق العجوز يضربه بالسوط ويحثه، آملاً أنه يسير في الاتجاه الصحيح، معتمداً على ذاكرته حيث أنه لم تكد تتبقى أية قدرة على الرؤية. أطلق ستينكو الشتائم وصاح معبراً عن غضبه، على الحيوان العنيد أولاً، ثم على جميع الآلهة الذين يبدو أنهم مصممون على منعه من التمتع بشيخوخة آمنة ومثمرة.

مع وصوله إلى قرية كوفيليتش كان الثلج قد بلغ حداً من السماكة أصبحت معه البيوت قريبة من الاختفاء تحت البياض. لم تعد هناك أية علامة على وجود الحياة في أي مكان عدا عن الدخان المتلوي صعوداً من مداخن البيوت وهي تختبئ، مثل نباتات الفطر، على أرضية الغابة. اختبأت كل الحيوانات من غضب العناصر، تماماً كالبشر. استغرق ستينكو مهلة طويلة حتى استطاع أن يتبين البيت العائد لكوفيليتش، ولكنه عندما أتم ذلك، فرح لمرأى الدخان يتصاعد منه فهو لم يكن يريد شيئاً في تلك اللحظة أكثر من الجلوس أمام نار هادرة ويذيب جمود عظامه القديمة التي تؤلمه. سحب سروع البغل فأوقفه وتسلق نازلاً من العربة. تحول الحيوان الذي بدأ الرحلة بمزاج مزعج إلى حالة من القنوط والرضى بمصيره، فتوقف يحدق أمامه، منتظراً ما سيأمره ستينكو بعمله لاحقاً.

فتحت زوجة كوفيليتش، المرأة ذات الوجه المحمر والأسنان القليلة المتبقية، الباب له، لم تتعرف عليه على الفور بسبب الجليد المتكون على وجهه، لكنها استطاعت أن ترى أنه شخص بحاجة إلى الدخول. أبقت الباب مفتوحاً له، وعبر منه بامتنان.

كان كوفيليتش جالساً يقرأ إلى جانب النار، وحدق في زائره لحظات قليلة وقد ارتسم على وجهه تعبير حائر.

قال "كوفيليتش، هذا أنا، ستينكو".

قفز كوفيليتش واقفاً على قدميه "يا عزيزي، تعال واجلس بقرب النار ودفئ نفسك. دعنا نجهز لك قصعة حساء". أشار إلى زوجته التي ذهبت إلى المدفأة فوراً ورفعت الغطاء عن حلة كانت تبقبق فوقها بصوت خفيض.

بعد أن بدأ يشعر ببعض الدفء، وقد انزلق السائل الدافئ الكثيف إلى جوفه، وأخذ الجليد في شعره يذوب، شرح ستينكو السبب من وجوده هناك.

قال كوفيليتش، مفكراً "هل قلت غنفرينا؟ ذلك يمكن أن يكون سيئاً".

اعترف ستينكو "أنا لم أشاهد الرجل. هذا ما وصفه صديقه. ويبدو لي أنه شاب ذكي".

قال كوفيليتش "سوف يحتاج إلى عملية سريعة. أنت بحاجة إلى طبيب. أنا لم أجر عملية لرجل أبداً".

قال ستينكو "لا يوجد أي طبيب قريب. أنت أمله الوحيد".

ألقى كوفيليتش نظرة باتجاه زوجته لأجل الدعم. حادت بنظرها عنه ولم تقل شيئاً.

"لا أعرف يا ستينكو. يمكن للوضع أن يسوء بدرجة رهيبة. يحتمل أن أقتل الرجل المسكين".

قال ستينكو بمنطق عقلاني "سيموت خلال أيام قليلة على أية حال. أنت تمنحه فرصة للنجاة بحياته على الأقل".

"ماذا عن الروس؟ لديهم أطباء في الجيش".

"إذا أمسك الجيش بهؤلاء الرجال، فسوف يعيدهم إلى حتفهم في روسيا".

أطبق الصمت على كوفيليتش، وظل يحدق في ألسنة اللهب، غارقاً في التفكير. كثيراً ما فكر في السبب الذي جعله يختار أن يكون طبيباً بيطرياً وليس بشرياً. لقد مرت به سنوات من استجواب النفس في الجامعة قبل أن يتخذ قراره بالاختيار في النهاية. كان ذلك قبل سنوات طويلة ماضية. لم يعد يتذكر الآن من دروس التشريح البشري إلا القليل. لكن ستينكو على حق. سيموت هذا الرجل بدون مساعدته، وعلى ما يبدو، فهو، كوفيليتش، يمثل أفضل فرصة له للبقاء حياً.

قال بعد تفكير طويل "لا يمكننا أن نخرج الليلة. لن نتمكن من العودة في ليلة مثل هذه. سنضطر إلى الانتظار".

قال ستينكو "قد يكون ميتاً بحلول وقت وصولنا إليه".

"أنا مدرك لذلك، لكنني لن أخاطر بحياتك وبأن أترك زوجتي أرملة من أجل رجل سيموت بكل الأحوال".

قال كوفيليتش "الأفضل لك أن تنام هنا الليلة، وسنرى ما يأتي به الغد".

"حسن جداً" شعر ستينكو في الواقع بكثير من الارتياح لكونه لن يستدير ويتوجه عائداً أدراجه. ففي مثل هذه الأوقات، كان يستشعر تقدم سني عمره. أدرك أن كوفيليتش على حق. فهناك احتمال قوي بأن يضيعا أو يعلقا في تيار ثلجي ويتجمدا حتى الموت قبل أن يصلا إلى هناك.

"هل يوجد اسطبل يمكنني أن أبيّت بغلي فيه؟".

أجابه كوفيليتش "ستعنى زوجتي ببغلك". وأومأ إلى زوجته برأسه، نهضت ولفت وشاحها ثم اتجهت خارجة إلى الليل بدون أن تصدر عنها أية كلمة.

قال ستينكو "أنت محظوظ لأن لديك مثل هذه المرأة الطيبة" معجباً

بالمرأة فور قيامها بصفق الباب خلفها.

"أعرف" قال كوفيليتش "وكيف هي ماريا؟".

"آه" رفع ستينكو عينيه إلى السماء، وضحك الرجلان.

صباح اليوم التالي، كان الثلج، بكل الاعتبارات، يتساقط بكثافة زائدة.

قال كوفيليتش "سننتظر حتى ما بعد الظهر. ربما يتحسن الطقس وقتها".

بدأ يجهز أدواته أثناء انتظارهما، والتي بدت أقرب إلى أدوات جزار منها إلى أدوات جراح. لاحظ ستينكو أنه أخذ معه قارورتين من الكحول المقطرة محلياً أيضاً. انتفض لمجرد التفكير بالألم الذي سيتحتم على الجندي المسكين أن يتحمله بمجرد أن يصلا إليه، إذا وصلا إليه في الوقت الملائم. لولا وجود حالة ألوشا تسيطر على عقليهما، لكان هذا نهاراً بهيجاً للرجلين، جالسين إلى جانب النار، يتحدثان عن وضع العالم ويتذكران أوقاتاً أفضل، بينما تقوم زوجة كوفيليتش الصامتة بخدمتهما. حل الظلام مرة أخرى، ولم يتحسن الطقس.

قال كوفيليتش "غداً، سننطلق مع الفجر، مهما كان شكل الطقس".

نام ستينكو بعمق ولم يوقظه سوى صوت الزوجين يحضران للرحلة. قامت المرأة بربط بغل ستينكو إلى العربة وأسرجت جواد زوجها بحلول الوقت الذي أصبح فيه الرجلان جاهزين للمغادرة.

استمر الثلج يتساقط، لكنه أصبح أخف عما كان عليه بالأمس. أصبح عمقه على الأرض كبيراً، جاعلاً كل خطوة للحيوانين مجهوداً وكفاحاً. وضبت المرأة بعض الطعام لهما من أجل الرحلة، وألقت باتجاه زوجها نظرة قلق عندما هم بالركوب، وكأنها خشيت من عدم

رؤيته مؤة أخرى.

تصاعد قلق عسكربي وألبرت بشكل متزايد على حالة صديقهما. فقد وصلت الحمى لديه إلى درجة الغليان ولم يعد يصحو من هذيانه إلاّ لماماً، بما يكفي لأن يتحدث إليهما من خلال تشنجات الألم. اصبحت رائحة الجرح لا تحتمل، وتبادل الاثنان الأدوار في تنظيفه، وقد ربطا المناديل بإحكام على وجهيهما أثناء عملهما، ويقاومان الدافع إلى التقيؤ. واظبت ماريا على إحضار الطعام لهم، واقترحت عليهما نقله إلى دفء البيت.

"كلا" أصر عسكربي على الرفض بعناد. "إذا وجدنا الروس في بيتك، فسوف يحكمون عليك بالإعدام أنت أيضاً. على الأقل، إذا اكتشفوا وجودنا هنا في الخارج، يمكنك القول أنه لم تكن لديك أية فكرة عن وجودنا هنا".

وعدتهما في كل زيارة بقولها "سيعود زوجي عما قريب" مع أن وجهها ظل يعكس قلقها المتزايد على الوقت الطويل الذي يستغرقه ستينكو في العودة بصحبة كوفيليتش.

بعد أن غادرتهم ماريا، بدا على ألوشا التعافي اللحظي من هذيانه المحموم. فتح عينيه وحدق في صديقيه. كان ألبرت الأول في ملاحظة التغيير المفاجئ.

"ألوشا، كيف تشعر يا أخي؟" سأل وهو يقترب منه. زحف عسكربي مقترباً بدوره ليلقي نظرة فاحصة على صديقه.

"أعتقد أنني مشرف على الموت" جاء صوت ألوشا أقرب إلى الحشرجة، لكن عيناه تحررتا وصفا بصره بدرجة الإعجاز، للحظة.

"كلام فارغ!" أجابه عسكربي. "سوف تتحسن. هناك طبيب في الطريق إليك الآن ليفحص ساقك".

"يا أخواي، أريد أن أعترف بشيء لا أرغب في الموت بدون أن أخرجه من صدري". تكلم ألوشا بمقاطع متقطعة.

تبادل الرجلان النظرات بقلق بالغ.

"ما الأمر يا ألوشا؟" سأل ألبرت، وقد كشف عن اهتمام عميق بصديقه. "كيف يمكننا أن نشعرك بمزيد من الراحة؟".

نظر ألوشا إليهما، محاولاً أن يبتسم، مقدراً إخلاصهما له وتفانيهما من أجله.

"لقد ظل هذا يشغل تفكيري لبعض الوقت. أعتقد أننا ارتكبنا خطأً رهيباً حين أصبحنا خونة لوطننا".

نظر ألبرت وعسكربي إلى بعضهما بعضاً، بدون أن يفهما.

"ألوشا، أنت لست على وشك الموت. أرجوك أن تحافظ على طاقتك. لا تتكلم بعد هذا".

توسل إليه عسكربي. فقد افترض أن صديقه يهلوس، يهذي.

"بسبب أشخاص مثلي، يصبح الشراكسة مثل الدمى في أيدي الدول الأكبر". بدأ ألوشا يرفع نفسه ليشدد على كلماته. "أعتقد أنه تم استغلالنا من قبل الألمان، كما تم استغلالنا دائماً، من قبل الأجانب. نحن الشراكسة، جنس بشري غير محظوظ!".

مع هذه العبارة، أخذت أجفان ألوشا ترف، ثم سقط إلى الخلف على التبن وأغمض عينيه. اندفع الصديقان نحوه، معتقدين أنه يموت. أمسك ألبرت بنبضه وتحسسه فاطمأن. أغرورقت عينا عسكربي بالدمع حزناً على حالة صديقه وتأثراً بما قاله بنفس المقدار. أحس بحقيقة وصدق كلماته بعمق. فقد تذكر قصص الحروب الروسية القفقاسية في القرن التاسع عشر، حينما خدع ملايين الشراكسة باتباع الدعاية العثمانية لترك بلادهم وهاجروا إلى تركيا. شعر بدوره أنه

ارتكب خطأً رهيباً بانضمامه إلى أعداء أرضه، لكنه لم يتمكن من الحديث عنه مطلقاً. شكر الله على أنه لم ينخدع في هذه المرة إلا حفنة من الشراكسة.

كان ألبرت يهز رأسه.

"لقد رأيت ما فعله الشيوعيون بشعبي، القرويين البلقار المساكين. لا أعتقد أنني ارتكبت خطأً. إنني مستعد لأن أنضم إلى الشيطان نفسه لأهزم الشيوعية". قال بعنف، ثم جلس على التبن والقش في الحظيرة. أشاح عسكربي ببصره حتى لا يحرج صديقه البلقاري الذي غطى عينيه في هذه اللحظة وأخذ ينتحب بهدوء.

استغرقت الرحلة بين القريتين ما بدا وكأنه دهر، وأحسَّ الرجلان بالتجمد والإرهاق عندما وصلوا أخيراً وقرعوا باب ماريا ثم أدخلتهما. حل الظلام في الخارج، فقد استخدما نور النهار كله في صراع لا ينتهي بوضع قدم أمام الأخرى والحفاظ على عجلات العربة المنزلقة من الغرز في الحفر والثقوب المخفية تحت السطح.

قالت ماريا بعد أن أخذت ثيابهما المبللة وأعطتهما بعض الطعام والشراب "الشاب مريض جداً، ياكوفيليتش. لست على ثقة من أنه سينجو بحياته هذه الليلة".

قال البيطري "في هذه الحالة، الأفضل لنا أن نلقي نظرة". وقد نفض عنه الإرهاق الذي أحسَّه جراء الرحلة. "أنا بحاجة إلى المساعدة منكما، وأحتاج إلى ماء مغلي، يا ماريا".

أومأت برأسها وقامت لتغلي الماء في الإبريق ثم أحضرت شرائط من قماش ممزق يمكن استعماله كضمادات. تولد لديها شعور بأنه مع حلول وقت ذهابهم إلى الحظيرة، سيكون ألوشا قد مات. أرادت من البيطري أن يسرع لكنها لم تجد في نفسها القدرة على دفعه أمامها.

بمجرد أن دفعوا باب الحظيرة ليفتحوه، أصبح بمقدورهم أن يشموا

رائحة جرح ألوشا، حتى في درجات حرارة التجمد. شاهد كوفيليتش الرجال الثلاثة جالسين في التبن، يحتضن اثنان منهم رأس الثالث وكأنه طفلهما المريض. صلصلت أدوات البيطري بنذر الخطر عندما وضع حقيبته على الأرض وركع إلى جانبهما، مغطياً أنفه وفمه بمنديل. رفع البطانيات والضمادات المؤقتة التي ربطت بها ساق ألوشا فازدادت حدة النتانة، وأجبرتهم جميعاً على التراجع.

قال كوفيليتش "أنا بحاجة إلى المزيد من الضوء" فتقدمت ماريا حاملة مصابيح الزيت التي أحضرتها معها من البيت. وضع ستينكو إبريق الماء الغالي إلى جانب البيطري المقرفص ليلقي نظرة أكثر تفحصاً.

أصدر كوفيليتش حكمه "الجرح سيء، ينبغي عليه أن يفقد الساق من الركبة".

ثم قال بصوت لطيف "مرحباً، ايها الشاب: لقد طلب مني أصدقاؤك أن أحاول تخفيف الألم عنك".

فتح ألوشا فمه كأنه سيتكلم، لكن لم يخرج منه سوى صرخة رهيبة، جعلت كلباً ينبح في أحد المباني الخارجية وأرعبت الدجاج والبط.

"هاك" ناول كوفيليتش إحدى زجاجتي الكحول إلى عسكربي "إجعله يشرب قدر الإمكان بدون أن يتقيأ. سيساعده هذا".

مال عسكربي مقترباً من وجه صديقه، واضعاً فتحة الزجاجة على شفتيه، مائلة.

شجعه قائلاً "خذ جرعة، ألوشا، سيزيل هذا الألم".

كانت عينا ألوشا مفتوحتين، تحدقان في عينيه. افترقت شفتاه وشرب عدة جرعات من السائل الصافي، ثم سعل وانساب بعضه على ذقنه. رفع عسكربي الزجاجة وأبعدها. "أعطه المزيد بمجرد أن يتمكن

من الابتلاع" قال كوفيليتش وهو يفتح حقيبته ويخرج منشار عظم وعدة سكاكين. لقد استعمل كل هذه الأدوات من قبل، ولكنه لم يستعملها على بشر أبداً. حاول أن يبعد الفكرة القائلة بأنه سيقوم بنشر ساق رجل، مجبراً نفسه على التفكير بالأمر على أنه ليس أكثر من لحم وعظم، مثل اي حصان يتوجب تقطيعه، أو كلب علقت قائمته في فخ دببة.

وقف كل من عسكربي وألبرت، يبتلعان ريقهما بصعوبة بالغة ويجبران نفسيهما على البقاء صاحيين. أشاح ستينكو وماريا بصرهما بعيداً، منتظرين تلقي التعليمات من البيطري أثناء عمله. سكب كوفيليتش محتويات زجاجة الكحول الثانية في القصعة ليستعملها كمعقم أثناء عمله. نقع السكاكين في القصعة. سحب نفساً عميقاً وأشار إلى ماريا وستينكو أن يقتربا أكثر بالمصباحين. نظر إلى وجه ألوشا. عيناه ما زالتا مفتوحتين.

أمر "أعطه المزيد ليشرب" ودفع عسكربي الزجاجة بين شفتي ألوشا مرة أخرى. بدأت عينا ألوشا تسبحان داخل رأسه، لكن بات من المستحيل معرفة ما إذا كان السبب هو الألم أم الكحول. أشاح كوفيليتش بعينيه عن وجه الرجل وركز انتباهه على الركبة. رفعها، وضع تحتها قطعة قماش ليحميها من التراب والقذارة ثم بدأ يقص وينشر.

أغمي على ألوشا على الفور تقريباً، والمعجزة أن أحداً آخر ممن يراقبون لم يغمى عليه. غرق كوفيليتش في الدماء التي رشقت الآخرين الواقفين حوله، متأهبين. عمل بصمت وحماس شديد لحوالي نصف ساعة، يقطع ويوقف تدفق الدماء في تقدمه، صارخاً بأمر ما لأحد الآخرين لصب الكحول فوق يديه أثناء عملهما.

على الرغم من غيابه عن الوعي، ظل ألوشا يرتعش ويتلوى، بينما كافح عسكربي وألبرت لإبقائه بلا حراك حتى يتمكن البيطري من العمل. أخيراً استطاع كوفيليتش أن يبدأ في التقطيب، بينما رقدت الساق المبتورة بجانبه في التبن، ولم تعد تبدو مثل جزء من جسم حي، بل مثل

قطعة كئيبة معروضة في متحف أو مؤسسة تدريب طبي. بقي الحذاء مربوطاً إلى القدم. رفع ستينكو الساق بلطف، وكأنه ما زال يخشى إيلامها، ثم حملها إلى الخارج، وبقيت ماريا حاملة المصباحين.

أرقدوا ألوشا وهو ينشج، وقد بدأ صوته يشابه نشيج رجل مخمور أكثر منه مريض جراحة، وضعوه وسط التبن، وقد عصبت ساقه في مكان البتر بالضمادات التي بدأت تتحول إلى اللون الأحمر القاني.

سأل البيطري "هل بقي شيء في تلك القنينة؟" فناوله عسكربي البقية الباقية. ابتلعها كوفيليتش في جرعة واحدة وجلس إلى الخلف، مسنداً ظهره إلى جدار الحظيرة. قال "الله وحده يعلم ما إذا كان سيحيا أو يموت الآن. لا يمكنني أن أتأكد حتى من فصل كل الغنغرينا. قد يحتاج إلى عملية أخرى لقطع المزيد من ساقه إلى فوق لاحقاً".

قال عسكربي "اشكرك يا دكتور. نيابة عن صديقي. أشكرك على عملك ذاك".

أومأ كوفيليتش بقبوله الامتنان وتحامل على نفسه حتى نهض قائماً، ولحق بماريا عائداً إلى البيت حتى يمكنه أن يرقد وينام. فهو ينوي أن يسافر عائداً إلى قريته صباح اليوم التالي قبل أن يلاحظ غيابه أي شخص. أعطى ماريا وستينكو تعليمات مفصلة حول كيفية العناية بالمريض. استيقظ ألوشا في اليوم التالي. كان الألم قريباً منه قبل العملية، لكن الرائحة اختفت. لم يستطع ابتداءً أن يصدق بأن العضو قد أخذ منه فعلياً. فقد كانت أصابع قدمه تشعره بالحكة، كما يقول، ويشعر بالحاجة إلى الفرك والحك بينها حتى يرتاح ويخفف الحكة. جلب هذا الشعور البسمة إلى وجهي صديقيه القلقين. فقد اعتقدا أنها مؤشر إيجابي على أنه سينجو من المحنة.

نام ألوشا طيلة النهار فترات متقطعة مشوبة بالقلق والتوتر واستطاع أن يحتفظ ببعض الطعام الذي أحضرته ماريا في جوفه.

توسل في لحظات صفائه الذهني بصديقيه أن يغادرا بدونه. حثهما بقوله "اتخذا سبيلكما عوداً إلى النمسا، إلى المخيمات. أخبراهم عما يحدث في روسيا، إذا لم يكونوا يعلمون مسبقاً. إذا أطلنا الانتظار فسوف يقفل الروس حدود بولندا ولن نعود قادرين على الخروج مرة ثانية". أصر عسكربي "لسنا ذاهبين حتى تتمكن من القدوم معنا". وعندما حاول ألوشا أن يقنع صديقه البلقاري ألبرت بالذهاب لوحده، تلقى الإجابة نفسها.

مع نهاية الأسبوع، بدأ الألم يصبح قابلاً للتحمل ولم يعد يصرخ في نومه كلما تقلّب. بدت الجدعة أفضل حالاً عندما أزالوا الضمادات وأصبح بمقدورهم أن يروا أنها في طريقها إلى الشفاء.

أخبرته ماريا "من حسن الحظ أنك رجل فتي، قوي البنية، فأنت تبرأ بسرعة".

توقف تساقط الثلوج، وتمكن شعاع ضعيف من الشمس أن يتسلل من خلال السحب، ما رفع معنوياتهم ومنحهم الإيمان بإمكانية النجاة من هذا العذاب. حمل عسكربي وألبرت صديقهما ألوشا إلى الباب حتى يستطيع أن ينظر إلى النور في الخارج ويشم الهواء العذب النقي. بينما هم ينظرون عبر المزرعة الصغيرة، رأوا ماريا، متكومة في طبقات ملابسها، تتوجه نحو قن الدجاج. رفعوا أيديهم بالتحية لها، فأجابتهم بإيماءة شبه خفية من رأسها وتابعت طريقها. انفتح باب بيت المزرعة وخرج منه ستينكو. كان يحمل شيئاً ما تحت ذراعه. راقبه الأصدقاء الثلاثة، محاولين أن يتوصلوا إلى معرفة ماهيته. ظهر عليه بعض الإحراج أثناء اقترابه، وهو يدفع بما يحمله بعيداً عن النظر، خلف معطفه.

قال "صباح الخير، كيف تشعر الآن؟".

طمأنه ألوشا "إنني بخير، سوف نغادركم عما قريب".

طأطأ ستينكو وصمت هنيهة، وهو يحدق إلى الأسفل، في المكان الذي كانت ساق ألوشا موجودة فيه.

قال بعد صمت "حينما كنت أصغر سناً، كنت أعمل بالخشب".

سأله ألوشا "هل كنت حارس غابات؟" في محاولة لتشجيع العجوز للتغلب على خجله. "لا، كنت أعمل أشياءً. كنت نجّاراً".

قال عسكربي "إنها مهنة رفيعة".

"لقد فكرت بأن هذه يمكن أن تكون ذات فائدة لك. إن لم تكن كذلك، فقط أحرقها لتدفؤك".

أدار ذراعه إلى الأمام، بحيث كشف عن حزمة ملفوفة داخل بطانية.

سأل ألوشا "ما هذه؟".

قال ستينكو "هي لأجلك" وهو يدفعها باتجاهه.

رفع ألوشا ذراعه عن كتف ألبرت وتناول الطرد، وقد مال بكامل ثقله على عسكربي قفز على رجله واستعاد توازنه، مندهشاً من ثقل الهدية.

فتح البطانية ليكشف عن ساق خشبية ملمّعة، وقد نعّمت سطوحها ونحتت على شكل ركبة، ربلة ساق وكاحل. ألبست القدم الحذاء الذي كان مرتبطاً بساقه الحقيقية.

قال ستينكو "لقد استخدمت حذاءك لأقيس به حجم القدم. آمل أنك لا تمانع".

أحسّ ألوشا بالدموع تلسع عينيه وهو ينظر إلى وجه الرجل العجوز. قال "بالطبع أنا لا أمانع. يشرفني أنك قضيت كل هذا القدر من وقتك لتصنع هذه من أجلي. هل ستساعدني على تعلم كيفية استعمالها؟".

"طبعاً" أضاء وجه ستينكو المتغضن المتجهم بابتسامة ارتياح وانفراج. فقد ظل قلقاً من أنه ربما قام بعمل خاطئ، وأن الشاب سيشعر بالإساءة أو الإهانة من الهدية. عادوا إلى داخل الحظيرة وأرقدوا ألوشا على التبن. رفع ساق بنطاله ليكشف عن الجدعة. شرح له ستينكو كيف نظَّم الأربطة التي ستمسك بفخذ ألوشا.

قال "ربما ستؤلمك في البداية. وقد تحتاج إلى ارتداء ضمادات لحماية الجلد حتى يقوى وتتعود على استعمالها".

قال ألوشا "إنها جميلة، يا ستينكو، وهو يمسِّد الخشب الصقيل الناعم. "أنت حرفي عظيم". حزموا الأربطة ورفعوا ألوشا واقفاً على قدميه، وازنوه بعناية قبل أن يتركوه، تقافز للحظة ثم عثر على توازنه. عض على شفته، مصمماً على التغلب على الألم الذي اندفع صاعداً في فخذه. قام بخطوة إلى الأمام ثم سقط إلى الخلف وسط التبن، ضاحكاً.

"أعتقد أنه سيتعين علي القيام بالتمرين بعض الوقت".

قضى ألوشا كل ساعة يقظة من الأسبوع التالي وهو يتمشى في أرجاء الحظيرة. أصبحت جدعته مؤلمة في البداية ثم تصالبت تدريجياً. بات مصمماً على أنه سيتمكن من المشي، إلى جانب صديقيه، باتجاه النمسا والأمان.

الفصل السادس

لم تكن قامة والدي تزيد على مائة وسبعين سنتيمتراً، وقد تجاوزته في الطول منذ أن بلغت الرابعة عشرة، لكنه ظل يبدو كعملاق بالنسبة لي. أتذكر زيارتي له في مخيمه العسكري بالزرقاء حينما كان قائد لواء. كان قد أتم التفتيش الأسبوعي على ميدان الاستعراض لتوه وعاد إلى مقصورته. عندما وصلت مع سائقه، كانت الساحة أمام مقصورته غاصة بالجنود، وقد امتلأ الجو بدمدمة أصواتهم وتحركاتهم. وجدت والدي في الداخل، جالساً مع ضابطين آخرين برتبة رفيعة ويدردش معهم في شؤون اللواء. بدا مظهر أنيق في بزته العسكرية الكاملة، شاربه المشذب بعناية وشعره المسرّح المائل إلى اللون الأشقر. لم تكن هناك أية شعرات بيضاء ظاهرة في صفحته وكانت عيناه تتألقان بالبريق والثقة. وقفت للحظة أشبع إعجابي بهيئته القريبة من الألوهية وأدركت مقدار حبي له وخوفي منه. عندما رآني، نهض واقفاً على الفور وأعلن أنه يدعوني إلى تناول طعام الغداء في مقصف المعسكر، أشار إلى زملائه الضباط بالانضمام إلينا ومر من أمامي فتبعته إلى الخارج.

في اللحظة التي ظهر فيها في الخارج، ران الصمت التام على الجنود المتجمعين وأخذوا يتابعوننا بنظراتهم حتى دخلنا المقصف في الناحية الأخرى من الساحة. قبل ثانية واحدة، كانت الساحة ممتلئة بهدير أحاديثهم وفي الثانية التالية هجم عليهم الصمت المطبق. سألت سائق والدي لاحقاً عن السبب في خوف الجنود من والدي إلى هذه الدرجة. ضحك.

قال لي "إن ما شهدته ليس خوفاً، إنه الانبهار والاحترام. يوقر

الجنود والدك لأنه قائد رجال حقيقي وهم يشعرون بذلك".

كان لهذه الكلمات وقع عميق في نفسي. لقد عرفت عن والدي أنه حازم ومتطلب وقد خشيته طيلة حياتي، لكنني أيضاً عرفت فيه الإنصاف، وأنه رجل شركسي محترم ينتمي إلى المدرسة القديمة. "الأديغه خابزه"، قانون السلوك الشركسي، هي القاعدة الوحيدة التي يحيا بموجبها. وقد ظل مصمماً على أن أتبع خطاه. كانت مثل قانون سلوك "البوشيدو" التابع للساموراي. قانون الشرف والتصرف لطبقة المحاربين اليابانيين، التي تشدد على الانضباط النفسي، الشجاعة، والإخلاص. كان وقع الأمر صعباً علي في البداية، فثرت ضده، خاصة بعد أن ذهبت إلى أمريكا وأصبحت "متمدناً": لم أكن أستطيع أن أجد مكاناً لمثل هذه التقاليد ذات الصبغة القديمة للسلوك في مجتمعنا الحديث. فقد جعلتني أمريكا المادية مستقلاً وغير مكترث، لكن هذا الموقف لم يستمر طويلاً. بمجرد أن جلست مع جدي وجدتي، شعرت بالتغيير يحدث في داخلي. فصرت أهب واقفاً كلما دخل شخص كبير السن إلى الغرفة، وأقوم على خدمة الكبار، كما يفترض في أي شركسي يافع أن يفعل، بصرف النظر عن مركزه وسنه أو ثرائه.

أتانا بعض الزوار: وصل أشخاص كبار السن من سوريا إلى عتبة بيتنا أيام كنت في قرابة الحادية عشرة من عمري. حضروا لتهنئة جدي على ترقية نجله في الجيش. فقد كانت رتبته هي أرفع ما توصل إليه شركسي في كل من الأردن أو سوريا حتى ذلك الوقت. أذكر بكثير من الانبهار والدهشة، مائدة العشاء التي جهزها لهم "دادا". كان والدي، والذي أصبح في تلك اللحظة ضابطاً رفيع الرتبة ويحظى بكثير من الاحترام، واقفاً على راحة الضيوف ويخدمهم. شعر الضيوف بالحرج لأن رجلاً برتبة والدي يقف حولهم ويخدمهم مثل صبي خادم، فتوسلوا جدي ليسمح له باتخاذ كرسي. فهو في نهاية المطاف، السبب في سفرهم قادمين من دمشق. أتذكر جواب جدّي الحازم "هو ضابط

في الجيش عندما يكون خارج منزلي. هنا، هو الأصغر ويفترض فيه أن يؤدي واجبه". لم يغير رأيه رغم شدة إحراجهم من دور والدي المتواضع على تلك المائدة. في وقت أبكر من ذلك في حياتي، وخلال السنوات الثلاث الأولى من حياتي المدرسية في العسبلية، قرب المدرج الروماني، بدأت أقع في المشاكل وأهرب من المدرسة، مفضلاً اللعب في القلعة العثمانية خلف المدرسة أو الخرائب الرومانية في عمان، واستكشاف البرية والريف الأردني.

لم يعد هناك مناص من تدني درجاتي، فبدأت عائلتي تقلق من أني سأنشأ فاشلاً. في إحدى المرات، وبينما كنت هارباً من المدرسة، حصرتني الحاجة إلى استخدام المرحاض بدرجة ملحة. لم تسمح لي "الخابزه" الشركسية أن أقرفص في مكان ما من الحقول وأتغوط مثل حيوان، لذلك عدت إلى البيت، آملاً في أن لا يراني أحد أدخل المرحاض. لسوء الحظ، كان جدي جالساً على كرسيه المعتاد في الباحة، يدخن لفافة تبغ. أصبح استخدام البوابة الرئيسة للدخول غير ممكن مطلقاً. كان المرحاض ملاصقاً للمدخل وفيه شباك تهوية صغير مفتوح على الدرجات النازلة إلى شقة في الطابق الأول. كانت الهوة بين شباك المرحاض وسطح منزل جارنا حوالي مترين. تسلقت إلى سطح الجيران ونظرت إلى الشباك. بدت المسافة كبيرة، لكن لم يعد لي خيار آخر، لأن حاجتي إلى الفَرَج أصبحت لا تطاق. قمت بقفزة راكضة باتجاه الشباك الصغير، طرت في الهواء وبالكاد لامست الحافة، فتعلقت بأطراف أصابعي فوق الهوة. استعنت بكل ذرة من القوة في ذراعيّ ورفعت نفسي إلى أعلى ثم زحفت من خلال الفتحة، وقد غمرني التعرق، بينما كل عضلة في جسمي تؤلمني. اقفلت باب المرحاض من الداخل وجلست، وقد تنزّل علي شعور هائل بالراحة والانفراج.

اثناء جلوسي هناك، تاركاً الطبيعة تأخذ مجراها، سمعت صوت خطوات تقترب، تعرفت فيها على كونها لعمتي حليمة. وصلت إلى باب

المرحاض ودفعته، واضح أنها فوجئت بأنها وجدت الغرفة الصغيرة مشغولة.

أدركت أنها مضطرة للانتظار حتى ينهي من في الداخل مهمته، تحاملت على نفسها وابتعدت بضع خطوات ثم جلست متنهدة. كان قلبي في هذه الآونة يخفق هلعاً. فقد خططت مسبقاً لأفتح قفل الباب قبل هروبي مباشرة خارجاً من الشباك الخلفي، لكن ماذا إذا اختارت عمتي أن تحاول فتح الباب مرة أخرى في اللحظة نفسها؟ أو سمعتني أزيح الرتاج؟ لم أستطع أن أغامر، لذلك تركت الباب مقفلاً وزحفت خارجاً من حيث دخلت، قافزاً من ارتفاع ثلاثة أمتار إلى أرضية الدرج الخارجي. لقد كان الخوف من اكتشاف أمري يعادل عدم الإحساس بأي ألم من السقطة الشديدة، فركضت خارجاً إلى ملجأي في البرية.

عندما حانت ساعة انصراف المدرسة، بعد حوالي ثلاث ساعات، عدت إلى البيت أجرجر قدمي المتورمة الملتوية لأجد شقيقتيّ تتهامسان في المطبخ بطريقة تآمرية. كان وجه والدتي عابقاً بالقلق، وعمتي حليمة في غرفة نومها، بعد أن أغمي عليها في وقت سابق. لم يقبل أحد أن يخبرني عما يسبب كل هذا القلق والتوتر. في النهاية، لم تعد شقيقتي عصمت تقدر على كتمان الخبر الرهيب من ذلك، فهمست لي بالحدث المرعب.

"لقد زارنا الشيطان اليوم".

"كيف؟" أردت أن أعرف، فقد أصابني قلق عميق. "وأين؟".

"لقد طار إلى داخل مرحاضنا من خلال الشباك الصغير واستعمله بعد ظهر اليوم".

سألت ببراءة "وكيف تعرفين ذلك؟".

"لقد أقفل الباب من الداخل وطار خارجاً مرة أخرى".

أضافت شقيقتي كرمه "لقد اضطر دادا إلى خلع الباب في النهاية لأننا جميعاً أصبحنا مضطرين لاستعمال المرحاض". حدجتها أمي بنظرة قاسية.

ثم انفجرت فيها "ألم أمنعك من إخافة الولد الصغير؟".

هززت رأسي في رعب. ثم قلت بصوت أقرب إلى النواح "لن أستعمل ذلك المرحاض ثانية، إنني أخاف من احتمال عودته".

سمعت والدتي تصرخ في شقيقتيَّ العابثتين وأنا أركض خارجاً من المطبخ "أنظرا إلى ما فعلتما الآن!".

هناك أمر واحد يتحتم علي أن أذكره عن والدي خلال طفولتي المبكرة. فقد مارس عادة أخرى بصفته شركسياً وأكبر الأبناء، كنت أجدها غريبة في ذلك الوقت. عند نهاية كل شهر، وبعد أن يتسلم راتبه كجندي، كنت أراه يحضر الراتب كاملاً ويسلمه إلى جدي. كانت العملية أشبه ما تكون طقوسية في طبيعتها، وأفترض أن العديد من الشباب الشراكسة الآخرين فعلوا الشيء نفسه في حينا المهاجرين التابع لعمان. وقتها يعمد جدي إلى سحب دينار واحد من الراتب ويعيده إلى والدي لأجل مصاريفه الشخصية. رأيت هذه العملية تتكرر، مئات المرات خلال سنوات نشأتي حين كنت أعيش في البيت. شرحت لي والدتي أن جدي هو الذي يشتري كل الطعام وينفق على العائلة الموسعة، لذلك فالأمر طبيعي. لكن في نفس الوقت، لم أشاهد الشقيقين الآخرين، عمَّي محمد نور أو أحمد، يفعلان الشيء نفسه أبداً، رغم أنهما كانا يعيشان مع عائلتيهما في نفس المنزل. بدا لي الأمر غير منصف بعض الشيء، فواجهت دادا حول هذه المعضلة. ابتسم جدي، ربما شعر بالسعادة لكوني قد لاحظت العادة، وشرح لي أن ما قالته لي والدتي لم يكن صحيحاً كله. أخبرني ثم أراني كيف كان يستخدم النقود التي يجمعها من والدي: كان يشتري بها قطع أراض، لأنه، كما قال، يحتاج إلى الأرض ليفلحها، وكلما زادت الأراضي التي تمتلكها العائلة، كلما

زاد ذلك في بحبوحة العائلة.

بعد سنوات عديدة، وعندما أصبحت هذه الأراضي عقارات من الدرجة الأولى وتساوي الآلاف، وزعها جدي بين أبنائه بالتساوي. وهكذا يمكن القول إن راتب والدي هو الذي أسس ثروة العائلة التي أستمتع بها شقيقاه أيضاً في سنوات لاحقة. كثيراً ما سمعت هذه الحقيقة تعاد من قبل شقيقتيَّ بفخر واعتزاز لإزعاج أبناء عمومتنا.

لكنني أذكر أيضاً محادثة أجريتها مع دادا أثناء زيارتي الأولى عائداً من أمريكا، حول هذا الموضوع. كانت هناك أحاديث عائلية دائرة في ذلك الوقت، عن الكيفية التي وزع بها دادا الأراضي، وكيف شعر البعض أنهم حصلوا على أقل من البعض الآخر: وهذا وضع نموذجي في أي توزيع لإرث عائلي. ابتسم جدي بلطف وأخبرني بأن والدي، لكونه أكبر الأخوة، كان يؤدي واجبه تجاه العائلة كها. وذلك يشمل شقيقته، شقيقاه بالإضافة إلى عائلتهم وأن تلك هي الطريقة "الأديغه" في أداء الأمور: الطريقة الشركسية. طبعاً شرح لي كذلك أن نصف المال الذي أنفق في شراء الأراضي على الأقل، كان ثراءً أوجده هو أيضاً، من خلال تجارته في الماشية والأغنام، وهكذا، حلت المسألة بالنسبة لي مرة واحدة وإلى الأبد.

دأبت على التصرف بطيش وتهور، أختفي من المدرسة أياماً وأحياناً أسابيع متواصلة، وأتلقى علقة في كل مرة يكتشف فيها والدي هروبي. في النهاية، قرر أن الحل الوحيد يكمن في إدخالي بمدرسة داخلية حازمة، فاختار مدرسة أمريكية تديرها طائفة الكويكرز في رام الله تدعى مدرسة الفرندز للأولاد. حدث هذا عام ١٩٤٨، بعد أن تم توقيع الهدنة مع دولة إسرائيل الجديدة. لم تعد رام الله الواقعة في الضفة الغربية من نهر الأردن جزءاً من فلسطين، فقد ألحقت بالضفة الغربية للأردن ضمن المملكة الأردنية الهاشمية.

كرهت بقائي بعيداً عن عائلتي وأصدقائي، وما زلت أذكر دموع نانا

المالحة وهي تحتضنني مودعة وكلماتها القاسية لأبي على إرساله صبياً صغيراً إلى هذا الحد، بعيداً عن بيته. لم يكن سني يزيد عن العاشرة. لكن قراره كان صحيحاً: لأن المدرسة الداخلية أفضل ما كان ممكناً أن يحدث لي. فقد علمتني الانضباط الذي كنت بأمس الحاجة إليه، وعرفتني على مباهج القراءة والموسيقى الكلاسيكية.

خلال السنتين الأوليين، كان مدير المدرسة أمريكياً حازماً اسمه ويلارد جونز، أرعبنا نحن الأطفال، بينما عرفتنا مدرسون أمريكان آخرون أكثر لطفاً على خبرات عديدة رائعة مثل الخروج في نزهات ومغامرات المسيرات الطويلة. بعد تقاعد جونز، هبطت علينا نعمة بشخص مدير رائع اسمه ديلبرت رينولدز. إضافة إلى كونه شخصاً ودوداً عطوفاً كان أيضاً عازف كمان عظيماً، وبدأ يعطيني دروساً في العزف على الكمان. حضر مع رينولدز مدرس موسيقى آخر اسمه أوين جاندر، والذي أدين له بحق بحبي وتقديري للموسيقى الكلاسيكية.

تعلمت كذلك قيادة السيارات في تلك السنة. فقد انتقلت عائلتي مؤقتاً إلى معسكر الجيش في الزرقاء، على مسافة عشرين كيلو متراً إلى الشرق من العاصمة عمان. عدت إلى البيت لقضاء إجازتي الصيفية الأولى من رام الله لأجد سيارة شيفروليه بلون أزرق داكن مركونة في المرآب. لم يكن والدي متواجداً معظم الوقت، لذلك أخذت أضايق سائقه مروان، حتى يريني أسرار القيادة. تعلمت كيفية تشغيل السيارة وتحريكها إلى الأمام والخلف، كل ذلك ضمن حدود المرآب، لم يسمح لي بإخراج السيارة من المرآب أبداً.

كانت سيارة والدي العسكرية من نوع همبر، وعندما كان سائقه يذهب معه، كنت أخرج الشيفروليه خلسة من المرآب وأقودها ببطء في أرجاء الساحة. أصيبت والدتي بالذعر حين رأتني أفعلها مرة وهددت بإخبار أبي عنها ما لم توقف. لكنني لم أرعوي واستمريت في تمريني سراً. كانت قدماي بالكاد تصلان إلى الدواسات، ولم يكد رأسي يصل

إلى ما فوق عجلة القيادة. لقد كان تنسيق كافة الحركات مهمة صعبة، لكنني ثابرت برغم ذلك، مكتسباً المزيد والمزيد من الثقة مع كل حصة تدريب. لقد كانت تجربة جديدة غاية في الإثارة.

صباح أحد الأيام، وبعد أن غادر والدي إلى العمل، قررت أن أخرج بالشيفروليه إلى الطريق. كنت واثقاً من قدرتي على ذلك، لكنني نسيت أن هناك سيارات أخرى تستعمل الطريق غيري! الواضح أن هناك أمور أخرى في قيادة السيارات غير معرفة تبديل الغيارات وإدارة عجلة القيادة. حدثت انتكاستي الأولى على جدار الطوب العائد لجارنا. كنت قد خططت أن أقود السيارة حول مربعنا السكني لمرة واحدة لكنني أخطأت الحكم على الانحناءة الحادة، وهكذا اندفعت خلال الجدار الحاجز للحديقة. تهاوى الجدار وأصبت بالذعر، ولم أشعر حتى بأنني تسببت لنفسي بنتوء صلب على جبيني نتيجة ارتطام رأسي بالمقود. خرج الجار، وهو ضابط في الجيش بدوره، ليستطلع، فلما رآني، أصيب بالذعر أكثر مني لخوفه من أن يكون جداره قد سبب لي أي أذى، لأن والدي هو قائده المباشر. كيف سيتمكن من تعليل وجود جداره في طريقي؟

أخرجني من السيارة بمنتهى اللطف، قائلاً لي بألاّ أقلق، وأعاد السيارة إلى الخلف. أصيب صدام السيارة الأمامي ببعض الضرر البسيط، لكن فيما عدا ذلك، فقد كنت أنا والسيارة في وضع أفضل بكثير من جدار حديقته. قاد السيارة بي عائداً بنا إلى المرآب بكل حرص ووعد بأن لا يقول أي شيء عن الحادث. وأنه سيرسل من يقوم بإصلاح الجدار بسرعة، ولن يعرف بالقصة أحد. فرحت بذلك الحل وقضيت الساعة التالية أنظف الصدام الأمامي للسيارة، في محاولة لإزالة كل أثر للصدمة. لم تكن هناك أية طعوج أو شخوط في الصدام المصنوع من الصلب والمطلي بالكروم. وبدا الأمر وكأنني قد نجوت بفعلتي.

بعد أسبوع، وبعد أن استعدت ثقتي بنفسي، أخرجت السيارة مرة

أخرى، وقدتها إلى مسافة أبعد في الشارع، نحو تقاطع رئيس. بدأت عملية العبور، وفجأة، ارتطمت بي سيارة جيب عسكرية بقوة على جانبي الأيسر. أدركت في هذه المرة أنه حادث خطير وأنه لا شيء سيتمكن من إخفاء الدليل أو الحقيقة عن والدي. لم أصب بأي أذى جسدي لكن الخوف من غضبه جعلني أرتجف بلا سيطرة. أخبرت الجندي السائق عن هويتي وأسرعت عائداً إلى البيت. أعلمت والدتي بالحادث، فصار اهتمامها الأول والمباشر ليس بالسيارة ولا بغضب والدي المتوقع، ولكن بحالتي وسلامتي. نضت عني ثيابي وفتشت جسمي لتتأكد من عدم وجود أية إصابات. ثم وضبت حقيبتي بسرعة وأخذتني إلى مركز البلدة لأستقل الحافلة إلى عمان، نحو الأمان في بيت جدي بحي المهاجرين. أدركت بالسليقة أن لا أحد غيره سيتمكن من حمايتي من غضب والدي الرهيب.

انقضى يومان محطمان للأعصاب قبل أن يصل والدي إلى المهاجرين: لا بد وأنه كان منشغلاً جداً بواجباته العسكرية. اختبأت في غرفة نوم نانا حين سمعته قادماً، لشرب الشاي مع والديه. ثم سمعته ينادي باسمي، فلم يعد لدي خيار سوى الظهور في حضرته، خافضاً رأسي، وقد بدا مظهري بنفس البؤس الذي أحسه.

"يمكنك أن تبقى بضعة أيام أخرى مع جديك إذا أحببت، أو تعود في السيارة معي". قال ذلك بدون أي تلميح إلى الغضب أو الانزعاج في صوته.

قلت، وأنا أستعيد ثقتي بنفسي "سأبقى بضعة أيام أخرى".

"حسناً. لقد أعطيت تعليمات إلى مروان لكي يعطيك دروساً صحيحة في السياقة، عندما تعود. لقد حان الوقت لكي تتعلم كيف تؤديها بالشكل الصحيح، كما أنه أرخص على جيبي". تناول رشفة أخرى من فنجان الشاي. لم أستطع أن أقاوم الابتسامة. إنَّ لوالدي لحظاته الممتعة في نهاية المطاف! قررت أن أعود معه في ذلك المساء،

واستمرت دروسي في السياقة لبقية العطلة الصيفية، بموافقة والدي.

ورثت عن والدي اهتمامه بالترتيب ونشأت معجباً بمنطق عقله، رغم أنني كنت أجده قاسياً إلى حد زائد علينا نحن الأطفال حين نرتكب الأخطاء. لقد جعلني أشعر وكأنني في حالة منافسة معه على الدوام في سبيل الوصول إلى الامتياز في كل ما أفعله. كان ذلك حملاً ثقيلاً أجبرت على حمله، خاصة وأنني لم أتلق منه أي تقدير أو ثناء حينما أقترب من الامتياز الذي يتطلبه. ربما كانت هذه هي الطريقة الشركسية التقليدية، والقاضية بأن لا يظهر الكبير للطفل الكثير من الاعتراف، مخافة أن ينشأ مدللاً ويطلب المزيد.

أبليت بلاءً حسناً في الرياضة البدنية، وكنت دوماً أفوز في سباقات المضمار والميدان المهمة. أثناء وجودي في الصف الحادي عشر بمدرسة الفرندز للصبيان في رام الله، وخلال مهرجان الألعاب السنوية، دعي والدي كضيف الشرف، بسبب كونه الحاكم العسكري للإقليم في ذلك الوقت. تفوقت على نفسي هذا اليوم، محاولاً أن أستحق تقديره. بعد أن كسبت سباق المائة متر، صعدت لأتلقى الميدالية. كان والدي يوزع الميداليات بصفته ضيف الشرف. عندما صعدت إلى المنصة، حدجني بنظرة شك بعد أن علق الميدالية على صدري، لم أفهم السبب في امتعاضه، لذلك بذلت جهداً أفضل في سباق المائتي متر وصعدت مرة أخرى لتلقي الميدالية. حدجني هذه المرة بتحديق حارق وكأنه يقول "يكفي هذا، إنك تحرجني". لاحظ المدير النظرات المتبادلة وأصابته الحيرة. أذكر أنني سمعته يقول لوالدي كم أنا رياضي ممتاز. نفض والدي رأسه بالنفي.

اعتقدت أن أبي ربما لم يكن سعيداً لأنني لم أفز بفارق كبير. فصممت في هذه المرة على أن أضع كل مجهودي في سباق الثمانمائة متر. جاء أدائي جيداً إلى درجة أنني تركت الثاني ورائي بمسافة دورة كاملة. نهض جمهور الطلاب وأولياء أمورهم واقفين ليصفقوا لي،

يصرخون مشجعين ويرددون اسمي.

صعدت إليه على المنصة، ممتلئاً بالفخر، آملاً أن أكون قد بعثت في قلب والدي السرور. عندما رآني هذه المرة، غضب وقال لي بالشركسية ما معناه "انقلع من وجهي". استدار وطلب من المدير أن يعطي الميدالية للصبي الذي كسب السباق فعلاً! أصبت بالصدمة ولكن كذلك حصل للمدير الذي أصر بقوة على أنني الفائز.

فهمت لاحقاً ما حدث فعلاً. لأن والدي كان يجلس إلى جوار رئيس البلدية، يرشف الشاي ويتحدث في السياسة، فهو لم يتابع أياً من السباقات عن كثب. أعتقد أنهم يعطونني الميداليات أرضاءً له ولأنه ضيف الشرف. أحرجه هذا الأمر. فهو لم ولن يقبله. شعرت وقتها بألم عميق لأن والدي لم يستطع أن يؤمن بإنجازاتي، ولم أستطع أن أنام في المهجع تلك الليلة، لأن عقلي ظل يستعيد أحداث ذلك اليوم، وبقيت أتساءل لماذا لا يكون لي أب عادي مثل بقية الأولاد!

الفصل السابع

لم يوضح الوصول إلى نالتشك أياً من اضطراب ألوشا بشأن ما ينبغي عليه عمله، لكنه سرعان ما اقتنع أنه قام بالعمل الصحيح بتركه الريف نحو عاصمة الجمهورية. لقد حطم قلبه توديع والدته وجده وبقية العائلة. فقد كانت المساحة المحيطة بمجموعات البيوت الصغيرة عالمه كله منذ اللحظة التي شد نفسه واقفاً فيها على قدميه واتخذ خطواته القليلة الأولى. لم يستطع أحد منهم أن يمنع الدموع من الانسياب من أعينهم وهم يراقبونه يمشي مبتعداً عن القرية. أدرك ألوشا أن لوسا تخشى عليه أن يختفي، تماماً كما اختفى والده وبقية الشباب الآخرين، بينما آمن أحمد بأنه سيكون قد مات منذ مدة طويلة قبل أن يتمكن ألوشا من العودة إليهم. لم يسمح ألوشا لنفسه بالخوض في مثل هذه الأفكار مخافة أن توقفه عن فعل ما أدرك في قلبه أنه العمل الصحيح.

بدا أن كل شخص في المدينة غير واثق من المستقبل تماماً كالفلاحين في الريف. لم يكن أحد –على ما يبدو- يعرف حقيقة ما يحدث، لكن كثيرين منهم كانوا راغبين في التحدث عنه. الشائعات والهمس يدوران في كل الأمكنة. كل الجماهير تحمل وجوهاً قلقة، رؤوسها محنية وكأنها تدفع ريحاً شرسة طيلة الوقت. وصل ألوشا إلى وسطهم وهو لا يعرف أحداً. أحسَّ بدبيب التعب والجوع ولم يكن لديه مكان يأوي إليه. عندما تكون معدتك فارغة وعضلاتك متعبة من السفر، يصبح من الصعب أن ترى أية مدينة غريبة وكأنها ترحب بك. أخرست حاجته إلى النوم وانعدام يقينه عن المكان الذي سيريح رأسه فيه، أخرست الإثارة من

رؤية الشوارع المزدحمة التي جعلت قلبه يخفق.

لم يستطع أن يقاوم إغراء الأضواء الدافئة للمطعم/المشرب الذي مرَّ من أمامه مع هبوط المساء، خاصة إذ تناهى إلى سمعه ضجيج الأصوات المرحة في الداخل. دفع بطريقه إلى الداخل، فصدمته على الفور حرارة المدفأة المشتعلة في الزاوية. عذّبت رائحة الطعام معدته الخاوية. وقف في مكانه لحظة طويلة، يحمل قبعته في يده، يحدق في الرجال الجالسين إلى الطاولات، بعضهم يخوض نقاشات جدية، والبعض الآخر يجادل بغضب وقسم ثالث يضحك. استغرب رؤية هذا القدر من الوجوه الذكرية الشابة بعد معيشة في قرية النساء والرجال العجائز. رمقه شخص أو اثنان بنظرات متشككة وتوقفوا عن الكلام. تابع آخرون تحديقهم وران عليهم الصمت بدورهم، إلى أن باتت الغرفة كلها تحدق فيه، تنتظره أن يتكلم.

قال بلغته القباردية "إنني آسف على مقاطعتكم، لكنني غريب في البلدة. أنا جائع وليس لدي أي مال. وأنا أبحث عن عمل" .

"إذا كنت تريد عملاً في هذه الأنحاء، ستحتم عليك الانخراط في الجيش" قال صوت وضحك كثيرون آخرون موافقين.

قال ألوشا "لا أريد أن أنضم إلى الجيش. ما زلت في الخامسة عشرة" لم يعد واثقاً من رد الفعل الذي سيحصل عليه جراء هذا الإعلان.

"هذا أيضاً صحيح جداً" . تغلب صوت نسائي على باقي الأصوات، ورأى امرأة في منتصف العمر تخرج من غرفة في الخلف. كانت تحمل قصعة من الحساء وبعض الخبز. "تبدو وكأنك بحاجة إلى شيء من هذا" . وضعت الحساء على طاولة وأشارت إليه بالجلوس.

قال ألوشا "لا يمكنني أن أدفع لك مقابله" .

قالت "اليوم الذي سيدفع فيه أي من هذه الشخصيات الكسولة عن أي شيء، سيكون اليوم الذي سيحضر فيه القيصر الروسي وعائلته

لشرب الشاي. ستجد طريقة لتسدد ديني. على اية حال، هذا المكان يعود إلى "بروفسايوز" هذه المنطقة، ويمكنك أن تحل ضيفاً عليهم هذه الليلة. يبدو أنك صبي محترم".

"أشكرك". وجلس ألوشا، ثم انقضّ على الحساء بنهم، يقطّع الخبز ويدفعه إلى فمه. سأله رجل قريب منه "من أين أنت، أيها الغلام؟" على الرغم من أن هذا الرجل يتحدث اللهجة القباردية بطلاقة، إلا أن بشرته بدت أكثر سمرة، لذلك افترض ألوشا أنه ربما يكون بلقارياً، من العرق التركي الذي يشترك مع القبارديين الشراكسة في الجمهورية.

"أنا من الريف، من ضفاف نهر المالكا" قال ألوشا من خلال لقمته، محاولاً أن يمارس الغموض حول اسم قريته تحديداً.

"وكيف هي الأحوال هناك؟".

أجابه ألوشا "كيف هي الأحوال في كل مكان؟".

"هل استلمتم الماشية المرتجعة من الكولخوز؟" سأله أول الرجال الجالسين إلى جانبه، بهدوء.

مازحه آخر "أنت وتوزيع ماشيتك، أنت مهووس".

أصر الرجل "هل استلمتموها؟" وقد حدّق في عيني ألوشا بتركيز.

قال ألوشا "نعم، استلمناها، ولماذا تسأل؟".

قال الرجل "اسمي بيشتو" وهو يمد يده إلى الأمام. "لقد كنت مسؤولاً عن التوزيع. إنني بحاجة لمعرفة ما إذا كانت الأوامر قد نفذت. لا يمكنك أن تتأكد بدرجة مطلقة".

"نعم" قال ألوشا، وهو يصافح يد الرجل الآخر القوية باختصار قبل أن يعود إلى تناول طعامه.

"لقد حضر معها نقيب. مراد بشيروفيتش".

"مرادا" قال بيشتو مبتسماً "إنه رجل فاضل، مع أنه ربما يكون ميالاً إلى الجندية أكثر مما يجب".

اعترف ألوشا "لقد حاول أن يجندني".

"لماذا لم تذهب؟" سأل رجل يرتدي بزة عسكرية وكتف مضمدة برباطات كثيفة، لم يكن ألوشا قد لاحظه قبل تلك اللحظة، بلغة روسية نقية.

التزم ألوشا جانب الحذر. فهو غير متأكد من الجهة التي يتعاطف معها هؤلاء الناس، أو في الحقيقة الجهة التي يتعاطف معها هو نفسه. "أين كنت تقاتل؟" سأل الرجل بلغته واستمرت المحادثة باللغة الروسية.

"تحت على ضفاف الكوبان" قال الرجل وصمت الآخرون وهم ينصتون "قالوا لنا أننا سنتمكن من إيقاف الألمان هناك. كنا نتراجع لأسابيع لكننا شعرنا بالثقة بأننا سنتمكن من إيقافهم هناك. أقمنا خطاً دفاعياً. اخترقوه وكأنه لم يكن أكثر من خيط امرأة، وأجبرونا على الفرار أمامهم".

سأل بيشتو "وهل يعني هذا أنهم سيصلوا إلى قلب القفقاس؟".

"أنا لا أرى الشخص الذي سيوقفهم، قد يستطيع مراد والحزبيين الذين معه أن يجعلوا من أنفسهم مصدر إزعاج، لكن هؤلاء الناس لا يمكن إيقافهم في الوقت الحالي. إنهم يكبدوننا عشر إصابات مقابل كل واحدة نوقعها فيهم".

عاد بيشتو إلى التحدث باللغة الشركسية "إننا بحاجة إلى إخراج الأطفال من المدينة".

سأل صوت آخر "وإلى أين يمكننا أن نرسلهم؟".

قال بيشتو بعد هنيهة تفكير "براخلادنا". سوف نرسلهم إلى براخلادنا. سيكونوا بأمان هناك". اختلطت الأصوات وتعالت بينما بدأ كل واحد يطرح رأيه حول أفضل ما يتوجب عمله، واستغل ألوشا الضجة لينهي خبزه وحساءه. مع بدء الدفء في التسرب إلى أطرافه، وانتشار دفء الحساء في جسمه، شعر بالإرهاق يحتويه. اضطر إلى بذل مجهود كبير ليبقي عينيه مفتوحتين أثناء اضطرام النقاش حوله. تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها خليطاً من اللغتين الشركسية والروسية يتم التحدث بهما في الوقت نفسه. قلما كان يجري الحديث باللغة الروسية في قريته، ما عدا المدرسة.

سأله بيشتو بصوت خفيض بينما انهمك الآخرون في أحاديثهم "هل لديك أي مكان تنام فيه هذه الليلة؟".

"كلا" هز ألوشا رأسه نفياً. "هل تعرف أي مكان؟".

"هناك متسع في نفس طابقي إذا لم تكن صعب الإرضاء".

ابتسم ألوشا "لست في موقع يؤهلني لأكون صعب الإرضاء".

قال بيشتو "تعال معي، أنت تبدو متعباً. أنا بدوري أحتاج إلى شيء من النوم. سيتكلم هؤلاء الحمقى طوال الليل إذا لم نكن حذرين، ولن يصلوا إلى أية نتائج.

نهض الرجلان استعداداً للانصراف، وصاح فيهم كل من في الغرفة بالبقاء مدة أطول. هز بيشتو راسه نفياً ورفع يده بتحية الوداع، وهو يوجه ألوشا خارجاً معه إلى الشارع.

"إنه بلا فائدة في الوقت الحاضر" قال وهما يتمشيان في الشوارع التي خفتت أضواؤها.

"ما هو ذاك؟".

"كل هذا الحديث والجدال... لا أحد منا لديه أية فكرة عن

حقيقة ما يجري. إن تنظيم الحكومة في حالة فوضى مطبقة هنا. الاتصال مع موسكو بطيء وكثيراً ما ينقطع، ليست لدى أحد أية فكرة عما يجب فعله أو كيفية التعامل مع التهديد".

التزم ألوشا الصمت أثناء سيره إلى جانب الرجل الأكبر سناً. أحس بالخيبة والخذلان لمعرفته أنه لن يعطي أية أجوبة سهلة. إذا كان رجل مثل هذا لا يعرف ما يحدث، فما هو الأمل المتوفر له؟

استطرد بيتشو أثناء مسيره "هناك الكثير من المعلومات المغلوطة المنتشرة في كل مكان. أنا أظن أن كل جنرال يرسل إلى الخلف تقارير مزورة من الجبهات المختلفة ليحاول أن يجعل نفسه يبدو بصورة أفضل في نظر ستالين. كذلك فإن المسؤولين عن الدعاية يقدمون تفسيراتهم الخاصة عن سير الأحداث ويشوهون الحقائق أكثر مما هي. لا شك أن الألمان يفعلون الشيء نفسه".

"إذاً، كيف ستعرف ما يتوجب عليك فعله؟".

"إذا أرسلنا الأطفال إلى براخلادنا، فإننا نقلل المخاطر، على الأقل".

"هل تعتقد أن الألمان سيصلون إلى نالتشك نفسها؟".

نفض بيشتو كتفيه "ذلك ممكن. إنهم جيش كفؤ، بغض النظر عما يمكن أن تقوله آلتنا الدعائية خلافاً لذلك".

قاد الطريق عبر العديد من الشوارع المظلمة، ينعطف ويستدير حتى تأكد ألوشا أنه لن يتمكن من معرفة طريقه في المدينة بدون مساعدة. توقفا في نهاية المطاف أمام بناية كئيبة. ربما كانت بيتاً لتاجر غني يوماً ما، لكن الآن، فالنوافذ مغلقة بستائر ثقيلة من الداخل، وكان يخيم عليها جو من الفراغ والكآبة.

قال بشتو بلهجة مرحة "ها نحن هنا!".

سأل ألوشا "أهذا هو المكان الذي تعيش فيه؟" محدقاً إلى الأعلى بالواجهة المهيبة الممتدة فوقها. ظهرت له مثل قصر، مقارنة ببيوت القرية.

"هذا هو المكان الذي أقيم فيه حالياً. ليس من الصعب العثور على أماكن للمعيشة، لأن كثيراً من الأبنية تقف فارغة من ساكنيها منذ أن بدأت الحرب. لقد انتقل كثير من الناس خارجين إلى القرى بحثاً عن الأمان والطعام".

دفع الباب غير المقفل ففتحه واتخذ طريقه إلى الداخل. تبعه ألوشا فهوجمت خياشيمه على الفور برائحة طاغية من الرطوبة والخشب المتعفن، تشوبها روائح طهي قديمة وتعرّق أجساد بحاجة إلى الاستحمام. تابع بيشتو طريقه في الممر تحت جنح الظلام ودفع باباً في الطرف البعيد ففتحه. وصلا إلى مطبخ حيث جلس عدد من الأشخاص حول طاولة، يتحدثون، بما يشبه طريقة حديثهم في المقهى. إلا أنه في هذه المرة كانت النساء موجودات. كانت الغرفة مضاءة بمصابيح زيت وألسنة لهب من نار فشلت في الإبقاء على دفء الغرفة. أعلن بيشتو للغرفة بشكل عام "هذا هو ألوشا. سوف يبقى معنا بينما يرتب أوضاعه. لقد وصل لتوه من الريف".

جرى الترحيب به بفتور، وارتاب ألوشا في أن بعضهم يعتقد بوجود ما يكفي من الناس في البيت أصلاً، وتضايق من وصول فم آخر سيحتاج إلى إطعام. على كل حال، يبدو أن بيشتو يحظى بالاحترام، لذلك لم يعترض أحد. سحب أحدهم كرسياً له وجلس بينهم، فأكملوا المحادثة التي كانوا يخوضون فيها لحظة دخوله. في هذه المرة، جرت المحادثة بكاملها بالروسية.

حاول ألوشا أن يتابع سير الحديث لفترة لكن عيناه استمرتا في الإغماض. لاحظ بيشتو أن صديقه الفتي يجد صعوبة في البقاء صاحياً، فأخذه إلى غرفة في الطابق العلوي حيث وجد أكواماً من البطانيات وبعض

فرشات الجيش الرقيقة، ثم أشار إلى زاوية يمكنه الاستلقاء فيها. في اللحظة التي تمدد فيها ألوشا، غط في نوم عميق ولم يزعجه شيء للساعات العشر التالية. جاء الناس وناموا على الفرشات الأخرى، حتى أن بعضهم تحدث لفترة أو ترك المصابيح مشتعلة بينما هم يقرأون، لكنه كان غافلاً عن كل ذلك في نعيم نومه. لم يشعر بتسرب أوائل أشعة الشمس ولم يسمع الآخرين وهم ينهضون، ينتعلون أحذيتهم ويعودون للنزول إلى الأسفل. بحلول وقت تحركه أخيراً من سباته العميق، كان البيت قد فرغ. كانت النار ما تزال مشتعلة في المدفأة. عثر لنفسه على قليل من الخبز وغلى إبريقاً ليجهز لنفسه كوباً من الشاي.

جلس إلى الطاولة وحاول أن يفكر فيما يفعله. تنامت إلى سمعه أصوات من الشارع، لكنها لم تكن بشرية. فقد كانت لها صفة غريبة، ذات صدى. عبر الغرفة إلى النافذة ودفع الستائر إلى الوراء. سحب الشباك وفتحه بصعوبة بالغة لأن الفصالات بدت وكأنها قد تيبست بفعل الصدأ. انحنى إلى الخارج وأنصت، فأدرك أن الصوت يأتي من مذياع معلق على زاوية الشارع. استغرقه بعض الوقت حتى استطاع أن يفهم ما يقال، فقد ظلت ذبذبات المذياع تشوه الصوت وتجعل كل كلمة ثانية تختفي في فرقعة من التشويش الكهربي. استطاع بعد لأي أن يفهم منظومة الجمل. فقد كانت تكرر الأشياء نفسها المرة تلو الأخرى، تأمر الناس بعدم الذهاب إلى براخلادنا بل إلى تيريك. "إن الألمان موجودن في براخلادنا. خذوا أطفالكم إلى تيريك، حيث سيكونون آمنين".

جاء ذلك تماماً عكس ما كان بيشتو يقوله في الليلة الماضية. استطاع ألوشا أن يفهم ما كان يعنيه بيشتو. فلا أحد على ما يبدو، يعرف ما يجري، ولا حتى أولئك المسؤولين عن نشر المعلومات للعامة. استطاع، لدى سماعه الكلمات، أن يلاحظ وجود عامل من الهلع في صوت المذيع. كأنما أخذ الرجل على حين غرة، وكأنه مذعور مما قد يحصل للأطفال الذين اصبحوا في طريقهم إلى براخلادنا. وهو يصرخ يائساً ليوقف

المزيد من السقوط في نفس الفخ. فالجيش الألماني بالنسبة لهذا الرجل، وحش من نوع ما، يأكل الأطفال.

انفتح باب على الجانب الآخر من البيت، مسبباً تياراً مفاجئاً، حرك الستائر وأطلق سحابة من الغبار ذي الرائحة العفنة. استدار ألوشا ليرى شاباً، في مثل عمره يدخل إلى المطبخ. قال "مرحباً"، وهو يستدير بدون أن يغلق الشباك. فقد بدأ الهواء النقي يحسّن رائحة الغرفة. سأل الشاب "مرحباً، ومن أنت؟". وجهه عطوف، سمح، شعر ألوشا بالارتياح إليه.

مد ألوشا يده "إسمي ألوشا، لقد وصلت بالأمس فقط إلى نالتشك، قادماً من الريف".

"هكذا؟" تصافح الشابان "أنا عسكربي. إنني موجود هنا منذ بضعة أسابيع" اشار نحو الشباك المفتوح والأصوات في الخارج " نحن نعيش في أزمنة مثيرة للاهتمام، ألا تعتقد ذلك؟".

"لا بد وأنك أخ من الأديغي. على الأقل تلك هي اللهجة التي أسمعها".

"لقد سمعتني بشكل صحيح يا أخي، أنا "بجدوغ"، وقريتي تقع في أعلى الجبال فوق مايكوب. أردت أن أنضم إلى الجيش لكنهم رفضوني. الروس لا يثقون بنا".

وافقه ألوشا "الأمر مربك!". استمر المذيع يكرر الرسالة نفسها.

ابتسم عسكربي قائلاً "نعم، يبدو أن الألمان سيحضرون مهما فعلنا وإلى أي مكان نرسل أطفالنا. يعتقد بشكل واسع الآن أنهم قد احتلوا بياتيجورسك ومينفودي".

"هل اقتربوا إلى ذلك الحد؟".

"يحتمل أن الألمان موجودون على بعد مجرد مائة كيلو متر.

يمكنهم أن يصلوا إلى هنا خلال يوم إذا اختاروا ذلك".

"لا عجب أن ذلك الرجل يبدو خائفاً إلى تلك الدرجة".

"فعلاً".

قال ألوشا "لا يبدو عليك الخوف"، وهو يتفحص الشاب ويلاحظ مقدار هدوئه الواضح.

قال عسكربي "من الصعب تخيل كيف يمكن أن تسوء الأمور أكثر مما هي حالياً". في تلك اللحظة اهتز البيت جراء انفجار هائل، وتساقطت عليهما الغبار وقطع القصارة من السقف.

غطس كلا الشابين تحت الطاولة.

"يبدو أنني كنت مخطئاً" قال عسكربي، بعد أن تجاوزا مفاجأتهما.

سأل ألوشا "ماذا كان ذلك بحق الجحيم؟".

"أعتقد أن الألمان قد وصلوا".

وصلت إليهم أصوات الصراخ والهلع في الشارع خارجاً أثناء جلوسهما تحت الطاولة، من خلال الشباك المفتوح. دلت الأصوات على أن الناس يركضون في جمنيع الاتجاهات. لاذ الصوت القادم من المذياع بالصمت. ربما ذهب المذيع ليستطلع ما يحدث أو أنه هرب ليحتمي. أو ربما أصيب نظام الإذاعة وانقطعت التوصيلات. بدلاً من صوت المذياع، وصل إلى سمعهما في هذه اللحظة هدير الطائرات الذي لا تخطئه الأذن فوق رأسيهما، مصحوباً بالانفجارات المنتظمة للقنابل الساقطة إذ تعثر على أهدافها. جاء صوت كل قنبلة أبعد من الأخرى بقليل وهي تبتعد عن البيت الذي التجأ فيه الشابان.

قال ألوشا، وهو يصرح بالواضح "إنهم يقصفون".

"أرجح أنهم يفعلون ذلك. على أية حال، ما هي خططك؟".

"أريد أن أنضم إلى الأنصار. أريد أن أقاتل". أجاب ألوشا، غير واثق من كلماته.

اخترق الألمان الجبال الغربية في وقت سابق واحتلوا عدة قرى واقعة على السفوح بما فيها إقليم البروز والقرى المجاورة. لم تنج كامينا موست، قرية ألوشا، جاء الجنود الذين احتلوها من وحدة رومانية في الجيش الألماني، يقودها نقيب حسن الهيئة اسمه رادليتش. اختار منزل أحمد ليجعل منه مركز إقامته، أولاً لأنه يشرف على مدخل القرية ويبدو أن بناءه أفضل من الأكواخ الأخرى. توزع رجاله بين سكان المجتمع الآخرين. لكن ذلك الاحتلال سبب الكثير من القلق والهلع بين النساء من السكان اللاتي سمعن إشاعات عن وحشية هؤلاء المحتلين.

فقد أشاع الشيوعيون أن الألمان يأكلون لحم الأطفال الروس ويغتصبون كل النساء اللاتي تصل أيديهم إليهن.

تولى أحمد، كبير السن في القرية، مهمة التفاوض مع المحتلين والعمل كممثل عن القرويين. لم يصدق كل الدعاية السلبية عن المحتلين، ولكنه بكل الأحوال ظل متوترا بقدر جميع نساء القرية. حلت مشكلة تواصله حينما أدرك أن المحتلين يمكنهم فهم اللغة الروسية لأنهم من قوميات رومانية سلافية. طمأن لوسا إلى أنه سيظل يراقب النقيب رادليتش، وإذا دعت الحاجة، فسوف يقتله في حال اعتدائه عليها بأية طريقة. فقد احتفظ بخنجره القديم الحاد "الكنجال" مخفياً تحت قميصه، وهو ما زال قادراً على استعماله بفعالية.

في اليوم الثاني من إقامته في بيت أحمد، وعندما لاحظ رادليتش قلق النساء في الكوخ، نادى على لوسا إلى ناحية.

ناداها بقوله "يا أخت، هل يمكنك أن تأتي إلى هنا رجاءً؟" وكان قد جلس واتخذ مكانه في غرفة الجلوس الوحيدة في الكوخ.

ذهبت إليه لوسا خائفة مترددة، غير عالمة بما تتوقعه. مد رادليتش يده إلى داخل جيب قميصه وأخرج صورة ناولها على الفور إلى لوسا.

قال "هذه هي عائلتي، يا أخت. أنا رب عائلة وعندي طفلين رائعين، أحبهما وأشتاق إليهما كثيراً. لن أؤذيك أو أسمح لأحد من جنودي أن يؤذي أحداً في هذه القرية. أرجوك أن تصدقي هذا وتبلغيه لكل الآخرين".

نظرت لوسا إلى صورة لامرأة جميلة ممتلئة القوام، وطفلين جالسين في حضنها. فهمت وأعادت له الصورة والدموع تنساب فوق خديها. لم تستطع أن تفهم سبب بكائها. ربما كانت قلقة على ألوشا وتتساءل عما يحدث لابنها في نالتشك، في تلك اللحظة.

الفصل الثامن

كان والدي يعتبر رجلاً وسيماً. فقد دأب على تشذيب شاربه الصغير بعناية فائقة، وحرص على ارتداء زيه العسكري نظيفاً ومكوياً إلى درجة الكمال. لا أذكر أنني رأيته يرتدي شيئاً سوى الأزياء العسكرية خلال طفولتي كلها. كانت عيناه الزرقاوان ذات نظرات خارقة، وشعره المائل إلى اللون الأشقر مسرح إلى الوراء بخط مستقيم. الأمر الذي ذكرني على الدوام بأبطال هوليوود لتلك الحقبة مثل كلارك جيبل وروبرت تايلور. أعرف أنه كان وسيماً لأنني كثيراً ما رأيت الناس يلاحظونه، خاصة النساء منهم.

عام ١٩٥٠، وأنا ما زلت في المدرسة الداخلية برام الله، كثيراً ما أتى والدي، الذي ظل مركزه في الخليل حينها، لزيارتي عند نهايات الأسبوع، وليصطحبني إلى وجبات غداء رائعة في البلدة. أثناء تلك الوجبات الثرية، لاحظت مدى شعبيته لدى النساء. قرر أثناء واحدة من تلك العطلات أن يأخذني إلى نابلس لزيارة عمتي حليمة والمبيت عندها. فقد حضر يومها إلى رام الله بصحبة صديقه، الدكتور حلمي، طبيب اللواء.

بعد الغداء، استدار نحو الدكتور حلمي مبتسماً وقال

"حلمي، يمكنك أن تذهب معنا إلى نابلس. ستكون إجازة ممتعة لك. إن شقيقتي طاهية ممتازة. وقد انتقلت لتوها إلى نابلس مع زوجها".

كان الدكتور حلمي حريصاً على العودة إلى قيادة اللواء. شرح أنه بغياب والدي، يجب بقاء ضابط واحد على الأقل برتبة رفيعة أثناء عطلة نهاية الأسبوع. لأن الإسرائيليين ظلوا يهاجمون القرى الحدودية باستمرار ويحرقون حقول الفلاحين الفلسطينيين، الأمر الذي يسبب الكثير من الاضطراب والقلق. وكانت مهمة حمايتهم هي وظيفة لواء والدي.

رد عليه أبي "يستطيع اللواء أن يتدبر أموره ليومين بدوننا". لكنَّ حلمي فضل العودة إلى الخليل لأسباب خاصة به. أخبرني والدي لاحقاً أن السبب في رغبة الدكتور الطيب بالعودة، هو ببساطة حتى لا يفوت لعبته البوكر المعتادة في أمسيات الجمعة. قدم له والدي سيارته الهمبر وسائقه العسكري ليقله إلى الخليل، بينما استأجرنا نحن سيارة أجرة لرحلتنا إلى نابلس.

وصلنا نابلس في المساء الباكر، فشرعت عمتي حليمة في تحضير الطبق الشركسي المفضل "شيبسٍ باستا" تكريماً لزيارة شقيقها الأكبر. كان زوجها، موسى بوران، نقيباً في سلاح الدرك الأردني، وهي وحدة خيالة كانت تعمل كقوة شرطية.

كان الرجل يحبني لأنني مثله، مغرم بالخيول وفارس إلى حد ما، وكنت أستمتع بزياراته لأنني أحظى بركوب بعض جياده دائماً. وكنت أترقب تلك الزيارة بلهفة في تلك العطلة لتلك الغاية.

ما كدنا ننهي الوجبة ونجلس لتناول كوب من الشاي مع الحلوى، حتى وصل راكب دراجة نارية عسكري برسالة عاجلة إلى والدي. إذ لم يكن منزل عمتي الجديد في معسكر الدرك قد زود بهاتف بعد. جعلت الرسالة والدي يغضب ويتوتر. أمر المراسل بطلب سيارة على الفور وأخبرنا أنه مضطر للعودة إلى قيادته في الخليل تلك الليلة. بدا منزعجاً وغاضباً إلى درجة كبيرة، وانتحى بالنقيب موسى جانباً ليهمس له ببضع كلمات سراً. رتب لموسى أمر إعادتي إلى المدرسة ليوم الأحد.

جلست أراقب الكبار بهدوء، وهم يبدون ملاحظات ويتخذون قرارات لم أتمكن من إدراكها. لم أفهم ما حدث، وأفترض أنني كنت أصغر بكثير من أن يتم إخباري بالأحداث المريعة لتلك الليلة، لكن عمتي أخبرتني في اليوم التالي أن "اليهود" قد قتلوا الدكتور حلمي، صديق والدي الحميم.

ستمر عدة سنوات قبل أن أكتشف أن عصابة الإيرغون وعصابات إرهابية يهودية أخرى، كانت في الواقع تستهدف والدي لاغتياله. وعندما سمعت رواية ياكوف هاروتي للأحداث، بعد سنوات عديدة في تل أبيب، وبعد قراءة مذكرات والدي، تكشفت القصة الكاملة للأحداث بحيث أصبحت تسلسلاً منطقياً للأحداث.

فبعد أن أخفق اليهود في محاولتهم السابقة في باب الواد، أقسموا على الاستمرار في جهودهم للتخلص من عزت حسن وضباط أردنيين آخرين وإزالتهم عن ميدان العمليات. انزعجت الهاجانا والمنظمات اليهودية الأخرى بشدة لعدم تمكنها من محاصرة القدس والسيطرة على المدينة القديمة (القدس الشرقية) قبيل الإعلان عن وقف إطلاق النار الذي تشرف عليه الأمم المتحدة. وهكذا استمر هاروتي وأعضاء آخرون من عصابة شتيرن في مراقبة تحركات عزت حسن على أمل الإيقاع به في كمين. أصبح هذا الأمر ملحاً بدرجة خاصة لأن عزت كان ناشطاً في التخطيط لغارات سرية داخل المناطق اليهودية، انتقاماً لجميع الاعتداءات الإسرائيلية في الضفة الغربية. كانت هجماته الجريئة "مثيرة للحنق"، خاصة في أوضاع عامي ١٩٤٩-١٩٥٠ حين لم تكن الحدود قد استقرت بعد. اكتشف الإسرائيليون أن عزت قد جند العديد من الجنود والضباط الشراكسة الشباب تحت قيادته، وكان هؤلاء يستمتعون بالمجابهة والمغامرات الجريئة على الحدود. كانت الاشتباكات مثار قلق القيادة الأردنية العليا للجيش، وقد هدد الجنرال غلوب عزت في مناسبتين، بتنحيته عن الجبهة. لكن عزت

كان لديه حلفاء سياسيون آخرون، خاصة وزير الدولة وقتها، سمير الرفاعي، والبلاط الملكي بطريقة غير مباشرة. لذلك استمر في عملياته الانتقامية بكل حصانة، الأمر الذي أكسبه احترام وإعجاب زملائه الضباط، وقائده المباشر، حابس المجالي. لكن ممارساته كانت تحبط خطط الهاجاناه وقوات الدفاع الإسرائيلي المشكّلة حديثاً، بحيث أعطيت موافقة صريحة على محاولة تصفيته مرة واحدة وإلى الأبد.

استدعي هاروتي ليقود الكمين فاختار ستة أعضاء من رفاقه السابقين في عصابتي ايرغون وشتيرن للتخطيط للكمين. أسسوا رقابة استطلاع لمراقبة تحركات عزت وبرنامج أعماله. عرفوا من زياراته الدورية أيام الجمعة لنجله الطالب في رام الله. راقبوا مغادراته وعودته الروتينية المعتادة من وإلى رام الله لمدة شهر قبل أن يقرروا القيام بعمليتهم.

كانت سيارة عزت العسكرية، الهمبر فريدة لكونها الوحيدة من طرازها الموجودة في منطقة الخليل ذلك الوقت، ولذلك فإن التخطيط لها واستهدافها أمر سهل.

ليلة الجمعة، الخامس من أيار عام ١٩٥٠، تحركت مجموعة الإيرغون إلى منطقة طريق القدس – الخليل وانتظرت لتلقي المعلومات عن عودة الهمبر من رحلتها إلى رام الله. جاءت الإشارة حوالي الساعة ٧:١٠ مساءً بأن الهمبر قد غادرت رام الله في طريقها عائدة إلى الخليل، وتحمل الراكب المستهدف في مؤخرة المركبة. تم تجهيز الكمين في مشارف الخليل حيث تمر الطريق خلال واد ضيق قبل أن تنزل باتجاه مدينة الخليل. خطط الإسرائيليون لقطع الطريق بالردم والحجارة لإجبار السيارة على التوقف، واختبأ مطلقو النار كلهم خلف بعض الصخور المجاورة للطريق الضيقة. باتت رشاشاتهم وبنادقهم مذخرة وجاهزة للإطلاق، وكانت الخطة تقضي بأن يمطروا السيارة بمئات الطلقات لدى وقوفها عند الحاجز. لم يعد هاروتي يرغب في

ترك أي عامل للصدفة هذه المرة. لأن مهمته هي القضاء على هذا الضابط الشركسي مرة واحدة وإلى الأبد.

عند حوالي الثامنة والربع مساءً، شاهدوا أضوية مركبة ظهرت وهي تنزل الطريق الحاد، وتلقوا إشارة تأكيد أخرى بأنها الهمبر المستهدف. وضعت المجموعة كتل الحاجز المتبقية على عجل وتجهزت لإطلاق زخة من الرصاص على الهمبر حينما تتوقف عند نقطة الكمين.

لاحقاً، عندما نقل الدكتور حلمي وسائق والدي إلى المستشفى للتشريح، صدر التقرير بأنه استخرج من جسد كل منهما أكثر من مائة رصاصة، لم يدرك هاروتي الخطأ حتى اليوم التالي، حينما استدعي إلى قيادة الهاجاناه ليقدم تقريره ويستجوب.

أعلنت الإذاعة الأردنية نبأ الكمين، مؤكدة أن العصابة قد قتلت الهدف الخطأ مرة أخرى. وبدأت المجموعة تخطط مرة أخرى لكيفية اغتيال عزت حسن.

غضب والدي على مقتل صديقه إلى درجة أن أقسم على الثأر له، وازدادت غاراته على المناطق المحتلة من قبل إسرائيل في ضراوتها. وقد شارك شخصياً في بعض من أكثر الهجمات خطورة، واصيب بجرح طفيف في ساقه اليمنى في إحداها.

في النهاية، أجبرت الشكاوي المتعددة لمراقبي الأمم المتحدة قيادة الجيش على إعادة تعيين والدي وعزله عن الجبهة أوائل عام ١٩٥١، وقررت إرساله إلى دورة تدريب لكبار الضباط في إنجلترا لمدة سنة، لمجرد إبقائه بعيداً عن الجبهة الإسرائيلية. أخبرني هاروتي أنهم عندما سمعوا بمغادرة والدي إلى إنجلترا، تنفسوا الصعداء وشطبوا اسمه عن قائمة الاغتيالات المستهدفة.

الأمر الغريب عن الحرب والجنود هي أن أولئك الذين قاتل أبي ضدهم بهذا القدر من الصلابة والعناد هم أنفسهم الذين يكنون له

أعمق الاحترام. دمعت عينا هاروتي وهو يتذكر سنوات الكفاح وكأنه يعتز بتلك السنوات الرهيبة، وامتدح شجاعة أبي كجندي. سرد ذكرياته حول إنجازات عصابته ونجاحاتها في إجبار ذلك العدد من الفلسطينيين على الهروب من بلدهم. سألته ببراءة أنهم اغتالوا الناس وأنهم لم يكونوا أكثر من منظمة إرهابية، فكيف يمكنه أن يشعر بكل هذا الفخر بإنجازاته؟ ابتسم وهز رأسه الأبيض المسن.

"موحي، تستخدم جميع الدول الاغتيال كأداة من أدوات السياسة الخارجية أو حتى سلاح دولة. هل تعتقد أن الأمريكان والإنجليز لا يمارسونه؟ لقد كنا نقاتل لتأسيس دولة، وكانت كل الوسائل لتحقيق ذلك مشروعة. أتعلم، لو لم يقرر البريطانيون مغادرة فلسطين عام ١٩٤٨، لكان السيد بيفن قد قضى اغتيالاً على يدي، ذلك أمر مؤكد".

"لكن أبي كان عدوك، وهو أسوأ عدو لك باعترافك أنت. كيف تتصالح مع إظهارك الاحترام له الآن، وبعد كل المتاعب التي سببها لك؟".

توقف هاروتي عن الكلام لكنه استمر في الابتسام وقال أخيراً: "لدى الهنود الحمر الأمريكيين مثل يقول "إن المقاتل يقاس بشجاعة وقيمة أعدائه". لقد كان والدك عدواً بهذه الصفات".

الفصل التاسع

أثناء العطلة الصيفية التي تلت الصف العاشر، قمت بأول رحلة مغامرات في حياتي. فقد ظل المستر جاندر في مدرستي الداخلية برام الله يتحدث بإسهاب عن أوروبا ومعسكرات العمل التي ينظمها أتباع الكويكرز هناك، وشجعني على السفر. لم يدرك أنني لا يمكن أن أحصل أبداً على إذن من والديّ لمثل تلك الرحلة.

لم أقل شيئاً، بل اكتفيت بأخذ العناوين منه، ثم انصرفت إلى التخطيط لكيفية الوصول إلى أوروبا ذلك الصيف بدون معرفة عائلتي. إن رحلة إلى أوروبا في ذلك العمر، أو في أي عمر آخر، هي ضرب من الحلم، لكنني لا أذكر أنني فكرت فيها بتلك الطريقة مطلقاً.

لم يكن أبي ليشكل عائقاً لأنه سيكون منشغلاً ومتغيباً معظم الصيف في مهماته العسكرية، وربما حتى لا يلاحظ غيابي. أما أمي وجداي فقد كانا قصة أخرى. اخترعت قصة حول تخطيط كشافة مدرستنا للسفر إلى سوريا لفترة الصيف وتحايلت عليهم جميعاً للموافقة على انضمامي إلى الرحلة وإعطائي خمسين دولاراً كنفقات. لم تكن الدولارات الخمسون مبلغاً يستهان به في تلك الأيام، إلا أن جدتي حوّلت بضع قطع نقدية عثمانية كانت قد جمعتها، إضافة إلى مساهمة من دادا وأمي، وهكذا تمكنت من تجميع الثروة التي اعتقدت أنني سوف أحتاجها. وهكذا انطلقت في رحلتي التي لا تنسى إلى أوروبا، بخمسين دولار في جيبي، وحقيبة خيش على ظهري.

ستكون وجهتي الأولى بيروت حيث سأتمكن من الصعود إلى باخرة

متجهة إلى أوروبا. فقد أخبرني المستر جاندر كل ما يجب معرفته حول السفر كراكب على السطح مقابل دريهمات قليلة أو حتى مجاناً كلياً. سيكون هذا إنجازاً مذهلاً لصبي في الرابعة عشرة، لم يبتعد عن بلده يوماً، خاصة مع وجود مجرد خمسين دولاراً في جيبي. فإن مجرد الوصول إلى بيروت في تلك الأيام يكلف حوالي خمسة دولارات للمواصلات وحدها. لكن فات الوقت على تغيير خططي، وهكذا ألفيت نفسي على أرصفة ميناء بيروت، أتجول حول السفن – متسائلاً كيف يمكن للنقود القليلة المتبقية معي أن توصلني إلى أوروبا.

خضت في حديث مطوّل مع أحد البحارة اللبنانيين في الميناء، فأخبرني أن بعض السفن تحمل ركاباً على السطح. يسافرون مجاناً مقابل عملهم في تنظيف السطوح والمساعدة في مطبخ السفينة. بدا لي ذلك الأمر رائعاً، وأكد لي ما أخبرني به مدرسي، لكن القباطنة الثلاثة الذين زرتهم، رفضوني بشكل قاطع. في النهاية، وعندما قاربت على اليأس، دلني بعضهم على مكاتب توفيق غرغور وأولاده، وكلاء الشحن الرئيسيون في الميناء.

تفحصني وجه توفيق غرغور المتغضن من الرأس إلى القدم أثناء دخولي إلى مكتبه في بناية تشرف على الميناء. انهمك في تلك اللحظة إلى درجة لم تسمح له بالتحدث إلي، فأشار إلى كرسي خشبي وأمرني بأن "أجلس".

جلست مطيعاً، حللت حقيبتي وأجلت بصري في المكتب الكبير المتهالك بأثاثه الخشبي الموغل في القدم. الجدار الواقع خلفه مزين بلوحات السفن وجداول تحركات السفن. أما الجدار الآخر الخالي من النوافذ، فهو ممتلئ بلوحات قديمة تظهر الحياة الريفية اللبنانية والفلسطينية، أمامه طاولتان جانبيتان طافحتان بالملفات والأوراق السائبة. هناك شباك عريض يشرف على المرفأ، ويعطي منظراً كاملاً لجميع السفن الراسية على الأرصفة.

الرجل الذي جئت لمقابلته، السيد غرغور، لديه شعر كثيف وعينان بنيتان أمامهما نظارة ببرواز داكن، تتهدل على أنفه. جلس خلف مكتبه من الخشب الموجينو، المستعمل حد الاهتراء، يشاور ويصرخ في الرجلين الواقفين قبالته. بدا في حوالي الخمسين من عمره، قامته متوسطة وبنيته قوية، يعلوها رأس حسن التكوين. كان يرتدي سراويل رمادية وقميصاً أبيض وربطة عنق داكنة.

وقع الأوراق التي يحملها في يده أخيراً، وناولها إلى الرجلين. غادر الرجلان الغرفة بدون أي تعليق. عاد السيد غرغور إلى كومة الأوراق على مكتبه، واعتقدت للحظة أنه نسي موضوعي. ثم رفع رأسه الضخم.

"ماذا تريد يا صبي؟ ليس لدي وقت لأضيعه، تكلم".

"سيدي، أريد أن أسافر إلى أوروبا".

"حسناً. انزل طابقاً واحداً. هناك يوجد مكتب التذاكر".

لم أعرف ما يتوجب علي قوله، لذلك بقيت هادئاً لكنني لم أتحرك. عاد إلى أوراقه. بعد بضع دقائق، رفع رأسه مرة أخرى ونظر إلي بحدة.

اعترفت "لا أملك نقود التذكرة، يا سيدي. أريد أن أسافر على السطح".

أنزل نظارته عن عينيه وحدق فيَّ، كأنه يراني للمرة الأولى.

"ليس لديك نقود وتريد أن تذهب إلى أوروبا؟" استعلم مني.

"نعم سيدي".

"كم تبلغ من العمر، يا صبي؟".

"أنا في السادسة عشرة" كذبت.

"أعطني جواز سفرك".

ناولته إياه بتردد، إضافة إلى كتاب تقديم لمنظمة الكويكر في لندن، كان أوين جاندر قد أعطاني إياه. تصفح جواز سفري ثم رفع عينيه باتجاهي، وقد أدرك كذبتي حول عمري على الفور. توقف فترة طويلة ثم استأنف العمل على أوراقه. أصبت بالذعر وتوقعت منه أن ينهض ويرميني خارج مكتبه. أخيراً، سألني بدون أن يرفع عينيه عن أوراقه.

"هل تعرف عائلتك بأمر خططك؟".

"نعم سيدي! لا سيدي!".

"لأ، لا تعرف، وإلى أين في أوروبا أردت أن تذهب يا صبي؟".

"لدي عناوين في لندن واسكتلنده". وانطلقت بحماس لأخبره عن خططي للسفر متطفلاً عبر أوروبا، لأصل إلى اسكتلنده وأنضم إلى بقية الطلاب من كافة أنحاء العالم في معسكرات الكويكر للعمل، والتي تم تنظيمها للمساعدة في إعادة بناء بعض الدمار الذي خلفته الحرب، ولجمع الشباب المتنوعين من أقطار أوروبا المختلفة سوية لبناء صداقات، على أمل خلق مستقبل مسالم في أرجاء العالم. لم أكن في الحقيقة أصدق أنهم فكروا بطلاب الأردن، ولكن حسناً! لم لا؟

أصغى إليّ باهتمام، وعندما أنهيت كلامي، أطلق عبارة لبنانية كانت غريبة على أذنيّ في ذلك الوقت "لديك بيضات مدهشة يا صبي".

بعد زمن طويل، فهمت ما عناه بالبيض، وهي عبارة لبنانية نموذجية، وتعني أنني شجاع.

لكن سفننا لا تصل إلى أبعد من البندقية. هل تعرف أين هي؟".

"نعم طبعاً أعرف، وسأكون فعلاً وحقيقة ممتناً إذا استطعت أن تؤمن لي رحلة على السطح إلى البندقية".

رفع جهاز الاتصال وطلب التحدث مع قبطان السفينة اجاميمنون، أحد القباطنة الذين رفضوني كلياً قبل أقل من ساعة. قال بضع كلمات

سحرية، وتم قبولي كراكب سطح على السفينة اليونانية. ثم اتصل بموظف مكتب آخر وأمره أن يوصلني إلى السفينة، والمغادرة خلال ساعة. بدأ الظلام يحل قبيل مغادرة الاجاميمنون. كان الطقس دافئاً لدرجة الروعة، وبما أن أحداً لم يزعج نفسه بإرشادي إلى مكان نومي، فقد نمت على السطح، متكوراً إلى جانب بعض الصناديق. كنت قبلها قد أكلت حتى الشبع في منطقة طعام البحارة، فغرقت في نوم عميق على الفور، وأنا الراكب الوحيد على السطح.

استيقظت في الصباح التالي على بحار يوناني عجوز يركل كعب حذائي. اصبحنا في هذه اللحظة نبحر فعلياً وسط لجة واسعة من جسم ماء البحر. كان يصيح في بكلمات غريبة، فهمت منها أنها تعني "اذهب إلى العمل". أعطيت مكنسة وخرطوم ماء طويل، وأشار الرجل إلى مقدمة السطح. بدأ الماء يتدفق من الخرطوم وبدأت مهنتي القصيرة كعامل على السطح.

لم يكن العمل سيئاً، بل كان يجب إتمامه في الصباح الباكر جداً، ببساطة. تعلمت بسرعة فن استخدام المكنسة بالطريقة الصحيحة وقضيت حوالي ساعة من فجر كل يوم، أؤدي واجباتي. بعد ذلك كنت أتوجه إلى المطبخ حيث يناولني طباخ بوجه عابس، دلواً من البطاطس لأقشرها، أو أي عمل مطبخي آخر.

وصلنا إلى أول محطة لنا في الإسكندرية خلال حوالي يومين. انضمت هنا إلى مساحتي الواسعة على السطح مجموعة كبيرة من الجنود الأجانب. كانوا في غالبيتهم ألماناً عائدين إلى وطنهم: علمت لاحقاً أنهم فارين من الخدمة في الفيلق الأجنبي الفرنسي، وأنهم هربوا من سفينتهم، في قناة السويس. بقوا معنا حتى بلغنا ميناء بيرايوس في اليونان. أذكر من هذه المجموعة بشكل خاص، جندي أشقر بعينين زرقاوين اسمه هانس، ظل يعزف على الهارمونيكا بفمه طيلة الوقت، وبدأ يعلمني كيف أعزف عليها. عندما غادر في اليونان،

ترك الهارمونيكا معي كهدية. مع حلول وقت رسونا في البندقية بعد أربعة أيام، استطعت أن أخرج منها بعض الألحان بدرجة إتقان عالية. أصبحت الهارمونيكا رفيقي الدائم، ويمكنني القول أنها الآلة الموسيقية الثانية التي أصبحت حاذقاً فيها، والأولى بالطبع هي الكمان.

وجدت البندقية توحي بالذهول. كنت قد رأيت صوراً لشوارعها المائية، لكنها لم تكن تشابه أي شيء من توقعاتي. يتحتم على المرء أن يكون شاعراً حتى يصفها ويمنحها المجموع الملائم من النعوت. أنا لست شاعراً، لكن الانطباعات التي خلفتها في هذه المدينة القديمة الجميلة، باقية أبداً.

لقد مثلت الأجاميمنون بيتاً آمناً لي طيلة حوالي أسبوع، والآن يجري التخلص مني وقذفي إلى الأرصفة الحجرية في بيئة غريبة، رغم جمالها، إلا أنها بدت موحشة. جلست طيلة الساعة الأولى فوق حقيبتي في الميناء، أراقب المجريات، لا أعرف ما ينبغي أن تكونه خطواتي التالية. كنت نظيفاً إلى حد مقبول وشبعاناً، لذلك فكرت أن أغامر مبتعداً لبضعة أيام بدون أن أقلق على المبيت والطعام. ولكن إلى أين أذهب ومن أين أبتدئ؟ حتماً لا يمكنني أن أتطفل على سيارة في هذا المحيط المائي.

أوقفت أول وجه باسم يمر بي وسألت عن الاتجاهات نحو محطة القطارات. لم فهم سوى كلمة "محطة" وأشار بحماس باتجاه جسر حجري إلى يسارنا قائلاً "ستازيونه.. ستازيونه.. سي" بدأت أسير باتجاه الجسر الحجري عندما لفت انتباهي بناء هائل من الحجر بعد مسافة قليلة، تتلاطم مويجات الماء عند درجاته الرخامية الطويلة. جلس بعض الصبية الصغار، تلاميذ على الأغلب، على الممرات الحجرية يدردشون ويحملون مثلي، حقائب ظهرية. بدوا مثل صبية كشافة. سرت نحو تمثال حجري هائل وجلست تحت ذراعيه الممدودتين. أطلت الجلوس هناك بهدوء ملقياً نظرات عابرة على الصبية المثرثرين،

أحاول أن أتصرف مثلهم، ما عدا أنه لم يكن إلى جانبي أي شخص أدردش معه. خرج المزيد من الصبية من البناء الضخم، وهو يحتمل أن يكون متحفاً، ثم جاء ثلاثة منهم وجلسوا إلى جانبي تماماً. أدركوا على الفور أنني لست واحداً منهم، ثم جاء الأكثر بدانة منهم وطرح علي سؤالاً ما بالإيطالية. أجبته بالإنجليزية شارحاً أنني لم أفهم. ابتسم ونادى بصوت عالٍ على فتى في مجموعة أخرى، اسمه فرانسيسكو.

عبر الشاب الأصغر حجماً، صاحب البنية الرقيقة الفسحة وتحدث معي بلغة إنجليزية تكاد تكون مثالية. خمنت أنه في مثل سني حتماً.

"من أين أنت؟".

"من الأردن، الأرض المقدسة".

ترجم فرانسيسكو، وتحمس الصبية، مرددين عبارة "تيرّاسانتا".

تجمع المزيد من الأولاد وأخذوا يثرثرون بصوت مرتفع، يطرحون العديد من الأسئلة عليّ، من خلال صديقي ومترجمي الذي عثرت عليه حديثاً. اهتم فرانسيسكو أكثر بخططي حول السفر عبر أوروبا، واستطعت أن ألمح التوق في عينيه. أخيراً، عندما أدرك أنني لا أمتلك خططاً محددة للمضي قدماً من حيث جلسنا، دعاني للذهاب معه إلى روما. فهو يعيش وحده مع والدته، وسوف تفرح بصحبتي، خاصة وأنني قادم من الأراضي المقدسة.

كنت أعلم أن روما أبعد من البندقية باتجاه الجنوب، لكن لم تكن لدي أقل فكرة عن المسافة. ركض فرانسيسكو إلى حيث جلست قائدة مجموعته وأخبرها عن خططه. قرر أن يترك زملاءه الطلاب في رحلة العودة إلى روما على متن مقصورة قطار مريحة، لأنه اعتقد أنني جيد في إيقاف السيارات والركوب المتطفل. اختار أن يقف على قارعة الطريق السريع مثلي، يشير بإبهامه إلى الأعلى، نحو السماء الإيطالية، ليختبر الإثارة الناجمة عن حصوله على ركوب في سيارات غريبة. لم تكن لديه

أية فكرة بأنني لم أحصل على ركوب متطفل في حياتي من قبل.

سرعان ما سيصبح كلانا خبيرين ذوا تجربة متعمقة في هذه اللعبة.

أصبح فرانسيسكو الصديق المثالي الأول الذي اكتسبته في أوروبا.

فهو عميق الثقافة بالنظر إلى سنيه الخمس عشرة، ويستمتع بالكثير من هواياتي. حتى أنه يعزف على القيثارة الكلاسيكية، وعلمني بعض الألحان الإيطالية، التي عزفتها معه كثنائي على الهارمونيكا. استغرقنا الوصول إلى روما أربعة أيام، وأظن أن الجزء الأصعب من المغامرة كان العثور على طريقنا إلى خارج البندقية إلى طريق سريع فوق أرضية صلبة وجافة. سافرنا أثناء النهار فقط وقضينا الليالي في بيوتات الشباب داخل المدن الرئيسة التي مررنا بها على الطريق. فهذه تكلف القليل جداً من المال، وتعني أن بإمكاننا تناول وجبة ساخنة رئيسة كل مساء. فوجئت فعلياً بمدى مودة السائقين الذين أقلونا. للأسف، لم يكن أي منهم يتكلم الإنجليزية لكن فرانسيسكو ظل يعوض عن ذلك بإخبارهم كل القصص التي رويتها له عن فلسطين، بيت لحم والقدس. أعتقد أن الجزء الأكثر إثارة لدهشتهم هو حين أخبرتهم أنني قد سبحت في نهر الأردن، حيث تعمّد السيد المسيح. طفقت النساء العجائز يتلمسن كتفي وذراعي، هامسات بالصلوات ومعبرات عن دهشتهن.

السيدة تودارو، والدة فرانسيسكو، امرأة كريمة النفس وشديدة الترحاب. لم تكن لديها أية معرفة مسبقة بحضوري غير المبرمج مع ابنها، ومع ذلك فقد أظهرت دفئاً وعطاءً رائعين تجاهي. ساورها القلق من قرار ابنها السفر عائداً بوسيلة إيقاف السيارات إلى روما. هي امرأة جميلة نحيلة، شعرها قد بدأ الشيب يغزوه، وحركاتها وأسلوبها في مثل نعومة وتناغم صوتها. في ذلك اليوم الأول لوصولنا، رقصت في أرجاء الغرفة محتفلة ومهتمة براحتي بقدر اهتمامها بنجلها. ويالها من متعة، تلك التي نعمت بها من التدحرج في حوض استحمام ساخن

نظيف وارتداء منامات تفوح منها رائحة النظافة. أما الطعام، فهو لا يوصف! كل ما يمكنني قوله أن تقديمي إلى المطبخ الإيطالي ما كان ليتم بمثل هذه المثالية.

رغم ذلك العدد الهائل من الأطباق اللذيذة المحملة بالسعرات الحرارية، فقد ظلت مدام تودارو امرأة نحيلة أنيقة، وظلت، بعد إثارة اليوم الأول، تتنقل في أرجاء شقتها الواسعة في روما، مثل همسة. دعيت للبقاء لأطول مدة أرغب فيها، لكنني كنت قد أمضيت الأيام العشرة الأولى من حزيران بدون أن أقترب من إسكتلندة بأية مسافة، وكنت بحاجة إلى المضي قدماً. توسل فرانسيسكو بوالدته لتسمح له بالانضمام إليّ في الرحلة لكنها لم توافق. فهو طفلها الوحيد، ولأنه لم يكن قد مر وقت طويل على وفاة زوجها، فقد أحسّت بواجب حمايته بقوة. قبل أن أغادر، جعلناها تعد بأن تسمح له بزيارتي في الأردن، الصيف القادم.

كانت تجربة العمر لي في روما، حيث يصطدم القديم بالجديد. اصطحبني فرانسيسكو في جولة على جميع المواقع القديمة وقص عليّ أسطورة ريموس ورومولوس، الشقيقين الذين بنيا روما على ضفاف نهر التيبر: الخلاف الذي نشب بين الأخوين وانتهى بمقتل ريموس. اكتشفت لاحقاً في دراستي للتاريخ أن مفهوم القتل/الاغتيال استمر خلال حقبة الألف سنة التي دامت فيها الإمبراطورية الرومانية. أعتقد أن افتتاني بالتاريخ قد بدأ هناك تماماً، في روما. وهو الافتتان الذي كبر ليصبح نهماً لا يعرف الإشباع لدراسة التاريخ والثقافات الأجنبية. ارتحلت عبر إيطاليا، النمسا، ألمانيا ثم فرنسا بمنتهى السهولة، بعد أن أصبحت خبيراً في السفر المتطفل. توقفت لبضعة أيام في باريس لرؤية المشاهد ونزلت في "بنسيون" صغير، يقدم سريراً وإفطاراً على الضفة اليسرى.

بدت السيدة التي تدير المكان لطيفة في البداية. في ذلك الصباح الأول، أحضرت طعام إفطاري على صينية صغيرة، مكوناً من كوب

قهوة ساخنة إضافة إلى قصعة كبيرة ملأى بالزبدة التي تفتح الشهية وقطعتين صغيرتين من الخبز المحمص. التهمت قطعتي الخبز بسرعة، لكن بقيت كل تلك الزبدة الشهية! ذكرني منظرها بطبق زبدة جدتي، الذي كان على الدوام ممتلئاً على طاولة الطعام، لأجل أن نقوم بدهنها على الخبز في أي وقت نشاء.

تصاعدت إليّ روائح الخبز من خلال النافذة، قادمة من المخبز القريب. لذلك ركضت نازلاً الدرجات وعدت حاملاً رغيفاً ساخناً من الخبز الفرنسي، وبدأت أدهنه بالزبدة والتهمه على راحتي. عندما عادت السيدة لأخذ الصينية، لم يكن قد بقي في القصعة سوى كمية قليلة جداً من الزبدة.

جاء رد فعلها غريباً. صاحت ببضع كلمات غاضبة بالفرنسية في البداية، ثم تناولت حقيبتي ودفعتني خارج الغرفة، وهي تصرخ وتشتم "هيا. إذهب!" فألفيت نفسي في الشارع، بلا مبيت. وهكذا ودعت باريس واستأنفت رحلتي نحو القنال البريطاني. عندما قصصت الحكاية على زميل آخر في الطريق، أدركت الخطأ الذي اقترفته.

الظاهر أن السيدة تستخدم كرة الزبدة تلك لإطعام جميع نزلاء "البنسيون" بأن تنقلها من غرفة إلى أخرى. أنى لي أن أعرف؟ لقد ظل مطبخ جدتي يحتوي على كرة زبدة كبيرة فوق طاولة الطعام، وكانت لدينا نحن الأطفال الحرية المطلقة في دهنها على أرغفة الخبز في أي وقت نشاء. أدركت وقتها أنه لا يمكن العثور على كرم جدتي في كل مكان.

الفصل العاشر

عندما دخل الرائد شيبمان إلى الغرفة، كان الجنرال راينهارت منكباً على مفرش طاولة مغطى بالخرائط. لم يظهر عليه أنه لاحظ شيبمان للحظة. أصدر شيبمان سعلة مؤدبة. قال "هل سألت عني، ايها السيد الجنرال؟" ثم طرق كعبيه ببعضهما.

"آه، شيبمان!" انتصب الجنرال واقفاً وابتسم للرجل الأصغر سناً. كان الجنرال رجلاً سعيداً. لم يكن يستمتع بشيء أكثر من رسم الخطط لفتوحات عظيمة كاسحة. ظل التفكير بالمعارك الجديدة يشغل ذهنه عن تلك الدائرة فعلياً. هناك آلاف الجنود المشتبكين بالقتال في شمال الاتحاد السوفييتي، لاحتلال مدينة ستالينغراد. ما افترضت القيادة الألمانية العليا أنه سيكون مناورة بسيطة، بدأ يتحول إلى كابوس، لكن الجنرال راينهارت رفض أن يسمح لنفسه بالاكتئاب لأجل ذلك، فهو مقيم ومستريح في قصر كان مسكوناً في السابق من قبل العائلة البولندية الارستقراطية الأكثر أهمية في المنطقة، ويعيش مثل ملك. شعر كفاتح منتصر وهو يتبختر عبر الصفائح الحجرية ليضع ذراعه حول كتفي ضابطه الأقل رتبة ليقوده نحو الطاولة. "هل ترغب في كأس براندي؟ أنت تستحقه".

استرخى شيبمان "أشكرك، سيدي الجنرال" لقد مر هو والجنرال بالعديد من التجارب سوياً أثناء الحملة البولندية، وأصبح قادراً على قراءة الحالات النفسية لقائده مثل كتاب.

قال الجنرال "لقد كنت أتكلم مع الفوهرر" وهو يصب لكل منهما

كأساً كبيرة من البراندي. "وهو متحمس جداً بشأن القفقاس".

ابتسم شيبمان "أهذا صحيح، أيها الجنرال؟". فهو يحب فكرة وجود خط مباشر لديه إلى هتلر من خلال ضابطه القائد. لأن ذلك يمنحه إحساساً بأن لديه دورٌ جديٌّ في بناء الإمبراطورية الجديدة. استمر الجنرال "إنه يعتقد أنها واحدة من أهم الغايات الإستراتيجية في المنطقة". وهو يستدعي شيبمان نحو الخرائط. "لقد أخبرني أن فكرته الرئيسة هي احتلال شمال القفقاس". رسم الجنرال خطاً على الخارطة بإصبعه الغليظ. "لقد قال لي أنه إذا لم يتمكن من الاستيلاء على حقول النفط في مايكوب وجروزني، فسوف يضطر إلى خفض حجم الحملة الروسية".

"هل قال ذلك؟" أجفل شيبمان. لم تكن لديه فكرة بأن هتلر يعتبر هذا الجزء من الحملة على تلك الدرجة من الأهمية الحاسمة.

"أهي أهم من ستالينغراد؟".

تناول الجنرال جرعة كبيرة من البراندي "لا تجعلنا نتحدث عن ستالينغراد. فهي تثبت لنا أنها أصعب على الاحتلال مما توقعنا. قد يضطر جنودنا إلى القتال على تلك الجبهة لعدة شهور قادمة. لقد بدأنا منذ فترة، نفتح منافذ في قباردينو – بلقاريا. لدينا أشخاص على الأرض يقومون بتجنيد المحليين لقضيتنا، وقد دأبنا على إلقاء المنشورات من السماء لتنبيه الناس بأننا قادمون".

تناهبت الحيرة أفكار شيبمان "هل من الحكمة أن تخبر العدو بأنك على وشك أن تهاجم؟".

"نحن نأمل في أن نتمكن، ربما، من جعلهم أصدقاء لنا. لدينا معلومات مفادها أن بعض الناس في المنطقة لم يتعاطفوا أبداً مع الدكتاتورية الشيوعية. من الصعب تطبيق مفهوم الاشتراكية الدولية والأخوّة على منطقة تضم أربعين أو خمسين قومية ولغة. إنهم يرون

الروس كحكام مستبدين. ويعتقدون أن أرضهم محتلة. نحن قادمون إليهم على شكل حلفاء ومحررين. سوف نعيد الرخاء إلى الإقليم ونعمل يداً بيد مع السكان المحليين لإعادة بناء ما دمره الشيوعيون. تلك هي خطتنا. وقتها، عندما يزحف جنودنا إلى القفقاس، فسوف يتم الترحيب بهم كأبطال محررين، ولن ينظر إليهم كقوة غازية: من قبل بعض السكان على الأقل".

قال شيبمان "هذا احتمال مثير".

"هو كذلك حقاً، أيها الرائد. ونحن بحاجة إلى رجال يتمتعون بحساسية خاصة لإدارته. ولذلك استدعيتك. لا نريد أن نعامل هؤلاء الناس على أنهم أعداؤنا. نريد أن نستميلهم إلى جانبنا ليصبحوا أصدقاءنا: على الأقل أكبر عدد ممكن منهم. إذا تعايشنا إلى جانبهم في سلام سوف نحتاج إلى نصف عدد الجنود لحفظ النظام في المنطقة بعد أن نصل إلى هناك".

"أفهم ذلك، ايها الجنرال". ابتسم شيبمان بينما أعاد الجنرال ملء كأسه بالبراندي "أفهم ذلك كلياً".

الأمر الذي فهمه شيبمان هو أنهم سيستخدمون خدعة "المحررين" لاحتلال الأرض ثم وبعد السيطرة التامة ستصبح امتداداً للإمبراطورية الألمانية العظمى. والإمبراطورية تحتاج إلى موارد طبيعية والقفقاس غني بها.

مع ابتعاد صوت القصف تدريجياً، اتخذ ألوشا وعسكربي طريقهما خارجين إلى الشارع. تناهت إلى أسماعهما أصوات البكاء وصرخات الناس الذين يحاولون إزالة الردم وإنقاذ الناس المحشورين. قال عسكربي "هناك اجتماع معقود في غرفة قريبة من هنا. لقد كنت أنوي الذهاب إليه. هل تريد أن تنضم إليَّ؟".

"حتماً" قال ألوشا، متحمساً للقاء أكبر عدد ممكن من الناس.

"ما هي الغاية من اجتماعهم؟".

"حول الألمان وما ينبغي علينا جميعاً القيام به".

تباطأ سيرهما نحو الاجتماع لأنهما اضطرا إلى التوقف لمساعدة الناس الذين نسفت بيوتهم أو أماكن عملهم من حولهم. خرج الأطباء ومساعدوهم من المستشفى وبدأوا يحمّلون المرضى على النقالات ويأخذونهم. اصيب ألوشا بالصدمة من مرأى الدم على الضمادات، فقد بدا له الأمر وكأن الحرب قد اقتربت مسافة هائلة.

امتلأت قاعة الاجتماع، وهي قاعة السينما المحلية فعلياً، والتي أخذه عسكربي إليها، قبل أن يصلا ، بالناس الذين يصرخون ويتجادلون. فقد أثارت القنابل أعصاب الناس وزادت في الحدة التي أشعرتهم أنهم بحاجة إلى بحث ما يجري في بلادهم. تخيل ألوشا أن كل واحد منهم قد اشتبك في نقاشه الخاص مع الناس الجالسين حوله، فلا أحد منهم يهتم بمسؤولي الحزب الذين بدأوا يجمعون أنفسهم سوية على المنصة، يكلمون بعضهم بعضاً بأصوات خفيضة، يغضون أبصارهم عن الجمهور الذي بدا وكأنه على وشك أن يتحول إلى الغضب في أية لحظة.

جلس ألوشا وعسكربي، وقد عقدا ذراعيهما، لمراقبة ما يجري حولهما. بدأ الرجال الجالسون على المسرح يتلفتون في أرجاء القاعة وكأنهم يأملون في تهدئة كل واحد من الحضور بمجرد نظرة. لم يعرهم أحد أي اهتمام. نهض أحدهم واقفاً وتنحنح كأنه يهم بالتكلم. رغم أنه رجل يتمتع بمظاهر القوة، لم يسعفه أحد ولا حتى بلمحة في اتجاهه.

خلع رجل آخر يجلس خلفه حذاءه الثقيل وهوى به على سطح الطاولة التي أمامه، ما جعلها تقفز فوق العوارض الخشبية للمنصة وتثير غيمة من الغبار.

هدأت جميع الأصوات عدا قلة من أكثرها تصميماً، واسكتت الأصوات الباقية في نهاية المطاف من فحيح جيرانها. تنحنح الرجل

الذي يتهيأ للكلام مرة أخرى. قال بغرور "لقد كان هذا يوماً سيكتب في سجلات التاريخ. اليوم نرى أن هتلر وجيشه لن يتوقفا عند أي حد في السعي لمصادرة كل ما عملنا بكل جدية وجهد لتحقيقه. سوف يختفي كل شيء اكتسبناه منذ قيام ثورة أكتوبر المجيدة في اللحظة التي يزحف فيها الفاشيون عبر حدودنا. سنصبح عبيداً لهم كما كنا في الماضي عبيداً للأسرة الإمبراطورية وارستقراطيتها الفاسدة. يجب علينا أن نقاتل بكل ذرة نمتلكها من قوانا لإبقائهم بعيدين عنّا".

تكلم صوت قريب من ألوشا "أية حريات لعينة؟ نظر إلى جانبه فرأى رجلاً مسناً بلحية بيضاء كثة. "تكلم وارفع صوتك يا صديقي" زأر الرجل الواقف على المنصة، ورفع الرجل الجالس إلى الطاولة رقبته ليرى الشخص الذي نطق بمثل هذا الكفر. "استغل فرصة حرية الكلام قبل أن يجيء الغزاة ويصادروها".

"ما هو الفرق الذي سيحدث في نظرك بالنسبة لراعي الغنم أو المزارع إذا استولى الألمان؟" نهض الرجل الملتحي وتلفت حواليه "كم واحد منكم يستطيع القول أن حياتكم ستتغير إذا كان الألمان يتبخترون في البلدات والقرى بدلاً من الروس؟ سنظل نعمل من الصباح حتى الليل ونعطى القليل أو لا شيء مقابل جهودنا. سنظل مواطنين من الدرجة الثانية".

قال المتحدث بصوته الجهوري "لا يمكنك أن تبقى جالساً مثل الأغنام وتنتظر الذئب ليأتي إلى القطيع!".

"إذا نهضنا وقاتلنا الآلة الحربية الألمانية فسوف نقتل كلنا، ومن أجل ماذا؟" انضم صوت آخر من قسم آخر من القاعة لم يتمكن ألوشا من رؤيته حيث كان يجلس. كتب الرجل الجالس إلى الطاولة شيئاً في الدفتر الصغير المفتوح أمامه. مثل هذه المواقف لا يمكن التفكير فيها ولا... العفو عنها في المجتمع الشيوعي!

تدخل صوت آخر من القاعة "نحن مضطرون إلى حماية مدينتنا، سيقتل الألمان كل رجل يصادفونه وسيغتصبون نساءنا ويستعبدون أطفالنا. لن يتوقفوا عند حد حتى يصبح العرق السيد هو الوحيد المتسلط على عبيده".

"مرحى، مرحى" وافقه شخص آخر وتعالت موجة من الصياح في كل أرجاء المسرح. لم يصدق مسؤولو الحزب ما تراه أعينهم وما تسمعه آذانهم. فهذا مجتمع ظلوا يسيطرون ويهيمنون عليه كلياً حتى الساعات الثماني والأربعين الماضية. أما الآن، فإن الفوضى على وشك أن تعم وتنفلت من إسارها. بدأ بعضهم يوزع نظرات قلقة ويهمس في أذن البعض الآخر. فقد انسحبت وحدات الجيش المقيمة في نالتشك من القفقاس قبل عدة أسابيع لتقاتل في الشمال. فلم يعد لدى الحزب أية قوى عسكرية تقريباً، للسيطرة على أية حركة عصيان في الجمهورية. اضطر إلى الاعتماد على أعضائه المخلصين الموالين لإقناع السكان والسيطرة عليهم.

مال عسكربي باتجاه ألوشا وقال "بينما نحن نتجادل بالمجاملات في هذا الجو الدافئ، فإن الناس الذين سينتهي بهم الأمر مقتولين على يد الألمان، يقومون هناك في الخارج بحفر خنادق مضادة للدبابات حول المدينة".

سأل ألوشا "وهل هذا يعني أنه يمكن إيقاف الألمان؟".

أجابه عسكربي "فقط في حالة اضطرارهم إلى الذهاب للقتال في منطقة أخرى. أما إذا كان هتلر قد صمم في قرارة نفسه على احتلال قباردينو – بقاريا، فليس بيدنا ما نصنعه لإيقافه سوى القليل. يمكننا أن نجعل الأمور غير مريحة للجنود. إن قناصتنا قادرون على التأكد من حرمانهم من النوم مرتاحين في أسرتهم مطلقاً. يمكننا حتى أن نقتل القليل منهم. ليس بقدر ما يمكنهم أن يقتلوا منا بالمقابل. السؤال الذي ينبغي عليك أن تطرحه هو: هل نحن نحسن صنعاً بالتعاون معهم

بدلاً من مقاتلتهم؟".

"أهذا ما تعتقده؟" فوجئ ألوشا بشجاعة عسكربي في الإفصاح عن مثل ذلك الرأي بصوت عالٍ في مكان عام. تلك فكرة ظل يرددها مع نفسه، وظن لوهلة أن عسكربي يمكن أن يكون جاسوساً حزبياً يحاول أن يخدعه ويستدرجه ليقول شيئاً سينتهي به إلى الإعدام رمياً بالرصاص.

قال عسكربي وهو يغمز بعينه "بعد هذا الاجتماع، سأعرفك على بعض الناس الذين يحملون آراء قوية حول هذا الموضوع".

طأطأ ألوشا برأسه متفكراً وعاد إلى الإنصات للصياح والنقاشات التي اندلعت في كل مكان حولهم. بدأت ما تسمى "اللجنة" في هذا الوقت بتنظيم مجموعات من الأنصار وتضع الخطط للقيام بمقاومة فاعلة ضد القوات الألمانية المتقدمة. بات واضحاً أنه بينما تشاءم بعض المواطنين من مجرى الأحداث، إلا أن أغلبية الحضور باتوا جاهزين لقتال الغزاة. نهض أحد الشراكسة الأكبر سناً واقفاً واشتكى بصوت عالٍ.

"أين هو الجيش السوفييتي؟ لماذا هم ليسوا موجودين هنا في الجمهورية لحمايتنا؟" جاء صوته أعلى من أصوات الآخرين. لكنه لم يتلق أي جواب. فالكل يعلم أن الجيش يقاتل على جبهات أخرى وأن مواطني هذه الجمهورية القفقاسية وغيرها مضطرون لتدبر أمرهم بأنفسهم ضد الغزاة الفاشيين. "إذاً ما هو دور بيشتو في كل هذا الوضع؟" سأل ألوشا بمجرد انتهاء الاجتماع، وانطلقا يسيران عبر الشوارع مرة أخرى.

ابتسم عسكربي "بيشتو؟ هو رجل عظيم. رغم أنه بلقاري، سيصبح رجلاً مهماً. إنه أحد قادة مجلس دفاع نالتشك. وهو أحد القلة القادرين على الجهر بآرائهم الحقيقية في هذه المدينة. وهذا الأمر يجعله يحظى

بالإعجاب الشديد، لكنه من الناحية الخرى، يعرض حياته للخطر".

استمرا يسيران، غارقين في تفكير صامت لوهلة. يمران بموقع سقوط قنبلة بين الفينة والأخرى، والأبنية المدمرة تلقي بظلالها الطويلة تحت أشعة شمس العصر الضعيفة. نقل جميع الجرحى، وتعلق صمت واجم فوق بقايا البيوت التي كانت عامرة بالناس والدردشة وروائح الطهي قبل مجرد سويعات قليلة.

وصلا إلى مجمع أبنية، وأدخل عسكربي صديقه من خلال باب غير مقفل في زقاق جانبي. لم تكن الدرجات مضاءة، لا بالنور الطبيعي ولا بالمصابيح. تبع ألوشا عسكربي بمجرد السمع وهو يتسلق الدرجات صعوداً، حتى وصل إلى الطابق العلوي، فدفع باباً آخر وفتحه.

في الداخل، أبهرهما النور الداخل من النوافذ، وتطلّب الوضع من ألوشا بضع دقائق ليتعود على المشهد ويركز بصره. عندما بدأت عيناه تبصران ما يجري، كانت أول صورة رآها هي للفوهرر الألماني. تدلت لوحة لهتلر فوق المكاتب والكراسي المبعثرة في أرجاء الغرفة بطريقة عشوائية فيما يبدو. جلس إلى أحد المكاتب شاب بملامح شرسة، واضعاً ساقاً فوق الأخرى، يخاطب مجموعة تبدو من المعجبين المتحمسين له. استداروا جميعاً لحظة دخول عسكربي وألوشا.

قال عسكربي "هذا هو زمخشري. سيتحدث إليك عن الأفكار حتى يدوخ رأسك وتبدأ تتوسله أن يتوقف". استدار عسكربي إلى الآخرين "هذا ألوشا. لقد وصل لتوه إلى نالتشك قادماً من المالكا".

نهضوا واقفين كلهم وصافحوه بجدية، ولاحظ ألوشا وجود كومة من المنشورات على أحد المكاتب، وهي نفس تلك التي ألقيت على قريته بواسطة الطائرات. كذلك رأى منشورات أخرى، بعضها بالألمانية.

سأل زمخشري "هل ترى شيئاً يثير اهتمامك؟" وقد رفع ذقنه إلى الأعلى، كمن يستعد لعراك. قال ألوشا "لقد رأيت هذه من قبل. فقد

أسقطت من السماء كالمطر فوق بيتي".

"نحن نقاتل لكسب العقول والقلوب هنا". قال زمخشري، وهو يمسك بقبضة منها ويلوح بها في وجه ألوشا. "نحن نحاول أن نظهر للناس خطأ توجهاتهم قبل فوات الأوان. إن الألمان يعرضون علينا الفرصة المثالية لكي نتخلص من سلاسل حكامنا الظالمين ونصبح شعباً حراً مرة أخرى. ليس لدينا أمل في أن نجبر الشيوعيين على الخروج من جمهوريتنا بقوتنا الذاتية، ولكن لدينا فرصة بمساعدة الألمان".

ضحك عسكربي قائلاً "ثم سيكون لدينا ظالم آخر جديد".

"كلا" صاخ زمخشري بغضب "سيكون لدينا شركاء يساعدوننا على أن نصبح أقوياء مرة أخرى ونقاوم ضغوطات ستالين".

"إن هتلر دكتاتور بنفس مقدار ستالين" حاول عسكربي.

"إنه دكتاتور لكنه من النوع المحسن. يعرف الشعب الألماني كيف ينشئ الثروات ثم يديرها وينميها. يمكننا أن نجعل الجمهورية آمنة بفضل خبراتهم".

قال عسكربي "لقد كنا نبحث عن بيشتو" في محاولة لتغيير الموضوع "ظننت أنه يمكن أن يتواجد هنا". قال زمخشري "لقد رأيته في وقت سابق. كان يهم بالخروج للمساعدة في حفر هذه الخنادق السخيفة. لقد حاولت أن أخبره. توسلت إليه. فعلت كل ما بوسعي لأجعله يرى أنه يخون شعبه بإبقاء المحررين خارجاً. أعتقد أنه بدأ اليوم يصغي. أعتقد أنه من المحتمل أنني استطعت أخيراً أن أنفذ إلى داخل جمجمته البلقارية السميكة".

"هل يعتقد بيشتو بأننا يجب أن ندعم الألمان؟" فوجئ ألوشا بسماع هذا الموضوع. "لن أقول أنه قال ذلك بالضبط" قال زمخشري "إنه ما زال يحاول، داخل عقله، وأن يحلل ما يحدث بالضبط في كل أنحاء العالم ويفهمه. لكنني أعتقد أن هناك بصيص من النور يشع في

قرارة نفسه. إنني مفعم بالأمل".

"ألست خائفاً من التلفظ بهذه الأمور على العلن؟" سأل ألوشا، مذهولاً لكونه يسمع مثل هذه العواطف المعادية للشيوعية يجري الحديث فيها علناً من قبل أي شخص. "أنت لا تعرفني. يحتمل أن أكون مخبراً شيوعياً، أو قاتل مأجور. ليس لديك حراس على بابك ولا حتى أقفال".

"لدى الشيوعيين ما يكفيهم من المتاعب في قتالهم ضد الألمان حالياً". قال زمخشري.

"ليس لديهم الوقت للتعامل مع شخص تافه ثرثار مثلي. إنني أعتقد أنهم يقولون لأنفسهم أنه بمجرد أن يهزموا الألمان، فسوف يتعاملون مع المضايقات الصغيرة مثلنا".

انفجرت موجة من الضحك المتوتر في أرجاء العرفة، ما جعل ألوشا يشك في عدم شعور الجميع بنفس درجة الثقة مثل قائدهم.

استطرد قائلاً "السبب الوحيد الذي يمكّن الظالمين من البقاء فوقنا هو استعمال الخوف. إذا رفضنا أن نصاب بالذعر، إذا صرح عدد كاف بما في عقولهم، ووقفنا نساند ما نؤمن به، وقتها لن يعودوا يقدروا أن يسيطروا علينا".

قال عسكربي "ما زال بمقدورهم أن يقتلوك".

نفض زمخشري كتفيه وقال "ليس هناك الكثير مما يمكنني عمله في هذا الصدد".

أحسّ ألوشا بالارتباك. فهو يعرف في قلبه أنه يسير بصحبة الخونة. فكر بكل الرجال الطيبين من قريته، الذين تطوعوا للقتال في الشمال، للدفاع عن الاتحاد السوفييتي. كانوا يدافعون عن وطنه، القفقاس. ومع ذلك فهو هنا مع أناس يعتقدون بأن التغيير ممكن مع الغزاة الجدد

لبلاده. لم يستطع ألوشا أن يوفق بين كل هذه الأفكار المتضاربة. ظلوا يتحادثون ساعات طويلة عديدة، وكان الظلام قد بدأ يخيم عندما خرجوا واتخذوا طريقهم إلى البيت الذي ينزل فيه كلاهما.

كان بيشتو قد عاد إلى البيت وتمكن أحدهم من العثور على ما يكفي من الطعام لإعداد وجبة. جاءت روائح الطهي طيبة إلى درجة طاغية، فانكب ألوشا على الطعام بشهية. في النهاية، انتفخت معدته بوجبة أكبر بكثير مما تعود عليه في السنوات الأخيرة، وألفى نفسه جالساً على مقعد خشبي، إلى جانب بيشتو.

"إذاً، يا صديقي الشاب" ضرب بيشتو، المنتشي بالشراب، على فخذه بقوة مؤلمة "كيف وجدت الحياة في نالتشك؟".

أجاب ألوشا بحذر "إنها غاية في الإثارة، لكنها مربكة تماماً: هناك الكثير من الأفكار المتناقضة".

قال عسكربي "لقد قابل زمخشري" عندما شعر بأن ألوشا غير متأكد من أنه يجب عليه أن يذكر الاجتماع أم لا.

تنهد بيشتو "آه، أرى الآن سبب ارتباكك".

قال عسكربي "يعتقد زمخشري أنك قد بدأت تقتنع بطريقة تفكيره".

ابتسم بيشتو بوجوم "هل يعتقد ذلك؟ هل يعتقد ذلك حقاً؟".

سأل ألوشا "هل كنت تعمل في حفر الخنادق هذا اليوم؟".

"نعم" قال بيشتو "هل تشعر بالميل إلى القيام بقليل من الحفر غداً؟ نحن بحاجة إلى شباب ريفيين أقوياء مثلك. لإيقاف الدبابات الألمانية".

أجاب ألوشا "سأكون سعيداً بعمل كل ما بوسعي للمساعدة".

سأل عسكربي "ولكن هل ذلك يساعد؟ أم أنه عمل العكس تماماً؟".

قال بيتشو "يمكنك أن تأتي وتقدم بعض المساعدة أنت الآخر، عقاباً لك على قضاء يوم كامل في الثرثرة الكسولة والتخمين والتساؤل".

اقتنع بيشتو بأن ألوشا الصغير ذي السنوات الخمس عشرة، جاهز للتحول إلى أية فكرة. فهو بريء ومفيد. يعرف بيشتو شيئاً عن خلفية ألوشا. لا يمكن أن تختلف عن خلفيته كثيراً: الحياة في أعالي الجبال، بعيداً عن العقائد الشيوعية والتدريس الإيديولوجي. كان سعيداً لأن ألوشا لم ينضم بعد إلى الأنصار. لم ينم ألوشا في تلك الليلة إلا بشكل متقطع، فقد استمر سقوط القنابل الألمانية على المدينة يعيده إلى اليقظة.

أيقظهما بيشتو في ساعة مبكرة من الصباح التالي، وغادر الثلاثة المنزل سوية. انتظروا عند زاوية شارع بارد، قدوم شاحنة لتقلهم. أثناء صعودهم إلى المؤخرة، لاحظ ألوشا وجود رجال آخرين، بعيون مجهدة، جالسين بين الرفوش والمعاول. لم يتحدث أحد كثيراً لأن الشاحنة ظلت تقفز وتهبط في الحفر، على طريقها في أطراف المدينة.

توقفت بعنف في وسط ما ظهر وكأنه صحراء من الطين. ذهل ألوشا من كمية التراب الذي تمكن الرجال من تحريكه في الأسابيع القليلة التي عملوا خلالها. تلفت حواليه باحثاً عن رفش يمكنه أن يستعمله كجزء من الجهد الجماعي.

"لا تهتم لذلك" قال بيشتو، حين رأى ما كان الشاب الأصغر سناً يبحث عنه "فقط تعال معي". بينما بدأ الرجال يعملون. تجوّل بيشتو، ألوشا وعسكربي بينهم. الجميع يعرف بيشتو، وهم يتوقفون عن العمل لدى وصوله إليهم، متشوقين للتحدث إليه. فالشراكسة ميالون إلى الحديث وأكثرهم ميلاً هم سكان نالتشك. فهم يطلقون الأسئلة

حول كم من الوقت تبقى لهم قبل أن يصل الألمان، وما هي الخطط المعدة للدفاع عن المدينة. فوجئ ألوشا حينما علم أن بيشتو يتوقع منه أن يتحدث إلى هؤلاء الرجال بدوره، وكأنه خبير من نوع ما.

فانطلق يقول "صديقي الشاب هذا مفكر. لقد كان يتحدث إلى أشخاص على شاكلة زمخشري. يعتقد هؤلاء الناس أننا أغبياء لأننا نحاول أن نبقي الألمان خارج المدينة. إذا كانوا يريدون الاستيلاء على القفقاس حقاً، فهناك القليل مما يمكننا عمله لإيقافهم. إنهم يقصفون نساءنا وأطفالنا ولا شك أنهم سيقتلون المزيد منا عندما يصلون إذا استمرينا في مقاومتهم. ربما ينبغي علينا أن نفكر في العمل إلى جانبهم لإصلاح بعض من الضرر الذي اقترفه الشيوعيون".

أصبح بمقدور ألوشا أن يرى بأن الأفكار تتلقى ردود فعل مختلطة. فقد تربى بعض الشباب على الاعتقاد بأن الشيوعية هي الجواب الوحيد الصادق على كل معضلة. أصيب هؤلاء بالصدمة والانزعاج من كلمات بيشتو. فهم يحترمون الرجل وواضح أنهم لا يريدون الخوض في جدال معه، لكن الكلام الذي يقوله يسبب الصدمة، وخطير. لقد تربوا ونشأوا على الخوف من الشرطة السرية الشيوعية، والاحتفاظ بأية آراء سياسية يمكن أن يمتلكوها، طي الكتمان. ظهر على الآخرين الارتياح لسماعهم مخاوفهم نفسها يتم التعبير عنها بمثل هذه البلاغة. فيهزون رؤوسهم ويركزون بقوة على كل ما يقوله بيشتو.

استمر بيشتو يشجع ألوشا "هيا يا ألوشا، أخبرهم بما سمعته".

في البداية، لم يكن مرتاحاً في التحدث عن مثل هذه المواضيع التي ما زال يشعر أنه لا يعرف عنها سوى أقل القليل، فبات ألوشا يتلعثم، محاولاً أن يتذكر الأفكار التي سمعها تلقى في أرجاء الغرفة الصغيرة العلوية بالأمس، وأن يشرحها للعمال الذين ينصتون بأدب. تجادل بعضهم معه، فاكتشف أنه فعلاً مضطر إلى التفكير السريع ليقرر ما يؤمن به بالضبط. أحس بإيمان واضح بدأ يتشكل من خلال اضطراب

أفكاره الأولى وكلماته. إن ما يقوله شيء منطقي وعقلاني.

كذلك أصيب عسكربي بالصدمة بشكل واضح من الطريقة التي كان بيشتو يستخدم فيها صديقه الجديد للتحدث إلى أناس ربما يخجلون أو يخافون من الجدال مع رجل أكبر سناً وأعلى مرتبة. ألفى نفسه يشارك في النقاشات هو الآخر. بعد حوالي ساعتين، اقترح بيشتو أنه ينبغي عليهم أن يتفرقوا، ويتحدثوا مع أناس مختلفين، لنشر أنفسهم بطريقة أوسع. ابتسم لألوشا قائلاً "فقط استمر في شرح ما تعتقده بتلك الطريقة، وسوف تذهل من مدى التقبل الجيد الذي تتلقاه".

لم يستطع ألوشا أن يفهم أنه يقوم بترديد أفكار لا يكاد يؤمن بها بنفسه، لكنه استمتع بالانتباه الذي يحظى به. فكلما أطال الحديث عن البدائل لقتال الألمان، ازداد إحساسه بأنه محق بشأن هذه الأفكار الخطيرة. لقد كانت هذه تجربة جديدة، بهيجة ومنعشة لفتى في الخامسة عشرة. لم تكن لديه وسيلة يدرك بموجبها أنه يجري استغلاله وتلقينه من قبل بيشتو، الأكبر سناً، وأكثر حكمة. وهكذا استمر في التفوه بنفس المفاهيم التي سمعها من زمخشري الليلة الفائتة.

اكتشف ألوشا أنه لم يكن الجميع راغباً في الإنصات إلى مثل هذا الحديث الخياني، وهو يشق طريقه بين مجموعات الرجال الذين يتصببون عرقاً أثناء عملهم لحماية مدينتهم من جيش يقترح هو أنهم يجب أن يتعاونوا معه. صرخ فيه بعضهم وشتموا غاضبين. ظهر أن آخرين يجاملونه بسبب صغر سنه وحماسه الواضح. استطاع أن يتبين مقدار امتلاء الجميع بالشكوك والارتباك.

رفع القائد شيبمان ذراعه بالتحية الألمانية بفخر بينما كان العلم يخفق مع النسائم على جبل البروز القصي. كان ذلك اليوم جميلاً وشعر كبطل فاتح. ظل يحس بثقل الحرب على كتفيه معظم الوقت: فقد كان الجهد المبذول في دفع حدود الإمبراطورية الألمانية إلى أبعاد خارجية جديدة يكاد يصبح مستحيلاً على التحمل. ولكن كانت هناك

أيام مثل هذا، حينما يحققون تحركاً متميزاً إلى الأمام باتجاه الاستيلاء على جائزة تستحق الحيازة حقاً. فهم الآن يحتلون جمهورية قباردينو بلقاريا، حتى لو أن نالتشك ما زالت تقف ضدهم، وعلى بعد مجرد عشرين كيلو متراً. أصبحت الآن مسألة مجرد وقت قبل أن يستولوا على المدينة أيضاً. لقد عبروا نهر الباقسان وبذلك احتلوا الحوض بكامله.

قطعت حبل أفكاره البهيجة صلية من الطلقات، فانضم إلى الجنود في الركض للاحتماء. رأى أن اثنين من رجاله قد أصيبا. كانت هناك كمية كبيرة من الدماء على الأرض. صمتت المدافع التي أطلقت الرصاص، وأخذ يحدق بقوة في الأشجار والشجيرات التي تحيط بهم عبثاً، آملاً أن يشاهد حركة ما، انعكاس بريق الشمس على معدن أو يسمع طلقة أخرى. أطلق شتيمة بصوت خفيض. إن القتال ضد جيوش ذات معدات راقية ومتحركة شيء، ومحاولة التحوط ضد مقاتلين أفراديين في حرب عصابات، يعرفون المنطقة مثل ظاهر أيديهم شيء آخر. إنهم القناصة القباردينون مثل هؤلاء الذين تمكنوا من إيقاف تقدم الجيش الألماني القوي مؤقتاً، نتيجة طلقات بنادقهم المصوبة بدقة وغاراتهم السريعة كالبرق. أدرك شيبمان أنها تؤثر بعمق في معنويات جنوده في وقت يفترض فيهم أن يسترخوا كلهم ويستمتعوا بنصرهم العظيم.

عندما أدرك أن القناصة قد أصبحوا على بعد حوالي ميل بكل الاحتمالات، نهض شيبمان وركض محني الظهر، نحو الرجلين اللذين سقطا، كان كلاهما ميتاً.

جلس ألوشا إلى جانب بيتشو، بين مسؤولي الحزب، مستغرباً كيف بالضبط وصل به الأمر إلى ذلك المكان. ظهر على بيشتو أنه قد ارتاح له واعتبر وجود ألوشا داعماً له حيثما قد يذهب، مسألة مفروغاً منها. لم يعد ألوشا بحاجة لأن يخبره أحد بالاحتفاظ بآرائه المتعلقة بالترحيب بالألمان في هذه المجموعة. شعر بعيني النقيب مراد بشير وفيتش تحفر في كيانه من مسافة عبر الغرفة. واضح أن النقيب أدرك أنه يعرف

ألوشا من مكان ما، ولا يستطيع أن يحدده.

كان الكل يتحدث عن مجموعة ستاروستا، القفقاسيين الخونة الذين يساعدون الغازي، ولم يطل الوقت قبل أن يستنتج ألوشا أنهم يقصدون زمخشري وأتباعه. ولم يطرح بيشتو أية إشارة إلى أنه يملك الوقت لسماع آرائهم المتطرفة.

"إنهم ليسوا أكثر من خونة عاديين" صاح رجل طاعن في السن، وقد احمرّ وجهه الخشن لشدة الغضب. "لقد جهزهم الألمان ليندسوا بيننا ويحولوا شعبنا ضدنا بدعاياتهم وأفكارهم الغريبة".

وافقه آخر "ينبغي علينا أن نلقي القبض عليهم ونعدمهم كلهم".

حذرهم بيشتو "لديهم الكثير من الأتباع، قد ينتهي بكم الأمر بالقتال في الشوارع إذا قمتم بعمل كهذا، وهو أمر سيدعم ما يريده هتلر".

جادل الرجل الأول "لقد أصبح الألمان فعلياً هنا". وهو ينظر إلى بيشتو متشككاً "يجب أن نتأكد من إعدام جميع الخونة طالما أن ذلك بإمكاننا. بمجرد أن ينزل "البسطار" علينا، لن يعود بمقدورنا القيام بمثل تلك الإجراءات".

"ربما سنكون قد متنا جميعاً بحلول ذلك الوقت، بكل الأحوال،" أدلى رجل وحشي الهيئة بدلوه "إن مفعول القنابل يصبح أسوأ مع مرور كل يوم".

رفع مراد بشيروفيتش صوته بالكلام "يجب أن نركز جهودنا على مساعدة القباردين في مقاتلة الألمان في الريف. فكلما زادت المتاعب التي نسببها لهم، أصبح الوقت الذي يهتمون فيه باحتلال نالتشك أطول".

قال بيشتو "بمجرد أن يدخلوا المدينة، سيتوقف القصف على

الأقل". مدركاً أنه يتلقى نظرات عدائية من عدد من أعضاء الحزب، إضافة إلى هزات رؤوس موافقة من البعض الآخر. "ربما نتمكن من إنقاذ أرواح بعض من عائلاتنا، إذا قبلنا بأننا لن نتمكن من كسب هذه المعركة بالذات".

"نستسلم؟!" زأر أحد الرجال المسنين "هل يفترض أن نستسلم لهم؟ هل أنت مجنون؟ إن ستالين يهزم الألمان على جميع الجبهات. كلما طال صمودنا ضدهم، كلما تحسنت إمكانيات أن يتم استدعاؤهم للقتال في مكان آخر. انظر كيف يقاوم سكان ستالينغراد بصلابة. نحن مدينون لهم بعدم السماح للألمان بأن يمشوا فوقنا".

هزّ بيشتو رأسه، وقد تركزت عيناه على يديه الراقدتين في حجره، وكأنه يسلّم برأي المتكلم، مع أن ألوشا أدرك أن الاحتمال الأكبر هو أنه ببساطة، ينتظر السانحة.

قال مراد "أقول أننا يجب أن نتجه إلى الجبال، كلنا، ونساعد القناصة على قتل أكبر عدد ممكن منهم. إن حقيقة تأخرهم كل هذا الوقت في الوصول إلى هنا، مردها مهارة وشجاعة مقاتلينا الأنصار هناك. يجب أن لا نتخلى عنهم".

مع انتهاء أعمال الاجتماع، اتخذ مراد طريقه عبر الغرفة نحو ألوشا، الذي كان جالساً إلى جانب بيشتو.

"من أين أنا أعرفك؟" سأل بطريقة مباشرة مفاجئة.

"لقد جئت إلى قريتي عندما كنت تقوم بإعادة توزيع المواشي. حاولت أن تجندني لصالح الأنصار".

"آه، نعم" أطلق مراد ابتسامة عريضة "وهكذا، فأنت لم تقرر بعد الجانب الذي ستقاتل معه".

"ما الذي تقصده؟" شعر ألوشا بوجهه يحمر، وكأنما استطاع

مراد أن يقرأ أفكاره.

"ما زلت جالساً هنا، تستمع إلى الناس يتجادلون بدلاً من أن تخرج إلى هناك وتقاتل الألمان".

"نعم، افترض ذلك". أحسّ ألوشا بالغضب تجاه أسلوب الرجل المفعم بالغطرسة، لكنه اكتفى بعضّ شفته.

تدخل بيشتو "أترك الفتى بحاله، يا مراد، ليس كل واحد منا يرغب في الزحف تحت الشجيرات طيلة النهار ويستخدم الألمان للتدرب على الرماية، يريد بعض الناس أن يفكروا في الأمور بمزيد من التعمق".

شخر مراد ساخراً "بعض الناس يريدون من الآخرين أن يقوموا بالعمل القذر نيابة عنهم".

"مراد هذا واحد من أفضل الجنود الذين يستطيع الجيش الأحمر أن يقدمهم". قال بيشتو لألوشا، فتطاولت قامة مراد بوصتين على الأقل إذ رفع قامته إلى أعلى امتدادها، وقد انتفخ صدره بالكبرياء. "أعتقد أنه يهدر طاقاته في المدينة. أنا أتفق معه بوجوب وجوده هناك يقاتل. أنا فقط أتمنى لو كنت نصف الجندي الذي يمثله".

احتار ألوشا في أمر هذا الشلال من المديح المنطلق من شفتي بيشتو. لأنه لم يبدو متوافقاً مع أي شيء ظل يقوله للعاملين في الخنادق، صبيحة ذلك اليوم.

في اليوم التالي، اصطحب بيشتو ألوشا معه إلى اجتماع في مجلس دفاع نالتشك. حالت وجوه كبار رجال المدينة إلى اللون الرمادي جرّاء القلق وهم يتهيأون للاجتماع، يتبادلون قصص رعب القنابل التي شهدوها أو سمعوا عنها، ويتمتمون بأصوات خفيضة حول النقطة التي يعتقدون أن الألمان قد وصلوا إليها. تحرك ألوشا بهدوء في أنحاء الغرفة خلف بيشتو وهو يصافح الرجال بجدية ويعزيهم على خسارة أو الأخرى. مع حلول وقت بدء الاجتماع، استطاع أن يتحدث مع كل شخص، ولاحظ ألوشا

أن أحداً لم يتجاوب معه بغير الاحترام. مع تقدم أعمال الاجتماع خلال النهار، راقب ألوشا بينما كان بيشتو ينتظر لحظته المناسبة، ولكنه بدأ يقترح للكبار، نقطة بعد نقطة، تعليق بعد الآخر، أن المدينة قد تكون الآن قريبة من العصيان المسلح. امتدح النقيب بشير وفيتش بحرارة. وحذر من أن المدينة تخاطر بفقدان هذا الضابط الممتاز على يد القتلة إذا لم يلتزموا الحذر. طرح اقتراح عدة مرات بأن يمنح بيشتو صلاحية إدارة دفاعات المدينة واتخاذ القرارات. ثم يذكر شخص ما النقيب مرة أخرى ويتساءل عن احتمالية أن يصبح هو الرجل الملائم للمهمة. استمر بيشتو في التوافق معهم، ويمتدح الضابط وقدراته القيادية. في النهاية، وبعد أن خيم التعب بشكل واضح من الدوائر التي لا تنتهي، والتي يجرهم الكلام إليها، تقدم بيشتو باقتراح حل ممكن. لماذا لا يتولى هو سلطة إدارة المدينة نفسها بينما يتسلم مراد قيادة مقاتلي المقاومة في الجبال؟

شرح بيشتو فكرته "سيقوم بعمل ممتاز في التسبب بأكبر قدر من الأذى لأعداء الشعب، بينما نظهر نحن وكأننا نتعاون معهم باستخدام وسائل سياسية أكثر دهاءً، وربما تكون مخادعة".

هزّ الكبار رؤوسهم فيما بينهم. حتى أقرب أصدقاء الشيوعيين القدماء بدوا موافقين. اقتنعوا أن الشاب بيشتو هو الشخص الأفضل لتولي هذه المهمة الدقيقة. فهو على ما يبدو، يفهم دقائق السياسة الدولية، وفي نفس الوقت، يحمل مصلحتهم ورفاهيتهم في قلبه.

أثناء عودة ألوشا وبيشتو سائرين إلى البيت في ذلك المساء، غرق ألوشا في أفكاره. قال أخيراً "لقد اعتقدت أنك تؤمن بضرورة تعاوننا مع الألمان".

قال بشتو "أنا كذلك فعلاً".

"لماذا إذاً تشجع النقيب بشيروفيتش على مقاتلتهم؟".

"ليس كل شخص في المدينة مستعداً لتقبل مسألة أن الألمان سيشكلون أسياداً أفضل من الروس، مؤقتاً على الأقل. ينبغي علينا أن نشعر هؤلاء الناس بالراحة أولاً. لا يمكنك التحرك دائماً بالسرعة التي تريدها في عالم السياسة، يا ألوشا".

وافقه ألوشا "ما زال لدي الكثير لأتعلمه".

قال بيشتو "آمل أن تسمح لي بأن أعلمك".

"سيعجبني ذلك".

الفصل الحادي عشر

"يوجد شخص هنا أود لو تقابله"

رفع الرائد شيبمان رأسه عن الخرائط التي كان يدرسها لدى سماعه صوت كريم. فهو يحترم كريم بدرجة لا متناهية. فهو شركسي أصبح عضواً في قوة النخبة للشرطة السرية الألمانية المعروفة بحرفي إس إس. انتقاه الألمان كقائد محتمل لشعبه، ولم يخب ظنهم أو يندموا على خيارهم.

أرسل كريم إلى دورة تدريب خاص في ألمانيا تحت رعايتهم، على نفقة الجيش الألماني، واصبح أداتهم الرئيسة في نشر الدعاية بين الشعب القفقاسي بحيث أقنع الناس أن الألمان قادمون كأصدقاء وليس كغزاة، وأنهم سوف يساعدونهم على جعل جمهوريتهم قوية ومزدهرة مرة أخرى. هناك قصة تروى، لم يتأكد أحد مطلقاً من صحتها، بأن ثلاثة من الشيوعيين قد قتلوا بعضاً من أقارب كريم. لم يفعل كريم شيئاً لدى سماعه بالجريمة ضد عائلته، لعدة سنوات. فقد كان يعلم تمام العلم أنه لن يتمكن من فعل شيء لأن الاستراتيجية الشيوعية كانت تقضي بقتل أي شخص يعارضهم أو يناقش سياستهم. لم تكن لديه أية أوهام حول الحصول على العدالة من محاكمهم. فقد طبق الشيوعيون فلسفة "أيدتي ستروييم"، مجبرين الجميع على التماشي مع طريقة تفكيرهم. لم يستطع كريم أن يتأقلم مع ذلك أبداً، فأصبح عدواً عقائدياً للنظام، وبدأ ينتظر فرصته للانتقام من الشيوعية.

بمجرد قدوم الألمان وبدء انهيار سلطة الحزب، استغل سانحته، حمل رشاش كلاشنكوف وإعدام الرجال الثلاثة جزاءً على ما فعلوه. لم ينكر القصة أبداً، وظلت تلائم سمعته كجندي صلب. أصبح الشركسي الأكثر عداءً للشيوعية في كل القفقاس، وسرعان ما اكتشفه النازيون. فقد أدرك الألمان أنه سيكون بمقدورهم استخدامه.

سأل شيبمان "ومن يمكن أن يكون ذاك؟" وقد استند إلى ظهر كرسيه، مبتسماً لكريم.

"اسمه بيشتو. لقد ظل يعمل لقضيتنا في نالتشك. إذا استطعنا أن نطرد الروس من المدينة بدون خسائر كثيرة في الأرواح، فسيكون ذلك نتيجة له ولجهوده".

"هل هو عضو في أحد مجموعات ستاروستا التي كلفتنا الأموال الطائلة؟" سأل شيبمان بنبرة مرحة.

"ليس تماماً. لقد كان أذكى من ذلك. يحتمل أنه إذا احتاجت الجمهورية إلى رئيس في السنوات القادمة، فسيكون هو الرجل الملائم لنا".

قال شيبمان، وهو ينهض واقفاً ويقفل أزرار زيه العسكري: "في هذه الحالة، فسوف أرغب كثيراً في مقابلته. هل هو هنا في شيجيم حالياً؟".

"إنه ينتظر في منزل آخر".

"إذاً خذني إليه".

أصبح الجيش الألماني يسيطر على شيجيم في هذه الآونة، ويقترب من نالتشك كل يوم. إذا استطاع شيبمان أن يجد طريقة يحتل بها العاصمة بدون خسارة أية أرواح قفقاسية، فسيكون رجلاً سعيداً. فهو يعرف أنه مع كل روح يخسرها، يصبح إقناع السكان المحليين بأنهم قد جاؤوا لتحريرهم من البلاشفة بدلاً من اكتساحهم واضطهادهم، أصعب. تبع كريم خارجاً نحو عربة جيب تنتظرهما وجلس إلى جانبه.

بدا كريم غاية في الوسامة والتاثير بزيه الألماني. لم يشاهده شيبمان كثيراً وهو يرتديه. ففي العادة يتحرك كريم من جانب في الحرب إلى الآخر، مرتدياً أقل الملابس إثارة للانتباه، ينسل إلى نالتشك ويغادرها حاملاً الأموال إلى الستاروستا، ثم يقابل صناع الرأي المحتملين في حانات وشقق منعزلة. أما اليوم، فهو يبدو على شاكلة الضابط الألماني ذي الكبرياء بكل تفاصيله.

عرف السائق أين يذهب بدون أن يخبره كريم، تقافزا في الحفر نزولاً في الطريق الترابية حتى وصلا إلى بيت متواضع. توقف السائق وخرج الضابطان. قاد كريم الطريق إلى الداخل بدون أن يدق الباب. جلس في الداخل ثلاثة رجال إلى طاولة، يشربون القهوة، كان أكبرهم سناً هو بيشتو، بينما ظهر الاثنان الأصغر سناً كمساعدين.

قال كريم بصوت جهوري "بيشتو" وهو يخطو إلى داخل الغرفة "اسمح لي أن أقدم الرائد شيبمان، المسؤول عن هذا القطاع. هذا، أيها الرائد، هو بيشتو الشهير".

قام بيشتو بإيماءة متواضعة، وكأنه يزيح مديح كريم جانباً، ثم صافح يد الرائد المدودة نحوه، قائلاً:

"لطيف أن اقابلك أيها الرائد، لقد سمعت الكثير عنك".

قال الرائد "وأنا سمعت الكثير عنك" وهو يلقي بلمحة إلى الشابين اللذين وقفا إلى الخلف.

"إسمح لي أن أقدم مساعدي ألوشا" قال بيشتو، فتقدم ألوشا ليصافح. "وصديق قديم لي، عمل بجد من أجلكم في نالتشك، عسكربي" تبع عسكربي مثال ألوشا ثم جلس الرجال كلهم إلى الطاولة مرة أخرى.

سأل شيبمان بمجرد أن استقروا جالسين "كيف نقنع سكان نالتشك بأننا لا نريد بهم اي أذى؟".

قال بيشتو "يمكنكم أن تتوقفوا عن قصفهم بالقنابل".

"ولكن ما هي الطريقة الأخرى لتجاوز التحصينات اللعينة؟ لا نستطيع أن نحضر بالدبابات بسبب الخنادق التي حفرت حول المدينة من جميع الجهات. ما الذي تقترح علينا عمله؟".

"نحن نقترح أن تقوموا بالتركيز على اكتساب قلوب وعقول الناس بدلاً من تحطيم بيوتهم وتسويتها بالأرض" قال بيشتو.

"لقد اعتقدت أن ذلك هو ما كنتم تفعلونه: أنت وكريم وكل الستاروستا". لم يتمكن شيبمان من فهم ما يرمي إليه الرجل.

"ايها الرائد شيبمان، أعتقد أنه من الأهمية بمكان أن يفهم أحدنا الآخر بوضوح. نحن نريد الحرية من السيطرة البلشفية، وأن تحل محلها تنظيمات من السلطة المحلية تدار من قبل القباردين. إن دعمك ضروري لتحقيق ذلك، لكن يجب أن يبدو ذلك للناس مثل ثورة على التسلط الشيوعي، بدلاً من التواطؤ مع جيش غازي. هل تفهمني؟".

"نعم، استمر أرجوك". أجاب شيبمان وهو يوجه نظره إلى كريم.

سأل بيشتو "لماذا لا نقوم بتشكيل مجموعتنا كقيادة عسكرية؟ نحن موجودون داخل المدينة أصلاً. إنها المكان الذي نعيش فيه. إذا أصبحنا حلفاء واقعيين للجيش الألماني، فذلك يعني أنكم استوليتم على المدينة، بدون إطلاق رصاصة أخرى، ويمكننا أن نستمر بعملنا المتمثل في إقناع القبارديين بأن خلاصهم قد حان أوانه".

ابتسم الرائد شيبمان "يا صديقي، إذا استطعت أن تفعل ذلك، فسوف نعطيك كل ما تريد. يمكنك أن تحصل على جيش كامل إذا احتجت إليه. ستصبح جزءاً من الجيش الألماني بشكل رسمي". ضحك بيشتو "لن يكون ذلك ضرورياً في الوقت الحاضر. لكنني يمكن أن أغير رأيي فيما بعد".

"هذا الرجل من نوعية تصلح للرئاسة". قال شيبمان لكريم وهما يغادران الاجتماع "ولكن هل هو حليف يمكن الاعتماد عليه؟ هل تعتقد ذلك؟".

ابتسم كريم "طبعاً أيها الرائد، طالما أن لدينا غاية مشتركة مع الجيش الألماني، فإن كل القفقاسيين سيظلون أهلاً للثقة. هذا هو ما بقينا ننتظره منذ أن استولى الشيوعيون على بلادنا وجوّعوا أهلنا. نحن جميعاً نريد الحرية من الاضطهاد الشيوعي. وأنت تساعدنا على تحقيق ذلك".

سأل الرائد "بيشتو بلقاري، أليس كذلك؟".

"نعم، هو كذلك، لكنه يحظى باحترام بعض الشراكسة بالإضافة".

"تلك هي النقطة التي أريد أن أوضحها. هل يمكننا أن نقنع الشراكسة، القبارديين الحقيقيين بأن يتبعوه؟" سأل الرائد وهو يحدق في عيني كريم بجدية.

"أتعرف أيها الرائد، يعتبر البلقار والشراكسة أو كل المجموعات الاثنية الأخرى في الجمهورية، أنفسهم مواطنين سوفييت. يجب أن تتذكر أن جميع هؤلاء الناس قد أرسلوا أزواجهم وابناءهم آلاف الأميال لقتال الغزاة. إنهم على الأغلب وطنيون وسوف يقاوموننا. ذلك هو السبب الذي يجعلنا نحتاج إلى قائد ذي جاذبية شخصية مثل بيشتو حتى يحولهم إلى جانبنا".

انتقلت الأنباء بسرعة وانتشرت داخل نالتشك، حيث كان كل شخص يحاول طيلة الوقت أن يتعرف على آخر التغيرات، حتى يستطيعوا أن يقيموا مواقفهم الشخصية بدرجة أكثر دقة. كان مراد بشير وفيتش المختبئ في أعماق الجبال القفقاسية المحيطة بنالتشك، يستعد للخروج في مهمة ليلية، عندما سمع أن بيشتو ومجموعته قد اصبحوا جزءاً من

الجيش الألماني بشكل رسمي. توقف، وسط عملية تنظيف سلاحه، وقد تدلى فمه مفتوحاً وهو يصغي إلى المراسل المبهور الأنفاس الذي جاء لتوه من اجتماع تكلم فيه كل الحضور عن الحدث.

قال مراد "إنه خائن". مكذباً أكثر منه غاضباً.

"كيف يمكنه أن يأمل في الاحتفاظ باحترام الشعب إذا كان يعمل مع العدو بشكل مكشوف؟ ما هو رد فعل المجموعة التي سمعت منها الخبر؟".

نقل الرجل ثقله من قدم إلى الأخرى بانزعاج، محاولاً تجنب تحديق مراد الذي يكاد يخترقه.

"إن المتعاطفين معه هم على الأغلب من البلقار. إنه واحد منهم كما تعرف. يبدو أنهم يفهمون المنطق الكامن خلفه" أنهى متمتماً.

"المنطق؟" صاح مراد غير مصدق لما يسمعه. "سيدمر الألمان كل ما عملنا على بنائه منذ قيام الثورة. سوف يمزقونه إلى أشلاء، وسوف ينسحق الفلاحون من قبل نخبة جديدة، تماماً كما كانوا مسحوقين من قبل الارستقراطيين".

استأنف تركيب سلاحه، وهو يدق القطع ببعضها لينفس عن غضبه. صرخ! "الأعداء يحيطون بنا من كل ناحية. حتى أنهم يعملون بجانبنا الآن. سيجيئ يوم لهؤلاء الخونة".

هتف الأنصار الآخرون في الغرفة معبرين عن موافقتهم. لقد سبب لهم هذا التطور الكثير من الارتباك. فقد افترضوا أن بيشتو كان واحداً منهم. لم يكن أحد منهم يثق بالمثقفين، لكن بدا في هذه الحالة أن الرجل يقف في صفهم. كيف يمكنه أن يتحول إلى ألعوبة في يد الألمان بهذه الفجائية؟

صاح صوت بلقاري "يجب أن نتصيده ونقتله! نعدمه. نظهر للآخرين ما يحدث للخونة الذين يحاولون أن يدمروا ما شيدناه بدماء وجهود الآخرين".

بقي مراد صامتاً للحظة بينما هو يملأ جيوبه بالذخيرة ويرتدي الثياب الداكنة السميكة التي يلبسها أثناء الغارات الليلية. بات مراد روحاً غاضبة لا تفهم الخيانة، لأنه كشركسي تحسنت حياته تحت النظام الشيوعي. لم يستطع أن يفهم حقيقة أن شراكسة آخرين قد عانوا تحت النظام نفسه. قال:

"ليس بعد". وجاء صوته بارداً ومخططاً بشكل مفاجئ. "إذا كان يحظى بتأييد الشعب في الوقت الحالي، فإن الاغتيال سيجعل منه بطلاً إلى الأبد. نحن بحاجة إلى أن نهزم الألمان ونطردهم خارج بلادنا، ونذلهم، وبعدها سنتمكن من التعامل مع الخونة مثل بيشتو".

غامت عيناه وهو يتخيل كيف سيتعامل مع زميله السابق بعد انتهاء القتال وهزيمة بيشتو.

"هلموا" خرج من الغرفة مسرعاً، بينما اندفع الآخرون محاولين اللحاق به، وتسلقوا داخل الشاحنة الواقفة خارجاً بانتظارهم. لاحظ الرجال المتحلقين حوله أنه ليس في مزاج راغب في الكلام. فقد غشت عينيه نظرة جامدة بعيدة حينما دبت الحياة في محرك الشاحنة بصخب شديد واتجهوا خارجين من المدينة المطفأة أضواؤها. لم يستطع مراد أن يفهم كيف، وهو الرائد في أحد أعظم جيوش الدنيا، ينتهي به الأمر متسللاً في الجبال، يقتنص الجنود الألمان التائهين وكأنه رئيس عصابة ما.

توقفت بهم الشاحنة على بعد نصف ميل من قرية، وصلتهم تقارير أن الألمان يحشدون فيها رجالاً للتحضير للاندفاع النهائي إلى داخل نالتشك.

سأل السائق مراد "هل يفترض في أن أعود لأعثر عليك؟" أثناء نزوله وزملائه المقاتلين، آخذين حقائب تموينهم معهم.

"كلا" هز مراد رأسه نفياً "سنقيم في الجبال لبضعة أيام".

ذاب الأنصار واختفوا بين الشجيرات أثناء استدارة الشاحنة عائدة إلى المدينة. تذكر مراد السبب الذي يحبب إليه القتال عندما بدأ الأدرينالين يضخ في شرايينه وهم يتحضرون للترصد بفرائسهم. استغرقهم اتخاذ مواقع على قمة صخرية ناتئة مشرفة على القرية ساعتين. وصلت إلى أسماعهم أصوات الرجال التي تعالت مع ازدياد صخبهم وسكرهم وانطلاقهم في الغناء الفوضوي آخر المطاف. لم يتعرفوا على الأغاني فادركوا أن هؤلاء هم جنود ألمان. هي مسألة وقت قبل أن يخرج بعضهم إلى الضوء. انبطح الأنصار على الأرض مصوبين بنادقهم على باب الكوخ الذي ينطلق منه الغناء. بعد حوالي نصف ساعة، انفتح الباب بقوة وخرج منه رجل مترنحاً.

أمرهم مراد "توقفوا عن إطلاق النار. نريد أن نصيب أكثر من شخص واحد قبل أن ينطلق الإنذار". اندفع الرجل إلى الأمام، انحنى ثم تقيأ كل ما شربه لتوه. بقي مطوياً على نفسه للحظة، وبنادق الأنصار مصوبة عليه، يمسح فمه بردن سترته، ثم استوى واقفاً ببطء. استدار وعاد إلى داخل الكوخ، وسحب الباب خلفه ليغلقه. استرخى الأنصار وأطلق واحد أو اثنين منهم شتائم على فرصة القتل الضائعة.

بعد ساعة أخرى، كوفئ صبرهم حين انفتح الباب بقوة مرة أخرى. خرج الجنود الألمان، متأبطين أذرعة بعضهم، ويغنون بأعلى أصواتهم. صوبت البنادق مرة أخرى.

همس مراد "انتظروا" ففعلوا كما أمروا. ظهر رجلان آخران في الممر خلفهم. "حسناً" فحّ مراد، "اقتلوا الاثنين في الخلف أولاً، ثم الثلاثة في المقدمة".

انفجرت البنادق في وقت واحد، مثل فرقة إعدام، وسقط أحد الجنديين الخلفيين ميتاً. ركض الآخر عائداً إلى داخل الكوخ، ممسكاً بكتفه، والدم يتدفق من بين أصابعه. صحا الرجال الثلاثة في المقدمة فجأة واستداروا ليركضوا باتجاه الباب. لم يصل اثنان منهم. بعد أن أطلق الأنصار صلية أخرى داخل الباب الذي ظل مفتوحاً، علق الأنصار بنادقهم على أكتافهم، حملوا أمتعتهم ولوازمهم، واختفوا في الليل. من خلال انفجار الطلقات من كل مكان حولهم، استغرق الوضع الألمان خمس دقائق ليدركوا أن لا أحد يرد على نيرانهم، وأن العدو قد اختفى.

استمر مراد في القيام بالغارات الخاطفة على الحاميات الألمانية لمدة أسبوع. يصادف أحياناً جندياً وحيداً واقفاً في خفارة، أو يتبول في الغابة، فيقتله بصمت بالسكين. أحياناً لم تكن غاراتهم تثمر أكثر من قتيل واحد، وأحياناً أكثر. لكن الخطر على أشخاصهم ظل في درجاته الدنيا. التقوا بعد أسبوع بمجموعة أخرى من الأنصار، خارجة لتوها من نالتشك.

سأل مراد أثناء جلوسهم حول النار، يتبادلون القصص "ماذا يحدث في المدينة؟".

أخبره قائد المجموعة الجديدة "لقد سقطت نالتشك بدون إطلاق رصاصة واحدة".

"كيف تم ذلك؟".

شرح الرجل "لقد استولى بيشتو ورجاله على المدينة" ثم بصق في النار باحتقار، فأزّت بصقته من الحرارة. كان المتحدث قباردياً مثل مراد، فتحول إلى الشركسية ليتجنب التأثير في معنويات الأنصار الآخرين بإخباره غير المرحب بها.

"لقد رحب بهم سكان بعض القرى الجبلية واستقبلوهم بأذرع مفتوحة، بحيث بدأ الألمان يتبخترون في الشوارع خلال مجرد يومين،

بدون أدنى قلق. ليست هناك حركة مقاومة داخل المدينة، لقد استلقى الجمع مثل جراء صغيرة مطيعة نتيجة وعد بقليل من الحماية والذهب الألماني".

فحَّ مراد "بيشتو" ومضت عيناه بالكراهية. "لن يطول الوقت قبل أن يدفع ذلك البلقاري ثمن خطاياه. لقد تخلى عن مواطنيه وخان جميع أحلامهم. لن تبقى مثل هذه الأفعال بلا عقاب لمدة طويلة".

راقب الرائد شيبمان برضى واقتناع بينما تداعت آخر الحظائر وسقطت إلى الأرض. كان ألوشا واقفاً إلى جانبه، يشعر بالفخر في زي الضابط الألماني الذي يرتديه.

استطرد شيبمان يقول "إنها الرمزية. نريد أن يرى الشعب بأن أيام "الكولخوز" قد انتهت. نريد أن ندمر جميع بقايا النظام التعاوني ونحاول أن نعيد توزيع الأرض حقيقة ونعطيها للشعب. لن يتمكن البلد من العودة إلى حالة الازدهار إلا بتلك الطريقة. سيتمكن الناس من فلاحة أراضيهم وممارسة دياناتهم. سيكونون أحراراً يعيشون تحت حماية الإمبراطورية الألمانية".

"سيقوم الأنصار بعمل كل ما بوسعهم لإجهاض العملية" قال ألوشا.

قال شيبمان "هم قادرون على أن يشكلوا شوكة في خاصرتنا، لكنهم لن يقدروا على هزيمة جبروت الإمبراطورية الألمانية في آخر المطاف. لقد أصبحت أيام البلاشفة معدودة الآن".

قال ألوشا "لدي قوائم الأسماء التي طلبتها".

"حسناً".

استدار شيبمان مبتعداً عن مشاهد التدمير وسار مسرعاً، عائداً إلى العربة العسكرية بصحبة ألوشا. ركب كليهما وأخرج ألوشا رزمة

من الأوراق. تناولها شيبمان منه وفتحها. وجد فيها قائمة طويلة من الأسماء.

سأل "هل هذه معلومات يعتمد عليها؟".

"كل هؤلاء الأشخاص هم إما أعضاء ناشطون في جهاز NKVD، أو أنهم جواسيس ومخبرون لهم، وقد أرسلوا أشخاصاً آخرين إلى حتفهم أو إلى المنفى".

عانى ألوشا لإبعاد رنة الكراهية من صوته. فكر في والده والرجال الآخرين الذين ألقي القبض عليهم في القرية، استجوبوا ثم أخرجوا خلسة لذنب ليس أكثر من الجهر بآرائهم وأحياناً ليس مجرد ذلك ولا شيء آخر.

قال ألوشا "لقد كانوا سرطاناً في هذه الأرض طيلة حياتي. إذا كنا سنتقدم إلى الأمام حقيقة، فأنت بحاجة إلى استئصال شأفتهم.

"لا تقلق". شاهد شيبمان التوتر في وجه الشاب. "سوف يتلقون العدالة التي يستحقونها. نحن فقط نريد أن نتأكد من عدم المباشرة في إعدام الناس الأبرياء الذين سقطت أسماؤهم في القائمة بطريق الصدفة لمجرد أن أحدهم مارس الحب مع زوجة شخص ما أو سرق بقرة شخص آخر". نفض ألوشا كتفيه. فهذا موضوع لا يحس تجاهه بأي استخفاف أو مرح. "لقد تم تمحيص هذه الأسماء وتدقيقها، فلا حاجة بك لأن تقلق".

"نحن ندرك أن أعداءنا يريدون أن يخبروا العالم بأننا نقوم بذبح الناس الأبرياء بدافع التعطش إلى سفك الدماء وحده". استطرد شيبمان "لا نريد أن نغذي هذه الشائعات إذا كان بمقدورنا تجنب ذلك بأية وسيلة".

طمأنه ألوشا "نحن نتشارك معكم في نفس الأهداف، نريد أن نرى الجمهورية تنمو وتقوى وتزدهر مرة أخرى. نريد أن يتمكن أبناء شعبنا

من النوم في أسرتهم ليلاً، ولا يستلقوا يقظين، ينصتون إلى صوت السلطات القادمة لتطرح عليهم الأسئلة".

قال شيبمان "هذا هو ما يريده هتلر بالضبط. لم يعد القبارديون بحاجة إلى التفكير على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية أو عبيد لدى البلاشفة".

أكّد له ألوشا "لقد بدأ الناس يرون ذلك. إنهم يعلمون أنكم خلاصهم. إذا شاهدوكم توزعون العدالة إلى هؤلاء الناس، فسوف يصبحون أكثر تيقناً من رغبتهم في العمل معكم".

"حسناً" قال شيبمان وطوى الأوراق، ثم حشرها في جيب معطفه الخارجي. "هل تود أن تنضم إليّ لوجبة العشاء قبل أن تمضي؟".

قال ألوشا "سيشرفني ذلك".

أعطى شيبمان تعليمات للسائق للعودة إلى شالوشكا، القرية التي جعل منها مقر إقامته.

"هل تعلم" قال لألوشا وهما يمران خلال الريف المهجور "لقد أحببت بلادكم كثيراً".

"أهذا صحيح؟" لم يكن ألوشا يصغي بكامل انتباهه.

"أعتقد أن فيها إمكانيات هائلة. أشعر بكثير من الإثارة والحماس لكوني أشكّل جزءاً من إعادة ولادتها. إن لدى البلاشفة الكثير مما سيعاقبون عليه. لقد دمروا الكثير من العناصر الجيدة". قال ألوشا "لقد آمنوا بما فعلوه. على الأقل البعض منهم، كبداية. لكنهم شحنوا كل مواردنا ومنتجاتنا إلى روسيا، وتركونا نهباً لأنياب المجاعة. لم يكن ذلك ما وعد به لينين: ولا هو المثال الأعلى للشيوعية الحقيقية".

آمن ألوشا نفسه بأن شعبه ربما يتحرر من الشيوعية يوماً ما، ويصبح قادراً على تقرير مصيره. "تماماً" طأطأ شيبمان برأسه. "أنا

واثق من أن جميع المثل العليا كانت صادقة وصحيحة، وأن هناك كثيراً من مظاهر الظلم التي كانت بحاجة إلى التصحيح. لكنهم سرعان ما فقدوا القدرة على رؤيتها في خضم الصراع للبقاء في السلطة. لن نقترف تلك الأخطاء. سوف نتأكد من مشاركة الجميع في الثروة التي سيتم توليدها في هذه المنطقة، بمن فيهم الناس الذين عانوا لأجل بلادهم في الماضي".

قرية شالوشكا التي يقيم فيها شيبمان، أكبر من قرية ألوشا، وقد ظهر على سكانها أن أحوالهم مزدهرة إلى حد معقول، فهم يمضون في شؤونهم وقد علت البسمات وجوههم. القرية محاذية لنالتشك مباشرة، وقد أقام العديد من زعماء الحزب السابقين ضمن حدودها. شوهد الجنود الألمان في الشوارع، لكنهم لم يظهروا مثل قوة احتلال، بل ظهروا أكثر كجزء من المشهد المحلي. البيت الذي يقيم فيه شيبمان هو الأكبر في القرية، ومجاور لمدرسة القرية، وتقطنه العائلة التي كانت في الماضي أكبر مالكة للأراضي في المنطقة. ظلوا أناساً محترمين، رغم أن ثروتهم تجزأت على يد الشيوعيين وقتل جميع كبار رجال العائلة. وقد شكلت واقعة استضافتهم للرائد الألماني في وسطهم، مثالاً يحتذى لبقية القرية. بينما جلس ألوشا متهيئاً لقضاء أمسية ممتعة بصحبة الرائد، خيم الظلام على القرية في الخارج.

وجد بعض صغار السن من الجنود في المنطقة صعوبة في ملء ساعات يومهم بعد أن أصبحت المنطقة التي أرسلوا لاحتلالها، ملكاً لهم. فقد كان يجري تحذيرهم على الدوام للاحتراس من القناصة أو الأنصار، إلا أن الحوادث ظلت قليلة ومتباعدة في تلك القرية بالذات. رغم وجود البحث المستمر عن المتعاطفين مع الجيش الأحمر، ووجود فرق الإعدام للتعامل مع أولئك الذين يقبض عليهم، فقد بقيت من النهار ساعات كثيرة جداً بحاجة إلى الإشغال. لم تكد تتوفر في القرى الريفية أية مواخير أو حانات أو أي من الأمكنة التي تبقي على الشباب المقاتلين

في حالة تعقل، عندما لا يوجد حولهم من يقاتلونه. لذلك لجأوا إلى الشرب في مهاجعهم، مع القليل من التقييد وجهل عام بالقوة الكامنة في الفودكا التي كان التجار المحليون المتحمسون يبيعونها لهم.

بينما انهمك ألوشا وشيبمان في بحث التفاصيل الدقيقة المتعلقة بضمان أمن القفقاس والاستبعاد الدائم للبلاشفة، كان جندي شاب يفرغ محتويات زجاجة فودكا في حلقه، في بيت يبعد مجرد مائة متر عنهما، وسط هتاف وتشجيع رفاقه. كان اسمه هانس زيمرمان. ضربت الكحول معدته ورأسه في نفس الوقت فتطوّح خارجاً من الكوخ إلى الهواء النقي وسط ضحكات رفاقه. عندما امتلأت رئتاه بالهواء، انحنى منطوياً وقذف محتويات معدته في الشارع. بدأ يشعر بالتحسن بعد بضع دقائق، لكنه لم ترق له فكرة العودة إلى الكوخ الحار، العابق بالدخان حتى يصبح أكثر ثباتاً على رجليه. قرر بدلاً من العودة، أن يتمشى في شارع القرية. رغم أنه أفرغ معدته، إلا أن رأسه ظل يمنحه شعوراً بالخفة، وامتلأت نفسه بوميض من السعادة وهو يتبختر ماراً بالبيوت التي بدأت تغلق أبوابها استعداداً لاستقبال الليل، واستمر في سيره نازلاً الممر المؤدي إلى ضفة النهر، فخوراً بزيه ومغتراً بشبابه ورجولته. حين شاهد الفتاة تنشل دلواً مليئاً بالماء من نهر شالوشكا الصغير، أول فكرة خطرت له هي محادثتها. فهو ميال إلى فكرة التأثير في فتاة محلية واستمالتها. كان ضوء القمر كافياً لخلق جو اجتماعي. تعثر نازلاً نحو ضفة النهر ليقابلها في منتصف الطريق.

"مرحباً". استند هانس إلى جدار حجري بهيئته المخمورة، محاولاً أن يظهر عدم التكلف.

رفعت الفتاة رأسها، وقد اتسعت عيناها العسليتان الكبيرتان من الخشية والترقب. أضيء وجهها بفعل مصباح كانت قد وضعته فوق الجدار الحجري. تأثر هانس بدرجة جمالها، وجه صغير كامل التقاطيع فوق جيد طويل ناعم. سقطت بضع خصلات من الشعر البني اللماع من

الوشاح الذي يغطي رأسها، تنساب فوق خديها. رأت الجندي مستلقياً إلى الجدار، فحولت عينيها عنه بسرعة، وانشغلت بإزاحة الدلو من طريقها حتى تتمكن من الهروب. قال هانس بلسان أثقله السكر "لا تكوني خجولة. تحدثي إليَّ. ما هو اسمك؟".

لم يكن بالإمكان أن تفهم لغته الألمانية، لذلك لم ترد الفتاة، بل استمرت يداها الصغيرتان تعملان على تهدئة الدلو. أحست بانقضاض الجندي عليها، ثم شعرت بيده تحيط بخصرها.

"ما رأيك بقبلة لجندي جاء ليحررك؟" همس هانك، فصعدت إلى أنفها رائحة القيء والكحول مع أنفاسه.

حاولت أن تتملص وتحرر نفسها من قبضته، لكنها بمحاولتها تلك زادت في ضغط جسمها ضده، فجذبها هانس بقوة أكثر نحوه. أدار وجهها بعنف نحوه، وقد حشر ذقنها المدببة الصغيرة بين أصابعه في لهفته إلى طبع قبلة على فمها الناعم، المرفوع نحوه. جاء في مثل حلاوة الفاكهة الطازجة، وبينما هي تكافح لتتحرر منه، أحسَّ بإثارة هائلة تهيج كيانه. فقد انقضت عدة أسابيع منذ لامس هانس امرأة، فأدرك مدى جوعه وحاجته إلى الإشباع. تدحرج دلو الماء على الأرض واندلقت محتوياته فوق الحجارة.

تعاظم شبقه مع ازدياد صراع الفتاة للتخلص منه. أطلقت صرخة اضطرته إلى إسكاتها بيده. سحب مسدساً من جرابه وسدده إلى جبينها.

"إبقي صامتة وإلا فسأطلق عليك النار" جاء أمره، فاتسعت عينا الفتاة أكثر من ذي قبل. أصبح على يقين من أنها ستصرخ مرة أخرى. دفعها بعنف وخشونة إلى الخلف نحو الجدار، فقطع تنفسها، ثم بدأ يمزق تنانيرها في استماتة للوصول إلى الجسد في الداخل. عندما تمكن من الكشف عنها أخيراً، أجفل لمرأى مدى صغر سنها، إذ لم يكن

يغطّي جسمها غير غبار من الزغب.

ربما لم يكن عمرها ليزيد عن ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً. على أية حال، حينما أدرك تلك الحقيقة، كان اهتياجه قد أصبح أقوى من قدرته على إيقاف نفسه. حل حزامه، فتح مقدمة بنطاله ودخلها عنوة. ندت عنها شهقة ألم، فغطى فمها مرة أخرى وهو يدفع بنفسه فيها. أفقدتها شراسة اندفاعه توازنها، فسقط كلاهما إلى الأرض، وهو ممسك بردفيها في جنون من الشهوة. اصطدم رأس الفتاة بحجر فسكتت وتهاوت، ورغم ذلك لم يتمكن من إيقاف نفسه.

اخترقت صرخات امرأة وعي هانس، وأخرجت آخرين راكضين من بيوتهم. مع استطاعة عقله الذي غيبته الكحول والشهوة الإحاطة بكامل خطورة الموقف، كان الوقت قد فات على هانس، وأطبق عليه حشد من القرويين الغاضبين، ثم انتزعوه عن الفتاة. أخرجت الضجة الرائد شيبمان وألوشا من البيت الذي كانا غارقين في الحديث داخله. ركض شيبمان نحو الحشد وسحب مسدسه الشخصي، أطلق رصاصة في الهواء ليحاول بها أن يسكت الصراخ. أثمرت الطلقة وتراجع الحشد ليكشف عن المرأة التي صاحت، تحتضن ابنتها بين ذراعيها. وضح على الفور ما قد حدث، لكن كانت هناك أيضاً أصواتٌ كثيرة تريد أن تخبر الرائد رأيها فيه وفي جنوده. كان هانس مقبوضاً عليه من قبل جنديين زميلين جريا إلى الخارج على صوت الصراخ، كل واحد يمسك به من ذراع. لم يسمحا له بتغطية جريمته، فبقي دم الفتاة يلطخ أعضائه ويسيل على فخذيه. كان الجنديان ينظران بعصبيةٍ نحو الحشد المتزايد والغاضب، غير واثقين مما ينبغي عليهما فعله تالياً.

سمع ألوشا هدير الغضب وقد بدأ يتكاثف في صدر الرائد ليصعد إلى حلقه بما يشبه الزئير. هذا هو بالضبط نوع التصرف الذي منعته القيادة الألمانية العليا صراحة في هذا الأقليم. يفترضٍ في هؤلاءِ الناس أنهم أصدقاء الجيش والمتعاونين معه، وليسوا شعباً مهزوماً يمكن

اغتصابه وقتله.

راقب ألوشا بذهول بينما خطا شيبمان إلى الجندي المنتحب ووضع مسدسه داخل فم الرجل.

جاء صوت الطلقة عالياً، لكن كمية الدم والعظام التي انفجرت خارج مؤخرة رأسه ولطخت الجنديين الآخرين، سببت أكبر قدر من الصدمة للحشد المتجمهر.

ظهر على شيبمان نفسه أنه مصدوم حد الصمت لعدة لحظات من عنف ردة فعله الخاصة للجريمة. تحركت الفتاة قليلاً بين ذراعي أمها وصدر عنها أنين خافت، ولم تفتح عينيها بعد.

"لن تقبل القيادة الألمانية العليا بأي تصرف من هذا القبيل في القفقاس". أخبر شيبمان الحشد، بصوت مرتعش. استدار نحو ألوشا وطلب منه أن يترجم.

"كونوا على ثقة من أننا سندوسه في كل مناسبة ممكنة" مشى متجاوزاً ألوشا، متخذاً طريقه نحو البيت. "أرجوك، يا ألوشا، اكتشف ما يمكننا أن نفعله لمساعدة الفتاة وعائلتها، هل هي بحاجة إلى طبيب؟ أرجوك افعل ذلك من أجلي".

"طبعاً". ذهب ألوشا نحو المرأة وركع إلى جانبها. بدا على الفتاة كأنها تستعيد وعيها بين ذراعي أمها.

راقب مراد الدورية الألمانية وهي تتمشى نحو الكمين. لقد استمر هو ورجاله راقدين ينتظرون منذ هبوط الظلام: لم يتحرك أو يتكلم أحد منهم لست ساعات طويلة، مكتفين بانتظار فريستهم. بدأ قلب مراد يخفق بعنف في أذنيه مع اقتراب الألمان. فهو يكرههم بكل كيانه. ليس لمجرد أنهم استولوا على بلاد كان فيها رجلاً قوياً ومهماً، بل لأنهم تجرأوا على تحدي الفكرة القائلة بأن الشيوعية هي السبيل الوحيد للتقدم إلى الأمام، الطريق الصحيح الوحيد لأن يعيش الرجال

سوية في وئام وسلام وتناغم. أراد أن يقتل كل واحد من الغزاة بيديه العاريتين.

ازداد كرهه لهم أكثر لأنهم يظهرون ممتلئين بالثقة وغير مهتمين بالخطر: وكأنهم يعتقدون أنهم قد أتموا قهر العدو وأصبحوا قادرين على أن يمارسوا حياة المواطن المسالم. حمل كل الألمان القادمين نحو الكمين أسلحة، لكن أحداً منهم لم يكن يحمل سلاحه على أهبة الاستعداد.

لم يجرؤ مراد إلا على أخف الأنفاس وهو يأمر رجاله بأن لا يطلقوا النار أبكر مما يجب، فقد ذهب جل تركيزه على ماسورة سلاحه وهو يراقبهم يقتربون، وقد صوّب مهدافه على صدر الضابط الذي يسير في المقدمة.

قرر أن قسماً من السبب في تمتعهم بذلك القدر من الثقة بالنفس، هو لأنه لم يكن أي من الأنصار يعمل في هذه الأنحاء منذ أسابيع. فقد سافر هو ورجاله عدة أيام عبر منطقة جبلية وعرة للوصول إلى هذه النقطة. فقد تنامى حذر الألمان في المنطقة التي كانوا يعملون فيها سابقاً، بحيث أصبح القيام بكمائن فعالة، أمراً في منتهى الصعوبة، ما جعلهم يعتمدون أكثر على اقتناص خفير وحيد عوضاً عن القيام بهجمة منسقة.

في اللحظة التي أطلقت فيها الرصاصة الأولى، ارتمى الألمان على الأرض، زاحفين بحثاً عن الحماية ومجهزين أسلحتهم. هناك أمر خاطئ، لم يبد عليهم الذعر كما تفعل الدوريات في العادة حين تفاجأ بهذه الطريقة. أصبح من المستحيل معرفة كم منهم أصيب، أو إذا كان أحدهم قد أصيب أصلاً. أدرك مراد خلال ثوان قليلة، لماذا كانوا متراخين إلى تلك الدرجة. فقد تناهى إلى سمعه صوت دوس أقدام في منطقة الشجيرات المحيطة بهم، فعرف أنهم بدلاً من أن ينصبوا كميناً، قد وقعوا أنفسهم في كمين. فقد كانت مجموعة الجنود الصغيرة

تشكل الطعم المقدم لإغرائهم على كشف مخبأهم، وجاءت القوة الأكبر لتحيط بهم من جميع النواحي. سمع الأوامر تلقى صراخاً بالألمانية، وإطلاق النيران المسيطر عليه. أصيب واحد واثنان من رجاله بالهلع وتخلوا عن مخابئهم، فسمع مزيداً من الطلقات وبعدها صرخات الاستسلام. رقد ساكناً. عرف أن أية حركة ستشكف عن موقعه. فقد اتخذ احتياطات كبيرة بأن غطى جسمه بالطحالب والأوراق وأغصان الشجر. إذا أسعفه الحظ فسوف يكتفون بعدد الأنصار الذين تمكنوا من إخراجهم، ويشغلون أنفسهم بالعودة بهم إلى مجمع السجن الذي يعرف أنهم بنوه من أجل جميع سجناء الجيش الروسي والبلاشفة المحليين المتعاطفين. تناهى إلى سمعه صوت تنفسه، فأحسَّ بأنه سيفضحه. حاول أن يهدئه، حتى كاد يخنق نفسه في الجهد الذي يبذله لعدم تحريك حتى عضلة واحدة. استمر الألمان يجوسون في الشجيرات التي حوله، وتقترب أحذيتهم من مكان اختبائه إلى درجة خطيرة، وهم يحاولون أن يجبروا المزيد من رجاله على الخروج من مخابئهم. شدت أصابعه على مقبض سكينه. إذا عثروا عليه، فسوف يتأكد من أخذ واحد منهم على الأقل معه قبل مقتله. إنه يفضل أن تطلق عليه النار أثناء القتال على أن يؤخذ إلى السجن. فلقد سمع من أحد الفارين الذي استطاع أن ينضم إليه في الجبال، أن المجمع يتم الإشراف عليه من قبل بيشتو، الذي بات مصمماً على القبض على كل جندي روسي ونصير في الجمهورية. إذا كان هناك شيء يكرهه مراد أكثر من الألمان، فهو الخونة على شاكلة بيشتو.

استمر الجنود في تفتيش المنطقة لمدة ساعة، وبعدها، عندما اطمأنوا إلى أنهم أخرجوا الجميع، أخذوا أسراهم وابتعدوا بهم. بقي مراد بلا حراك لساعة أخرى، قبل أن يقرر في النهاية أن الوضع آمن لينزلق من مكمنه ويتخذ طريق عودته إلى قلب الجبال. عندما سمعه العديد من رجاله يتحرك، خرجوا من مخابئهم، لم يتكلم أحد منهم، بل اصطفوا

خلفه بينما هم ينتقون طريقهم بين الأشجار بحذر. استطاع الألمان أن يجمعوا قرابة نصف عدد رجاله. سيصبح الآن إنزال دمار حقيقي بهم أكثر صعوبة، لكن ذلك لا يعني أن مراد على وشك التخلي عن النضال. فهو لا ينوي عمل ذلك حتى يجبر على التقاط نفسه الأخير.

مشوا سوية في صمت حتى وصلوا إلى مكان شعروا فيه بالأمان ليوقدوا ناراً ويخلدوا إلى النوم. "في يوم قريب" قال مراد بعد أن جلسوا جميعهم حول ألسنة اللهب. "سيدفع بيشتو ورجاله ثمن ما فعله". هزَّ الآخرون رؤوسهم موافقين بوجوه عابسة متجهمة.

فوجئ ألوشا لرؤية بيشتو جالساً مع الرائد شيبمان لدى دخوله الغرفة بصحبة عسكربي. كان المراسل قد أخبره بأن الاجتماع عاجل. كان عسكربي بصحبته في ذلك الوقت، فأسرع كلاهما لتلبية الاستدعاء، مصلحين من هندام زيهما أثناء الجري. لم يظهر بيشتو على هدوئه المعتاد، كما كان الرائد يبدو منفعلاً وغير مرتاح بشكل واضح.

انفجر بيشتو متلعثماً فور أن أغلق الباب خلفهما "الأمور تسير بطريقة سيئة في ستالينفراد" سأل ألوشا "سيئة بالنسبة لمن؟"

تدخل شيبمان مقاطعاً "بالنسبة لنا، لقد حدثت بعض الهزائم الرهيبة: هزائم غير متوقعة مطلقاً. لقد أخذ الأمر يبدو وكأننا سنضطر إلى الانسحاب".

"الانسحاب من أين؟" أراد ألوشا أن يعرف "تقصد من ستالينجراد؟".

أجاب شيبمان "ذلك استنتاج نتمسك به حالياً". أجاب شيبمان، ولاحظ ألوشا أن الرائد يبقي عينيه بعيداً عنهم، وكأنما هو محرج. "ربما نضطر إلى الانسحاب من مساحة أكبر من تلك. إن القيادة العليا تتحدث عن إعادة تجميع القوات وتوحيد موقفنا وتقويته". تقاطرت كلماته حتى تلاشت، وران على الآخرين الصمت عدة لحظات، كأنهم

يحاولون فهم أبعاد ما سمعوه لتوهم.

اختار بيشتو كلماته بحرص "هل تتخيل أن الجيش الألماني يمكن أن ينسحب من القفقاس؟".

أجاب الرائد شيبمان "أعتقد أن هذا ممكن. يحتمل أن ستالين سيرغب في استعادة السيطرة علي مصادر النفط كأولوية تالية له. ولكن بالطبع سيتحتم عليكم جميعاً الانسحاب معنا، لضمان سلامتك يا بيشتو، وكل رجالك".

تنفس ألوشا وعسكربي الصعداء، وأطلقا زفير الانفراج. إذا ذهبا مع الجيش الألماني، فسوف يضمنان مستقبلاً من نوع ما. أما إذا جرى التخلي عنهم تحت رحمة الجيش الأحمر، فهما يعرفان أنهما سيكونان في عداد الأموات خلال أيام من مغادرة الألمان.

قال بيشتو بحزم "من المبكر جداً التفكير في مثل هذه الأمور، يجب أن نستمر في الكفاح من أجل إعادة السلطة إلى الشعب". ثم نهض واقفاً "إذا سمحتم لي، لدي عمل ينبغي علي تأديته".

اندفع إلى خارج الغرفة، تاركاً ألوشا وعسكربي برفقة الرائد شيبمان. تحرك الرائد في كرسيه بانزعاج. "ستحسنون صنعاً بالتفكير في البقاء مع الجيش الألماني" قال في النهاية، ليكسر حدة الصمت "الأرجح أن الجيش الأحمر سيتعامل بمنتهى القسوة مع أي شخص متعاون إذا عاد إلى هنا".

قال ألوشا وهو يؤدي تحية مقتضبة "سوف ننتظر الأوامر، فربما تتحسن ظروف وحظوظ الجيش الألماني في الأسابيع القليلة القادمة".

غادر هو وعسكربي الغرفة وعادا إلى الخارج. توقفا لبضع لحظات لإشعال سيجارتين وسحب بضعة أنفاس من الدخان. شاهدا بيشتو يخاطب مجموعة من أعضاء فيلقه، يضرب الهواء بقبضته أثناء كلامه. فمشيا نحوه ليستمعا.

كان أحد الجنود يقول "إذا غادر الألمان، يجب أن نغادر معهم. لن نكون قادرين على التصدي للجيش الأحمر لوحدنا".

أجاب بيشتو "الألمان لن يغادروا" إذا فعلوا ذلك فسيكون الأمر مؤقتاً فقط. سوف يعودون خلال أسابيع. ربما سنضطر إلى الاختباء لفترة قصيرة، لكننا لن نضطر إلى التخلي عن كل مكاسبنا". طارداً بقوله مخاوف الرجل بضحكة خفيفة.

تبادل ألوشا وعسكربي النظرات، وقد فوجئ كلاهما من سماعه يتحدث بهذا الأسلوب، لأن كلاهما لم يكن واثقاً من التوافق معه. لم يعطِ شيبمان أياً منهما انطباعاً بأن الانسحاب سيكون مؤقتاً. يبدو أن بيشتو، الذي تكلم بشكل مكشوف عن رغبته في تسلم منصب رئاسة الجمهورية، لم يرغب في التخلي عن حلمه بهذه السهولة. ربما شعر أنه إذا غادر مرة مع الألمان، فلن يعود بوسعه أن يسترد المكانة التي فقدها.

لم يطل أمد وقوع الكارثة. إذ وصلت الأوامر بعد مجرد أسبوع. على الألمان أن ينسحبوا. اندلعت دوامة من النشاط المحموم. تذكر الجنود الذين اعتادوا على المعيشة السهلة نسبياً في القفقاس، بأنهم في الواقع موجودين في وسط حرب عالمية. توترت الأعصاب فرفعت وتيرة الانضباط. تردد الكثير من الجنود في تصديق أن الأمر يحدث، فهم سعداء في إقامتهم بين العائلات المحلية، ولم تعجبهم فكرة الرحيل عنهم للعودة إلى أسابيع من الزحف والقتال الذي اختبروه قبل الوصول إلى القفقاس.

أمضى ألوشا وعسكربي وقتهما مع أعضاء آخرين من الستاروستا، يبحثون في الخيارات ويراقبون الآلة الألمانية الحربية وهي تتهيأ استعداداً لمعارك جديدة. يعرفان أن السكان المحليين يرغبون في بقاء الألمان. فقد أمضيا الأشهر الخمسة الأخيرة وهما يسافران من قرية إلى أخرى، يطمئنان الجميع بأن حياتهم سوف تتحسن وتزدهر أوضاعهم بمساعدة

ألمانيا، والآن سيتركونهم تحت رحمة الجيش الأحمر مرة أخرى. شعر ألوشا أنهما يخونان الشعب الذي قدما له كل تلك الوعود. كل البعثات الزراعية والمستشارين الفنيين الذين قدموا من ألمانيا، يطلقون توقعات عظيمة حول ثراء وتطور المنطقة، بدت وعودهم في هذه الآونة فارغة وحمقاء. إذا عاد الروس، فسوف يدمرون كل ما تم بناؤه في الأشهر الماضية، وسيعاد السكان المحليين إلى نفس الحالة السابقة التي كانوا عليها قبل وصول الألمان، وربما حتى أسوأ لأن الشيوعيين سيرغبون حتماً في طلب مكافأة عن الإهانات التي عانوها وتعويضاً عن إمدادات النفط التي حرمهم الألمان منها، الأمر الذي أعاق مجهودهم الحربي.

راقب مراد ورجاله المجريات والاستعدادات من مخابئهم الجبلية باهتمام مماثل. جاءت الشائعات وذهبت، ثبت بعضها أنه لا أساس له، بينما جاءت الأخرى دقيقة. الشائعة التي جعلته يزأر فرحاً وموافقة هي تلك المتعلقة بأن الجيش الأحمر زاحف عائداً إلى المنطقة بقوة. يبدو أن أيامه التي عاش فيها رجل عصابة نصف هالك من الجوع، قد انقضت. استمر بيشتو في الإصرار لأتباعه على أن الذعر ليس ضرورياً. قال لهم "سنعبر الحدود إلى تركيا، وننتظر هناك أن يعود الألمان. يمكننا أن نشن حملة حرب عصابات ضد الجيش السوفييتي عبر الحدود، بحيث نلهيهم ونضعفهم حتى يصبح الألمان جاهزين لتسديد ضربتهم".

"سوف نتبعك إلى أي مكان تقودنا إليه" أكد له صوت من الحشد، وانضم البقية إليه.

"سنعود بقوة أكبر من أي وقت مضى!".

"بيشتو لمنصب الرئيس!".

ابتسم بيشتو بامتنان ولوّح لهم أن يصمتوا.

"سنغادر هذه الليلة" قال بعدما صمتوا. "جهزوا أنفسكم للرحلة".

قاد مراد رجاله في تلك الليلة خارجين للبحث عن الدم، فقد شجعته أنباء العودة الحتمية إلى السلطة، والعودة إلى معدة ممتلئة. كان الجواسيس قد أخبروهم بأن الجيش الألماني بكامله يبدو في حالة تفكك. فالمعنويات متدنية، ولا يبدو أن أحداً يعرف ما يجري. وهذا هو الوقت المثالي لتوجيه الضربة وزيادة انزعاجهم.

مع انطلاق بيشتو وجنوده نحو الجبال تحت جنح الظلام، وصلتهم همسات عن اقتراب الجيش الأحمر. فقاموا بتعديل خططهم لتتناسب مع كل معلومة جديدة، بغض النظر عن مدى مصداقيتها. كانت الممرات ضيقة ومليئة بالشجيرات، ما جعل تقدمهم بطيئاً. استمر بيشتو يحث رجاله على الإسراع طيلة الوقت، مصمماً على إيصالهم إلى السلامة.

كذلك، كان لمراد ومجموعته جواسيسهم في المنطقة. التقط مراد، الذي بدأ مرة أخرى يحسُّ بنفسه كنقيب عسكري رائحة طريدته، مع إدراكه بأن قوة الجيش الأحمر وجبروتهم لم تعد بعيدة خلفه. تذكر بيشتو بعين عقله شاباً بكل وضوح. فقد كان كلاهما بلشفياً متحمساً سوية، حريصين على إنصاف مظالم الماضي وتأسيس دولة شيوعية. لن يتفهم، ولن يغفر أبداً، الأسلوب الذي خانه فيه بيشتو وخان معتقداته. عندما كان يفكر كيف انهزم في نالتشك واضطر إلى العيش في الجبال، محتاجاً إلى الطعام ومحاطاً بالخطر على الدوام، أحسّ مراد بالكراهية تغلي في صدره. وللآن، هو يمتلك الأفضلية، فهو يعرف المنطقة جيداً ومعتاد على التحرك داخلها في العتمة. كان مراد قد أرسل ثلاثة رجال لاستطلاع تحركات بيشتو وملاحقته. فقد افترض أن بيشتو سيتبع الجيش الألماني في خروجه، لم يشأ أن يترك عدوه اللدود يتسلل خارجا بدون أن يعاقبه. لم يطل الوقت قبل أن يكتشف الممر الذي كان بيشتو يسلكه. عاد إليه أحد جواسيسه ليخبره أن بيشتو في الواقع يتجه إلى الجنوب الغربي عبر الجبال، متوجهاً إلى موانئ البحر الأسود. يعرف مراد الممرات الجبلية التي سيتمين على المجموعة الهاربة أن تسلكها

عبر الجبال. قاد رجاله بلا توقف إلى مكان محدد أمام بيشتو، وأوصل رجاله بسرعة ومجهود كبيرين عند مقدمة العدو، فاستلقوا وكمنوا، ينتظرون بيشتو الذي كان هو وأتباعه عديمو الخبرة يتعثرون ويسقطون في التعرجات المحيطة بهم.

عندما بدأت البنادق تطلق نيرانها، لم يعرف بيشتو ولا جنوده من أي اتجاه تجيء الطلقات. فقد بدت وكأنها آتية من كل ناحية حولهم. حاولوا أن يردوا على النار ولكن لم تكن لديهم فكرة عمن يطلقون النار عليه، أو عن مكانه. وبينما يسقطون فوق بعضهم في محاولاتهم الاحتماء، خرج رجال مراد من مكامنهم للمرة الأولى منذ هروبهم نحو الجبال، وانقضوا على خصومهم بعنف رهيب، مصممين على الانتقام لأنفسهم عن شهور البرد والجوع التي أجبروا على تحمل معاناتها، والمهانة جراء إجبارهم على العيش كخارجين على القانون.

أمرهم مراد "اقبضوا على بيشتو حياً! أنا أريده حياً".

سمع بيشتو الصوت في العتمة وعرف من يعود إليه. تجمد الدم في عروقه من التفكير في الضغينة التي لا بد وأن هذا الرجل يحملها ضده. ألقى سلاحه واندفع يصارع الشجيرات المجاورة للممر، بينما طفقت أغصانها تضربه في وجهه وعينيه، تمزق يديه في اندفاعاته إلى الأمام، محاولاً الفرار. فقد أدرك أنه لم يعد بوسعه أن يفعل شيئاً لمساعدة أي من أتباعه وهم ساقطون على الأرض بين ميت ومشرف على الموت خلفه. أغرق صوت تكسر الأغصان تحت قدميه، وهدير تنفسه داخل رأسه، جميع الأصوات الأخرى من حوله. أراد أن يتوقف ويصغي ويحاول التعرف على مواقع أعدائه والأمكنة التي يحتمل أن يضربوه منها، لكنه أدرك أنه لن يتمكن، بل هو مضطر إلى الاستمرار في الجري والاعتماد على الحظ وستار الظلام. بدأت ساقاه تتعبان وأصبح التقدم وسط الشجيرات أشد صعوبة. صار الوضع أشبه بالكابوس، قدماه تتثاقلان مع كل خطوة يخطوها، بينما تمسك الشجيرات والنباتات الزاحفة

بقدميه، لتعيق تقدمه. سمع صوتاً قريباً خلفه فبذل اندفاعة إضافية من السرعة، لكن شيئاً ما علق بقدمه فاندفع إلى الأمام، وسقط على صدره، طارداً الهواء من رئتيه. لم يشعر بشيء أكثر من الدوار لخمس ثوانٍ، ثم أحسّ بالفولاذ البارد الصلب لماسورة بندقية محشوراً في مؤخرة رقبته.

قال مراد "انهض واقفاً بمنتهى البطء". وهو يلهث بنفس قوة لهاث بيشتو "لا تفكر أنني سأتردد في قتلك، لأنني لن أتردد".

لم يشكك بيشتو في الأمر. فقد تأكد كذلك من أنه إذا أخذه مراد أسيراً، فسوف يقتل، بعد تعذيبه بأكثر الاحتمالات. قرر في جزء من الثانية أن يموت هناك وفي اللحظة نفسها، لينهي حياته بشكل نظيف واضح. اندفع نحو الحرية ثم انسدل السواد على كل شيء.

بعد أن ضرب بيشتو وأفقده الوعي، نادى مراد على رجاله فرفعوه، مثل وعل عند نهاية رحلة صيد، فوق أكتافهم وحملوه إلى فسحة أقاموا فيها مخيماً مؤقتاً وأشعلوا ناراً. شعروا أنهم قد عملوا ما يكفي لليلة واحدة، وباتوا واثقين من أن العدو لديه ما يكفيه من المتاعب، بحيث أنه لن يأتي للبحث عنهم. أحسوا بالثقة.

عندما استرد بيشتو وعيه، ألفى نفسه مقيداً ومستنداً إلى شجرة. أضيء المنظر أمامه بألسنة لهب من نار صغيرة، والدخان يجعل الهواء ثقيلاً بحيث يلسع مؤخرة أنفه وحلقه. تشمم رائحة الدماء وتذوق طعمها في المشهد. رأى مراد في نفس اللحظة التي لاحظ فيها مراد أنه قد عاد إلى وعيه.

"حسناً، حسناً" قال مراد وهو ينهض ويمشي إليه "وهكذا، فقد قررت أن تستيقظ" ركل بيشتو بوحشية في ردفه، فشعر بيشتو بالمفصل يتحرك تحت قوة الضربة. "في المرة الأخيرة التي التقينا فيها، كنا نقاتل في الجانب نفسه. ذلك على الأقل هو ما كنت أظنه، مع أنه

يبدو الآن أنني كنت مخطئاً طيلة الوقت".

قال بيشتو "لم يكن هناك أي داعٍ لأي قتال" بلسان ثقيل "كنا فقط بحاجة لأن نعرف ما هو الأفضل لشعب الجمهورية. كنا بحاجة للعثور على الطريق التي ستعني أقل قدر من إراقة الدماء". قال مراد، غاضباً "هل تظن أنه لم تكن هناك أية إراقة للدماء؟ لقد دأب الألمان على سحب أبناء شعبنا إلى الأحراش وذبحهم هناك بالآلاف" ووجه ركلة مؤلمة ثانية له.

اعترض بيشتو "ذلك ليس صحيحاً" وهو يتلوى من الألم في ردفه.

استمر مراد "ومعظم هؤلاء الناس، تم تسليمهم إلى الألمان من قبلك".

"لم أعطهم إلا أسماء عملاء NKVD وجواسيسهم، الناس الذين عرف عنهم اقتراف جرائم ضد الشعب. لقد حصلوا على محاكمات عادلة ولم يعدم سوى الذين ثبتت إدانتهم. لقد تم كل شيء حسب معاهدات الحروب. تحدث إلى الشعب يا مراد" توسل إليه "إسألهم كيف كانت معاملة الألمان لهم. إسألهم إن كانوا يريدون العودة إلى الحكم البلشفي".

زمجر مراد "اقتلوه"، واستدار عائداً إلى نار المخيم، أحسّ بيشتو بحبل يشد على حلقه. توفي خلال ثوانٍ قليلة. لكن العقاب الرهيب لشعب بيشتو لن ينتهي بوفاته. لأن ستالين سينفذ على الأمة البلقارية انتقاماً أشد هولاً بكثير.

الفصل الثاني عشر

كان ألبرت ما يزال مراهقاً عند نهاية العام ١٩٤٢، حينما أصدرت قيادة الفرقة الحادية عشرة من الجيش الأحمر أوامر بتدمير ٥٠٠ قرية في وادي تشيريك وقتل جميع المدنيين الذين تم العثور عليهم هناك. لقد أمضى ألبرت كل حياته في قرية بوادي تشيريك تدعى بيشكيك، وهي قرية بلقارية جبلية ذات مناظر أخاذة. ارتحل إلى نالتشك، تماماً كما فعل ألوشا، في محاولة للعثور على دور لنفسه في مستقبل أمته، ليحاول أن يستكشف ما يحدث حول مسقط راسه، واين يجب أن تكمن ولاءاته.

أدرك، كما فعل ألوشا أن الألمان يعرضون مستقبلاً أكثر ثباتاً وازدهاراً لعائلته مما لدى البلاشفة. إنضم إلى الجيش الألماني بحماس عندما وصل الألمان إلى نالتشك، وشعر بالفخر باللباس الرسمي الذي أعطوه له. سمع أن الجيش الألماني يتلقى الهزائم في ستالينغراد، فركب عائداً إلى القرية ليودع عائلته، وقد علم أنه سيضطر إلى الانسحاب مع الألمان إذا أراد أن يحافظ على حياته.

لم يكن يرتدي زيه العسكري ذلك اليوم، فتمكن من السفر على حصانه بشكل مكشوف، مع أن أعصابه وصلت إلى حافة الانهيار، وأحسّ أنه معرض لانكشاف أمره في كل لحظة، والهجوم عليه. ظهرت فرق الجيش الأحمر في كل مكان. أبقى عينيه موجهتين إلى الأمام واستمر في الركوب، ببطء وثبات، وهو يتخيل كم سيكون لقاؤه بعائلته عاطفياً، حيث سترجوه والدته أن لا يذهب، ويشرح لها والده، بطريقته

الصبورة، أنه إذا لم يغادر ألبرت البلاد، فالمرجح أنه يتم اعتقاله وإعدامه.

مع اقترابه من بيشكيك، أصبح بمقدوره أن يشم رائحة الدخان. ظن في البداية أنها مجرد الرائحة المريحة للنار المشتعلة في مواقد البيوت التي لعب بينها في طفولته. لكنه أدرك لدى اقترابه أكثر أن الدخان أكثر مما يجب، فقد كانت كتله تهب عبر الريف في سحابات سوداء هائلة. مرَّ بمجموعات من الجنود الروس، يسيرون في الاتجاه المعاكس، كانوا مرحين واصواتهم عالية. شتمه بعضهم بصوت عالٍ، فلوَّح لهم بإشارة غير ملزمة، فهو لا يريد أن يهينهم أو يجري معهم أيَّ اتصال، بدأ يحس بوجيب قلبه يتعالى مع اقترابه من القرية وأدرك أن مصدر تصاعد الدخان هو هناك. لدى صعوده التلة الأخيرة، تراءى لعينيه مشهد دمار شامل. كان أواخر الجنود الروس يتهيأون للمغادرة، يحمِّلون جيادهم بكل ما يمكنهم نهبه من القرية المدمَّرة. لم يترك شيء بغير احتراق. باتت كل البيوت بلا سقوف، وملأت جثث المذبوحين كل الأمكنة. مع مغادرة أغلبية الجنود، نزل على القرية سكون رهيب ليستقر على المشهد. لم يقل ألبرت أي شيء للجنود المتخلفين في المؤخرة وهم يمرون به، مثقلين بالأطعمة وأكياس الممتلكات المسروقة. فقد أصيب بصدمة لم يعد بعدها قادراً على مجرد التفكير بما يحسه.

اتخذ طريقه إلى البيت الذي عاشت فيه عائلته لأجيال يفوق عددها ما يذكره الناس. ترجل عن حصانه ومشى على مهل، وقد أدرك مسبقاً أن الوقت قد فات على إمكانية مساعدة أي شخص. رقد والداه كلاهما خارج البيت، وقد ألقي والده عبر جثة أمه، بعد أن حاول أن يحميها من السيف الذي أردى كليهما على ما يبدو. بدا وكأن الشخص الذي قتلهما، استمر في التقطيع، بعد موتهما بوقت طويل، يحززهما كاللحم على منضدة جزار.

امتلأت عينا ألبرت بالدموع، وأطلق أنَّة خفيضة. خارت ساقاه

فسقط على التراب الدافئ الغني لقريته، يبكي والديه بحزن دفين. شعر أنه كان يجب أن يتواجد ليدافع عنهما، لكنه أدرك أن ذلك الجهد سيكون ضائعاً سدى. فهو سيصبح مجرد جثة أخرى بين الحطام. لم يحفل بأي من الروس المغادرين، ولم يعره أحد منهم أي اهتمام. فقد ظهر وكأن شهوتهم إلى الدماء قد أشبعت. وهم الآن مهتمون بنهب أي شيء يستطيعونه، والمغادرة. ربما رأوا كم هو ألبرت فتي ولائق جسدياً، وربما يقاوم بضراوة، فلماذا يخاطرون بالإصابة بجراح لمجرد قتل شخص آخر؟

مع اختفائهم من فوق قمة التلة، عثر ألبرت لنفسه على مجرفة، وبدأ يحفر قبراً لعائلته في البقعة الواقعة خلف البيت. سوف يبقى هناك حتى ينتهي من دفن جميع الجثث، أصدقاء وأقارب طفولته، ثم يركب ويلحق بالجيش الألماني ليحاول أن يلتحق بلوائه.

لكن ستالين ما كان ليقتنع بالعقوبات العشوائية للأمة البلقارية. فقد دفعوا ثمناً باهظاً كمجموعة عرقية. وسيتم، يوم الثامن من آذار، ١٩٤٤، ترحيلهم جميعاً خارج القفقاس إلى صحاري آسيا الوسطى، كعقاب جماعي على تعاونهم مع الألمان.

أمضى ألبرت أسبوعاً بصفته الوحيد الباقي على قيد الحياة في قرية بيشكيك البلقارية، يحفر القبور لعائلته وأصدقائه. كل جثة يدفنها تروي قصة رعب مختلفة عن التشويه، الاغتصاب والمعاناة. كانت وجوههم ملوية في تعابير عن الألم والخوف الذي جعل التعرف على بعضهم في منتهى الصعوبة، رغم أنهم نفس الناس الذين سكنوا ذكريات طفولته. لكنه أرقدهم كلهم بأكثر قدر ممكن من الكرامة، بالنسبة لأناس أكرهوا على الموت بذلك الكم القليل من الاحترام.

عندما يأخذ منه الإرهاق مأخذه، ولم يعد بإمكانه العمل في الأمسيات، كان يزحف داخل البيت الأقل تضرراً وينام حتى الفجر، حيث يبدأ عمله مرة أخرى. توقع في كل يوم أن تتم مقاطعته من قبل

المزيد من الجنود الشيوعيين، لكن لم يأتِ أحد. لا بد وأنهم شعروا بأنهم أخذوا كل ما هو موجود من تلك النَاحية وتحركوا نحو مغانم جديدة.

لم يتطلب الأطفال وقتاً طويلاً في الدفن، فوضعهم في صف حزين واحد خاص بهم. بعد مرور أسبوع، كانت هناك عدة صفوف من أكوام التراب المحفورة حديثاً، مثل أحواض الزهور في حديقة متنزه ما، منظم إلى درجة خاصة، ينتظر وصول موسم الفراس. لم تتوفر لألبرت الطاقة والمقدرة لعمل حجارة شواهد لكل واحد من القبور، لكنه كان على ثقة من أن الله سبحانه وتعالى سيعتني بهم. إذ لا بد أنه قد رأى كيف تعذبوا قبل وفاتهم. هو ملزم بالإشفاق عليهم، رغم أن قتلتهم لم يشفقوا عليهم.

وجد ألبرت الراحة والطمأنينة في آيات القرآن الكريم التي تذكرها ليتلوها بعد كل عملية دفن ويصلي بكل جدية لراحة أنفسهم.

بعد أن انتهى من دفن آخر جثة، امتطى حصانه وركب مبتعداً بدون أن يلقي بنظرة واحدة إلى الوراء. عرف أنه لم يرغب أبداً في العودة إلى بيشكيك مرة أخرى. حتى لو قدر لها أن تصبح قرية مزدهرة مرة أخرى، فهو لن يرغب في أي شيء يذكره بالأيام القليلة الماضية أو يجعله يتذكر طفولته هناك بين الناس الذين أبيدوا بكل تلك القسوة. الاحتمالات هي أن آخر تلك البيوت المدمرة سيبقى واقفاً كنصب تذكاري خرب لأناس عاشوا هناك في يوم من الأيام، وأنه لا أحد آخر سيرغب في تنشئة عائلته في مكان ملعون كهذا. سيكتب الشيوعيون لاحقاً في سجلات الأرشيف المستقبلية، أن الألمان ذبحوا كل هؤلاء القرويين انتقاماً أثناء انسحابهم من القفقاس.

ركب بحدة وسرعة لثلاثة ايام، ولم يتدخل فيه أحد. شاهد العديد من الدوريات الشيوعية عن بعد، لكنهم لم يسببوا له اية متاعب. فقد كانت هناك عدة لقى سهلة متاحة لهم، بحيث لم يرغبوا في صرف

أية طاقة في ملاحقة شاب يافع بلياقة عالية، يسافر مستعجلاً. فلربما يكون واحداً منهم بكل الأحوال، وساعتها سيقعون في مشاكل لتدخلهم في مساره. راقبوه يمر بهم ثم عادوا إلى نهب القرى الممتلئة بأناس لا يستطيعون الهرب أو الدفاع عن أنفسهم. عرف ألبرت أن الجيش الألماني يتراجع أمامه، لكنه لم يكن متأكداً من أنه سيتمكن من الوصول إليه في الوقت الملائم.

إذا استطاع الشيوعيون أن ينظموا أنفسهم بالسرعة الكافية، فسوف بيتم إيقافه على الحدود في مكان ما، وسيجبر على القتال مع الجيش الأحمر، على افتراض أن أحداً لن يستنتج سلفاً أنه عضو في الجيش الألماني، ويطلق النار عليه لكونه جاسوساً.

ظل يتدرب أثناء سفره على الخطب التي يمكنه استعمالها في الظروف المختلفة، وينوع قصص الحياة لنفسه ليشرح كيف انتهى به الأمر مسافراً لوحده وبدون زي رسمي.

أصبح وقوعه في المشاكل في نهاية المطاف أمراً لا مفر منه لطول سفره، طارداً حصانه مثل العفريت، وهذا ما حدث. عندما دار حول زاوية في طريق ضيقة، وجد نفسه فجأة في وسط دورية شيوعية من الأنصار، مسلحة تسليحاً كاملاً، مؤلفة من ستة رجال، بدا عليهم التحفز والاستعداد للمشاكل، يقظين وجاهزين لأي طارئ. بدا عليهم الذعر من الضجة التي أثارها حينما وقف حصانه على قائمتيه الخلفيتين وحاول هو تهدئته، أكثر من حضوره الفعلي. أمسك جنديان بسروج الحصان بقوة وسحبا رأسه إلى أسفل، فأجبراه على الوقوف ساكناً، رغم أن عينيه ظلتا تدوران في محجريهما والزبد يخرج من شفتيه. أشار جندي آخر ببندقيته بصمت إلى ألبرت ليترجل. فعل كما أشير عليه. وعقله يجاهد لاختلاق قصة يمكن أن تقنعهم بأنه في صفهم. لكن اياً منهم لم يطرح عليه أية اسئلة. بل أشاروا إليه ببساطة ان يبقى هادئاً ويمشي معهم، بعد أن ناولوه سروج حصانه ليقوده.

قرر أن يسايرهم. فقد افترضوا، على ما يبدو، أنه في صفهم. حاول أن يظهر الثقة والارتياح بصحبتهم. فهم شلة تبدو عليها الخشونة، وعلائم الجوع ظاهرة في وجوههم القاسية، المجعدة. لم يكن هناك سبب لتخييب ظنونهم.

تبعهم وهم يخرجون عن الطريق ويتخذون سبيلهم عبر بعض الشجيرات باتجاه حافة تلة. لاحظ أحد أقرب الجنود إليه أنه غير مسلح فناوله مسدساً بدون أن ينطق بكلمة. يبدو أنهم كانوا على وشك القيام بهجوم على شخص ما، فأرادوا منه أن يكون جزءاً منه. هزَّ رأسه علامة على فهم ما يطلبونه منهم وتلقى بضعة ابتسامات من أسنان داكنة كاستجابة.

كان هؤلاء الرجال يستمتعون بما يفعلونه. أحسُّوا باقترابهم من عملية قتل، ووهبهم هذا الإحساس شعوراً بالرضى عن أنفسهم.

أثناء تسلقهم التلة، استرقوا النظر من خلال الشجيرات، فرأوا ضابطين ألمانيين يستريحان تحت شجرة. توقف الروس للحظة، فأتيحت لألبرت بضع ثوانٍ استطاع من خلالها أن يتبين مدى صغر سن الألمانيين، بحيث يمكنُ أن يكونا بنفس سنه. أقعى الأنصار حوله وبدأوا يجهزون أنفسهم لفتح النار على هذين الرجلين. لم تعد لديه سوى لحظات قليلة يقرر فيها أي جانب سيضع نفسه فيه. إذا ساعد الروس على قتل هذين الرجلين، فسوف يتعين عليه أن يبقى معهم للمستقبل المنظور، يقاتل إلى جانب رجال اغتالوا عائلته. إذا لم يرد لذلك أن يحدث، فهو مجبر على التفكير بشيء ما، بسرعة. تفقد المسدس بصمت. وحده محشواً بالرصاص.

رفع قائد دورية الأنصار بندقيته نحو عينه وصوبها على ما يبدو نحو أحد الرجلين. مصَّ خديه إلى الداخل لشدة التركيز. رفع الآخرون بنادقهم مقلدينه. كانوا يركزون على ضحيتهم جميعاً، بحيث تجاهلوه كلياً. رفع ألبرت مسدسه وصوبه نحو رأس أحد الألمانيين. لفت انتباهه

تنفسه المضطرب وهو يراقب الشاب يتثاءب ويتمطى وكأنه يهم بالنهوض، أدار ذراعه وأطلق النار، من مسافة قريبة جداً، على رأس النصير المقرفص إلى جانبه.

حضرت إلى ذهنه صور أفراد عائلته في ثانية قصيرة، وتخيل أن هؤلاء الرجال هم نفسهم الذين ذبحوهم بتلك الطريقة الخالية من الرحمة. أصابت الرصاصة هدفها وبدت جمجمة الروسي وكأنها تنفجر من الارتطام. تسبب انفجار الطلقة في اضطراب الروس الآخرين لبضع ثوانٍ وهم يحاولون أن يفهموا ما حدث ومن اين جاءت تلك الضجة وكل تلك الدماء. في تلك الثواني القليلة، أطلق ألبرت الرصاص على اثنين آخرين وألقى بنفسه إلى خارج الشجيرات، متدحرجاً، المرة تلو الأخرى، نزولاً في التلة باتجاه الألمانيين.

قفز كل من ألوشا وعسكربي، وقد أجفلهما إطلاق النار، واقفين على قدميهما وركضا خلف الأشجار التي ظللتهما بأمانٍ قبل مجرد ثواني قليلة. أمكنهما مشاهدة هذا الجسم يتدحرج نازلاً التلة باتجاههما، ولم تكن لديهما أية فكرة عما إذا كان صاحبه حياً أم ميتاً، أو إذا كان صديقاً أم عدواً. سدد كلاهما بندقيتيهما على الجسم المتدحرج وأبقيا عينيهما على الشجيرات التي خرج منها. بدأ الجسم يصرخ حتى قبل أن ينهي التدحرج. "إنه كمين"، صرخ بالألمانية "هناك ثلاثة آخرين منهم".

توقف بعدها ألبرت عن الدحرجة، نهض واقفاً على قدميه ثم ركض نحو الأشجار حيث اختبأ ألوشا وعسكربي، وهو يطلق النار إلى الخلف باتجاه الشجيرات التي هرب منها لتوه. بعد أن قرر ألوشا وعسكربي أن هذا الرجل هو في صفهم، سمحا له أن يدخل خلف الأشجار، واستمر ثلاثتهم في إطلاق النار على الشجيرات في الأعلى. بعد فترة توقف إطلاق النار المضاد، وأعاد سكون الريف السيطرة على المشهد مرة أخرى. أمكنهم سماع صوت حوافر تعدو مبتعدة عن بعد.

"سيكون ذلك حصاني". قال ألبرت "لقد ذهب واحد منهم على الأقل للعثور على النجدة".

قال ألوشا "في هذه الحالة، يجدر بك أن تركب معنا. يجب أن ننصرف بأسرع ما يمكن، قبل أن يعودوا".

ذهبوا إلى جواديهما اللذين كانا ينخران ويضربان الأرض بحوافرهما بعصبية حيث ربطهما ألوشا وعسكربي. قفز ألوشا إلى السرج، ومد ذراعه نحو ألبرت ليردفه. بينما تسلق عسكربي إلى ظهر الحصان الآخر. طردوا الحصانين مبتعدين بدون أية كلمة أخرى. سيكون هناك متسع من الوقت للتعاريف والإيضاحات بعد أن يعودوا إلى الأمان في المعسكر الذي يشكل قاعدة ألوشا وعسكربي على بعد بضعة كيلو مترات.

كان المعسكر يمور بالنشاط عند دخولهم عدواً. المعسكر مختفي في موقع مؤقت إلى الشمال من نهر الكوبان بمحاذاة الطريق إلى شبه جزيرة القرم وأوكرانيا.

ساد جو من انعدام الاستقرار واليقين في الجو. لم يكن الجيش الألماني سعيداً جراء إجباره على الانسحاب من القفقاس، لكن الرسائل القادمة نزولاً من القيادة العليا ظلت على تفاؤلها. ألمانيا ما زالت تمتلك جميع التوقعات لكسب الحرب، حتى لو أن الألمان أخطأوا الحكم عندما أداروا قوتهم باتجاه روسيا وبددوا موارد لا نهاية لها في بلد أكثر اتساعاً وصلابة من أن يتم ابتلاعه بضربة واحدة من قبل أي معتد.

كان كريم جالساً في خيمته مع عدد من زملائه الضباط عندما أدخل ألوشا وعسكربي ألبرت. بحلول هذا الوقت، اصبح كريم القائد المعترف به لجميع الشراكسة الذين انضموا إلى الجيش الألماني، وأصبح معروفاً أنه يحظى بالثقة الكاملة للقيادة العليا. منذ أن وصلته أنباء مقتل بيشتو في الجبال، وضع كلاً من ألوشا وعسكربي تحت جناحيه.

فقد رأى أنهما شابين يتمتعان بشخصيتين وشجاعة مؤثرة، وقد توصل إلى الثقة بهما.

أصغى بصمت وهما يصفان كيف ألقى ألبرت بنفسه في حياتهما من المجهول، فأنقذهما من موت مفاجئ ومحقق. عندما أنهيا حكايتهما التي تبهر الأنفاس، بقي وجهه بلا تعبير.

سأل في نهاية المطاف "اي نوع من الجنود أنتما حتى تسمحا لحذركما أن يتهاوى إلى تلك الدرجة؟ لقد كنتما جالسين: تسترخيان في الأحراش التي تعرفون أنها تحوي دوريات عدوة. هل أنتما واثقان من أنكما خالدان؟".

فوجئ كل من ألوشا وعسكربي. فقد توقعا أن تتم تهنئتهما على الطريقة التي طردا بها الدورية الروسية بمساعدة صديقهما الجديد، وليس أن يجري تقريعهما لكونهما مهملين وطائشين.

"أنتما لم تعودا صبيين يمكنهما ممارسة ألعاب جرأة حمقاء". استمر كريم في الصياح "لماذا كنتما في الخارج هناك بكل الأحوال؟ هل أنتما جنديان مدربان أم طفلين لا يتحملان المسؤولية؟" وقف الشابان وقد نكسا رأسيهما، وأحسا بلونهما يميل إلى الإحمرار. فقد كان تقريعهما بهذه الطريقة أمام الشاب الذي أملا في التأثير عليه بسهولة وصولهما إلى قائدهما. تراجعا خارجين من الخيمة بمجرد أن منحهما كريم الإذن بذلك.

قال ألبرت بابتسامة كئيبة "يبدو أنني ربما تسببت في إيقاعكما بمشكلة. اعتذاراتي".

قال عسكربي "بدونك ما كنا بقينا حيين حتى نقع في مشكلة. ليس لديك ما تعتذر عنه".

"هلم بنا" قال ألوشا "لنذهب ونعثر لك على زي وشيء تأكله".

بعد انقضاء ساعة، كان ثلاثتهم يرتدون أزياء ألمانية رسمية، وجالسين في خيمة المقصف، . في الواقع، كان ألبرت هو الذي يتحدث والآخران يصغيان في صمت مشوب بالاحترام. أخبرهما ألبرت عن تجاربه في قرية عائلته بيشكيك، وقد جمدت عيناه على كوب الشاي الذي برد بين يديه. كان كل من ألوشا وعسكربي يتخيلان مناظر مشابهة في قريتيهما، ويتساءلان كم من أقاربهما وأصدقائهما منذ الطفولة قد تمكنوا من النجاة من انتقام الجيش الأحمر أثناء اندفاعه إلى الجنوب في مطارداته للألمان.

اشتاقا في قلبيهما إلى أن يتمكنا من الركوب عائدين إلى القفقاس كجزء من جيش جديد منتصر، يدفع بالعدو ليعيده إلى موسكو، وأن ينزلوا انتقاماً آخر بقتلة عائلاتهم. لكن في الواقع، أدركوا أن الجيش الألماني ما يزال يجبر على الانسحاب من إقليم الكوبان باتجاه شبه جزيرة القرم وأوكرانيا، وفي نهاية المطاف، إلى النمسا.

الفصل الثالث عشر

وصلت إلى لندن بعد مغادرتي روما بأسبوعين كاملين، ووجدت مكتب الكويكر في العنوان الذي أعطاني إياه مدرس الموسيقى، المستر جاندر. في البداية، بدت عليهم الدهشة لأنهم واجهوا تلميذاً شاباً من الأراضي المقدسة. ولكن بعد أن تعودوا على الفكرة، بدوا سعداء لأنني سافرت كل تلك الطريق لأعثر عليهم، وبعد أن قرأوا كتاب التقديم من المستر جاندر، باتوا سعداء بتقديم المساعدة لي. أنزلت في بيت للكويكر حيث أقمت يومين وليلتين، وفي اليوم الثالث أرسلوني مع مجموعة من الطلاب الأمريكان المسافرين إلى معسكر عمل في أدنبره، باسكتلندا. قابلت في هذا الوقت وصادقت شخصيتين رائعتين هما بيتر إرسكين والجميلة غايل وايس. سأكتشف لاحقاً، بعد أن أغرمت بغايل، إنها يهودية! كانت هذه الصدمة الأولى بين عدة صدمات اجتماعية سأمر بها حول أناس وديانات مختلفين، والصراعات الجدية بين تنشئتي الأردنية، ومفاهيمي الشركسية التقليدية.

جاءت الرحلة إلى الأراضي المرتفعة في حافلتين مستأجرتين ممتعة جداً. اثبت المستر باول، المدرس – القائد للطلاب الأمريكان، أنه رجل كريم ولم يألُ جهداً كي يشعرني بأنني موضع ترحيب في مجموعته. وصلنا إلى نزل للمسنين في واحد من أفقر أحياء أدنبره، كان قد تعرض لدمار شديد أثناء غارات الحرب.

كانت وظيفتنا هي إعادة بناء بعض أقسامه وإعادة تبليط الساحة بحجارة الرصف. تواجد طلاب آخرون من عدة بلدان أوروبية، واصبحنا

جميعاً أصدقاء، نتشارك في العمل، نتقاسم الطعام ومباهج المغامرات الشبابية. أعدت الأحياء الإسكتلندية المجاورة برامج رقص وأنشطة اجتماعية لتسليتنا خلال عطلات نهايات الأسبوع، وتعرفنا على العديد من الصبايا والشباب الأسكتلنديين الذين عرفونا على نواحي مختلفة من ثقافتهم. لكن التجربة الأكثر التصاقاً بالذاكرة والأشد دهشة بالنسبة لي، لن يكون لها أية علاقة بمعسكر العمل أو الطلاب الذين قابلتهم.

بعد ظهر أحد أيام السبت، وبينما أنا أسير نازلاً في شارع الأميرة بأدنبرة، استكشف أسراره، تناهى إلى سمعي عزف موسيقى مألوفة على القرب. تابعت الصوت إلى المتنزه، فوجدت موسيقى الجيش الأردني تعزف موسيقى أردنية بكامل ملابسها الرسمية الاحتفالية لحشد من السكان المحليين.

أصابني الذهول لدقائق عديدة ولم أعرف ماذا أفعل. في النهاية، استجمعت فلول شجاعتي وتقدمت نحو أحد أعضاء الفرقة، شركسي مثلي اسمه محمود شابسوغ، تعرفت عليه، ثم قدمت نفسي. أظن أنه أصيب بصدمة أكبر من صدمتي. كان بالطبع يعرف والدي ولم يستطع أن يفهم ما أفعله على هذا البعد عن بيتي وبلدي. أخبرني أن الفرقة تقوم بجولة خاصة في المملكة المتحدة، وأنها ستعود إلى الأردن خلال أيام، لذلك توسلت إليه بأن لا يذكر لقاءنا لأي شخص في عمان. اضطررت إلى إخباره جميع أسراري، خاصة ما يتعلق منها بأن عائلتي تعتقد أنني مع بعض الكشافة في سوريا! وعدني بعدم إخبار أحد إذا وعدته بزيارته لدى عودتي. لدى افتراقنا، ظل يهز رأسه تعجباً، ويقول أنه لن يقدم على مثل هذه الرحلة الحافلة بالمغامرة إلا شركسي ماكر عابث مثلي.

قال ونحن نتبادل تحيات الوداع "أنت صغير جداً على القيام بمثل هذا!".

في المخيم، قابلت العديد من الشباب والشابات الرائعين. سيصبح بعضهم مقربين جداً وأصدقاء لسنوات طويلة. جاءوا من جميع أنحاء أوروبا: من ألمانيا، والدول الإسكندنافية، إيطاليا، وفرنسا، وبلجيكا والولايات المتحدة. كنت الوحيد القادم من الشرق الأوسط بينهم، انتهت إقامتي في اسكتلندة بعد شهرين رائعين، وتعين علي أن أبدأ برحلة عودتي إلى الوطن. لم يكن قد بقي في جيبي سوى عشرة دولارات، واعتقدت أنني سأتمكن من الوصول بها إلى مرسيليا، في جنوب فرنسا. من المؤكد أنني سأحصل على إمكانية السفر كراكب على السطح في سفينة متجهة إلى بيروت. فقد أصبحت بحلول هذا الوقت خبيراً بكل الأساليب ولم يعد لدي قلق على المستقبل. فقد أصبحت، في رايي المتواضع، وفي سن الرابعة عشرة، رحالة مخضرماً.

لم تكن رحلة العودة مريحة أو سهلة كما اعتقدت. تمكنت، بعد عشرة أيام من الصعوبات والجوع، أن اصل إلى باريس، مفلساً تماماً ومعوزاً. قضيت الليلة في غابة بولونيا وبدأت البحث عن السفارة الأردنية منذ الصباح الباكر لليوم التالي. فقد كنت بحاجة إلى المساعدة، ولم أستطع أن أفكر بأي شخص آخر أتجه إليه. في نهاية المطاف، وبعد ساعات طويلة من التجوال والسؤال عن الاتجاهات. وصلت إلى باب السفارة في شارع موريس بار. ألقى الحارس الواقف على الباب نظرة واحدة علي، ثم حاول أن يلقي بي خارجاً على الفور. لا بد وأن منظري كان شنيعاً! لكن عندما تحدثت إليه بالعربية، مستخدماً لهجة آمرة، شبيهة بلهجة والدي، قرر أن لا يطردني على الفور، بل أمرني بالجلوس عند المدخل، بينما يقوم هو باستدعاء مسؤول. لم يكن موقف المسؤول الأردني القصير القامة، السمين الأصلع، الذي جاء، أفضل بكثير تجاهي. أصريت على مقابلة القنصل، وبعد تبادل بعض الشتائم في الاتجاهين، أخبرته أنني شركسي. جاءت ردة فعله مفاجئة وملفتة للاهتمام.

قال مبتسماً "لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟".

أدخلني على الفور إلى مكتب القنصل. فوجئت تماماً وسررت غاية السرور، فالقنصل هو زهير المفتي، شركسي بدوره، وصديق لوالدي. نظر إليّ متعجباً، إذ لم يتمكن من التعرف عليّ. قدمت نفسي "أنا محي الدين، ابن عزت حسن".

قال "ليس ذلك ممكناً، كيف؟ ومن أين أتيت؟ لم أنت في هذه الحالة؟ ما الذي تفعله في باريس؟".

انطلقت في حكاية طويلة عن مغامراتي، فأخبرته عن معسكرات العمل في اسكتلندا، وبعدها كذبت.

"لقد سرقت مني كل نقودي قبل بضعة أيام. أنا في طريقي إلى الوطن، ذلك هو سبب وجودي هنا".

سألني وهو يتفحصني بعينيه مستفسراً "كم تحتاج؟".

"أنا بحاجة إلى خمسين دولاراً".

"لكن ذلك لا يكفي لشراء تذكرة باخرة" أصرّ عليّ.

"لا بل هي كافية. أنا أسافر كراكب على السطح من مرسيليا".

فتح درج مكتبه وأحصى خمسين دولاراً، معظمها من فئة الدولار الواحد.

"هل أنت واثق من أن هذا المبلغ سيكفيك؟ لا تقلق: سوف أسترده كاملاً من أبيك".

"نعم، أنا واثق. أشكرك". طمأنته، وأنا أخطف الدولارات وأتهيأ للنهوض.

قال "انتظر، إليك المزيد من النقود الفرنسية، سوف تحتاج إليها حتماً قبل أن تصل إلى مرسيليا. والآن، سآخذك إلى البيت لأقدم لك حماماً ووجبة طعام".

"لا، أشكرك. أشكرك حقيقة. ولكن يتوجب علي اللحاق بالقطار".

وبهذا الكلام خرجت من مكتبه ومن السفارة بسرعة رصاصة.

أول ما فعلته هو العثور على مقصف والتهام وجبتي الأولى منذ ثلاثة أيام. بعد ذلك عثرت على نزل شبابي في إحدى ضواحي باريس، على الطريق الجنوبي، وأخذت حماماً طال اشتياقي إليه.

صباح اليوم التالي، بدأت رحلتي التطفلية بثياب نظيفة إلى حد معقول، ومعدة ممتلئة، إلى الجنوب باتجاه مرسيليا.

وصلت إلى البيت في الأردن بعد حوالي ثلاثة أسابيع مثل صبي بريء، حسن التهذيب، لم يسافر ابعد من دمشق. كان والدي متغيباً في عمله، كالعادة. رحب بي جداي ووالدتي، معلقين على نقص وزني وبشرتي المسمرة.

"ألم يطعموكم في هذه المعسكرات السورية المباركة؟" كان سؤال جدتي المتكرر وهي تحوم حولي. أرادت شقيقتاي المراهقتين أن تشاهدا الصور التي التقطتها، ولم تطيقا صبراً حتى يتم تحميضها.

عاد والدي إلى البيت في عطلة نهاية الأسبوع وسألني عن رحلتي السورية. بدا مسروراً لكوني وصلت إلى البيت سالماً.

كنت في مطبخ نانا بعد ظهر نفس اليوم، أملأ معدتي بكل طبق شركسي قامت بتحضيره، حينما دخل أبي، وقد احتقن وجهه حد الإحمرار من الغضب، وجلس إلى طاولة الطعام قبالتي.

سألني: "هل تعلم من أين عدت أنا لتوي؟".

لم أعلق. حدجني بنظرة فاحصة. أحست والدتي، التي كانت تعمل باضطراب عند الموقد، بالخطر وانسحبت من الغرفة، تاركة الأب والابن ليحلا مشاكلهما.

"لقد عدت لتوي من منزل زهير المفتي حيث دفعت له خمسين دولاراً قال إنك اقترضتها منه في باريس أوائل هذا الشهر. أنا ما زلت غير مصدق لما سمعته، هل ذهبت حقاً إلى أوروبا؟".

"نعم، يا أبي".

"ولكن كيف؟ من أخذك إلى هناك؟".

"لقد ذهبت لوحدي".

"ذلك غير ممكن. كيف يمكنك أن تذهب إلى أوروبا بنفسك؟ من اين جئت بالمال؟".

تراجعت في مقعدي بعصبية وأخبرته القصة كاملة، معسكرات العمل في اسكتلندا، رجلات السفينة على السطح، السفر التطفلي، كل شيء. ثم أضفت أن لدي الصور لإثبات كلامي. وأنني أنتظر تحميضها.

اعتقدت للحظة أنني سأنال علقة ساخنة. بدلاً من ذلك، رأيت والدي يبتسم أثناء نهوضه. نظر إلي بتمعن مرة أخرى، هز رأسه وغادر المطبخ. لم أستطع أن أفهم مطلقاً، ما إذا كانت تلك الابتسامة الصغيرة تعبيراً عن الفخر أم السخط.

في الصيف التالي، حضر فرانسيسكو تودارو، صديقي الإيطالي الجديد، كما وعدني، ليقضي معنا شهراً في الأردن. أطلعناه على جميع المناظر في جرش، البتراء والبحر الميت. أصر كذلك على الغطس في نهر الأردن. ثم أخذناه إلى بيت لحم والقدس. حسب رأيه، فقد أعطته الرحلة دافعاً لكي يصبح رحالة دولياً مثلي. كثيراً ما أخبرني في سنوات لاحقة أن السفر أصبح إدماناً عنده وأنني المسؤول عن ذلك. ذلك هو السبب الذي جعله ينضم إلى اليتاليا، شركة الطيران الإيطالية الوطنية، وآخر ما سمعته منه هو أنه تقاعد منها برتبة نائب مدير عام أقدم.

الفصل الرابع عشر

شكل الألمان مسبقاً بعض الوحدات من المواطنين القفقاسيين والقوزاق بهدف إرسالهم لاستعادة الاستيلاء على أوطانهم. ولكن مع استمرار الروس في الضغط إلى مسافات أبعد جنوباً، ومع تنامي الضغوط الأخرى على الرايخ الثالث في جبهات مختلفة من الحرب، أخذ الوضع يبدو أقل احتمالاً بشكل متزايد، من أن يتم استخدام هذه الوحدات لتلك الغايات. نقل بعضهم سلفاً للقتال على الجبهات في فرنسا والبلدان المنخفضة. على أية حال، فقد أصبح التركيز الرئيس للقوات القفقاسية في هذه الأثناء، في النمسا وشمال إيطاليا. عندما سمعت الوحدات التي انضمت إلى ألمانيا من المناطق السوفييتية بأن ألمانيا قد خسرت الحرب في النهاية، استولى على جميع أفرادها الخوف نفسه. ذهب الأمير إيراكلي باغزاتيون، الذي قاد مائة ألف جورجي في الجيش الألماني، إلى السفارة البريطانية وعرض عليها استسلام الجيش حتى آخر رجل بشرط أن لا يعاد أحد منهم إلى الاتحاد السوفييتي. صدرت تعليمات إلى السفارة بعدم الإجابة. فقد كان مصير هؤلاء الناس يقرر مسبقاً خلف الأبواب الموصدة. تغطت أوروبا بكاملها في هذا الوقت بجنود مطرودين، يتجولون على غير هدى، بدون قضية يقاتلون من أجلها ولا بيوت وأوطان يعودون إليها. صدر الأمر إلى جميع القوات الروسية في النمسا، والتي كانت تقاتل مع الألمان، بأن يقيموا معسكراً لهم في وادي دراو: القوزاق في أعلى النهر بين لينز وأوبردراوبورغ، والقفقاسيون أسفل النهر بين أوبردراوبورغ وديلانتش. تدفق نهر دراو بقوة وسط المعسكرات العملاقة. سارت طريق بمحاذاة النهر إضافة إلى خط

سكة حديد. ربما تكون الحرب قد انتهت، لكن المشاكل بالنسبة لجنود مثل ألوشا، عسكربي، والأبرت بقيت كما هي. فهم ما زالوا منفيين عن أرضهم وأسرى شبه تامين للأراضي التي وجدوا أنفسهم عليها.

قال ألوشا لعسكربي وألبرت وهم يتخذون طريقهم إلى المنطقة للمرة الأولى "لن يتمكنوا من إبقائنا سجناء هنا. ليس هناك أية أسلاك شائكة والحراس عددهم قليل جداً".

وافقه ألبرت "يمكننا أن نهرب. ولكن إلى أين نهرب؟" حضرت إلى ذهنه صور قريته المدمرة "إذا انتظرنا هنا حتى تهدأ الفوضى، ربما سنتمكن من تنظيم قوة تحاول أن تستعيد القفقاس بمساعدة البريطانيين أو الأمريكان".

ضحك عسكربي "أنت مجنون، هل تظن أن أياً منهم يريد أن يبدأ حرباً مع الروس، وهم قد فرغوا لتوهم من قتال الألمان؟".

"إذاً" تحداه ألبرت، وهو يشير إلى الجبال الشاهقة المنيعة المغطاة بالثلوج التي تعالت فوقهم "إلى أين تريدنا أن نركض؟ في بلاد نحن بالكاد نتكلم لغتها".

زمجر ألبرت "لست أقول بأننا يجب أن نهرب إلى أي مكان".

اقترح ألوشا "دعونا نستريح لوهلة ونرى ماذا يحدث. سوف تهدأ الأمور بمرور الوقت وبعدها سيتضح ما يتوجب علينا عمله. ربما سيمنحنا بعضهم اللجوء السياسي، لنا كلنا، لإبقاء شعبنا سوية وإنشاء وطن جديد لنا".

خلال الأسابيع التالية، بدأت أسيجة الأسلاك الشائكة ترتفع مع اعتياد الجيوش الظافرة على أدوارها الجديدة. سرعان ما أصبح معروفاً لدى سكان المخيمات أن البريطانيين والأمريكان، قد دخلوا في هذه الآونة في تحالف مع المارشال ستالين، على إعادة كل مواطن روسي إليه، سواء رغب في الذهاب أم لا، على الرغم من ادعاءاتهم

بعكس ذلك.

صاح عسكربي عندما سمع الإشاعات للمرة الأولى "هذا لن يحدث أبداً، بحق السماوات، لقد كان البريطانيون هم الذين أرسلوا السفن عام ١٩٢٠ إلى مضيق الدردنيل لإنقاذ نفس هؤلاء الناس من البلاشفة، لماذا قد يقرروا الآن الاكتفاء بإعادتنا؟

اتفق كل من ألوشا وألبرت معه. لا بد وأن هناك خطأ ما. لكن لم يكن هناك أي خطأ. فقد ظهر أن البريطانيين يصدقون الروس عندما وعدوا بأن أي شخص يعود سوف يرسل إلى المناطق التي أخليت من السكان في الاتحاد السوفييتي.

انفجر عسكربي عندما سمع "أنهم يقصدون سيبيريا، بحق الله! إنهم ينوون أن ينفونا إلى الجولاج أو إلى مناجم الفحم في فوركوتا".

اقترح ألوشا "قد يكون هذا وقتاً مناسباً وجيداً لمغادرة هذا المكان، خاصة وأن الأسيجة لم تستكمل بعد، وما زال الحراس مهملون".

سأل ألبرت "هل تقصد أن نهرب؟" وقد اشتعلت عيناه حماساً من احتمال حدوث نشاط ما. فقد وجد الجلوس الإجباري متعباً جداً وبدأ يتوق إلى التحرك.

"أعتقد أن ذلك سيكون الخيار الأفضل، ألا ترى ذلك أنت؟".

هز عسكربي رأسه موافقاً "وأظن أننا يجب أن نتحرك بسرعة، عندما يصبحون جاهزين لإعادتنا، سوف يضاعفون أعداد الحراس".

اقترح ألوشا "ولم لا يكون ذلك هذه الليلة؟" وطأطأ الاثنان رأسيهما بالموافقة.

في الساعات الأولى للصباح، عندما كان الجميع في الأكواخ يغطون في نومهم العميق، تسلل الأصدقاء الثلاثة وغادروا أسرّتهم العارية، واتخذوا طريقهم، بقامات منحنية، نحو باب المهجع. عرفوا أنه لم يكن

مقفلاً. عرفوا كذلك أن أناساً آخرين كثيرين قد اختفوا خلال الليل في الأسابيع السابقة، رغم أنه لم تكن لديهم أية فكرة عما حدث لهم، ربما انتهى بهم الأمر جميعاً ميتين في حفر في مكان ما، أو في قبر جماعي من نوع ما. من الناحية الأخرى، ربما يحيون حياة حرة في إيطاليا بحلول هذا الوقت.

عندما تسللوا إلى الخارج، صدموا من شدة بريق ضوء القمر، لأن ذلك سيجعل بقاءهم مختفين عن الأنظار أكثر صعوبة.

تناهى إلى أسماعهم صوت هدير بعيد، بدا وكأنه يزداد ارتفاعاً. نظروا إلى بعضم بعضاً في حيرة. فقد تأخر الوقت على التوقف الآن. فقد أصبحوا ملزمين بخطة عملهم. ركضوا إلى جانب الكوخ وهم ما زالوا محنيين.

اجتمع الحراس كلهم عند المدخل حيث تدخل الطريق إلى المخيم. كانوا يتحدثون فيما بينهم بهدوء ويراقبون الاقتراب، بدون أن يعيروا ما يجري في داخل المخيم أدنى اهتمام. ظهر عليهم أنهم سمعوا الصوت أيضاً، لكن يبدو أنهم كانوا يتوقعونه.

عندما أدركوا أنه لا بد من وجود أمكنة أخرى أقل حراسة من العادة، ما دام الجميع يراقب الطريق، اتخذ الأصدقاء الثلاثة طريقهم عائدين حول الكوخ وركضوا بهدوء نحو النهر. أغرقت مياه النهر الهادرة كل الصوت الآخر، بغض النظر عن طبيعته، فاستمروا يركضون بمحاذاة الحافة، متجهين إلى الجسر الذي يعرفون أنه سيأخذهم بعيداً عن مخيمهم.

ظهر السلك الشائك أمامهم، لكنهم لم يخففوا من سرعتهم كثيراً، بل ارتموا على الأرض وتدحرجوا من تحته، بدون أن يخدشوا أنفسهم في انطلاقهم. لم تصمم هذه المخيمات لإبقاء أي شخص في الداخل، إذا كان مصمماً على شق طريقه إلى الخارج.

كان الجسر مضاءً بدرجة ساطعة من القمر، لكن لم يظهر أن هناك من يحرسه، لذلك استمروا في السير، وقد أصبح صوت تنفسهم هو الأعلى في أذنيهم هذه اللحظة، حتى أنه أغرق صوت اندفاع الماء في الأسفل. وصلوا إلى الجانب الآخر بدون أي طارئ واختفوا بين الشجيرات. أمضوا بضع ثوانٍ يلتقطون أنفاسهم بدون أن يتبادلوا كلمة واحدة، ثم بدأوا يتسلقون سفح التلة الشديد الانحدار. توقفوا بعد بضع دقائق ونظروا خلفهم، إلى المخيم تحتهم. كانت الطريق التي سمعوا الضجيج آتياً منها في وقت سابق، قد امتلأت في هذه اللحظة بشاحنات يخرج منها جنود بريطانيون. كانوا يعززون حراس المخيم.

قال ألبرت "يظهر أننا خرجنا في الوقت الملائم تماماً. يبدو أنهم على وشك التأكد من عدم هروب أي شخص آخر".

تمتم ألوشا "إنهم يريدون أن يتأكدوا من أن ستالين سوف يتسلم جميع الجثث التي طلبها".

قال عسكربي "ربما، ولكن ربما ينوون بصدق أن يجدوا أمكنة لكل شخص في الاتحاد السوفييتي الجديد".

بقي ألبرت صامتاً، فقد ظلت صور عائلته المقتولة تتراءى لمقدمة عقله. ارتعش بحدة، وقال "دعونا نستمر في التحرك".

استمروا يمشون طيلة النهار. عندما أصبحت الشمس في أعلى نقطة لها، وصلوا إلى مزرعة صغيرة وأدركوا أنهم جائعون. قرفصوا بين الأشجار وراقبوا البيت والأبنية الملحقة به لفترة. كانت هناك بضع دجاجات تسرح وتفرق في المدى المكشوف. ظهر أنها داجنة تماماً، وربما يمكن الإمساك بها بكل سهولة.

قال ألوشا "إننا نتحول إلى أشخاص ليسوا أفضل من قطاع الطرق".

ذكّره عسكربي "يتحتم علينا أن نبقى أحياء. لن يكون ذلك لمدة

طويلة. سنتمكن من العودة يوماً ما وندفع لهذا المزارع ثمن أي شيء نأخذه كاملاً".

"ربما يجدر بنا أن نكتفي بالدق على الباب وطلب بعض الخبز" قال ألوشا.

قال عسكربي "وماذا إذا كانوا ينتظروننا ومعهم بندقية، ثم يعيدوننا مباشرة إلى المخيم. إن منظرنا ليس بالضبط من صنف الرجال الذين قد ترغب في دعوتهم إلى بيتك ليتقاسموا الخبز مع أطفالك". نظر ألوشا إليهما واضطر إلى الموافقة. لأن منظرهم يدل بالضبط على وضعهم، اسرى حرب هاربون. قال "موافق، لنحصل لأنفسنا على دجاجة".

راقبوا لمدة ساعة أخرى، محاولين أن يشاهدوا اين يمكن للمزارع وعائلته أن يتواجدوا، لكن لم تكن هناك أية إشارة على الحياة البشرية مطلقاً. في النهاية، أجبرهم الجوع على القيام بحركتهم. قرر ألوشا، لكونه أسرعهم، أن يندفع مباشرة إلى وسط الداجاجات ويخطف أول دجاجة يستطيع الإمساك بها بينما سيجيء الاثنان الآخران إلى جانبيه حتى يمكنهم أن يسدوا الطريق على الطيور إذا حاولوا أن يفروا. اتفقوا على نقطة التقاء على الجهة الأخرى من ساحة المزرعة، والتي يمكنهم فيها الاختفاء في الغابة قبل أن تسنح الفرصة لأي شخص ليفهم ما يحدث.

عدَّ ألوشا حتى الثلاثة بصوت عالٍ ثم قام بانطلاقته. أمكنه سماع الاثنين الآخرين إلى جانبيه. كذلك سمعته الدجاجات وتفرقن أمام قدميه اللتين تضربان الأرض، بسرعة مفاجئة، بالنظر إلى درجة الأمان التي كن سارحات فيها قبل لحظة. القى ألوشا بنفسه على الأرض نحو إحداهن، واتصلت اصابعه ببضع رياش بينما أطلق الطير صرخة سخط نفاذة وهرب. أدرك ألوشا، وهو يتحامل على نفسه للنهوض، أنه قد حك وجهه بالأرض وأنه ينزف. نظر من جانب إلى آخر. كانت

الدجاجات في كل مكان، لكن لم تكن واحدة منها ضمن مدى قدرته.

سمع ألبرت يطلق صرخة انتصار ورآه يرفع طيراً يرفرف في الهواء، وقد أمسكه من قدميه. أمسك عسكربي بطير آخر على الجانب الثاني من الساحة. فكر ألوشا بصوت عالٍ، مازحاً "الإمساك بدجاجة يطلب شخصاً بلقارياً". وهو ينهض لينضم إلى صديقيه. ركض الرجال الثلاثة باتجاه نقطة خروجهم المتفق عليها وهم يسمعون نباح كلب غاضب وصوت رجل.

وصل الكلب فجأة إلى كواحلهم، يطرقع بأسنانه ويزمجر. أحسّ ألوشا بالأسنان تتغرز في كاحله فركل بقوة، فأرسل الكلب يتدحرج وينوح في الغبار.

تمكن من الجري لبضع خطوات أخرى، برغم الألم، قبل أن ينهض الكلب ويلاحقه مرة أخرى. لم يلتفت خلفه نحو الرجل الذي أمكنه سماع صوته يصرخ بالشتائم على ظهورهم المغادرة. مع اختفائهم بين الأشجار، تخلى الكلب عن المطاردة ووقف عند حافة الساحة، ينبح بعنف، ويحذرهم من التفكير بالعودة إلى بيته أبداً.

ركض الرجال الثلاثة بسرعة ثابتة صاعدين التلة لمدة ساعة أخرى قبل أن يتوقفوا، منهكين. استراحوا قليلاً، ثم أشعل ألبرت وعسكربي ناراً بينما قام ألوشا بنتف ريش الدجاجتين وإخراج أحشائهما. تمتعوا بشعورهم بالحرية بعد انحباسهم في المخيم لكل تلك المدة. تحسنت معنوياتهم مع وصول رائحة اللحم المطبوخ إلى أنوفهم. قرابة العصر، أصبح اللحم جاهزاً للأكل، وبعد تناول الوجبة، تباحثوا فيما إذا أرادوا الاستمرار في صعود الجبل قبل هبوط الظلام. كانت النار مشتعلة بشكل جيد في تلك اللحظة، وهم يشعرون بالامتلاء والدفء. قرروا أن يبقوا في مكانهم والتحرك في الصباح، بعد أن يستريحوا من نوم ليلة كاملة. قضوا بقية النهار يتكلمون في كسل عما يخططون لعمله في بقية حياتهم.

سأل ألبرت مع انتشار الظلام "ألا يستحسن أن نتقاسم أدوار الخفارة؟".

قال ألوشا "لا أعتقد أننا بحاجة إلى القلق. لم نسمع أي صوت منذ ساعات، ومن غير المحتمل أن يصل أحد إلى هذا الارتفاع في الجبل وسط الظلام بدون أن يوقظنا. لم يحدث أن أعيد أحد من قبل الحراس قبل هذا، ويبدو أنهم كان لديهم الكثير مما يشغلهم حينما غادرنا".

غرق ثلاثتهم في نوم عميق بينما خمدت النار وغطى الليل الغابة كرداء ثقيل. اثبت الجنود البريطانيون الذين صعدوا الجبل بحثاً عنهم وعن أي هاربين آخرين يمكنهم العثور عليهم، أنهم أمهر من الحراس الذين أسندت إليهم مهمة الرقابة على المخيمات في الأسابيع السابقة. انسلوا خلال الليل بأحذية صامتة، وقد تدربوا على البقاء هادئين ويتبعون آثار طريدتهم. وصلوا سابقاً إلى المزارع المنزعج بينما كان النور متوفراً، وكلبه ما زال يزمجر من الغضب جراء الزيارة السابقة. اشار المزارع إلى الاتجاه الذي اختفى فيه اللصوص، وتمنى لهم حظاً حسناً في المطاردة. بعد تلك المرحلة، تحركوا بقدر أكبر من التلصص.

لم يعرف ألوشا، عسكربي وألبرت أي شيء عن وصولهم حتى أيقظتهم الأوامر الحازمة المقتضبة لضابط بريطاني ووجدوا أنفسهم يحدقون في فوهات نصف دزينة من البنادق الآلية.

كانت غلطتهم هي البقاء في المخيمات للمدة التي بقوها. يفترض فيهم أن يسيروا خارجين مباشرة في اليوم الأول، عندما كان بإمكانهم. لكنهم أجلوا ذلك وغادروا متأخرين كثيراً. اليوم الذي قرروا فيه المغادرة هو اليوم الذي قرر فيه البريطانيون التشدد، وهكذا فقد تم تجميعهم، مع آلاف آخرين وتحضيرهم للقطارات. منذ ذلك اليوم فصاعداً، وضعت حراسات قوية حول المخيمات، وتجولت دوريات مسلحة بالبنادق بشكل دائم حول محيط المخيم.

تعلقت الأعلام السوداء على مدى الطريق ومن كل كوخ بينما استمر سكان المخيمات يحاولون التأثير في الجنود البريطانيين الذين طلب منهم تنفيذ هذا الواجب، بالمصير القاسي الذي يرسلون إليه كل واحد منهم. لكن الأوامر كانت قد صدرت من السلطة الأعلى، ولم يكن بمقدرو الجنود العاديين تغييرها، بصرف النظر عن مشاعرهم الشخصية بالتعاطف مع الناس الذين يتوسلون إليهم طالبين الرحمة كل لحظة من النهار. لم يكن الجميع مقتنعين بشائعات الإعدام أو النفي المحتومين لأولئك الذين يعادون على القطارات حتى عندما شنق العديد من القوزاق أنفسهم في مهاجعهم، مفضلين الموت على أن يتم تحميلهم في القطارات ليعودوا إلى الاتحاد السوفييني. لم ينتشر الرعب الحقيقي إلا بعد أسابيع. لكن العملية ابتدأت، وبعد بضعة أيام، جرى تحميل ألوشا، عسكربي، وألبرت على القطار الذي يفترض فيه أن يأخذهم عائداً عبر بولندا إلى وطنهم الأم.

الفصل الخامس عشر

رحلتي الأولى إلى أمريكا، تلك البلاد التي يلتقي فيها العديد من ابناء الشتات، جرى التحضير لها بشكل جيد. فقد كتبت سلفاً إلى بيتر إرسكين وغايل وايس، صديقيَّ الجديدين من أيام معسكر العمل الاسكتلندي عن تاريخ وصولي إلى نيويورك واسم السفينة التي حجزت مقعدي عليها.

فقد قبلت في كلية كويكرية اسمها إيرلهام في ريتشموند – أنديانا. لكن بسبب بعض الأخطاء الإدارية، لم يستطيعوا أن يحجزوا مكاناً لي في السنة الأولى: لذلك سجلوني في كلية أوكلاهوما الشمالية الشرقية، مع ضمانة مكتوبة بقبولي في الفصل القادم أو السنة القادمة. سافرت مبكراً إلى أمريكا حتى أقضي معظم فصل الصيف مع أصدقائي في فيلادلفيا.

سافرت كل عائلتي، بما فيها شقيقاتي، معي إلى بيروت، لإيصالي إلى باخرة الركاب. "اندريادوريا". كنت الآن أسافر براحة معقولة بالدرجة السياحية: لم أعد أسافر على السطح بعدها!.

أول توقف طويل جاء في جينوا، حيث من المقرر تحميل المزيد من الركاب وقضاء تلك الليلة، أعطتنا الباخرة الخيار بين البقاء على متنها لتوقف تلك الليلة، أو المبيت في أحد فنادق الشركة على حسابها. كنت قد صادقت اثنين من موظفي الباخرة هما يونانيان، وطالبان مثلي، اختارا أن يقضيا الأمسية على الشاطئ، لذلك رافقتهما. أخذت معي كل وثائقي وبعض ملابس المبيت، إذ لم أشأ أن أترك أوراقي القيِّمة

بدون حراسة تلك الليلة.

في تلك الأمسية، وفي المشرب الكائن تحت غرفتنا، جربت الكحول الجدية للمرة الأولى في حياتي، وأعجبت بها. كانت التجربة طاغية، بالنسبة لشاب شركسي صغير السن، يخرج من الأردن عام ١٩٥٦. بدأت الأمسية بتجربة وتذوق البيرة، ثم تقدمت ببطء إلى النبيذ وسوائل أخرى ما سمعت بأسمائها من قبل أبداً. استمتعت بشعور البهجة اللعوبة الذي أعطتني إياه. في الواقع أنني أعجبت بها إلى درجة أنني سكرت حد الثمالة مع نهاية تلك الأمسية، لأنني لا أذكر كيف تمكنت من الصعود إلى غرفتي. صحوت في الصباح التالي بصداع يفلق رأسي على صوت نفير باخرة. زحفت خارج سريري ونظرت من الشباك. هناك رأيت وسيلة نقلي، اندري ادوريا، تبحر بكل أبهة إلى خارج المرفأ. أصبت بالذعر وارتديت ملابسي على عجل: آملاً أن ما رأيته لم يكن سفينتي. كيف يمكنهم أن يغادروا بدوني؟ ذلك مستحيل.

ركضت إلى صديقيّ اليونانيين في الغرفة المجاورة وايقظتهما بعد الكثير من الدق العنيف على بابهما.

صرخت فيهما "استيقظا، استيقظا! إن سفينتنا تغادر بدوننا".

فتحا لي الباب مذعورين، ونظرا خارج شباكهما إلى المرفأ، وأكدا أن الباخرة التي غادرت هي سفينتنا بلا شك. يا إلهي، ما العمل! لقد كنت المسافر الخبير في المجموعة، لذلك قلت لهما بأن لا يرتعبا.

" لا تقلقا. إننا نحمل وثائقنا وتذاكرنا كلها. سنذهب إلى مكتب الخطوط البحرية الإيطالية في الميناء. ولا بد أن يتدبروا أمرنا هناك". قلت لهما ذلك بثقة ما كنت أحسها حقيقة.

نظر صاحب الوجه الغاضب عند الخطوط الإيطالية إلى تذاكرنا وجوازات سفرنا ثم هز رأسه. تكلم بعض الكلمات الإيطالية المنتقاة، والتي من الأفضل أن أياً منا لم يفهمها. ثم دقق في لائحة طويلة من

الورق أسماء ركاب الباخرة اندري ادوريا. أكد للمرة الثانية أنه كان يفترض فينا أن نتواجد على ظهر السفينة. في النهاية، قال لنا بلغة إنجليزية ركيكة، لكنها قابلة للفهم "يا شباب، ابقوا ليلة واحدة. غداً سأضعكم على السفينة كونتي بيانكامانو إلى نيويورك".

فهمت أننا سوق نستأنف رحلتنا في اليوم التالي على السفينة كونتي بيانكامانو، التي ستتوقف في جينوا على طريقها إلى نيويورك.

استرخى الشابان اليونانيان، وعدنا إلى غرفتينا، لننتظر حتى الصباح التالي. في تلك الأمسية، رفضت دعوة صديقيّ لتناول الشراب مرة أخرى في المشرب. بل تناولت وجبة المساء لوحدي وذهبت إلى فراشي مبكراً، بعد أن تعلمت درساً مفيداً عن الكحول في وقت مبكر من حياتي. وعدت نفسي أن لا أشرب أبداً ذلك القدر الذي يجعلني أفقد كل حواسي.

تبين أن بيانكامانو سفينة مريحة بقدر اندريادوريا. فهما سفينتان شبه شقيقتان. أعطينا مرافق مشابهة، واستمتعنا ببقية الرحلة في حالة نفسية احتفالية للأيام الأربعة التالية. سمعت في اليوم الخامس إعلاناً غريباً على جهاز الإذاعة العام، لم أتمكن من فهمه. كانت رسالة تتعلق باندري ادوريا. أوقفت أول ضابط صادفته وسألته عن الإعلان. كانت لغته الإنجليزية ضعيفة، لذلك أخذني من يدي واشار إلى لوحة إعلانات السفينة.

هناك رأيت الخبر بالأبيض والأسود وبالتفاصيل المفجعة. اندريادوريا، سفينة ركابنا الأصلية، اصطدمت بقارب صيد فلندي خارج ميناء نيويورك مباشرة وغرقت بجميع بحارتها والركاب الذين كانوا على متنها. بعد ساعة، قالت نشرة أخرى أن بعض الناجين قد تم التقاطهم من قبل حرس السواحل الأمريكي.

تبخرت الحالة الاحتفالية في سفينتنا ونزل الحزن على ظهر

المركب. الواضح أن العديد من بحارة السفينة لديهم أصدقاء أو أفراد عائلة يخدمون على الأندورياداوريا. أقيم قداس خاص في ذلك المساء في مسرح السفينة بدلاً من الفيلم الإيطالي المعتاد. فكرت كم هو أمر إعجازي أنني أنقذت من موت محقق لو لم أتخلف عن السفينة في جينوا.

أصبح اهتمامي الأول هو عائلتي في الأردن. لقد ودعوني على الباخرة اندري ادوريا. حتماً ستنتشر أنباء مثل هذه الكارثة حول العالم، ولا بد أن تذكرها أجهزة الراديو في عمان. سوف يفترضون أنني قد غرقت في الكارثة. لا بد وأن أوصل إليهم خبر نجاتي بأسرع ما يمكن. ثم فكرت أيضاً بصديقيّ الأمريكيين، القادمين إلى مرفأ نيويورك لاستقبالي. حتماً سيتوصلان إلى نفس الاستنتاج. ركضت إلى غرفة اللاسلكي على ظهر الباخرة لأرسل برقيتين عاجلتين، ولكن بلا طائل. فقد أصر الضابط المسؤول على أن الخطوط يجب أن تبقى مفتوحة من أجل الاتصالات الرسمية وأخبار الكارثة.

قال الضابط أنه بكل الأحوال، فسوف نرسو في نيويورك خلال أربع وعشرين ساعة.

عندما رسونا في مرفأ نيويورك، تلفتت حولي باحثاً عن أصدقائي، عائلة ارسكين، عبثاً، لم يكونوا هناك. مررت من خلال إجراءات جواز السفر والجمارك بسرعة نسبية لأنه لم يكن معي سوى اقل القليل من المتاع، فقد نزلت أغلبية ملابسي إلى قاع الأطلسي. كيف يمكنني أن اشرح ذلك لمسؤول الجمارك بدون أن أثير شكوكاً واستجوابات لا نهاية لها؟ لذلك اكتفيت بالقول أنني طالب فقير وأن هذه الحقيبة السوداء التي تحوي وثائقي وغيار ملابس واحد هي كل ما أحضرته من بيتي وبلدي.

تجولت في أرجاء الأرصفة حتى عثرت على مقهى ودخلته. أردت أن أستعمل الهاتف العمومي لأخابر بيتر إرسكين في فيلادلفيا، لكن لم تكن

لدي أية فكرة عن رموز المناطق أو عن كيفية إدخال القطع النقدية. أخذتني نادلة سوداء عطوفة ضخمة الجسم من يدي نحو مقصورة الهاتف، في زاوية المقهى، وأدارت الرقم من أجلي.

هل يمكنكم تخيل المفاجأة وصرخات الفرح عند سماع صوتي؟ ظل بيتر يسألني إن كنت على ما يرام فقد ظل يظن أنني أحد آخر الناجين من الأندريا دوريا. قلت أنني سأشرح لاحقاً، وبعد أن عرف بيتر مكان وجودي من النادلة، طلب مني أن ابقى في المقهى. فهم سيحضرون لاصطحابي خلال ساعتين. بعد الوصول إلى بيتهم في فيلادلفيا، أصرت السيدة إرسكين على أنه يتوجب علي الاتصال بأهلي على الفور، بدلاً من إرسال برقية. فعلت ذلك وتكلمت مع شقيقتي الكبرى كرمة، التي كانت تبكي أثناء كلامها.

صرخت في السماعة "كرمة، هذا أنا محي الدين، هل يمكنك سماعي؟".

استمرت كرمة في البكاء ولم تجبني على الفور. كررت كلماتي، ثم جاء ردها بطيئاً.

"الحمد الله يا موحي. لقد كنا في غاية القلق. فقد سمعنا الأخبار عن السفينة". وأجهشت في البكاء مرة أخرى.

سألت بقلق "هل يعرف والدي أو والدتي بالأمر؟".

"كلا، لم نقوى على إخبارهم. لا يعرف سوى عصمت وأنا لأننا سمعنا الراديو".

كان والدي غائباً لواجب عسكري، ووالدتي تزور الجيران. طبعاً سمعنا الأخبار. لم تخبر والدي، لم تعرفا كيف تخبرانهما بأن ولدهما الوحيد قد غرق في المحيط الأطلسي!

"قولي لأمي أن الأمر على ما يرام. أنا في أمريكا الآن مع أصدقائي

عائلة إرسكين". قلت وقد غمرتني العواطف. أكدت لي كرمة أنها ستخبرهما إنني وصلت سالماً وأنها ستهديهم حبي وأخلص تحياتي.

بدأت دموعي تنهمر في هذه اللحظة فوق خديّ، وأحرجت أمام أصدقائي. جاءت السيدة إرسكين وعانقتني بحنان الأم، لتواسيني.

ستكون تجربتي مع الأندري ادوريا هي الأولى من بين عدة حوادث قريبة من الكارثة، خضتها أثناء نضوجي في الحياة. كنت أتساءل عما إذا كنت أعيش حياة مسحورة أم لا.

ما تذكرته في تلك اللحظة هو محاضرة ألقاها وجيه زائر من أمريكا أثناء "اجتماع" في المدرسة برام الله، فلسطين. حاول خلالها أن يشرح لنا نحن أبناء العالم الثالث أن أمريكا تخطط لافتتاح القمر قبل نهاية القرن. تساءلت في نفسي وقتها عما إذا كنت سأعيش المدة الكافية لأرى الأمر يحدث!

تعلمت الكثير عن أمريكا خلال الشهر الذي أقمت فيه مع عائلة إرسكين، وعن الطريقة الأمريكية في الحياة. استمتعت بأول حفل موسيقي أمريكي هو بورجي آندبيس لجيرشوين، والذي كان يؤدى في مسرح خيمة ببلدة جيرمان تاون القريبة، ووقعت في حب التقاليد الموسيقية الأمريكية. أحببت عدم التكلف في حياتهم ولباسهم العرضي غير الرسمي. من بين كل الملابس التي اشترتها لي عائلة إرسكين بلطفها، كانت سراويل الجينز هي المفضلة لدي.

لكنني تعلمت أيضاً أن أمريكا تقدّر العمل والمال فوق أي شيء آخر، ويعوض الأمريكيون عن ماديتهم الصاخبة بمظهر من الانصياع الديني. فهم قلما يتغيبون عن قداس الأحد، وهو ما يقدم نمطاً من الزمالة وإحساساً آمناً بالمجتمع. بعد زمن طويل لاحق، سأتعلم أن الدين، مثل أي شيء آخر في أمريكا، هو تجارة تدر الملايين الكثيرة.

خلال إقامتي ذلك الشهر في فيلادلفيا، قبلت كذلك دعوة من غايل وايس لقضاء أسبوعي الأخير مع عائلتها جيرمان تاون. كنت حذراً في البداية لأنني، ولسنوات طويلة، كنت أفكر في اليهود على أنهم أعداء، سارقين للأرض، قتلة الأطفال الفلسطينيين الأبرياء. كنت كذلك مرتبكاً مشوش الذهن لأنني أعلم سلفاً كم هي غايل ذكية ولطيفة ومحببة وأنني وقعت في حب مفاتنها وطباعها على حد سواء. لم أتمكن من التوفيق بين مثل هذه الأحاسيس المتضاربة، لكنني قبلت الدعوة.

خلال إقامتي التي لا تنسى مع غايل ووالديها الرائعين، أدركت مدى صدق المثل الشركسي القديم "ليست هناك أمم سيئة، بل هناك أفراد سيئون".

الكلية في أوكلاهوما صغيرة وقائمة في وسط بلاد رعاة البقر، في الجزء الشمالي الشرقي من الولاية. المعروف باسم يد المقلاة "بان هاندل" البلدة الصغيرة اسمها ميامي، ويلفظها السكان المحليون "مياما". في نهاية المطاف، تحولت إقامتي المؤقتة لتصبح سنة دراسية كاملة، لكنني استمتعت بها إلى الحد الأخير بسبب كل الفرص التي أتاحتها لي لركوب الخيل ودروس الكمان. ثم كانت هناك حفلات رقص ليلة السبت والاستعراض التقليدي في الشارع الرئيس. لم أمتلك سيارة شخصياً/ لكن زميلي في الغرفة وصديقي الجديد جو روسّ. استخدم مركبة البيك أب من مزرعته ليستعرض فيها كلانا على الشارع الرئيس. لم يكن في ميامي أيامها سوى شارع رئيس واحد تحف بجانبيه البقالات، دار سينما ومخزن أدوية أمريكي نموذجي، وهو المكان الذي نلتقط فيه بنات المدارس الثانوية لمرافقتنا في حفلات رقص السبت. لأنه ما من طالبة كلية تحترم نفسها ترضى بمواعدة طالب سنة أولى في الكلية في تلك الأيام.

تعلمت كذلك قيمة العمل البدني خلال هذه السنة الأولى. كان صديقي، جو روسّ، مضطراً للعمل نهاية كل أسبوع من أجل تدعيم كلفة

تعليمه. لم أكن في الحقيقة مضطراً لعمل ذلك لأن والدي ظل يرسل لي ما يكفي من المال لجميع نفقاتي. لكنني ذهبت مع جو للقيام بالعمل بكل الأحوال، أحزّم التبن في المزارع أو أنظف روث الخيل في الاسطبلات أو روث البقر في السقائف. كان العمل شاقاً لكنني تحملته من قبيل الكبرياء وحصلت على نقود إضافية لأجل أمسيات نهاية الأسبوع. كنت أحب التواجد قرب الخيل وأثرت إعجاب راعي البقر جو روس بقدراتي كفارس. بدأ يقدمني إلى الناس من حولنا على أنني صديقه، راعي البقر الأجنبي.

كان الإحباط الوحيد لدي هو انعدام النشاط الرياضي. فقد كنت نشيطاً جداً في الرياضة أثناء الدراسة الثانوية، فقد ترأست فريق كرة القدم للمدرسة، وكنت أشتاق إلى الاستمرار، لكن هذه الكلية لم يكن لديها كرة قدم، ولم تكن مهتمة بالحصول عليها. فهذه بلاد كرة القدم الأمريكية، ولذلك لم يكن هناك سوى كرة القدم الأمريكية وكرة السلة. عند بداية السنة الدراسية، خرجت لأداء التجارب في كرة القدم الأمريكية، لكن المدرب ألقى عليّ نظرة واحدة ثم استبعدني لكوني صغير الجسم جداً. لم أكن أتمتع بالطول الكافي لفرق كرة السلة أيضاً. أخيراً، ذهبت إلى العميد واشتكيت من أن مدرب كرة القدم يرفض أن يجربني رفضاً مطلقاً. أخبرته أنني أحسن الركل وأنني سأكون ملائماً لذلك الموقع في الفريق. عندما اختبرني المدرب في نهاية المطاف لموقع الراكل، اثرت إعجابه. انضممت إلى الفريق، ولبست الخوذة والملابس الغريبة الشكل، ثم جلست على المقاعد لغالبية الموسم، ولم أحصل على فرصة لركل الكرة إلا أثناء حصص التدريبات كراكل احتياط.

أخيراً، حصلت على فرصتي لأصبح بطلاً أثناء المباراة النهائية ضد منافسينا اللدودين، الكلية الغربية القادمة من تولسا. وصلت نتيجة اللعبة إلى خمس عشرة نقطة للفريق المعارض وأربع عشرة نقطة لنا في الثواني الأربعين الأخيرة للمباراة. كان فريقنا حائزاً على الكرة عند

الخط الثالث على بعد حوالي خمسين متراً عن القائم. كان يفترض ركل الكرة، وأصيب الراكل المعتاد بتقلصات في ساقه اليمنى، ربما بسبب القلق. لم يعد لدى المدرب أي خيار سوى السماح لي بالركل. يمكنكم تخيل مقدار القلق والإحباط والكبت لدى مشجعينا عندما خرجت لأداء شرف المهمة، فقد افترض كلهم بأننا قد خسرنا المباراة.

خرجت متهادياً لأؤدي ركلتي الأولى والوحيدة للموسم كله، مصمماً على أن أريهم كيف يجب لركلة الإحراز أن تؤدى. يتم تعليم الأمريكان أن يركلوا الكرة عالياً بدورة قوسية لتسقط بين خشبتي المرمى. تفسح هذه الركلة المجال للفريق أن يندفع نزولاً في المضمار لاستعادة الكرة في حالة تقصير الكرة. نتدرب في كرة القدم على ضرب الكرة بقوة ولتبقى منخفضة حتى تسجل، بصرف النظر عن المسافة. مشيت نحو الكرة، وقدرت مسار القذيفة على زاوية خمس وثلاثين درجة، وركلت الكرة بكل قوتي بحيث جعلتها تطير من فوق رؤوس اللاعبين بمسافة صغيرة. سجلت وحصلت على النقطتين، الأمر الذي أكسبنا المباراة والبطولة كذلك.

زأر الجمهور استحساناً وتقديراً: نهض جمهور الاستاد واقفاً كله، يصرخون بموافقتهم على مثل تلك الركلة الصعبة. أصبحت بطل الحرم الجامعي ليوم واحد، رغم أن أحداً لم يكن يعرف اسمي. لكنني أحببت الانتباه الذي حصلت عليه، خاصة من قبل المشجعات الجميلات.

شعرت بالأسى لمغادرتي تلك الكلية، لكنني كنت مضطراً لذلك من أجل الحصول على تعليم جدي في كلية مرموقة مثل إيرلهام.

على أية حال، وقبل انضمامي إلى الكلية الجديدة، كان لدي فصل صيف كامل بدون التزامات. سمعت أنا وجو روس عن حرائق الغابات الصيفية المتزايدة في ألاسكا، وعن تجنيد طلاب الجامعات لمكافحتها مقابل رواتب خيالية. صمم جو على الذهاب لأنه سيتمكن من الحصول على ما يكفي من المال لتغطية رسوم دراسته الجامعية للسنوات الثلاث

المتبقية، خلال ثلاثة أشهر. أردت أن أذهب لمجرد عنصر المغامرة فقط، لكنني أيضاً لم أمانع في كسب المال، فقد كانت ألاسكا عالماً آخر بالنسبة لي. عالم يحتمل أن لا تتاح لي فرصة أخرى لرؤيته أبداً.

زوّد جو البيك أب الشيفي الذي يملكه بمشمع لتغطية أمتعتنا، وأمضى اياماً بطولها وهو يتفقد القطع الميكانيكية، ليتأكد من قدرتها على تحمل الرحلة القاسية الطويلة عبر كندا ومقاطعة يوكون، كل المسافة وصولاً إلى فيربانكس في ألاسكا.

كانت الرحلة التي بلغ طولها قرابة ثلاثة آلاف كيلومتر شاقة ولكنها خلت من اية حادثة، عدا بعض المشاكل الميكانيكية والإطارات المثقوبة بمركبتنا القديمة، واستغرقنا إتمامها أربعة أيام. أمضينا الليالي في الشاحنة وقضمنا الساندويشات طيلة الطريق إلى قمة العالم، حتى نوفر مصادرنا المالية الشحيحة. كنا نتوقف بين الفينة والأخرى في بعض الجداول الشمالية ونصطاد سمك التروية. كان جو يصيدها ويشويها بطريقة رائعة، فقط إذا قبلت أن أنظفها بالشكل الصحيح. ذلك هو الجزء القذر من المحنة، لكنني سرعان ما أصبحت منظف سمك خبيراً وحصلت على تذوق وحب للسمك، بقي معي حتى هذا اليوم.

عندما وصلنا إلى فيربانكس أوائل حزيران ١٩٥٧، أصبح همنا الوحيد هو الحصول على سكن. كانت ما تزال بلدة ريادية في ذلك العام ولم تكن مظاهر الترف مثل الفنادق موجودة في ذلك الوقت. امتلأت بتشكيلة فوضوية مرتجلة من بيوت الضيافة حتى الحافة بمكافحي النيران الذين قدموا من جميع نواحي الولايات المتحدة وكندا للحصول على الرواتب المجزية. لم يسعفنا الحظ في الليلة الأولى واضطررنا لقضائها في مركبتنا العتيدة الموثوقة. لم يكن الأمر على تلك الدرجة من السوء لأننا تعودنا عليه أثناء الرحلة الطويلة. اكتشفنا في اليوم التالي أننا مضطرون للانتظار بضعة ايام أخرى، ربما حتى أسابيع، قبل أن تتاح لنا الفرصة لمكافحة الحرائق. فقد كانت المنافسة شديدة

جداً، وفرق الإطفاء قد خرجت سلفاً. أصبحنا بحاجة ماسة إلى العمل قبل أن ننفق كل نقودنا. لم تكن هناك أية ضمانة بأننا سنحصل على وظيفة إطفاء حرائق بعد.

عرض علينا شخص ودود لطيف، في مطعم مؤقت بإحدى المقصورات، حيث تناولنا وجبة إفطارنا المطبوخة الأولى منذ حوالي أسبوع، وظيفة، نقوم بموجبها بخبز كعكات الدونات في الصباح ونقشر البطاطس ونغسل الأطباق لبقية النهار. ارشدنا كذلك إلى بيت ضيافة على طرف البلدة، تديره سيدة صديقة له تدعى رونا. أعتقد أنها يمكن أن تقدم لنا الإيواء.

قال "فقط قولوا لها أنكما ستعملان لدى تشارلي".

تبين أن رونا سيدة لطيفة في أواخر خمسينات عمرها، من أصل سويدي، ذات شعر أحمر كثيف جميل وعينين باسمتين، قامت بتحويل ثلاث غرف نوم في بيتها الريفي الواسع إلى مؤسسة نزل. ضمت كل غرفة ستة أسرة ولم يبق إلا سريران فارغان. استأجرناهما لمدة أسبوع، ودفعنا الأجرة سلفاً، الأمر الذي كاد يمسح مواردنا المالية. لم يعد لدينا خيار الآن سوى أن نخبز الدونات ونقشر البطاطس لمدة أسبوع. على الأقل، كانت وجبات طعامنا مجانية، كما سمح لنا بأكل ما نستطيعه من الدونات أثناء النهار. لكن هذه لم تكن الوظيفة التي قطعنا كل الطريق حتى آلاسكا من أجلها، فكنا نذهب كل يوم بجولة في المشارب والمقاهي بعد انتهاء عملنا، نستعلم عن عمل في مكافحة النيران. بقيت القصة على حالها. لدى كل الحرائق ما يكفيها من الطواقم تعمل عليها، ولن تكون أية وظائف متاحة حتى تحضر الطواقم لتقوم بالاستبدال خلال ثلاثة أسابيع. تلك كانت أنباء سيئة فعلاً بالنسبة لجو الذي كانت غايته الوحيدة من القدوم هي تحصيل مبالغ جدية من المال. أما بالنسبة لي، فإن مجرد التواجد هناك تجربة ومغامرة عظيمتين.

مع نهاية الأسبوع الأول، علمنا أن شركة التنقيب عن الذهب

واستخراجه تبحث عن مرشحين للعمل على مراكب تنخيل الوحل لأن العاملين عليها يتركون للعمل في مكافحة النيران. ذهبنا إلى هناك يوم السبت، يوم عطلتنا الوحيد، وسجلنا لبدء العمل اعتباراً من الاثنين. كان الراتب أفضل مما نتقاضاه لدى مطعم تشارلي بثلاثة أضعاف. لم يغضب تشارلي لأنه قادر على العثور على بديل لنا في المطبخ على الفور تقريباً. استمرينا في زيارة مطعم الدونات بدون توقف مرة في الأسبوع على الأقل، بعد أن أصبحنا زبائن دائمين لمؤسسته.

على كل حال، فقد أثبتت الوظيفة الجديدة أنها العمل الأشد إرهاقاً مما اختبرته حتى الآن. فقد تألف تنخيل الوحل من عملية حفر مساحة واسعة من مناطق المستنقعات. بعد إتمام ذلك، تأتي مراكب تنخيل هائلة إلى داخل البركة الصناعية وتبدأ في غرف الحصى الناعم، والذي كان يتم تنخيله وفلترته لاحقاً خلال الآلات الداخلية، لفصل الذهب عن التراب. لم يكن بالإمكان استعمال الجرارات لحفر الأرض لإنشاء برك صناعية لأنها يمكن أن تزيل المعادن النفيسة في مجارفها، لذلك فقد تحولت وظيفة الحفر إلينا. تكون طاقمنا من عشرين رجل يحملون المجارف والأدوات البدائية. يحفرون في مستنقعات لعدة أيام ويزيلون الأعشاب، الجذوع وقطع الأنقاض الأخرى من داخل الخندق والسماح بمستوى الماء أن يرتفع لإنشاء بركة بعمق معقول. فقد كان مستوى حوض الماء تحت سطح الأرض لا يزيد عن قدم واحدة. لم يكن الجزء الأكثر إزعاجاً من العمل هو الجزء المتعلق بالصعوبات البدنية بل البعوض. أعطيت لنا سلفاً ما سموه "شبكات ناموس" لنضعها على رؤوسنا أثناء العمل. منحنا هذا الإجراء بعض الراحة من لسعاته، لكننا تعودنا على وجود الشبكات بحيث نسينا أننا نرتديها فكنا نبصق، ونترك بصاقنا يتأرجح أمام وجوهنا. كنت في الليل أعاني من كوابيس يتحول فيها بصاقي إلى بعوضات عملاقة، تهاجم وجهي بلا رحمة. عند نهاية مثل ذلك اليوم، كل ما كنت أريد فعله هو الزحف إلى سريري

والنوم إلى الأبد. كنا أحياناً نأوي إلى الفراش بكامل ملابسنا، بدون أن نزعج أنفسنا بالأكل أو الاغتسال.

قمنا بهذا العمل لمدة أسبوعين، لكن الراتب كان جيداً وتحسنت مواردنا المالية بدرجة ملحوظة. فقد أصبح بمقدورنا فعلاً أن نتناول شريحة ستيك كل فترة في مطعم تشارلي. ثم سمعنا في وسط الأسبوع الثالث أن حريقاً هائلاً قد اندلع وأن حوالي مليون فدان من الأعشاب والأراضي الحرجية يحترق خارجاً عن السيطرة، على بعد حوالي ثلاثمائة كيلو متر من فيربانكس. أصبح بمقدورنا سلفاً أن نشاهد الدخان يتجمع مثل السحب عند خط الأفق. أخيراً، أصبحت هذه فرصتنا، واندفعنا نحو مكتب التوظيف للتسجيل لطواقم مكافحة النيران.

الأجرة المعروضة هي خمسة دولارات مذهلة للساعة. سأعطيكم فكرة عن مدى روعة هذا المبلغ، كنا نتقاضى خمسين سنتاً في الساعة مقابل عملنا بدوام جزئي في أوكلاهوما. زادت هذه الأجرة إلى سبعة دولارات ونصف بعد الساعات الثمانية الأولى وتضاعفت ثلاث مرات للساعات الأربع والعشرين الكاملة: مبلغ لم يسمع به قبلاً، خمسة عشر دولاراً في الساعة! قيل لنا أننا سنظل نعمل على ورديات من أربع وعشرين ساعة في أثناء الشهر الأول حتى يصبح الحريق تحت السيطرة.

أخذونا بالطائرة إلى مكان قريب من خط النار داخل الطائرة ذات شكل مضحك تسمى "الإوزة" بإمكانها أن تهبط على الماء: طائرة برمائية مخصصة للبحيرات. هبطنا، أو ربما يجدر بي القول رسونا على بحيرة صغيرة وخضنا مسافة حوالي خمسين متراً في مياه طينية عكرة نحو الشاطئ. كنا قريبين من النار لأن الهواء كان مثقلاً بالدخان. وصلت بقية الطواقم في طائرات مشابهة بمجموع بلغ خمسة وأربعين رجلاً. بعدها تم تقسيمنا إلى مجموعات من خمسة عشر رجلاً، كل مجموعة على رأسها قائد يسمى "زعيم القش"، وتم تأسيس قاعدة

مخيم مزود بخيام يتسع كل منها لشخص واحد، نأوي إليها عندما نغير الورديات في نهاية الأسبوع. كان صيفاً دافئاً، جعلته الحرائق أكثر دفئاً، كما استمرت البعوضات في جعل حياتنا جحيماً. كان البعوض كثيراً لدرجة أننا كنا نسحق المئات منها داخل قبضات أيدينا. من حسن حظنا أنه صرفت لنا قوارير من طارد البعوض، الذي كان فعالاً معظم الوقت. بدونه سيصبح العمل مستحيلاً.

"زعيم القش" التابع لنا، مايك، شخص ملون، زنجي من كانساس، ظل يضحك علينا "الزنابق البيضاء" الذين يحب البعوض دماءهم. ادعى أن البعوض لا يزعجه لأنه أسود. مايك رجل برية ذو خبرة واسعة وقد كافح حرائق الغابات في ألاسكا وكندا لسنوات عديدة. أنقذنا نحن القادمين الجدد من عدة أخطاء. حذرنا بشكل خاص من الحيوانات الهاربة مثل دب ألاسكا البني وقط ألوَشَق المشاكس، وقد حصلت لنا تجارب تحطم الأعصاب مع الفصيلتين.

تكون عملنا في البداية من حفر واقيات النار بشكل رئيس، أو خنادق عميقة عريضة تنظف منها جميع أنواع الأعشاب أو الأشجار وأية عناصر قابلة للاشتعال. المقصود بهذه هو إيقاف النار من التحرك إلى مسافة ابعد. لكن كل شيء ظل يعتمد على اتجاه الريح، والتي ظلت تتغير بدون توقف وأبقتنا نركض من منطقة إلى الأخرى بشكل مستمر وبدون توقف.

كان العمل يكسر الظهر، متعباً بدنياً، خاصة وأننا اضطررنا إلى العمل على شكل ورديات لمدة ٤٨ ساعة بلا توقف. عندما كانت الوردية التالية تحضر لتستلم العمل، كل ما نفعله هو التهاوي داخل خيمنا الصغيرة والنوم لطرد الإرهاق لمدة ١٢ ساعة متواصلة على الأقل. ولم يكن النوم سهلاً أيضاً، أولاً، لأن ألاسكا في وسط الصيف يستمر ضوء النهار لديها ٢٤ ساعة. لكن إرهاق العمل كان يغيبنا جميعاً عن الوعي، وسرعات ما أضعنا أثر مرور الأيام والليالي.

كنا ننقل مواقع المخيم مرة كل بضعة أيام اثناء عملنا حول خط النار. تكوّن طعامنا في الأساس من فائض تموين الجيش نوع "ج"، مع تدعيم بالستيك والخضار حين كانت "الإوزة" تحط عندنا في مهماتها الأسبوعية وتسقط التموين علينا، كانت الشرائح ولائم نتلهف إليها على الدوام.

مشكلتنا الرئيسة هي ماء الشرب. لم يكن بالإمكان إسقاطه بواسطة "الإوزة"، فالماء أثقل وأكبر حجماً من إمكان حمله بالطائرة ثلاثمائة كيلو متر شمالاً. لذلك بتنا مضطرين إلى الاعتماد على أنفسنا للعثور عليه. بمجرد عثورنا على مصدر مثل غدير نظيف أو نبع، كنا نرسل شخصاً ليعود ويحضر ملء دلوين يكفينا للساعات الأربع والعشرين التالية.

تبادلنا الأدوار في أداء هذا الواجب المهم. وكما هو طبيعي حول مثل هذه المخيمات، كنا دائماً نترك ورائنا مزبلة من العلب الفارغة وبقايا الطعام حتى تكون الطريق التي يستخدمها حامل الماء هي الرجوع حتماً إلى هذه المواقع القديمة. ولكن الخطر يكمن في هذا العمل بالذات. لأن مكبات الفضلات هذه كانت تزورها الوحوش الجائعة بشكل منتظم، ولم يعد هناك مفر من أن يواجه حامل الماء دباً متوحشاً أو وشقاً جائعاً.

أخبرنا مايك، "زعيم قشنا" أنه قبل مجرد شهر واحد، حصلت لأحد أعضاء فريقه مواجهة سيئة الحظ مع دب وأنه انتهى به الأمر مصاباً بجراح بليغة قبل أن يتدخل هو وفرق أخرى ويجفلوا الدب حتى أبعدوه. حملت طائرة الرجل عائدة به إلى فيربانكس ناقصاً أحد ذراعيه ومصاباً بخدوش وسحجات على كامل جسمه. بعد مثل هذه القصص، أصبح من الصعوبة بمكان العثور على متطوعين يقبلون بالسير عائدين على الممر لجلب الماء. لكن كان لا بد من إحضار الماء لأننا لا نستطيع العيش مدة طويلة بدونه.

اقترح مايك نظام جدول خدمة، يقوم بموجبه كل عضو فريق بدوره لأداء المهمة. وبما أننا كنا خمسة عشر رجلاً، فإن ذلك يعني أن كلاً منا سيؤدي هذه المهمة مرة واحدة كل أسبوعين، على الأقل. لم يكن هناك اي بديل. لا تستطيع الإوزة أن تلقي الماء إلينا من الجو. ولكن حتى لو استطاعت، فهي لن تتمكن من تحديد موقعنا بسبب كثافة الغطاء الدخاني.

شاء الحظ أن يحين دوري في بداية الأسبوع الثاني. اعتقدت أنني محظوظ لأنني لن اضطر إلى السير مسافة طويلة عائداً إلى مصدر الماء. لأننا لم نترك خلفنا سوى ثلاثة مواقع قمامة. وهكذا، وجدت نفسي، الشركسي المشتت، المولود في الأردن، انطلق في برية الأسكا في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام أحمل دلوين معلقين على عصا من البلوط الصلب فوق كتفيّ.

اقتربت من كل موقع مخيم بحذر، أتنصت لأية اصوات غريبة، ثم استأنفت سيري نحو النبع بدون أية إصابة. استغرقت الوقت الذي أريده وأنا أغسل عن جسمي قذارة الأيام السبعة والدخان، وسبحت في أنحاء بركة النبع الصغيرة لحوالي ساعة بدون اي هم في الدنيا. بعدها بدأت عودتي البطيئة إلى المعسكر حاملاً دلوين ممتلئين بالماء. كان لدي الكثير من الوقت للعودة لأن نور الشمس في صيف الأسكا لم يكن مشكلة. فقد نسينا ما يعنيه هبوط الليل.

كان موقع القمامة الثاني فوق مرتفع صغير، ولاقيت صعوبة في صعود التلة بسبب حمولتي. الموقع نفسه مخفي عن النظر أثناء الاقتراب من جهة النبع على الطريق. كانت هناك شجرة وحيدة على القمة، وأذكر أنني فكرت لنفسي بأنني يجب أن أجلس تحت تلك الشجرة، وأسند ظهري إليها، واستريح لوهلة قبل أن أستمر. عندما وصلت إلى القمة وكنت على وشك تنزيل حمولتي، نظرت إلى الأعلى ورأيت، على مسافة أقل من خمسة أمتار مني، شكلاً بنياً هائلاً يبحث بين العلب الفارغة

والقمامة. تجمدت. نسيت لبضع ثوانٍ ما قاله لنا مايك سابقاً عما ينبغي عمله في موقف كهذا. إنه إذا واجهنا دباً أسود فهو لن يكون على تلك الدرجة من الخطورة، وأن الدب البني سوف يهاجم إذا استفز، لكن الدب الرمادي الأشيب سيهاجمك مثل شيطان مجنون يريد أن يقطعك إلى أشلاء. ما رأيته واقفاً قريباً مني هو دب بني، لكنه دب بني هائل الحجم. نسيت أن ما كان يفترض في عمله هو تسلق الشجرة التي بقربي على وجه السرعة.

لا بد وأن ما خبرته في تلك اللحظة هو الخوف الحقيقي، نوع الخوف الذي يمكن أن تواجهه مرة واحدة أو مرتين طيلة حياتك. خوف باعث على الشلل إلى درجة أن كل ما تريد عمله هو إما أن تغمض عينيك وتتلو صلواتك الأخيرة، أو تبلل بنطالك حتى الإبتلال التام. جف فمي كلياً بحيث لم يعد بالإمكان خروج أي صوت منه، مهما خطر لي أن أحاول الصراخ.

ظل الدب موجهاً مؤخرته إليَّ، ولا بد أن ما أعادني إلى الواقع بصدمة هو ضجيج البعثرة الذي أحدثه بمخالبه وهو يبحث بين العلب الفارغة. تذكرت أنه يجب علي أن أتسلق الشجرة بسرعة، لذلك ألقيت بالدلوين إلى الأرض بخبطة متفجرة، الأمر الذي أجبر الوحش الهائل على الوقوف على قائمتيه الخلفيتين. استدار نحوي، ولكنه بدلاً من القدوم إلى الأمام، أخرج صوتاً أقرب إلى الزمجرة، تراجع ثم ابتعد ببطء، بدون حتى أن يلقي نظرة إلى الخلف باتجاهي. تسلقت الشجرة حتى نصفها بكل الأحوال، وبقيت هناك إلى الأبدية.

واجهت في تلك الليلة أربعة عشر وجهاً ظمآناً وأخبرتهم بما حصل. سخر مني معظمهم، وربما أن بعضهم لم يصدق حكايتي. لكن مايك فهم الوضع. قال لي أنه لو كان ذلك الدب رمادياً أشيب، لكنت في عداد الأموات، ولذلك فلا بد وأنه كان دباً بنياً عادياً. أصر منذ ذلك اليوم على ذهاب رجلين سوياً كل يوم، مع بندقية محشوة بالرصاص في يد

أحدهما في حال عاد مثل ذلك الطارئ إلى الحدوث. عملنا، جو وأنا في ذلك الحريق الهائل لمدة شهرين، وحصلنا على مبلغ هائل حد القرف من المال بحيث شعرنا كلانا كأننا من أصحاب الملايين، باع جو مركبته وركبنا طائرة إلى جونو على الساحل الغربي لنحتفل. سمعنا هناك الكثير عن دببة الكودياك التي تعيش على الجزيرة المسماة باسمهم، إلى درجة أنني أقنعت جو باستئجار طائرة سيسنا صغيرة حتى نستطيع أن نطير بها فوق الجزيرة لمدة ساعتين، نراقب هذه المخلوقات الرائعة الهائلة وهي تفر من الصوت المزعج لمحركنا. كانت رحلة جديرة بالتذكر وتستحق كل فلس أنفقناه عليها.

ذهبت إلى إيرلهام في الخريف والتحقت في سنتها الثانية بتوقعات عظيمة في الالتقاء بأصدقاء جدد والانغماس في الدراسة. ربما لم تكن قد مرت مجرد سنة على وصولي إلى أمريكا، لكنني شعرت بأنني أكبر بكثير من سنوات عمري التسعة عشر.

الفصل السادس عشر

أصبح ألوشا قادراً على المشي مرة أخرى. كل خطوة تؤلمه، وتدفع بدموع الألم إلى عينيه، لكنه على الأقل يستطيع أن يحفظ توازنه لوحده، بدون أن يتكئ على أي من صديقيه. في كل يوم يقضي وقتاً أطول من سابقه واقفاً على الساق الخشبية الملمعة التي صنعها له ستينكو، مجبراً نفسه على تحمل الألم ليمشي بضع خطوات أكثر من اليوم السابق. يضع إحدى قدميه أمام الأخرى بحرص وعناية، وهو يعرج بدرجة خطرة أثناء محاولته استعادة توازنه ليقوم بالحركة التالية. حرص عسكربي وألبرت على عدم التدخل. أبقيا عينيهما بعيداً عن عيني صديقهما وعن تقدمه البطيء إلى درجة العذاب مخافة أن لا يتمكنا من منع نفسيهما من القفز لمساعدته وإشعال غضبه المكبوت.

احتكت جدعته، حتى مع الطبقة السميكة من الضمادات التي حرصوا على تغييرها بلطف كل ليلة، حتى بان اللحم من شدة الإجهاد. حاول كل من عسكربي وألبرت أن يقنعاه بأن يأخذ الأمور بدرجة أبطأ، أن يعيد بناء قواه قليلاً مع كل يوم، مطمئنين إياه على أن بإمكانهم البقاء في الحظيرة لمدة سنة، إذا غدا ذلك ضرورياً، حتى يصبح قوياً بما يكفي لأن يسافر براحة.

لكن ألوشا عرف أنهم لا يقولون الحقيقة. عرف أن كل يوم إضافي يقضونه مع ماريا وستينكو يزيد من إمكانية اكتشافهم من قبل دورية روسية مارة. عرف أنه لو حصل ذلك فلن يقتل هو وعسكربي وألبرت فقط، بل ربما ماريا وستينكو أيضاً، ربما أيضاً أناس آخرون أبرياء من

المزارع المجاورة، يشك في أنهم علموا بوجودهم هناك. سيفترض الروس أنها كانت مؤامرة هائلة ضدهم ويحتمل أن يقتفوا آثار كوفيليتش، البيطري، يعدمونه هو وعائلته لدوره في عملية الخداع. أصبح الثلاثة بحاجة ماسة إلى الهروب وعبور الحدود إلى مناطق يديرها البريطانيون أو الأمريكان بأسرع ما يمكن.

وهكذا صار ألوشا يدفع بنفسه إلى أقصى درجات تحمله في عجالته للاستعداد للمشي. استولت على مشاعره معضلة مؤلمة، استمرت في دفعه إلى الأمام. إذا بقي في المزرعة وقتاً أطول مما يجب، فهو يعرض حياة الجميع للخطر، لكنه إذا غادر قبل أن يتقوى بدرجة كافية للسفر بسرعة، فهو أيضاً سيعرض حياة رفيقيه للخطر بتأخيرهما وجعلهما أقل قدرة على البقاء مختفين عن الأنظار. في معظم الأيام، حينما يرهقه الإجهاد والألم، كان يتوسل إليهما أن ينطلقا ويغادرا بدونه، لكن أياً من صديقيه لم يقبل بالإنصات إليه. أخبرهما أن بإمكانهما تركه، وأنه سيجد طريقة للاختفاء وسط المجتمع المحلي، لكنهما أدركا أن ذلك وهم جامح، وأدرك ذلك هو الآخر. إذا تركاه خلفهما فسيصبح الأمر مسألة وقت ليس إلا، قبل أن يتم العثور عليه وإعادته إلى روسيا أو إعدامه على الفور. بقي احتمال قوي قائماً بأن يؤسروا كلهم بجميع الأحوال عندما يحين الوقت لمحاولة مغادرة البلاد، لكن الاحتمالات ظلت أفضل من البقاء، فالأفضل هو محاولة الهروب، على الأقل.

تدريجياً، أصبح الجلد على جدعته أكثر صلابة. ظل المشي مؤلماً، وظل يعاني من آلام شبحية في الجزء المفقود من ساقه، لكن على الأقل، لم يعد اللحم مكشوفاً، دامياً. أصبح هم ألوشا الرئيس الآن هو البطء الذي يمكنه التحرك به. توفرت لديه العزيمة والقوة والتصميم على الاستمرار في المشي لعدة كيلومترات، لكنه إذا اضطر إلى الجري بشكل مفاجئ، فسينتهي أمره، وهو يعرف أن الآخرين لن يتركاه يواجه العدو لوحده، ما يعني أنه سيتم القبض عليهم جميعاً أو قتلهم سوياً.

في إحدى الأمسيات، وبينما هو جالس مع ستينكو، يدخنان ويحدقان في السماء الربيعية، وعسكربي وألبرت يغطان في نوم عميق، استجمع ألوشا ما يكفي من الشجاعة ليجهر بما يدور في ذهنه. قال "ستينكو، لقد كنتما، ماريا وأنت، في غاية اللطف والكرم تجاهنا، بمنحنا الملاذ وإطعامنا في الوقت الذي يمكن فيه أن نصبح السبب في القبض عليكما وإعدامكما".

أخرج الرجل المسن صوت زمجرة خفيضة من حلقه، أوحت بأنه يفضل أن لا يستمر ألوشا في هذا البوح العاطفي. لكن ألوشا لم يرض بالتوقف. فقد ظل يتمرن على هذه الخطبة لمدة أطول من أن يسمح لنفسه بالتخلي عنها حالياً.

"هناك صنيع واحد آخر أريده منك. وأدرك أنه طلب كبير".

لم يقل ستينكو شيئاً: بل أنه لم ينظر حتى إلى الرجل الأصغر سناً، بل اكتفى بالتحديق في السماء ببساطة، ونفث من غليونه كأنه لا يسمع شيئاً. عرف ألوشا أنه يصغي.

"هذه الساق التي صنعتها لي تعمل بشكل جيد، لكنها لن تحل محل تلك التي فقدتها أبداً".

لم يصدر أي رد فعل.

"إذا حاولت أن أعبر بولندا مع عسكربي وألبرت، فمن المحقق أنني سأتسبب في إبطاء سرعتهما والقبض عليهما". توقف قليلاً، لكن ستينكو بقي على حيادة وعدم استجابته.

"أريدك أن تساعدني على الهرب لوحدي. وقتها، إذا ألقي القبض علي فلن أكون مسؤولاً عن أحد سوى نفسي، وسيتمكن الآخران من الهرب إلى النمسا بدون إعاقة رجل بساق واحدة".

سحب ستينكو نفساً طويلاً من غليونه، وتنهد كأنه متعب وجاهز

للذهاب إلى فراشه، نفض الغليون ونظفه على حجر قريب ثم نهض واقفاً، ومفاصله العتيقة تطرقع لتأخذ مواقعها.

"ليلة سعيدة يا صديقي" قال، بدون أن ينظر إلى ألوشا، ومشى مبتعداً ببطء، عائداً إلى بيت المزرعة وكأنه لم يسمع أي شيء كان يقوله ألوشا له.

جلس ألوشا لبضع دقائق، يحدق في ظهر الرجل المغادر. شاهد ومضة من الضوء الدافئ حينما فتح باب مطبخه وأغلقه وراءه، ثم لم يعد هناك سوى السماء المعتمة. لم تكن لدى ألوشا أية فكرة عما إذا كان ستينكو ينوي أن يساعده أم لا.

في اليوم التالي، اختفى ستينكو منذ الصباح الباكر، ولم تقل ماريا أي شيء عن المكان الذي يحتمل أن يكون قد ذهب إليه حينما أحضرت لهم طعامهم. افترض الاثنان الآخران أنه ذهب إلى السوق المحلي حتماً. أمضى ألوشا يوماً آخر يمرن ساقه جيئة وذهاباً على طول الحظيرة، وقد انشغل ذهنه إلى درجة أنه لم يكد يشعر بالألم. لم يذكر شيئاً عما تأمل في أن ستينكو يقوم بتحضيره للاثنين الآخرين. فقد قال سابقاً كل ما استطاع أن يقوله وعرف أنه لن يقدر على إقناعهما بتغيير رأيهما حول تركه خلفهما.

أصبح مضطراً إلى إجبارهما على تقبل الوضع واتخاذ زمام المبادرة بنفسه.

صباح اليوم التالي، ومع بشائر النور، أفاق الرجال الثلاثة مجفلين على صوت طرق شديد على باب الحظيرة. تحرك عسكربي وألبرت بصمت ليقفا على جانبي الباب، جاهزين للانقضاض على أي شخص يدخل، بينما وازن ألوشا نفسه وأزاح الرتاج الذي كان ستينكو قد ركّبه لهم.

ألفوا ستينكو واقفاً في الخارج مع رجل آخر. قال "هذا بافل، إنه ابن

عم ماريا".

تراجع ألوشا ليسمح للرجلين بالدخول. كان بافل أصغر سناً من ستينكو، لكن ليس بكثير.

رجل ضخم الجثة بشعر أجعد ما زال يحتفظ بسواده، رغم بدء ظهور خصل من الشيب. وجهه حزين وبه خطوط عميقة من العمل في الحقول طيلة حياته. حينما صافحهم، شعروا بقبضته وكأنها ملزمة، وقد اشتد الجلد وخشن فوقها من العمل الشاق.

ظهر على ستينكو الإحراج بشكل واضح، إذ لم يكن واثقاً من كونه يقوم بالعمل الصحيح، غير متأكد من نوع رد الفعل الذي سيحصل عليه من ألوشا لما يقوم به. راوح في مكانه ونظر إلى الأرض أثناء كلامه. تمتم "لدى بافل عربة. وهو يسافر بها عبر البلاد، ليقوم بتوزيع منتجات مزرعته. وهو يبتعد أحياناً إلى حد الحدود النمساوية".

انتظر الرجال الثلاثة، ينقلون أبصارهم بين مزارع والآخر، ثم يعودون، متسائلين عما هو متوقع منهم أن يقولوه. لم يستطع ألوشا أن يفهم السبب في مخاطبة ستينكو لثلاثتهم سوية".

قال بافل "هي عربة كبيرة" بنبرة كبرياء في صوته "بها مساحة كبيرة. إذا أردتم، بإمكاني أن أوصلكم". حذره ألوشا "سيشكل ذلك خطورة عليك". وقد أدرك أن الرجل العجوز قد رتب هذا الأمر حتى لا يضطر هو إلى الانفصال عن صديقيه، فاجتاحته موجة عارمة من الانفراج والراحة. فهو لم يكن يستحسن فكرة البقاء لوحده.

نفض بافل كتفيه "علينا أن نقوم ببعض المخاطرة في سبيل الحق. أنا رجل عجوز الآن، وقد توفيت زوجتي. ليس لدي من يعتمد علي. أستطيع أن أساعد".

نظر ستينكو بمكر إلى ألوشا من زاوية عينه، محاولاً أن يستنتج ما إذا كان الشاب غاضباً. انفرجت أساريره لدى رؤيته ألوشا ينظر إليه

مبتسماً.

قال ستينكو بحماس مفاجئ "هنالك صناديق تخزين في العربة. بالإمكان تفريغها ويمكنكم الاختباء بداخلها أثناء السفر. يستطيع بافل أن يخبركم كلما أصبح الوضع آمناً لخروجكم. سيكون ذلك أكثر أماناً من المشي. بعض أفراد الدوريات الروسية يعرفونه أصلاً".

نظر في عيني ألوشا مباشرة، لكنه لم يقل المزيد. أدرك ألوشا في هذه اللحظة أن ستينكو يستجيب للأشياء التي قالها له قبل ليلتين. لقد كان الرجل العجوز يصغي إلى كل كلمة، وقد صمم هذه الخطة كجواب وحل. تذكر جده وهو ينظر إليه، الذي تركه هناك في قريته بالقفقاس، وأحسّ برابط قوي يشدهما. من حسن الطالع أن في الدنيا بعض الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم في اتخاذ الإجراء الصحيح.

قال بافل "أرجوكم/ اقبلوا هذا العرض. إنه أفضل فرصة يحتمل أن تسنح لكم للنجاة، إن نشاط الدوريات يتزايد في هذه المنطقة. هي مجرد مسألة وقت قبل أن يتم العثور عليكم هنا، وقتها ستعرضون حياة ستينكو وماريا للخطر، إضافة إلى حياتكم".

أصدر ستينكو صوت شخير رافض، وكأن حياته ليست مهمة. نظر الرجال الثلاثة الأصغر سناً إلى بعضهم بعضاً بدون أن يتكلموا. فقد كان يفكرون في الأمور نفسها. عرفوا أن لديهم فرصة أفضل بوجود المساعدة من اعتمادهم على أنفسهم، وعرف كلهم أن ألوشا ستتاح له فرصة أفضل بكثير إذا توفر له النقل لجزء من الرحلة على الأقل.

تكلم ألوشا نيابة عنهم "نحن نقبل عرضك بامتنان. متى تحب أن نغادر؟".

قال ستينكو "إذا كنتم تنوون الذهاب، يجب ن تغادروا على الفور. لأن بافل لا يمكنه أن يخاطر بالعودة إلى هنا مرة أخرى في حالة رآه أحدهم وسأله عما يفعله".

سأل عسكربي صديقه ألوشا "هل أنت جاهز للمغادرة؟ هل ستتمكن من القيام بالرحلة؟".

"طبعاً" قال ألوشا ضاحكاً، وقد أحسّ بالانفراج لأنهم لم يعودوا مضطرين إلى الجلوس منتظرين مدة أطول "أشعر بأنني أستطيع أن أركض المسافة كلها".

جاءت لحظة المغادرة مشحونة بالعواطف بالنسبة لألوشا. لم يتمكن من التعبير عن مشاعر الشكر والامتنان التي شعر بها تجاه ستينكو. احتضن الرجل العجوز ففاضت الدموع في عينيه: فقد أحسّ فعلاً وكأنه يودع قريباً حميماً له. كذلك عبر الرجلان الآخران عن تقديرهما لكل ما فعلته هذه العائلة البولندية الفقيرة لهم. أرادوا أن يودعوا زوجته لكنهم لم يتمكنوا من رؤيتها. أخبرهم ستينكو أنها تكره مراسم التوديع، وأنها أصبحت عاطفية جداً أواخر أيامها.

راقبت ماريا من شباك المطبخ بينما تدحرجت عجلات العربة خارجة من ساحة المزرعة بتؤدة، يجرها الحصان المسن المتعب، الذي لم يتوقف بافل عن استخدامه منذ وقت لم يعد يذكره. أدت صلاة لسلامتهم، وهي تتمتم مزاميرها بنعومة وترسم إشارة الصليب على نفسها. فمن ناحية، شكلت مغادرتهم المزرعة مصدر انفراج وراحة لها، فقد حررتهم من خطر داهم مباشر. ومن ناحية أخرى، فإن رؤية الناس الذين اعتنت بهم واستأنست بوجودهم حولها يغادرون فجأة، شعور مؤلم.

عرفت أنهم لن يشاهدوا بعضهم بعد الآن أبداً، وأحزنها ذلك مرة أخرى.

وقف ابن عمها على صندوقه، منحنياً في جلسته النكدة المعتادة، بينما بدأت محاصيله تتقافز وتتحرك في الخلف. فوجئت بمقدار شيخوخته الواضحة. فقد كبروا وشاخوا كثيراً في السنوات الأخيرة،

كلهم. تذكرت بافل بوضوح كصبي صغير، ممتلئ بالشقاوة. تذكرت رقصه في حفل زفافها إلى ستينكو، سكراناً إلى درجة الثمالة، ويخبرها أنه ظل على الدوام راغباً في الزواج منها بنفسه. لكن الحياة في بولندا سحقته، تماماً كما سحقتهم جميعاً، بحيث تسببت في اهتراء الفرح الذي أحسوا به لكونهم أحياء في الزمن الغابر. غمرتها موجة حزن أخرى، وتعب قريب من الإرهاق.

"هل ذهبوا معه؟" سألت عندما دخل زوجها من الباب.

هزّ رأسه قائلاً "كان الله معهم".

"هل لديهم اية فرصة في النجاة؟".

هزّ رأسه نفياً وقال "الفرصة قريبة من الاستحالة". هناك دوريات روسية في كل مكان. لكن فرصهم هنا كانت أقل. لأن الجنود يفتشون كل قرية في المنطقة، ولو أنهم راجلون، لما كانت لديهم أية فرصة على الإطلاق".

سألت ماريا "وماذا عن بافل؟" بصوت غلب عليه الارتجاج "سوف يقتلونه أيضاً إذا عثروا عليهم". قال ستينكو بخشونة "هو يعرف الخطورة، لقد أراد أن يساعد. لم أجبره على شيء".

"أعرف ذلك" قالت ماريا، وقد رأت الحزن في قسمات وجه زوجها. "ليس لديك ما تلوم نفسك عليه".

على جوانب العربة، تحت أكوام الخضار وأكياس الحبوب، رقد الشباب الثلاثة وكأنهم قد أدخلوا في توابيتهم، مطمورين تحت المزيد من منتجات المزرعة. كل حفرة في الطريق جعلت أجسامهم تهتز وتقفز، تضرب رؤوسهم وأردافهم وأضلاعهم وتسحجها. لم يكن الألم بالنسبة لألوشا قريباً بأية درجة من العذاب الذي عاناه من جدعته خلال الأسابيع الماضية. أسوأ شيء بالنسبة له هو الشعور بكونه محشوراً بكمية قليلة من الهواء. أصبح الوضع شبيهاً بمن دفن حياً.

أخبرتهم الضجة التي أحدثتها العجلات تحتهم بأنهم لن يكونوا قادرين على سماع أي شيء مما يدور حولهم. يحتمل فقط بين الفينة والأخرى أن يسمعوا صوت سيارة أو شاحنة مارة، لكنهم لم يستطيعوا أن يتيقنوا. صار الوضع أشبه بعالم اختفى وماتوا مسبقاً. اعتمدوا على الرجل العجوز الذي عرفوا أنه جالس فوقهم مثل ملاك حارس، ولم يعد بمقدورهم رؤيته أو سماعه، لكل حاجاتهم.

ذلك المساء، وبينما ماريا تهم بإغلاق باب قن الدجاج، وصل الجنود. سمعت أصوات شاحناتهم أولاً ثم عرفت هويتهم على الفور بدون أن تدير رأسها عن عملها. سحبت وشاحها وأنزلته أكثر فوق حاجبيها وأحنت رأسها حتى انحجبت عيناها. لم تشأ أن تمنحهم القدرة على رؤية أي قدر من الخوف في وجهها.

مع عودتها تدب على مهل إلى بيت المزرعة، كان الضابط المسؤول قد انهمك في محادثة مع ستينكو في المطبخ. كان زوجها يدعي بأنه أكثر صمماً وغباءً مما هو عليه. تجاهلتهم ماريا كلهم وخطت نحو المدفأة وكأنها أكثر انشغالاً من أن تزعج نفسها بشؤون الرجال والحرب.

تزايد الضيق لدى الضابط وهو يحاول أن يجعل ستينكو يخبره ما إذا كان قد رأى أي فارين من الخدمة العسكرية حول أبنيته، وظل العجوز يصر على عدم فهم ما يقال له، ينفض كتفيه ويدمدم مثل أحمق بسيط.

لم تقل ماريا شيئاً، وقد أحنت رأسها وهي تشغل نفسها عند المدفأة. سمعت الضابط يصدر أمراً غاضباً واستدارت في نفس الوقت لتشاهد جنديين شابين يمسكان بذراعي زوجها من كل جانب، ويشدانهما خلف ظهره بينما قام الضابط بتوجيه عدة لكمات إلى معدته. صعد الغضب داخلها إلى درجة الغليان، لكنها أجبرت نفسها على النظر بعيداً. إذا استطاعت أن تحافظ على سلامتها الشخصية، فلربما ستتمكن من العناية بستينكو حتى يصح، بعد ذهابهم. أما إذا أغضبتهم فسوف

تضرب وربما حتى تقتل. تمتمت بصلاة خافتة وانتظرت توقف أصوات الضرب.

توقفت الأصوات بعد لأي، وسمعت صوت جسم ستينكو يسقط إلى الأرضية. أمسكت يد قوية بذراعها لتواجه الجنود. أطلق الضابط أسئلته بالصراخ، ورأت زوجها منطرحاً على الأرض بلا حراك خلفه. هزت رأسها واستمرت في الصلاة، شفتاها تتحركان ولا يصدر عنهما أي صوت، عيناها مسمرتان على الأرض، وتحاول أن لا تنظر إلى جسم زوجها الساكن. رفع الضابط قبضته وهم بلكمها، غير رأيه وخرج من البيت مسرعاً، آمراً الجنود أن يتبعوه.

ركضت ماريا إلى ستينكو وركعت بجانبه. كان يتنفس بثبات وعيناه مفتوحتان، لكن كان الدم ينقط من زاوية فمه، وبدا أنه غير قادر على الكلام. رقدت ماريا إلى جانبه ببطء واحتضنت رأسه في حجرها. لم ترغب في محاولة إنهاضه قبل أن ينصرف الجنود. تناهت إلى سمعها أصوات صراخهم على بعضهم في الساحة خارجاً. ثم عادوا إلى المطبخ، سحبوها هي وستينكو، أنهضاهما وسحباهما إلى الهواء البارد في الخارج. كان ستينكو يتعثر، بالكاد يقدر على الوقوف. حمله الجنود ودفعوه باتجاه الحظيرة، حيث وقف الضابط ينتظرهما. بدا عليه الغضب.

ألقي كلاهما على أرضية الحظيرة، وبدأ الضابط يطرح عليهما الأسئلة. فقد عثر على أدلة بوجود شخص ما، يعيش هناك، قطع من الطعام والآنية الفارغة، القش مسحوق تحت ثقل الأجساد. لم يزعج نفسه للإصغاء إلى أية أجوبة يحتمل أن يعطيها له الزوجان المسنان، بل استمر في الصراخ، مشيراً إلى الأشياء وعائداً إليهما بالمزيد من الأسئلة.

رأت ماريا أن ستينكو قريب من الإغماء. أرادت لو تستطيع أن تحيطه بذراعيها وتحميه، لكنها أدركت أنها إذا تحركت، فإن ذلك

سيتسبب في إغضاب الضابط أكثر، لذلك اكتفت بالرقاد حيث هي، تصغي إلى تقريعه المطوّل، لا شيء لديها لتقوله.

في النهاية، قرر الضابط أن يغير أسلوبه. أصدر أوامر حازمة للجنود الذين جروا ماريا وستينكو عائدين بهما إلى الخارج، دفعوهما إلى جدار الحظيرة وأمسكوا بهما بينما سحب الضابط مسدسه وصوبه إلى رأس ستينكو. ظنت ماريا أنه سيجبرها على التكلم بالتهديد بقتل زوجها.

كانت مخطئة. فقد تعب الضابط من محاولة جعلهما يتكلمان: إنه سيقدم ببساطة على إعدامهما. سمعت الطلقة وأحسّت برطوبة دم زوجها على وجهها. حاولت أن تدير رأسها لتنظر إليه للمرة الأخيرة لكنها لم تستطع أن تتحرك. شعرت ببرودة ماسورة المسدس، ثم لا شيء آخر.

حفر الجنود قبرين قليلي العمق لجثتيهما، ثم أخذوا كل ما يمكنهم حمله من بيت المزرعة، وذبحوا الدجاجات وربطوا الحصان خلف إحدى مركباتهم. لم يظهر عليهم أي انزعاج من كل ما جرى خلال الساعات القليلة الأخيرة. فهم جنود، ينظفون في نهاية حرب. وهذه مجرد وظيفة. رفعت فكرة الحصول على وجبة ساخنة من معنوياتهم.

أبلغ الضابط بواسطة جهازه وسط ذبذبات الموجات الهوائية وطقطقات الكهرباء أنه عثر على حظيرة تحوي آثاراً تدل على اختباء بعض الفارين من الخدمة أو السجناء الهاربين فيها سابقاً. اقترح أنهم ربما لا يزالون في المنطقة. وأنه يجب المباشرة في البحث بسرعة، قبل ان يسنح لهم الوقت ليبتعدوا أكثر مما يجب.

توزع أفراد دورية روسية قضت أسابيع في الجبال، حول نار معسكرهم، يتذمرون من الجوع الذي ينهش أمعاءهم، حينما لمحوا عربة بافل تقترب فوق طريق الوادي. سمعوا مسبقاً على الجهاز أنه

يعتقد بوجود عدة جنود فارين في المنطقة لكنهم كانوا مهتمين أكثر بالاختصام على المؤن التي بقيت في حوزتهم، من البحث عن رجال شاردين في الغابات. إذا صادفوهم فسوف يقتلونهم، لكنهم لا ينوون الخروج للبحث عنهم وتصيدهم. فقد قيل لهم أن يطلقوا النار عند مرأى الجنود إذا أبدوا أية مقاومة أو حاولوا الهروب. اتخذوا مواقعهم بتكاسل وهم ينتظرون بافل حتى يصل إليهم. لم تكن هناك أية عجلة، فإن العربة تتحرك بسرعة حلزونية.

شاهدهم بافل من مسافة بعيدة فاستند إلى الخلف في مقعده. نقر ثلاث مرات بمقبض سوطه على كلٍ من صناديق التخزين الخشبية. كانت تلك إشارة متفق عليها سلفاً لتحذير ركابه الثلاثة من خطر محدق قادم، في حالة أن أياً منهم شعر بالحاجة إلى العطس أو رفع غطاء صندوقه ليتنشق بعض الهواء النقي.

مشى الحصان بتثاقل ثابت نزولاً في الوادي بينما وزع الجنود أنفسهم عبر الطريق، ممسكين ببنادقهم في وضع الاستعداد. سحب بافل سروع الحصان ليوقف العربة عندما وصل إليهم وأدى لهم تحية فاترة برفع يده. لم يتغير التعبير على وجهه. حدق فيهم بكآبة وانتظر الضابط المسؤول حتى يتكلم. تعرف على الرجل. فقد أوقفته هذه الدورية بالذات مرة قبل هذه فيما مضى: عرف بالضبط ما يتوقعونه مقابل السماح له بالسفر بدون مضايقة.

حياه الضابط بقوله "مساء الخير أيها الرفيق، جميل أن نراك تمر بنا مرة أخرى".

"مساء الخير حضرة النقيب" أحنى بافل رأسه. لم يبتسم. فهم لا يتوقعون منه أن يسرً لرؤيتهم. عرفوا كلهم وعرف هو أنهم سوف ينهبونه. سيصبح الأمر موضع شك إذا حياهم بأي قدر من الترحيب الودي.

ضحك النقيب قائلاً "اضحك قليلاً يا صديقي، أنت شديد الشقاء دائماً، ومع ذلك فأنت أغنى رجل في المنطقة".

تذمر بافل قائلاً "أتمنى لو كان ذلك صحيحاً. وقتها ما كنت سأضطر إلى قضاء وقتي كله جالساً خلف هذا الحصان المنهك العجوز لمجرد تحصيل قوتي".

قال النقيب "رجالي جائعون، ماذا يمكنك أن تقدم لنا كبادرة صداقة من مخازنك الغنية؟".

ألقى بافل نظرة إلى الخلف نحو حمولة العربة وكأنه يحاول أن يقرر. في الواقع كان قد وضع بعض الخضار والأجبان جانباً تحوطاً لهذا الاحتمال بالذات. فهم سيتوقعون منه أن يساوم.

قال لهم "كل شيء موصى عليه، والكثير منه مخصص لقيادتكم العليا عبر الجبل. افترض أنني أستطيع أن أتقاسم معكم ما كنت أخطط لتناوله لوجبة عشائي".

مع توقف العربة نهائيا، أصبح بمقدور ألوشا، عسكربي وألبرت أن يسمعوا كل كلمة تقال. وسمعوا وقع خطوات الجنود لدى اقترابهم من العربة ليحملقوا من فوق الحافة.

"أشك في أن قادتنا العظام سيفتقدون بعض القطع والحبات". قال النقيب "أنا واثق من أنهم سيتفهموا أن رجالهم بحاجة إلى تناول طعام محترم إذا كانوا سيصبحون فعالين في تعقب الجنود الفارين والسجناء الفارين".

رد بافل بخشونة "أحب لو أراك تقول لهم ذلك حين يسألون إلى أين ذهب الطعام الذي وعدوا به".

"من حسن حظي أنني لن أضطر إلى إخبارهم. سوف تتمكن أنت من إخبارهم نيابة عني". بدأ النقيب يفقد صبره فمعدته فارغة، وهو

لا يريد أن يقضي مزيداً من الوقت يجادل هذا الفلاح العنيد الكئيب.

"أنا واثق من قدرتك على التفكير بمائة عذر. أنتم الفلاحون بارعون دائماً في إخبار الناس عن مدى صعوبة الظروف بالنسبة لكم، وكيف أنكم تكادوا تهلكون جوعاً من تغيرات الطقس أو بلاء الحشرات. أنا واثق من أنك ستفكر بشي ما".

هز رأسه باتجاه اثنين من رجاله ليصعدوا بين المحاصيل ويبدآ في الانتقاء. سمع الرجال الثلاثة المختبئون الأحذية الثقيلة وهي تنزل على العوارض الخشبية على بعد مجرد بوصات قليلة من حيث يرقدون. بدأت جدعة ألوشا تنبض بينما هو يجبر نفسه على البقاء ساكناً. تجمد قلبه هلعاً بضع ثوانٍ مع ارتفاع غطاء صندوقه ودخول النور إليه. حرص بافل على تغطيته بالقش والملفوف، لكن لو بدأ الرجل الذي ينظر إلى الداخل في هذه اللحظة بتفريغ الخضار كلها، فإن ألوشا سينكشف على الفور. عاد قلبه إلى الخفقان بضربة عالية إلى درجة أنه بات واثقاً من أنها ستفضحه. ضخ القلب الدم بقوة إلى أذنيه وهو يشعر برؤوس الملفوف المستقرة فوق كتفيه وهي تتحرك تحت تفحص الرجل. خف الوزن عندما انتقى الرجل راسين من أفضلها ثم سقط الغطاء بقوة وعاد ألوشا إلى وحدته مرة أخرى في العتمة. أصاخ السمع ليحاول أن يعرف ما إذا كان الصندوقان الآخران يفتحان بنفس الطريقة، لكن استحال عليه تبين ذلك.

أخذ بافل يتوسل "لا تأخذوا كل شيء، أنا مجرد فقير يحاول أن يحصل على قوت يومه. ليس لدي راتب أعتاش منه مثلكم".

"راتب!" أطلق النقيب نباحاً ساخراً "متى تعتقد كانت المرة الأخيرة التي دفعت لنا فيها رواتب؟ أشك في أن بوسع أحدنا أن يتذكر، والله يعلم متى سيدفع لنا مرة أخرى، طالما أن لديك عربة مليئة بالطعام، فأنت الرجل الثري بيننا".

سمع ألوشا الأحذية الثقيلة تتحرك بتثاقل عبر الأرض مرة أخرى، ثم سمع صوتها وهي تهبط على الأرض. اهتزت العربة قليلاً مع نزول الجنود عنها.

"إليك، أرأيت أيها العجوز،" قال النقيب، بلهجة هازئة أكثر منها مهددة "لقد تركنا لك أكثر مما هو كافٍ لعشائك ولزبائنك الغاليين".

زمجر بافل "كم من أمثالك ينبغي علي أن أطعم ما بين هذا المكان ونهاية رحلتي؟" بدون أن يسمح لصوته أن يعطي أي مؤشر على الارتياح الذي يشعر به.

أخبره النقيب "استمر في قيادتك وحاول أن ترفه عن نفسك. لا شك أننا سنراك قريباً مرة أخرى، لذلك تأكد من أنك تحمل لنا أشياء طيبة".

سمع ألوشا الجنود يضحكون واندفعت العربة ثم استأنفت طرقعتها الثابتة إلى الأمام. سمع بعد بضع دقائق نقرة مقبض السوط، تخبره أنهم الآن خارج مدى رؤية الدورية، فبدأ قلبه يهدأ. في وقت متأخر من تلك الليلة، وعندما شعر بافل أنه مخفي تحت الظلام بدرجة كافية، سحب السروع ليوقف العربة ونزل ليمنح حصانه المسكين قسطاً من الراحة. توقف للحظة، يصيخ السمع تحسباً لأية أصوات. لم يكن هناك شيء أعلى من نداءات بومة في الأشجار فوق رؤوسهم. تسلق متعباً إلى ظهر العربية ورفع أغطية الصناديق. سألهم:

"سوف أتوقف لهذه الليلة. فهل تريدون أن تخرجوا أو تمددوا أطرافكم وتأكلوا؟".

تسلق الشباب الثلاثة ممتنين إلى خارج أماكن اختفائهم، ينفضون القش ويخرجونه من شعورهم وملابسهم ثم يسحبون أنفاساً عميقة من الهواء النقي البارد. أشغل بافل نفسه في إحضار الخبز والجبنة

والنبيذ لهم جميعاً، بينما استمر ثلاثتهم في التمشي حول العربة بهدوء، وهم مكشرون بينما تدفق الدم عائداً إلى أطرافهم التي تخدرت جراء ساعات من الرقاد متكومين تحت أكوام من الخضار.

"يمكنني أن أصل بكم لغاية الحدود النمساوية" أخبرهم بافل، بعد أن فرغوا من تناول الطعام، وجلسوا في العتمة، يشعرون بالبرودة ولكنهم غير راغبين في إشعال نار يمكن أن تجتذب انتباهاً غير مرغوب فيه. "بعدها ستصبحون لوحدكم. على الأقل ستكونوا قد خرجتم من المنطقة الروسية".

بعد أن أنهوا طعامهم، غرقوا كلهم في النوم تحت العربة، وفي اليوم التالي، استأنفوا السفر مرة أخرى في أمكنة اختبائهم. وصلوا إلى الحدود النمساوية مع هبوط المساء التالي. عاين بافل المعبر من مسافة بضع مئات من الأمتار. كان هناك صف من العربات، ينتظر سلفاً للعبور، واستطاع أن يرى حرس الحدود الروس يفتشونها بدقة قبل أن يسمحوا لها بالمرور. ليست هناك طريقة يمكنهم بها تجاوز هذا الإجراء من التفتيش الدقيق. سحب المزارع العجوز جواده وأداره إلى الخلف ثم توجه به نازلاً في درب عربات ضيق، بعيداً عن الطريق الرئيس. جعلت الحفر العديدة ركابه يتقافزون ويتدحرجون في صناديقهم. أوصلهم الدرب الوعر عبر غابة، مروراً بمزرعة صغيرة. راقبهم عمال، جالسين في أحد الحقول، يستريحون بعد عناء عمل يوم شاق، بدون إبداء أية إشارة للتعرف عليهم. استمر بافل في القيادة لساعتين أخريين مع تضاؤل مقادير النور، ووصول معالم الدرب إلى حد الاختفاء في بعض الأمكنة. تمايلت العربة بدرجة خطيرة من جانب إلى الآخر مع سقوطها في الحفر وصدمها للحواف. تباطأت سرعة الحصان درجة بعد الأخرى مع زحف الإرهاق إلى أوصاله.

أخيراً، اتسع الدرب مرة أخرى ليصبح طريق عربات محترماً، واهتزوا في طريقهم صاعدين تلة أخيرة وصولاً إلى طريق جانبي ضيق.

لاحت الحدود النمساوية أمامهم مرة أخرى، بدون أي أثر للجنود هذه المرة.

سحب بافل سروع الحصان وأخرج ركابه. وقفوا صامتين لحظة، يحدقون في الريف النمساوي المهجور.

نصحهم بافل وهو يوزع عليهم المزيد من الطعام "يفترض فيكم أن تعبروا طالما بقي الظلام مخيماً. تحسباً لوجود أي شخص يراقب".

قال ألوشا وهو يتقبل الخبز والجبنة "سنظل مدينين لك على الدوام. اشك في أننا كنا سنصل إلى هذا الحد بدونك".

نفض بافل كتفيه "نحن نفعل ما نقدر عليه".

جلسوا حيث هم، يأكلون وينتظرون ذهاب النور نهائياً، قبل أن يمشي ثلاثتهم عبر الحدود نحو الحرية، غير واثقين من نوع الترحيب الذي سيتلقونه على الجانب الآخر. فهل سيتم تحميلهم مباشرة على قطار يعود بهم إلى روسيا؟ هل ستطلق عليهم النار باعتبارهم فارين؟ أم سيتمكنوا من شرح وضعهم والتوسل للحصول على نوع من الحصانة السياسية؟

لقد تحدثوا عن هذه اللحظة مرات عديدة جداً أثناء وجودهم في الحظيرة، والآن، بعد أن وصلوا إليها فعلاً، لم يعد بمقدورهم التفكير في المزيد مما يقال. ساروا في صمت، يستمعون إلى أصوات الليل من حولهم. عندما تأكدوا من أنهم عبروا الحدود، استمروا في السير لمسافة ثلاثة كيلو مترات أخرى ليتأكدوا من أنهم سيكونوا خارج مدى رؤية أي شخص ما يزال على الأراضي البولندية عندما تشرق الشمس، وبعدها غلبهم الإرهاق، فأووا إلى النوم عند ساق بعض الأشجار. أفاقوا على نور الشمس وتغريد العصافير فوق رؤوسهم. شعر ثلاثتهم بالبرد، ولأنه لم يكن لديهم أي طعام يدفئون به أبدانهم، فقد انطلقوا بأقصى سرعة يستطيعها ألوشا، ليروا إن كان بإمكانهم الحصول على العون.

بدا الريف خالياً من الناس، ولكن، بعد مرور نصف ساعة، وصلوا إلى كوخ صغير، حيث قدم لهم رجل عجوز، يبدو أنه قد أفاق من النوم لتوه، الخبز والشاي ولم يطرح عليهم أية أسئلة. بعد ذلك أشار ودلّهم على أقرب قرية. أخبرهم أن الوصول غليها سوف يستغرقهم أقل من ساعة. كان بوسعهم أن يسألوا الرجل العجوز عن اسم أقرب قرية أو بلدة، لكنهم فضلوا أن لا يثيروا أية شكوك. لم تكن لديهم أية فكرة عن مكان تواجدهم عدا أنهم أصبحوا خارج بولندا.

لم يكد ألوشا يشعر بالألم في جدعته وهم يسيرون نحو بيوت القرية. لأن شعوره بالانفراج لكونه قد وصل إلى نهاية حقبة من مغامراتهم، أصبح كافياً لرفع معنوياته والتغلب على أي إزعاج، رغم أنه لم تكن لديه أية فكرة عما يمكن أن يحدث لهم تالياً.

ما كادوا يبدأون في مشاهدة بيوت القرية حتى سمعوا أصوات بنادق يتم تذخيرها، وصوت أمريكي يصيح بهم أن يتوقفوا. فعلوا ما أملي عليهم، رافعين أذرعتهم في الهواء بدون أن يستديروا لمواجهة أياً كان الذي يقترب منهم.

كانت هيئتهم زرية، بوجوههم الشاحبة، وثيابهم القذرة المعلقة على أبدانهم الهزيلة.

أطلق ثلاثتهم لحاهم لمدة ثلاثة أشهر. والتصق التراب حتى اندفن في بشراتهم، ما جعلهم يبدون في سمرة الغجر الرومانيين.

"استديروا ببطء" أمرهم الصوت نفسه، فاستداروا ليواجهوا فصيلة لامعة من الجنود الأمريكيين المغذين جيداً. بنادقهم مصوبة إلى الأصدقاء الثلاثة.

"ابقوا حيث أنتم!" أمر الضابط المسؤول بينما خفض ثلاثة من رجاله أسلحتهم وتقدموا لتفتيش المجموعة الرثة المتطفلة، بحثاً عن الأسلحة.

لم يكن أحد من الثلاثة يتحدث الإنجليزية بطلاقة، لكنهم جميعاً عرفوا ما يكفي من الكلمات لفهم الأوامر والأسئلة التي كانت تطلق عليهم.

"من أنتم؟" سأل الضابط بعد أن تيقن من أنهم لا يشكلون خطراً.

قال ألوشا "نحن قفقاسيون" رافعاً رأسه "سجناء لدى الجيش البريطاني. نهرب من قطار. نذهب إلى ديلاتش".

"آه" بدا من صوت الضابط أنه يلين. فقد سمع بالقصص المحزنة حول أسرى الحرب الذين يشحنون عائدين إلى روسيا. ربما كان هؤلاء الرجال يقاتلون إلى جانب الألمان، لكن لم يعد بالإمكان رؤيتهم كأعداء، خاصة وهم يواجهون الآن خطراً جديد وغير معروف من قبل مواطنيهم. قال "في كل يوم أقضيه في أوروبا، أحمد الله على أنني أمريكي وأنني سرعان ما سأعود إلى وطني. أنتم تجعلون الحياة معقدة بدرجة لعينة".

هزّ ألوشا رأسه. غير واثق مما عناه الرجل أو قصده، ولكنه حريص على أن يكون ودياً. أكمل الضابط كلامه "أنتم أيها الشباب، تبدون بحاجة ماسة إلى الطعام وحمام جيد قبل أي شيء آخر". وحمل صوته المزيد من الصداقة.

رافق الأمريكان السجناء عائدين بهم إلى معسكرهم، وقدموا لهم طعام الإفطار وأدخلوهم إلى الحمامات. للمرة الأولى منذ أسابيع، أحسّ ألوشا بطعم النظافة. أصبحت جدعته مليئة بالندبات والسحجات، فقام ضابط يتحدث الألمانية بإعادة تضميدها له قبل أن يعيد ربط ساقه الخشبية إليه، مبدياً إعجابه بدقة صنعها. أخبره ألوشا عن الرجل العجوز الذي صنعها، بعد أن أقسم لنفسه أنه في يوم ما، عندما ينتهي كل هذا، سيعود لزيارة ستينكو وماريا وبشكرهما على

كل ما فعلاه بشكل لائق.

بعد أن وجدوا لهم ملابس جديدة، أخذوا لمقابلة الضابط القائد. بعد بضع ساعات، وبعد تدوين قصصهم. في الملفات، أعيدوا إلى حوزة البريطانيين.

شعروا بالارتياح لعودتهم إلى عهدة أناس آخرين، بعد أن قضوا كل هذه المدة يعتمدون على مهارتهم. بالرغم من أنهم لم يعرفوا ما يمكن أن يعنيه ذلك بالنسبة لهم.

ظهرت الدهشة على وجه العقيد في مقر القيادة البريطانية في دراو عندما أحضر المساجين الثلاثة الفارون للمثول أمامه محضرين بواسطة الأمريكان. لاحظ ألوشا أنه محرج بعض الشيء وكأنهم ضبطوه متلبساً بخطأ ما. لم يتصرف تجاههم وكأنهم العدو، بل كأنهم أناس قد تكون لديهم مطالب مشروعة منه ومن رؤسائه.

قال "أخشى أنكم مجبرون على العودة إلى المعسكر نفسه، إلى ديلاتش. الأمر كما ترون، متعلق بموضوع الإدارة. المنطقة كلها بحالة فوضى رهيبة ويحتمل ن تظل كذلك لعدة أشهر قادمة.

بعد ساعة، تم العثور على شاحنة لنقلهم عائدين إلى المعسكر الذي هربوا منه قبل عدة أسابيع. تسلق سائق وحارس في المقدمة، وجرى تحميل المساجين الثلاثة في المؤخرة مع حارسين آخرين لمراقبتهم. كانت الشمس دافئة وشعر الرجال الثلاثة بحال أفضل مما شعروا به لمدة طويلة، رغم توجسهم بالنسبة لما يمكن أن يحدث لهم بعد إعادتهم إلى المعسكر.

كانت الطرق أكثر نعومة من مثيلاتها في بولندا، ونوابض الشاحنة أفضل بمئات المرات من تلك التي على عربة بافل القديمة. ظهر الريف وكأنه يحتفل ببواكير الربيع، وقد انقضى وقت بدون أن يشاهدوا فيه بشراً ما عدا الفلاحين المتفرقين، العاملين في الحقول. بعدها وصلوا

إلى بعض الأنشطة العسكرية، ثم فجأة داس السائق الفرامل بقوة، فأرسلهم جميعاً يتدحرجون ويصطدم أحدهم بالآخر في المؤخرة. استعاد الحراس السيطرة على أنفسهم بسرعة وأمروا السجناء بالبقاء جالسين.

أحاط بالشاحنة حشد من الناس. عرف ألوشا، عسكربي وألبرت على الفور أنهم في وسط القفقاسيين. فقد كان الرجال يرتدون قبعات من الفراء ولهم سوالف حزينة طويلة. ضمن الحشد الذي يتجول حول الشاحنة على جانب الطريق، تواجدت أيضاً النسوة وكذلك الأطفال، صغاراً وكباراً، والخيول وبعض حيوانات المزارع. صدر عن الجنود البريطانيين صراخ كثير اختلط بزعيق الحشد.

راقب ألوشا، يحاول أن يستوعب ما يحدث. كان الحشد يتداعى، يزحف متقدماً ثم يتراجع، مثل قطيع أصابه الهلع، بينما يحاول الجنود البريطانيون أن يجروا الناس خارجاً. رأى رجلاً يتمسك باثنين آخرين في الوقت الذي حاول فيه جندي شاب أن يفلت قبضة أصابعه بواسطة كعب بندقيته. على الأرض، تحت الأحذية الثقيلة للقوزاق، استطاع أن يرى جثتي امرأة وطفل. تخبطا للحظة، محاولين أن يحميا نفسيهما والعودة إلى الوقوف على قدميهما، ولكن دوس أقدام الحشد أصبح قوياً بحيث لم يعد بمقدورهما مقاومته، فسقطا مثل شخصين وسط محيط من السيقان، وراقب ألوشا حركتهما تتوقف تدريجياً. نهض واقفاً وصرخ، في محاولة لجذب انتباه شخص ما إلى ما شاهده لتوه، ليقنع الحراس أن يفعلوا شيئاً لإنقاذهما. ارتسم الذعر في وجه أحد الجنود اليافعين داخل الشاحنة، فضربه بقوة في معدته بكعب بندقيته ليرغمه على العودة إلى الجلوس. تهاوى وانهار إلى مقعده، مشدوهاً ومبهور الأنفاس.

ضغط سائقهم على آلة التنبيه، محاولاً أن يفتح ممراً عبر المركبات الموقوفة والناس الدائرين مثل الدوامة، لكن أحداً لم يلاحظه. تناول

جندي قريب منهم طفلاً صغيراً وخطفه من بين ذراعي أمه وركض به نحو إحدى الشاحنات المنتظرة، ومرر الطفل الزاعق إلى الجنود الآخرين الذين ينتظرون داخلها. ربما كان يحاول أن ينقذ الطفل من أن يداس بالأقدام، فكر ألوشا، لكنه رأى المرأة تحرر نفسها من الحشد وتركض باتجاه الشاحنة، ليتم دفعها إلى الداخل هي الأخرى، فأدرك لماذا قام الجندي بفعلته. كان آخرون يسحبون في هذه الآونة من بين الكتلة البشرية ويدفعون إلى داخل المركبات بالقوة الغاشمة، فأدرك ألوشا ما يجري. هؤلاء القوزاق تجري إعادتهم إلى روسيا، تماماً كما حصل معه ومع عسكربي وألبرت قبل أشهر قليلة. لم يتغير شيء، استمر البريطانيون في إجبار المساجين على العودة إلى الوطن ليواجهوا الموت المحتوم، الفارق هو أن القوزاق يعرفون الآن بالضبط ما الذي ينتظرهم وباتوا مستعدين للقتال في سبيل عدم إعادتهم. استطاع ألوشا أن يسمع بعضاً منهم يتوسل بالجنود أن يطلقوا عليهم هناك وفي نفس اللحظة بدلاً من إرسالهم إلى عذابات معسكرات العمل أو ما هو أسوأ.

استمر السائق في الضغط على آلة التنبيه، وتمكن بعد لأي من التحرك بضع سنتمترات إلى الأمام، فأخرج عجلتين إلى حافة معشبة على الطريق ليحشر نفسه ويخرج الشاحنة عبر شاحنات الجيش التي يتم تحميلها بالمساجين. مالت الشاحنة حوالي خمس وأربعين درجة فاضطر ألوشا والآخرين إلى التعلق بالجوانب حتى لا يسقطوا في المعمعة خارجاً. في نهاية الأمر، تمكنوا من شق طريقهم وسارت الشاحنة مسافة كيلو متر. فجأة، أصبح ضجيج الحشد الذي يكاد يصم الآذان قبل لحظات قليلة، مجرد طنين بعيد، أشبه بسرب حشرات غاضبة. توقف السائق إلى جانب.

سأله أحد الحراس "لماذا توقفت؟".

أجابه السائق بخشونة "لا أدري عنك، لكنني بحاجة إلى التبول" وهو يخرج من قمرة القيادة. أوضحت حركات جسمه بجلاء ما يعنيه إلى

السجناء، وأدركوا جميعاً أنهم بحاجة إلى التبول. لم يبق لدى الحراس أي خيار غير السماح لهم بالنزول، ومشوا كلهم مسافة قصيرة بين الأشجار. لاحظ ألوشا أن كل الجنود بحالة صدمة من التجربة المؤلمة. أصابه الشك في كون الجندي البريطاني العادي سعيداً بتحميل أناس أبرياء إلى حتفهم.

بينما هو يفك أزرار بنطاله، نظر ألوشا إلى الأسفل، إلى الأرض أمامه وأطلق صيحة دهشة، رفع الجنود بنادقهم واندفعوا إلى الأمام، وقد ظنوا أنه يحاول خداعهم ليهرب. ثم شاهدوا الجثث بدورهم، راقدة وسط العشب الطويل حيث سقطت.

أبقى أحد الحراس سلاحه مصوباً إلى السجناء. بينما قام الآخر، بمساعدة زميله الذي بقي جالساً في القمرة مع السائق، بقلب الجثث.

كانوا أطفالاً، ثلاثة منهم، أطلقت النار على مؤخرة رؤوسهم بعناية وتصويب دقيق. لا بد وأنهم ماتوا على الفور وبدون أي ألم. رقدت إلى جانبهم امرأة، والدتهم على ما يبدو، وقد أطلقت عليها النار بنفس الطريقة تماماً.

"إلى هنا" صاح السائق من مسافة بضعة أمتار. ركض الجميع، الحراس والمحروسين على حد سواء، ليروا ما وجده. كان هناك رجل في سن ملائمة ليكون زوج المرأة ووالد الأطفال، راقداً مع سلاح ما يزال في يده، وثقب في رأسه هو الآخر. كانوا جميعاً من القوزاق.

قال أحد الحراس "جهنم الدامية، إنهم يفضلون أن يقتلوا عائلاتهم على إعادتهم إلى روسيا. ماذا حدث لفردوس العمال اللعين إذاً؟".

دوّت طلقة بعد بضعة أمتار منهم، جعلتهم يقفزون ويستديرون. شاهدوا ظلاً بين الأشجار وسمعوا سقوط جسم ثقيل إلى الأرض. ركض الجنود باتجاهه، وقد نسوا أمر سجنائهم للحظة. ركض عسكربي وألبرت معهم، بينما جاهد ألوشا خلفهم على ساقه الخشبية. لم تكن

هناك فائدة من الهرب بكل الأحوال. فما الذي سيجرون إليه، وإلى أين يذهبون؟".

عندما مروا من بين الأشجار، عثروا على قوزاقي هرم واقفاً إلى جانب جثة حصانه. وما زال الدم يسيل من ثقب في رأس الحيوان.

رفع الرجل العجوز رأسه لينظر إليهم، وقد امتلأت عيناه بالدموع، والسلاح ما زال في يده. قال بالروسية "كان صديقاً مخلصاً لي. لا أريد لأي شخص آخر أن يسيء معاملته بعد رحيلي". قفز أحد الجنود عليه ونزع المسدس من يده بعنف، لكنه لم يقاوم. بدا أنه تجاوز مرحلة الاهتمام بما يمكن أن يحدث له الآن. حملوه في الشاحنة مع ألوشا، عسكربي، وألبرت وانطلقوا صامتين. لاحظ ألوشا أن الجنود البريطانيين اليافعين قد صدموا بما رأوه. لم ينضم أي منهم إلى الجيش متوقعاً أن يعمل على هذه الشاكلة. يفترض أن الحرب قد انتهت، وانهزم العدو، والآن يطلب منهم إجبار رجال ونساء وأطفال أبرياء، على الذهاب إلى مكان واضح أنه يرعبهم. طالما أن هؤلاء الناس راغبون في الموت على العودة إلى وطنهم. فلا بد أن هناك شيء رهيب حقاً، ينتظرهم.

بعد ساعات عديدة، ظهر المنظر المألوف للمعسكر الذي غادروه قبل مجرد شهور قليلة على الأفق. دخلت بهم الشاحنة بين الأبنية الخشبية الخفيضة، عبر مجموعات من الناس يبدو عليهم أنهم بانتظار حدوث أمر ما. كان هناك جو من الاضطراب المتجهم يخيم على كل شخص وهم جلوس في جماعات، يتحدثون أو يتسكعون في الفسحة، يحاولون أن يقتلوا الساعات التي تفصلهم عن الإطعام أو التحرك أو النوم. لم يبد على الجنود الذين يفترض فيهم حراستهم قدر أكبر من السعادة.

أنزل الرجال الثلاثة من الشاحنة، وأخذوا إلى حيث يغتسلون ويأكلون، قبل أن تصدر إليهم التعليمات بالمثول أمام الضابط البريطاني القائد، الرائد دايفيز.

تذكر ألوشا الرائد، رجل عطوف، حسن النوايا، تخيل ألوشا أنه مذهول ومستغرب مما يطلب منه القيام به تجاه سجنائه.

عندما وصلوا إلى مكتب دايفيز، الواقع في ساحة ضيقة داخل أحد الأكواخ الأصغر مساحة، جلس رجلان آخران يتحدثان إلى الرائد. تعرف ألوشا فوراً على كريم وزمخشري. ظهر على الاثنين وكأنهما شاخا سنوات طويلة، فقد تجعد وجهاهما بالقلق وتصالب صوتهما بالغضب والعواطف المبكبوتة. لحظة دخول ألوشا وصديقيه، قفز الرجلان واقفين على قدميهما، وللحظة، تم نسيان كل شيء حين تعانقوا. فقد افترضا سابقاً أن الشباب الثلاثة قد اختفوا إلى الأبد لدى إعادتهم إلى روسيا.

بعد انتهاء التحيات، عاد الرجال إلى الجلوس. ساد جو غير متكلف لكنه مكثف، تماماً مثل الاجتماعات التي يتذكر ألوشا حضورها في نالتشك قبل وصول الألمان. أصبح من الضروري بمكان إيجاد طريقة لإيقاف عمليات إعادة التوطين قبل أن يذبح المزيد من آلاف الناس الأبرياء في أوطانهم.

الفصل السابع عشر

المرة الأولى التي قابلت فيها جلالة الملك الحسين كانت مناسبة جديرة بالتذكر. كنت قد عدت إلى الوطن في زيارة قصيرة بعد فترة دراستي الجامعية في أمريكا لزيارة العائلة. حدث ذلك عام ١٩٦٤. كان والدي رئيساً لأركان الجيش، والعديد من الشراكسة يشغلون مناصب مسؤولة في سلطة البلاد. أذكر أنني أبديت تلك الملاحظة لوالدي بعد بضعة أيام من وصولي للزيارة، والمتعلقة بالمراكز ذات الامتياز لشراكسة الشتات في الأردن. ابتسم وقال لي بهدوء أنهم حصلوا عليها لأنهم مواطنون مخلصون موالون. بعد ذلك طرح الاقتراح القائل بأنه يفترض فيَّ مرافقته إلى اجتماع في القصر لأقابل جلالته. اعتبر والدي وجوب ذهابي كالتزام لإبداء الاحترام، وأعتقد أنه اعتبر ذلك كتحضير لعودتي إلى وظيفة مضمونة لدى الحكومة بمجرد أن أقرر العودة من أمريكا. طبيعي أنني شعرت بقدر كبير من الإثارة لاحتمال مقابلة جلالته، لكنني شعرت بالإحراج من أدائي هذا الالتزام أثناء اجتماع مهم كهذا مع أعضاء وزارته والقادة العسكريين.

أذكر أن جلالته عقد اجتماعاً أمنياً خاصاً لمجلس الوزراء بكامله لأن البلاد كانت تتعرض لضغوط كبيرة من دول عربية مجاورة ومن إسرائيل. كان يفترض فيَّ أن أصافح اليد الملكية ثم انسَحب إلى غرفة الاستقبال خارج مكتبه وانتظر والدي. هكذا أصدر لي تعليماته بالتصرف.

لكن جلالته بات مسروراً برؤية وجه شاب آخر لدرجة أنه أصر علي

لأجلس وأراقب كيف تدار عملية حكم البلاد. كان جلالته أكبر مني بمجرد سنتين.

قال وهو يطلق ابتسامة عريضة "ستكون هذه جلسة تعليمية يا محي الدين".

لم يبد والدي أنه سعيد جداً بذلك، وكان يفضل لو أنني غادرت الغرفة فوراً، لكنني اتخذت كرسياً في الزاوية القصية وجلست أراقب. لم يكن بوسعي أن أرفض دعوة ملكية للبقاء في الغرفة. صدمتني هالة السلطة والطاقة الإيجابية التي تشع من شاب يافع هو الملك. جلس جلالته على رأس الطاولة وجلس جميع وزرائه وضابط الجيش والأمن العام حول الطاولة بشكل ارتجالي وبدون أي نظام محدد. ساد صمت مطبق انتظاراً لافتتاح جلالته أعمال الجلسة. كان ينظر في ملف مفتوح ويقرأ بعض التقارير الموجودة داخله. أخيراً، رفع رأسه مرة أخرى، وألقى بالملف على الطاولة أمامه بشيء من الضيق.

"اين هو محافظنا المبجل؟ لقد انتظرنا ما فيه الكفاية!".

أجاب سكرتيره الشخصي على الفور "لقد كان المحافظ مغادراً على الفور حينما خابرته يا صاحب الجلالة. سأخابره مرة أخرى".

قال الملك "لا، أنا سأخابره". وتناول سماعة الهاتف ثم طلب محافظ البنك المركزي المشكل حديثاً في الأردن.

استطعت أن أسمع جواب المحافظ من مكان جلوسي في الزاوية البعيدة إذ كان يقول: "نعم يا صاحب الجلالة. إنني في طريقي بمجرد أن أغلق الخزينة".

"لا تقلق على ذلك يا خليل. كل اللصوص موجودون معي هنا في الغرفة. يمكنك أن تترك الخزينة مفتوحة. فقط تعال!" ثم وضع جلالته السماعة مكانها مبتسماً. كان مجلس الوزراء بكامله مجتمعاً في الغرفة وكان الملك بالطبع يشير إليهم بأسلوب مداعبة. اعتقدت أنهم

قد يضحكوا على النكتة، وبكنهم بدلاً من ذلك تكلفوا الابتسام وتبادلوا نظرات مرتبكة. لم أستطع أن أكتم ضحكة مدوية.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، شرح لي والدي أن الشراكسة لا يتمتعون بأية امتيازات خاصة في البلاد. قال أن السبب في ثقة جلالته بالشراكسة هو أولاً، بسبب ولائهم وثانياً لنزاهتهم. لم يأتِ في تاريخ الأردن أي ذكر لمسؤول شركسي منغمس في فضيحة فساد. ولم يكن هناك أي مسؤول شركسي أتهم أو اعتبر غير مخلص للبلاد. ما زالت هذه الأرقام القياسية والسجلات المشرفة قائمة حتى هذا اليوم.

العلاقة بين شراكسة الشتات في الأردن بالعائلة الهاشمية الحاكمة في الأردن تاريخية وفريدة في نفس الوقت. لم تحدث تجربة مشابهة لنفس الظاهرة في أي بلد آخر في العالم، لا في سوريا، ولا في تركيا، ولا إسرائيل أو اي مكان آخر استقر فيه الشراكسة كمجتمع من اللاجئين. وقد بدأت العلاقة بوصول الأمير عبد الله من الحجاز في بداية عشرينات القرن العشرين. ودامت عبر عملية بناء الدولة حتى هذا اليوم بالذات.

وصل الشراكسة الأوائل إلى الخرائب الرومانية في عمان قادمين من دول البلقان عام ١٨٧٨، واستقروا على ضفتي الجدول المعروف "بالسيل" القادم من رأس العين.

أسسوا في بلدتهم مجتمعاً زراعياً مزدهراً، شجع التجار من القدس ودمشق على القدوم وتأسيس جذور لهم في بلدتهم النامية، والمتاجرة معهم. كان الإقليم محاطاً في معظمه بالبدو الرحل الذين امتعضوا في البداية من هؤلاء الدخلاء ذوي البشرات الشقراء، الأمر الذي أدى إلى اشتباك سمي "حرب البلقاوية"، لكنهم توصلوا في نهاية المطاف إلى التقارب معهم وأسسوا لمرحلة طويلة من السلام والتعايش. يمكن القول بصدق أن الشراكسة وقبائل البدو المحلية شكلوا الأساس لإنشاء دولة الأردن.

عندما وصل الأمير الهاشمي إلى معان يوم ٢٠ تشرين الثاني عام ١٩٢٠، لم تكن لديه نية في البقاء في الإقليم، بل كان في طريقه لمساعدة شقيقه فيصل، ملك سوريا.

كان الفرنسيون قد احتلوا دمشق بعد معركة ميسلون، وأخذوا يجبرون أخاه على الخروج. حرك عبد الله جيشه من الحجاز ليحرر سوريا ويطرد الفرنسيين من دمشق، حيث كان قد نودي بشقيقه ملكاً في وقت سابق. بعد أن سمع ونستون تشرتشل وزير المستعمرات البريطاني في ذلك الوقت، بخطط عبد الله، دعاه إلى "حفلة الشاي" الشهيرة في القدس، حيث أقنع عبد الله بالبقاء في مكانه بشرق الأردن وعدم مهاجمة حلفاء بريطانيا، الفرنسيين. أخبر تشرتشل الأمير عبد الله أن القوات الفرنسية متفوقة على قواته، وأن البريطانيين لا يريدون أية متاعب مع الفرنسيين. قبل عبد الله عندما عرضت مملكة في العراق على فيصل، وقدمت له فرصة إنشاء إمارة شرق الأردن على أساس محمية بريطانية. خاض على الفور في مفاوضات مع البريطانيين للحصول على الاستقلال، أدت إلى إعلان استقلال إمارة شرق الأردن يوم ٢٥ أيار عام ١٩٢٣. أصبح هذا التاريخ يوم استقلال الأردن الرسمي.

حضر وفد لتحية واستقبال الأمير الهاشمي لدى وصوله إلى معان، يمثّل شراكسة عمان، برئاسة وجهاء الشراكسة. كان معروفاً لديهم أن جده عبد الله هي سيدة شركسية. كذلك عرف الشراكسة أن الأمير عبد الله سبط مباشر للرسول محمد (صلعم) وارادوا أن يقدموا له احترامهم. أرادوا أن يتطوعوا للقتال إلى جانبه في سوريا. كان والد جدي ناخو، بصحبة نجله حسن، وحفيده عزت البالغ من العمر عشر سنوات، بين المستقبلين.

أثناء فترة الإدارة العثمانية للإقليم، كانت العاصمة الإدارية هي بلدة السلط. جاءت التوقعات أن يختار الأمير تلك البلدة عاصمة له، لكن الأمير اختار قرية عمان الصغيرة بدلاً منها، وسط ذهول ودهشة

القبائل الأردنية الأخرى.

قال كثيرون أن السبب الرئيس لاختياره كان لأن عمان مستوطنة شركسية بشكل رئيس ولأنه يثق بأن الشراكسة سيبقون على ولائهم له. سرعان ما اختار حرسه الخاص من المجتمع الشركسي، وقد استمر هذا التقليد إلى يومنا هذا بوجود الحراس الشراكسة بلباسهم التشيركيسكا يحمون القصور الملكية في المملكة. وقد طلب الأمير نفسه تفصيل لباس تشيركيسكا له شخصياً وقد تم تصويره وهو يرتديه.

يوم العشرين من تموز عام ١٩٥١، وبينما كان الملك عبد الله يزور المسجد الأقصى في القدس، أطلقت النار عليه وقتل من قبل مصطفى شكري عشو، وهو فلسطيني له علاقة بعائلة الحسيني. وقبل ذلك بأربعة أيام، أغتيل رياض الصلح، وهو رئيس وزراء سابق للبنان أثناء وجوده في عمان، حيث راجت شائعات بأن الأردن ولبنان يبحثان في إقامة صلح منفرد مع إسرائيل. كان الملك عبد الله في القدس وقتل بينما هو يستعد لأداء صلاة الجمعة في قبة الصخرة بصحبة حفيده، الأمير حسين. أطلق المسلح الفلسطيني ثلاث رصاصات قاتلة على رأس الملك وصدره وعلى حفيده، الأمير حسين بن طلال الذي كان يسير إلى جانبه وأصيب بدوره. حرفت ميدالية وضعت سابقاً على صدر الحسين بإصرار من جده، الرصاصة وأنقذت حياته. القاتل شاب في الحادية والعشرين من عمره، يعمل متدرباً لدى خياط كان في السابق إرهابياً. اتهم عشرة متآمرين بالتخطيط لعملية الاغتيال وقدموا للمحاكمة في عمان. وجه الادعاء العام إلى العقيد عبد الله التل، الحاكم العسكري السابق للقدس، والدكتور موسى الحسيني، تهمة ترؤس "الجريمة الأكثر خسة ونذالة التي تشهدها الأردن".

أكد المدعي العام الأردني أن العقيد التل قد أعطى تعليمات بقتل القاتل بعد تنفيذ جريمته على الفور لإخفاء المحرضين على الجريمة. هرب كل من التل والحسيني طلباً للحماية في مصر وحكم على أربعة

من المتآمرين الشركاء بالإعدام في عمان. أضافت مصادر القدس أن العقيد التل ظل على صلة وثيقة "بالمفتي العام" السابق للقدس: أمين الحسيني، وأتباعه في فلسطين العربية.

تولى العرش نجل الملك الأمير طلال لفترة قصيرة جداً، لكنه تنازل عنه بسبب اعتلال صحته لنجله الحسين الذي أصبح عاهل الأردن في سن السابعة عشرة. وبدأت مع الملك الحسين الشاب مرحلة مهمة أخرى من العلاقة الوثيقة والدافئة بين الشراكسة والبلاط الهاشمي.

خدم البلاط الهاشمي والحكومة العديد من شراكسة الشتات المتميزين، وظلوا موالين خاصة خلال السنوات الصعبة في تثبيت الحكم الهاشمي ولاحقاً خلال حكم الملك الحسين، من بين هؤلاء، ميرزا، باشا، سعيد المفتي (حبجوقه)، عزت حسن (قندور)، وصفي ميرزا إبراهيم عثمان كشوقه، زهير المفتي (حجبوقه)، محمد إدريس (دودوخ)، إحسان شردم، ينال حكمت (مفادز)، أنور محمد، فواز ماهر (برمامت) وكثيرين آخرين.

شغل كل هؤلاء الرجال مناصب حساسة في الحكومة والجيش وكانوا مؤثرين في حماية وإدامة العهد. كثيراً ما جرى الاتصال بهم لتقديم المشورة واتخاذ قرارات صعبة تهدد الحياة، لكنه لم يتوانوا أبداً عن أداء واجباتهم. من الجدير بالذكر أيضاً أن أول سيدة نائب في البرلمان الأردني هي السيدة توجان فيصل، وهي شركسية.

تبوأ الشراكسة مناصب حساسة في الأجهزة الأمنية والجيش إضافة إلى مناصب وزارية في الحكومات المتعاقبة. كذلك كانت لهم مراكز قيادية في البرلمان. خرج الملك حسين بصفته الناجي الأكثر تميزاً من كل تلك الأزمات التي عصفت بالسياسة العربية الحديثة. فقد نجا من عدة محاولات لاغتياله، مؤامرات ضد النظام، الخسارة الكارثية للقدس والضفة الغربية خلال حرب الأيام الستة. المواجهة الخطيرة مع الفدائيين الفلسطينيين المعروفة بأيلول الأسود، وقد تحركت سوريا عام

١٩٧٠ فعلياً لغزو الأردن. أضف إلى كل ذلك خمسة عقود من العدوان الصهيوني ضد الفلسطينيين والدول العربية.

كانت الفترة المبكرة من حكم الملك الحسين مفعمة بالأزمات. والتي توجت بقيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا. تأسست هذه الوحدة يوم الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٥٨، كخطوة أولى نحو قيام أمة عربية موحدة. أنشئت الجمهورية العربية المتحدة عندما اقترحت مجموعة من القادة السياسيين والعسكريين في سوريا دمج الدولتين تحت زعامة الرئيس المصري جمال عبد الناصر. كانت المشاعر الوحدوية العربية قوية جداً في سوريا، وجمال عبد الناصر بطلاً شعبياً في كل الأمة العربية بعد أزمة السويس عام ١٩٥٦.

لذلك تواجد دعم شعبي كبير في سوريا للوحدة مع مصر عبد الناصر. على اية حال، أصبح الآن واضحاً لدى معظم المؤرخين بأن الأسباب المباشرة للوحدة هي أكثر تحديداً. فقد كانت القوة المتعاظمة للحزب الشيوعي السوري تحت زعامة خالد بكداش، تقلق الجماعات السياسية والاجتماعية الأخرى في سوريا، وكذلك كان حزب البعث السوري يعاني من أزمة داخلية يحاول أعضاؤه البارزين إيجاد مخرج منها. تمتعت سوريا بحكومة ديمقراطية منذ القضاء على نظام أديب الشيشكلي عام ١٩٥٤، وانعكس الضغط الشعبي باتجاه الوحدة العربية في تركيبة البرلمان. بلغت قوة هذه المشاعر الشعبية حداً أجبر الحزب الشيوعي والأخوان المسلمين على اتخاذ موقف إيجابي تجاه الوحدة، رغم اضطهاد عبد الناصر لتنظيمات الحزبيين في مصر. كذلك تأملت نخبة رجال الأعمال السورية في إيجاد سوق كبيرة لها في مصر.

وقع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والرئيس السوري شكري القوتلي ميثاق الوحدة يوم ٢٢ شباط عام ١٩٥٨، بعد إجراء استفتاء شعبي في كلا البلدين. انتخب الرئيس جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية الجديدة. واختيرت القاهرة عاصمة لها. كذلك تم تبني

دستور وحدوي جديد.

أصبحت الجمهورية دولة وحدوية، وقد أدت نجومية وشعبية عبد الناصر إضافة إلى سيطرة مصر السكانية والسياسية إلى أن تصبح الدولة خاضعة فعلياً للسيطرة المصرية. تدفق المستشارون العسكريون والتقنيون المصريون إلى سوريا، ومع وقوع البيروقراطية السورية العسكرية والأمنية تحت السيطرة المصرية، نشأ وضع سيؤدي إلى استياء كبير فيما بعد. توسع الحظر على الأحزاب السياسية فيما عدا حزب الاتحاد الاشتراكي العربي التابع لعبد الناصر، ليشمل سوريا، وقام كل من حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا والحركة الوطنية العربية بحل نفسها ضمن الحزب الحاكم.

جرى التعامل مع العناصر السياسية المعادية بمنتهى القسوة: اضطهد الحزب الشيوعي السوري بوحشية، كما تم التعامل مع الميول الإسلامية بنفس الأسلوب. الأمر الذي يدعو إلى السخرية، هو أن الأمة الجديدة وجدت نفسها مدعومة بنفس القوة التي خاف منها داعموها أنفسهم. فقد بدأ الاتحاد السوفييتي الهادف إلى كسب حلفاء في الحرب الباردة، يبيع الأسلحة بسرعة إلى الجمهورية الوليدة، وهو إجراء سيستمر إلى ما بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة.

جرى تفسير هذا الاتحاد على أنه تهديد رئيس للأردن. كما اعتبرت سوريا مصدراً للتحريض وملاذاً للأردنيين المتآمرين ضد الملك حسين. وقد زاد من الضغوط على الأردن، موقف مصر المعادي للتدخل الغربي في الإقليم (وبذلك ضد العلاقة الوثيقة بين البريطانيين بشكل خاص، والنظامين الملكيين في العراق والأردن).

أوجدت هذه الأعمال ضغوطاً شديدة على الملك الحسين. فقد قطعت سبل الأردن التجارية مع إغلاق الحدود السورية. استمر الوضع في التردي داخل المملكة مع استمرار إذاعة دمشق في إصدار نشرات تدعو الشعب الأردني إلى النهوض ضد "الطغيان الهاشمي". كذلك أعلنت

إذاعة "صوت العرب" من القاهرة أنه لم يبق مع الحسين سوى شراذم البدو وشراكسة الأردن". توجه الملك الشاب إلى خلصائه الشراكسة طالباً الدعم والمشورة. أكد له جميعهم أن قوته كامنة في الألوية البدوية لجيشه، والتي يقودها ضباط شراكسة من أمثال عزت حسن.

لكن هذا الجيش كان في هذا الوقت تحت قيادة الصديق القديم الذي بدأ ينقلب ضده تدريجياً: اللواء علي أبو نوار. نجح اللواء أبو نوار سابقاً في إقناع الملك بإقالة الضابط البريطاني جون غلوب من منصبه حتى يتمكن من تولي مكانه.

كما أعلن رئيس وزراء البلاد الجديد، سليمان النابلسي، وهو ملاك أراضي من السلط، بصراحة "أن مصير الأردن هو الزوال". مع ترسيخ القناعة بأن وسيلة الأردن الوحيدة للنجاة كمملكة هي التأهل لخطة عون الرئيس الأمريكي إيزنهاور، كتب الملك الشاب رسالة فظة إلى رئيس الوزراء النابلسي قال فيها "إننا نستشعر الآن خطر التغلغل الشيوعي في وطننا العربي، والتهديد الذي يشكله أولئك الذين يدعون بالإخلاص للقومية العربية، ويمارسون المراوغة والبطولات الزائفة، ساعين من وراء ذلك إلى إخفاء مخططاتهم الشريرة ضد القومية العربية، وحقيقة أنهم يتعاونون مع أعدائنا في خداع الجماهير واستغلال الشعوب". أمر بأن يقوم النابلسي بتطهير مجلسه الوزاري من الوزراء الثلاثة الأكثر خطورة وميلاً إلى الشيوعية. ردت الوزارة بالتصويت على تأسيس علاقات دبلوماسية مع "صديقنا الطيب الاتحاد السوفييتي". اعتقد اليساريون الفلسطينيون أنهم قد هزموا الحسين، ليس فقط لأنهم يهيمنون على البرلمان، ويسيطرون على الشارع ويتمتعون بالتعاون الخفي لرئيس أركان الجيش اللواء ابو نوار، بل لأن عبد الناصر، زعيم القومية العربية الأكبر، يقف إلى جانبهم.

عند النظر إلى القضية ببساطة، يتضح أنها خلاف بين دول مثل العراق والمملكة العربية السعودية التي اختارت واشنطن، ومصر

وسوريا اللتان تلعبان مع موسكو. لكن الأمور لم تكن على هذه الدرجة من البساطة أبداً في الشرق الأوسط. صحيح أن الملك سعود كان يفضل أمريكا وإيزنهاور، لكنه لم يرغب في تحدي عبد الناصر. كان الرئيس السوري شكري القوتلي قد طار بنفسه إلى موسكو للبحث عن مساعدتها – لكنه انزعج من الطريقة التي كان العقيد الشاب الطموح عبد الحميد السراج، يتقرب فيها من الشيوعيين. لم يرغب عبد الناصر نفسه في رؤية الأردن يتفكك بتلك السرعة حتى لا يغزوه ويزحف إليه أحد عدويه، العراق أو إسرائيل. ضمن مثل هذا الارتباك، أصبحت الفرصة مهيأة لملك الأردن الشاب للمناورة. طار إلى المملكة العربية السعودية، لمقابلة الملك سعود، الذي كان قلقه من الاختراق الشيوعي أكثر كثافة من دماء الخلافات. وعد الملك سعود بتقديم الدعم النقدي للملك الشاب.

قام الملك حسين، بناءً على نصيحة ضباطه الشراكسة المخلصين، مثل عزت حسن والقائد البدوي حابس المجالي، بدعم البدو سراً ضد فلسطينيي أبو نوار، وسبقهم إلى العمل بالإشارة إلى تحرك في قيادة الجيش بمعسكر الزرقاء.

بعد ذلك، هرع الملك، مصطحباً أبو نوار الذي ما عاد يثق به، لمواجهة البدو الثائرين، وأنقذ الجنرال الخائف من إطلاق النار عليه، ونال صرخات التأييد العنيفة من رجال القبائل عندما قفز إلى ظهر سيارة مصفحة وصاح بهم "إذا لم تريدونني ملكاً عليكم، فسوف أذهب!".

بينما اندفع رجاله البدو إلى عمان، وقد طلوا وجوههم بالسخام الأسود، دلالة على نيتهم القتالية، بدأ الحسين يعمل على تثبيت نصره الافتتاحي. ففي نهاية الأمر، هناك جيوش أخرى في الأردن. طلب من أبي نوار أن يأخذ إجازة لمدة أسبوعين في سوريا، وابقى رئيس الوزراء السابق النابلسي كوزير للخارجية في وزارة جديدة. ثم أعلن الملك

حسين بكل عناية أن الأردن سوف يلتزم بسياسته القائمة على "الحياد الإيجابي" ورفض "الاستعمار" والتحالفات الأجنبية.

بعدها أقنع اللواء علي الحياري، القادم من بلدة ابو نوار، السلط، بتولي منصب قيادة الجيش، ووعده بإعطائه مطلق الحرية في أداء عمله.

تحدث والدي عن العملية بابتسامة خفيفة مرتسمة على وجهه "هرع اللواء الحياري إلى الزرقاء للتحقيق في أعمال شغب الأسبوع المنصرم واكتشف أن اللوم يقع على أربعة ضباط من البدو".

سألت ببراءة "هل عثر على الضباط؟".

"آه، نعم فعل ذلك. طلب مني أن أضعهم قيد الإقامة الجبرية. فقد كنت قائد لوائهم".

قال ذلك وهو يبتسم بخجل.

سألته في تلك اللحظة، وقد تعاظم فضولي حول الأحداث "ماذا حدث بعد ذلك؟".

"أراد الحياري أن يحظى بالتقدير على إنجازه، لذلك عاد إلى القصر الملكي بعد ظهر نفس ذلك اليوم، ليقدم تقريره إلى صاحب الجلالة! وجدني مع الضابط الأربعة، نشرب القهوة في قاعة الاستقبال بالديوان الملكي". توقف والدي ليزيد التشويق "بعد ذلك خرج جلالته من مكتبه ووبخ الحياري قائلاً "أنا لم أرسلك لإلقاء القبض على ابنائي".

عندما ذكره الحياري بتعهده بأن لا يتدخل، ضرب الملك بقبضته على الطاولة وصرخ "أنا الملك! أنا أفعل ما أريد! هذا بلدي. سوف انضم إلى حلف بغداد، إذا شئت. سوف أدعو ريتشاردز للحضور إلى هنا، إذا أردت. هذا بلدي: أدى الحياري التحية وغادر بسيارته إلى

دمشق، تاركاً كتاب استقالته خلفه، ومعلناً، حين وصل إلى سوريا، أن الولايات المتحدة تنفق أموالاً طائلة في الأردن "لشراء الخونة".

بعد أن عين حابس المجالي رئيساً للأركان، أمر الحسين بتسريح ستين ضابط من الجيش (قال يومها "استبدلوهم برقباء مستعدين للقتال من أجل الملك!").

عرف الملك أن أعداءه سيشنون هجوماً مضاداً. فقد اجتمع يوم الاثنين التالي ٢٠٠ من قادة الحزب الشيوعي والموالين لعبد الناصر في نابلس لتأليف ما وصل إلى حد اعتباره إنذاراً نهائياً، فقد طلبوا:

١.الإفراج عن جميع الضباط الناصرين وإعادتهم إلى مناصبهم، بمن فيهم اللواء أبو نوار.

٢.إقالة حكومة جلالة الملك الجديدة.

٣.طرد وزير البلاط الملكي، سمير الرفاعي.

٤.التعهد بعدم دعوة السفير المتجول جيمس ريتشاردز إلى الأردن – ممثل الرئيس إيزنهاور الخاص في الشرق الأوسط.

٥.طرد سفير الولايات المتحدة، ليستر مالوري.

بدأت إذاعة القاهرة "صوت العرب" والتي بقيت هادئة بدرجة غريبة خلال الأسبوع الأول من الأزمة، تتحدث بطريقة جدية عن مؤامرات "في القصر الملكي" ضد الشعب الأردني. كانت هذه هي الإشارة المعهودة، والتي أطلقت مباشرة قبل مظاهرات حلف بغداد عام ١٩٥٥، للعملاء المصريين والمنظمين الشيوعيين لقيادة الرعاع إلى الشوارع. ولكن قبل أن تتمكن من الانطلاق، ركب الملك الحسين في طائرته نوع دي هافيلاند دوف، وطار بها إلى موعد سري في محطة H3 الواقعة على خط البترول العراقي، مع ابن عمه الهاشمي، فيصل الثاني، ملك العراق البالغ من العمر ٢٢ عاماً.

أكد له الملك فيصل أن الجنود العراقيين سيكونوا تحت تصرفه. ذلك يعني أنه إذا قرر السوريون أن يستخدموا جنودهم الأربعة آلاف ودباباتهم التشيكية الثلاثين الموجودة في الأردن ضد الملك، فسيتمكن من إيقافهم بالتهديد باستدعاء العراقيين.

لكن إسرائيل، التي لم ترغب بوجود جار عربي قوي عند بابها الخلفي، كثيراً ما هددت أن جيشها سيدخل الأردن إذا ما دخل الجنود العراقيون إليه. لدى عودته إلى عمان، استدعى الملك السفير الأمريكي مالوري إلى قصره القائم على رأس التل. أراد الملك من الولايات المتحدة أن تمارس كل نفوذها لإبقاء الإسرائيليين خارجاً. كذلك خابر الملك الحسين، الملك سعود وحثه على مخاطبة مصر وسوريا والطلب منهم إيقاف نشراتهم التحريضية النارية حول الأحداث في الأردن. في ذلك المساء، تم إعلام الفلسطينيين بأنه قرر أن يرفض كل مطالبهم.

مرر الشيوعيون والناصريون تعليمات للبدء في تطبيق إضراب على مستوى البلد كله، ضد النظام. لكن قبل أن ينبلج فجر يوم الأربعاء، كان الملك الحسين قد أمر قادة ألويته الشراكسة والبدو بإرسال الجنود البدو الموالين مع الدبابات إلى جميع المعاقل ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين. امتلأت عمان نفسها بالجنود البدو بوجوههم المطلية بالسواد داخل دباباتهم وعرباتهم المصفحة. خرج المتظاهرون، معظمهم من طلبة المدارس المراهقين، يدفعهم مدرسوهم وكأنهم كلاب أغنام قلقلة. في ساحة البريد، بدأت الجماهير تصفق بشكل إيقاعي وتنشر "تسقط خطة إيزنهاور، يعيش عبد الناصر". ألقى المتظاهرون الحجارة على رجال الشرطة، الذين صدوها بدروع من الخيزران والقصب المغزول.

بعد أن أطلق أحد رجال الشرطة رصاصة تحذيرية في الهواء، تفرقت الحشود في عدة اتجاهات. بحلول أوائل ساعة العصر، انتهت المواجهة في عمان، وأصبح الملك حسين ملك الشوارع إضافة إلى كونه زعيماً للجيش.

في ذلك المساء، أعلنت الأحكام العرفية. وكانت الولايات المتحدة قد وجهت إنذاراً حازماً ضد التدخل الإسرائيلي في الأردن (وانذرت بلداناً أخرى أيضاً).

في تمام الساعة ١٠:٣٠ صباحاً، وبينما تعالت أصوات مكبرات الصوت من الشاحنات التي طافت جميع المدن، تذيع تحذيراتها إلى المواطنين بالبقاء بعيدين عن الشوارع، خرج الملك إلى الملأ على الإذاعة ليشن هجوماً مريراً على النابلسي ويسارييه لكونهم "باعوا أنفسهم إلى متآمرين من الخارج". واتهم مصر للمرة الأولى علناً، بأنها تآمرت مع رئيس أركان جيشه المنفي اللواء ابو نوار، مضيفاً أنه من بين "العرب الأحرار"، فإن المملكة العربية السعودية، هي الصديق الصامد الصلب الوحيد لديه. ثم قال "لقد كنت آمل أن يوقف صوت العرب هذه المؤامرة لتحريك المظاهرات ضد الأردن وضدي".

في وقت لاحق من صبيحة ذلك النهار، اتصل الملك هاتفياً بالرئيس السوري القوتلي. طلب سحب الجنود السوريين من الأردن. أجاب القوتلي أنه لا يمكن سحب هؤلاء الجنود إلا بموجب أوامر من القائد الأعلى للتحالف، الجنرال المصري عبد الحكيم عامر. بعد ذلك بساعات، وبينما طار القوتلي إلى القاهرة لإجراء مشاورات طارئة، زجت الولايات المتحدة بنفسها في النزاع بطريقة دراماتيكية.

فبعد أن أعلن البيت الأبيض بأن الولايات المتحدة تعتبر "استقلال ووحدة الأردن أمراً حيوياً". أمرت بتحريك الأسطول السادس إلى شرق البحر الأبيض المتوسط.

وهكذا فقد اختارت الولايات المتحدة أن تجعل اختبارها الأول لوثيقة إيزنهاور، بدعمها للملك الحسين الشاب.

في الأردن، خيم الصمت القلق الذي خلقته الأحكام العرفية، على الأسواق والتلال البنية اللون. اختار الملك الرجل السبعيني إبراهيم

هاشم، أخرجه من تقاعده الهادئ، ليكلفه بتشكيل الوزارة، ويصبح رئيس وزراء البلاد الجديد. كان إبراهيم هاشم، الثائر السابق ضد الأتراك العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى، رفيقاً وزميلاً في لعب الشطرنج للملك عبد الله.

أما نائب رئيس الوزراء والرجل القوي الحقيقي في الوزارة الجديدة، فقد كان السكرتير الشخصي السابق للملك عبد الله، سمير الرفاعي، وهو مثل سليمان النابلسي، متخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت، لكنه خلافاً للنابلسي، ظل صديقاً مقرباً من الولايات المتحدة.

سرعان ما أصبح خمسمائة من المتطرفين خلف القبضان، وتمت المصادقة على أحداث الأسبوع على جدران المدن الأردنية، حيث ظهرت صور الملك الحسين، وقد التصقت بمنتهى الترتيب والأناقة فوق صور عبد الناصر. تم تشكيل محكمة عسكرية برئاسة العميدين عزت حسن ومحمد السعدي، لمحاكمة المتطرفين.

وصل القائد الأعلى لقوات الجمهورية العربية المتحدة المسلحة، المشير عبد الحكيم عامر إلى العقبة لإجراء المفاوضات حول مشكلة الانسحاب السوري من الأردن، وقد اختار الملك عزت حسن لمقابلته أثناء هذه المفاوضات الحساسة. نفذ الملك الشاب الذي لم يعرف طعم النوم انقلابه بذكاء وفطنة. لكن المهمة لم تكن من إنجاز رجل واحد، لأن العديد من القادة الشراكسة والبدو وقفوا إلى جانبه ودعموا كل تحركاته. يعزى الفضل الكبير لجلالة الملك، بأن عملية الانقلاب بكاملها قد تم تنفيذها بدون إراقة الدماء.

جاءت ردة فعل الملك الحسين على شكل اقتراح إلى فيصل، ملك العراق، بإنشاء اتحاد أردني عراقي مقابل الجمهورية العربية المتحدة، والتي تأسست في ٢٢ شباط عام ١٩٥٨.

نص الاتفاق على تشكيل قيادة عسكرية موحدة بين الدولتين، مع

ميزانية عسكرية موحدة. جرى تبادل الجنود بين البلدين بموجب الاتفاق. لكن هذا الاتحاد بدوره كان مصيره الفشل وجاء مضمخاً بالفجيعة للعائلة الهاشمية في العراق.

من بين الضباط الشراكسة أصحاب الرتب الرفيعة الذين لعبوا أدوراً حاسماً أثناء الاتحاد، اللواء الشركسي إبراهيم عثمان كشوقه. كان وقتها قائد السلاح الجو الأردني. أخبرني بقصة وقوعه مع زملائه في وسط الانقلاب ببغداد.

يوم الرابع عشر من تموز، أطلقت النار على الملك فيصل، وولي العهد الأمير عبد الإله، وأعضاء آخرين من العائلة الهاشمية الحاكمة وقتلوا، وكذلك قتل رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد أثناء محاولته الفرار. قال لي:

"كنا جميعاً في مقصف الضباط عندما اندلع القتال. حضر إلينا ضابط عراقي مسرعا ليخبرنا أن الملك قد قتل وأنه يتعين علينا الاختباء أو الاختفاء لأن الانقلاب موجه ضد الاتحاد الأردني – العراقي. كذلك أخبرنا أن هناك وحدات من الجيش في طريقها إلينا لإلقاء القبض علينا أو اغتيالنا. أصبح جلياً أن حياتنا في خطر من عناصر الجيش العراقي الذين سيطروا على العاصمة".

استنفر اللواء إبراهيم عثمان وزملائه الضباط الأردنيون على الفور في محاولة للعثور على وسيلة نقل إلى المطار، حيث استولوا على طائرة عسكرية. "حلقت بالطائرة خارجاً بينما كانت الرصاصات تتطاير من فوق رؤوسنا، وتمكنت من مغادرة المجال الجوي العراقي قبل أن يتمكن سلاحهم الجوي من إسقاطنا".

كذلك حدث في نفس شهر تموز من عام ١٩٥٨ أن اكتشفت مؤامرات ضد حكومة الملك حسين في الأردن. أدى ضباط الأجهزة الأمنية الشراكسة دوراً محورياً حاسماً في الكشف عن المؤامرة، وقد أماط أحد

المتآمرين اللئام عن تواطؤ لعملاء سريين مصريين.

كذلك بدأت جمهورية عبد الناصر العربية المتحدة تتفكك.

في نهاية المطاف، فقد أثارت الزعامة المصرية للوحدة، والموقف الاستعلائي بين الأفراد العسكريين والإداريين المصريين الذين أرسلوا إلى دمشق، استياء النخبة من العسكريين والسياسيين والبيروقراطيين السوريين. إضافة إلى ذلك، لم تتمكن البرجوازية الدمشقية من دخول الأسواق المصرية كما كانت تأمل. كذلك فقد أحسّ الزعماء السياسيون السوريون الذين أجبروا على العيش في القاهرة، أنهم معزولون عن مصادر قوتهم وسلطتهم.

انهارت الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ بعد انقلاب في سوريا، أوصل مجموعة من الانفصاليين إلى السلطة.

جرت اعتراضات عميقة على الانفصال في سوريا، أدت إلى قيام صراع سياسي مرير انعكس على شكل مظاهرات شعبية ومواجهات في الشوارع، استمرت حتى قام حزب البعث العربي الاشتراكي، والناصريون وعناصر وحدوية أخرى بالاستيلاء على السلطة عام ١٩٦٣. على أية حال، لم يعاد تأسيس الوحدة. استمرت مصر، التي أصبحت وحدها في الجمهورية العربية المتحدة، في استعمال ذلك الاسم حتى عام ١٩٧١، أي بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر.

أسس الملك الحسين بن طلال هوية أردنية متفردة من ثقافة سياسية قديمة ولكنها متشرذمة، ضمت شيوخ القبائل البدوية، شراكسة الشتات، اللاجئين الفلسطينيين، المسيحيين، الإسلاميين والعشائر الحجازية. أقام الملك الحسين المجتمع المتعدد الاثنيات، المتعدد الثقافات، المتآلف الحقيقي الأول في العالم العربي.

أتيحت لي عدة مناسبات في السنوات اللاحقة لاجتمع بجلالته والتعرف إليه على مستوى شخصي. حدث هذا بشكل خاص عندما بدأت

أدرب ابنته الصغيرة الأميرة هيا على رياضات الفروسية والقفز عن الحواجز. أصبحت صديقة مقربة من العائلة، وصارت تقضي العديد من الساعات في منزلنا مع أطفالي. عندما تقدمت إلى مستويات عالمية وأرادت أن تشارك في المنافسات الدولية، كنت الشخص الذي طلب منه جلالة الملك أن يصطحبها إلى جميع هذه الرحلات.

لن يستطيع اي شخص قابل الملك الحسين أن ينساه: أن ينسى لطفه المثير للانتباه، طاقته الإيجابية وكرمه الذي لا يعرف الحدود. سيتذكر أولئك الذين صادفوه بديهته الحادة الحاضرة، روح النكتة لديه، تواضعه وذكاءه.

الفصل الثامن عشر

أحسّ الأصدقاء الثلاثة أن كل متاعبهم قد أصبحت خلفهم لدى عودتهم إلى المعيشة في المعسكرات التي شحنوا خارجين منها، لكن الذكريات بقيت حادة ومؤلمة، وظلوا يخشون في كل يوم من احتمال وضعهم في قطار مرة أخرى، مما سيضطرهم إلى تكرار العملية بكاملها. لكن الرسالة بدأت أخيراً تصل إلى السلطات، والتي مفادها أن ما يفعلونه يكلف آلاف الأشخاص أرواحهم. تعاظم انزعاج الجنود البريطانيين من اضطرارهم إلى تنفيذ أوامر السياسيين الذين لم يقتربوا من المعسكرات بأية طريقة، بل اختاروا أن يتاجروا بالأرواح البشرية مع ستالين. وافق روزفلت على مطالب ستالين لأنه بحاجة إلى دعم روسيا لمشروعه الوليد، المتعلق بتشكيل الأمم المتحدة. لم يوافق تشرتشل لكنه كان بحاجة إلى دعم روزفلت للمجهود الحربي الأوروبي فاضطر إلى الإذعان. بدا الأمر كله وكأنه تجارة خيول في حينه، وخرج ستالين فائزاً بفارق كبير. بقي مصراً بعناد على معاقبة الناس الذين تحدوا حكمه الشيوعي. صعدت تهاليل مرحة صباح أحد الأيام في المعسكر. بدأت غير متقنة ولا متناسقة في أولها، صاعدة من حناجر القلة الذين سمعوا الأنباء أولاً، لكنها نمت وتصاعدت مع إخبار مجموعة للأخرى، بما سمعوه وما تكهن به أكثرهم مما يمكن أن يسبب الاحتفال والمرح لدى الآخرين. أخذ الرجال يدقون على الأطباق المعدنية التي دأبوا على استلام أطعمتهم فيها، ويقرعون الملاعق بالأكواب الصفيح، وكأنها ألف جرس مغرق في الصفر. فقد وصلت أنباء إلى السجناء تقول بأن عمليات إعادة التوطين قد توقفت.

"الأمر ما زال مؤقتاً" أخبر الرائد دايفيز كريم، حينما ذهب القائد الشركسي لمقابلته.

"قد يقررون أنهم مضطرون إلى إعادة استئناف العملية للوفاء بالاتفاق الذي اقامه قادتنا في يالطا. لكن بالنسبة للوقت الحالي، فهي معلّقة".

قال كريم، وهو يضربه على ظهره تحبباً وبقوة "تلك، يا صديقي، هي البداية".

"إن عدد القوزاق الذين يقتلون أنفسهم أكبر بكثير من قدرتنا على تجاهله. سيصبح الوضع أكثر إثارة للحرج من معسكرات الموت في بولندا، إذا استمر على هذه الشاكلة".

قدم دايفيز لفافة تبغ لكريم وأشعل الإثنان، رمزاً صغيراً للاحتفال.

"لم يعد الجنود البريطانيون راغبين في تحمل المسؤولية عن هذا. لكن ربما نتلقى أوامر مختلفة بمرور الوقت".

سأل كريم "هل تعتقد أن للأمر أية علاقة بالرسالة؟".

"من يدري؟ هي عجلات داخل عجلات. يستحيل الجزم بما يمكن أن تكون تلك قد سببته من تأثير. لم أتلق أي تأكيد رسمي بأنها استلمت أصلاً".

سأل كريم "لكن الحكومة البريطانية تعرف أن الرسالة قد أرسلت، أليس كذلك؟".

"أتخيل أن الحكومة تعرف ذلك القدر على الأقل، وربما أثّر ذلك في قرارها".

كانت الرسالة فكرة كريم في المقام الأول. كتبت قبل عدة أسابيع، حينما كانت عمليات إعادة التوطين في أوجها والعائلات القوزاقية

بأكملها تقدم على الانتحار، مفضلين ذلك على إعادتهم إلى موت محقق في وطنهم.

اقترح كريم حينها، في وقت متأخر من إحدى الليالي، وكان هو وأقرب ضباطه القفقاسيين في حالة أكثر تقدماً من السكر الخفيف، بأنه يتوجب عليهم الكتابة إلى مدام روزفلت.

"إذا عرفت زوجة الرئيس بما يجري باسم حلفائهم، فإنها ستجبره على وضع حد للعملية". ثرثر كريم "يجب إحاطتها علماً".

صباح اليوم التالي، عندما أفاقوا مع آثار الإسراف البغيضة في الشرب، ظلت الفكرة تبدو منطقية ومقبولة. هي محاولة بعيدة، الكل متفق على ذلك، لكن كان يجب عليهم أن يفعلوا شيئاً ما. رغم أن إعادة التوطين قد توقفت في معسكرهم، بسبب رغبة القباردي، الأوسيتيين، البلقار والقرشاي في تحدي أية أوامر متعلقة بالمسألة، فقد علموا من شهود عيان أن القوزاق ما زالوا يحملون قسراً في قطارات وشاحنات ويشحنون شمالاً.

مهما تضاءلت احتمالات النجاح، هم مضطرون إلى القيام بعمل يؤدي إلى إيقاف العملية برمتها. لقد بدأت العملية بروزفلت وتشرتشل وستالين، فمن هو الأقدر على وقفها من زوجة روزفلت؟ أمضوا النهار بطوله وهم منكبين على الرسالة، محاولين ا بطريقة تجعلها تشد أوتار قلب زوجة الرئيس، بدون أن يبدو عاطفياً أكثر مما يجب. أرادوا أن يقدموا الحقائق، وأن يكون لها وقع رهيب على أي شخص يحتمل أن يقرأ الرسالة، سواء كانت السيدة روزفلت نفسها أم الناس الذين يتفحصون بريدها.

مع انتهاء ذلك النهار، توصلوا أخيراً إلى الرضى عما فعلوه، وحمل كريم الرسالة إلى الرائد دايفيز. أكمل الرائد قراءتها بدون أن يتكلم. ثم رفع رأسه لينظر إلى كريم وهزَّ رأسه متفكراً، قبل أن يعاود قراءتها

مرة أخرى.

قال في نهاية المطاف "هذه وثيقة مؤثرة، وأظن أنها تاريخية، أيضاً".

"هل سيكون من الممكن إيصالها إلى السيدة روزفلت؟" سأل كريم.

"يمكن أن تصل إلى هناك من خلال القنوات العسكرية".

سأل كريم "كيف سأتأكد أنها وصلت؟" وقد أدرك أن الرائد سيفهم ما يرمي إليه ويطلبه. قال دايفيز "اتركها معي. سأرى ما بوسعي عمله".

حدث ذلك قبل أسابيع عديدة والآن، فعمليات إعادة التوطين قد أوقفت. هناك إمكانية بوجود صلة. بكل الأحوال، لم يهتم أي من الرجلين طالما أن النتيجة هي نفسها. في كل يوم بعد ذلك، عاش الناس في المعسكرات في خوف من أن يقرر البريطانيون بأن الضجة قد هدأت بما يكفي لأن يستأنفوا برنامج إعادة التوطين. فإذا لم يفعلوا، ما الذي سيفعلونه بعشرات الآلاف من الناس المطرودين الموجودين في النمسا وشمال إيطاليا؟ أخيراً، وصل النبأ إلى مسامعهم، بأن لندن في سبيلها لإيقاف عمليات إعادة التوطين رسمياً، وأن الأمر مرده إلى تدخل من قبل السيدة روزفلت مباشرة. على أية حال، فإن لندن تقول، أنها لن تكون راغبة في منح حق اللجوء لأي من السجناء في إنجلترا. تسابقت الدول الأوروبية الأخرى إلى الإعلان عن عدم رغبتها في رؤية عشرات آلاف اللاجئين يتدفقون عبر حدودها، ليضيفوا إلى المشاكل التي يعانونها أصلاً وهم يحاولون أن يتعافوا من المصائب المالية والاجتماعية للحرب.

"إلى أين ستذهب، يا كريم؟" سأل ألوشا أثناء جلوسهم إلى طاولة المقصف، يبحثون فيما يمكن أن يخبئه المستقبل لهم جميعاً.

"هل ستذهب إلى تركيا؟ يبدو أن كل شخص يكتب إلى السلطات التركية في هذه الأثناء".

"لست واثقاً من ذلك". قال كريم، وهو يفرك ذقنه، غارقاً في التفكير. "إذا كان كل هذا العدد من الناس يحاولون الدخول إلى هناك، فلربما يكون من الأنسب النظر إلى مكان آخر، إلى بلاد ليست غارقة في طلبات الهجرة".

استعمل عسكربي "مثل أين؟".

ظهر على كريم أنه لا يخطط لتقاسم أفكاره معهم. ثم بدا عليه أنه غيّر رأيه في قراره. "هناك رجل يدعى الرائد ثومبسون، زار المعسكر بالأمس". قال بتؤده. "لقد كان في زيارة لعمان، الأردن. على مايبدو، فهناك مجتمع شركسي كبير يعيش فيه. إنها بلاد فتية حيث يستطيع الرجل أن يصنع من نفسه شيئاً فيها". سأل ألوشا "هل لهذا الرائد ثومبسون أية صلات في عمان؟".

"يقول أنه عرف عدداً من الضباط الشراكسة في الفيلق العربي عندما كان يخدم هناك. لقد أعطاني رسائل توصية".

جلس الرجال الثلاثة الأصغر سناً صامتين لوهلة بعد أن غادرهم كريم.

"ربما ينبغي أن نفكر بالأردن أيضاً". قال ألبرت بعد وهلة.

"كلا" هزّ ألوشا راسه نفياً "ليس بالنسبة لي. أنا أريد أن أشاهد أمريكا أولاً".

الفصل التاسع عشر

عند نهاية سنتي الثانية في كلية إبرلهام، تلقيت معلومات مفادها أن الطلاب الراغبين في الدراسة خارج أمريكا، يمكنهم قضاء سنتهم الجامعية الثالثة (الجونيور) في الدراسة بالخارج. كان ذلك في العادة في جامعة من اختيارهم في أوروبا حتى يمكن تعلم أو إتقان لغة أجنبية ما. رغم أن هذا البرنامج صمم بالدرجة الأولى للطلبة الأمريكيين، فقد فكرت في أن أجرب حظي بكل الأحوال. أعجبتني فكرة قضاء سنة في أوروبا، فقدمت طلباً. فوجئت عندما أخبرت رسمياً أن بوسعي المشاركة في البرنامج، فقفزت لأنتهز الفرصة. اخترت ألمانيا. لم أكن أجيد اللغة الألمانية، لكنني رغبت في تعلمها واكتساب الخبرة في ثقافة هذه الأمة الأوروبية. كنت، أثناء مغامراتي في السفر المتطفل كتلميذ ثانوي، قد ارتحلت عبر ألمانيا وأحببت البلاد، وأعجبت بالقلة من الناس الذين قابلتهم. لكنني ما كنت أعرفها كما ينبغي للمرء أن يعرفها حقيقة، واعتقدت أن قضاء سنة سيكون تجربة مثيرة وقيمة بالنسبة لي.

تقدمت بطلب إلى جامعة فرايبورغ، في برايسغاو، غير بعيد عن الحدود السويسرية في جنوب البلاد، وتم قبولي بشرط اجتياز امتحان دخول باللغة الألمانية. وبما أنني لا أعرف اللغة، فقد كانت لدي أشهر الصيف الثلاثة لتعلمها بما يكفي لاجتياز الامتحان. إذا لم أنجح فسوف أعود إلى كلية إيرلهام في أمريكا.

عندما كتبت لأخبر والدي عن هذه الإضافة في خططي التعليمية، لم يسر لهذا الأمر مطلقاً. فقد اعتقد أنه ينبغي علي البقاء وإنهاء الدراسة

في الكلية. لا أعتقد أنه فهم البرنامج الذي سأكون جزءاً منه، فأصابه القلق على أن تضيع هذه السنة مني.

اضطررت إلى اختراع قصة لأقنعه بالقول أنني منحت بعثة دراسية للسنة التي سأقضيها في الخارج وأنه سيتم الوفاء بكل المصاريف. فهم من كذبتي البيضاء بطريقة عقلانية أن مثل هذه البعثات لا تمنح إلا للطلبة المتفوقين ولذلك فهي لا يمكن أن تكون خطأ كلها! لم يعرف أنني ما زلت أحتفظ بمعظم النقود التي كسبتها من الصيف الماضي، وأنا أكافح الحرائق في ألاسكا وأنها ستكون أكثر من كافية لسنة في جامعة ألمانية. لم يكن والدي بخيلاً ولا صعب التعامل في المسائل المالية. الأمر هو أنه لم يكن من السهل الحصول على النقد في الأردن في تلك السنوات، وكان ذلك سيحتم عليه بيع أرض أو عقار ما لتغطية المصاريف الإضافية. وقد كان بيع الأراضي التي عمل بجد وكفاح هائلين حتى يؤمنها لنا، أطفاله، أمراً من الصعوبة بمكان بالنسبة له.

لقد كانت عائلتي أكثر ثراءً من معظم العائلات الشركسية في الأردن، لكن موجوداتنا استثمرت جميعها بحكمة في الأراضي. وعليه فقد تفهمت وقدّرت اهتمام والدي ولم أعتب عليه مطلقاً. ركبت الطائرة إلى ألمانيا في أوائل حزيران وذهبت مباشرة إلى معهد غوتة في كوتسيل آم سي لمباشرة دراسة اللغة الألمانية. اندرجت في مساق انغماسي كلي حيث يعيش الطلاب خلاله مع أسر ألمانية ويتعرضون على الدوام إلى اللغة الجديدة. المساق صعب، لكن الإقامة كانت ممتعة. فقد تألفت صفوفنا الدراسية من ثلاثين طالباً وطالبة معظمهم بنات من كافة أنحاء أوروبا. فقد تواجدت طالبات اسكندنافيات، إيطاليات، إنجليزيات وفرنسيات قريبات مني في السن. أكثر متعة حصلت عليها هي عندما أراد المعهد أن ينظم احتفالاً موسيقياً لجميع الثقافات المتباينة الموجودة. ارتديت ملابسي التشيركيسكا، ورقصت على أنغام لحن شركسي أصيل عزفته بنفسي على الهارمونيكا. نجح اللحن بطريقة مذهلة وأصبح الجميع

مهتمين بمعرفة كل شيء عن اللباس، الشراكسة والتاريخ وسبب وجودي في الأردن. أعتقد أنهم توقعوا مني حتى تلك اللحظة أن أخرج إليهم بلباس عربي تقليدي حاملاً شبابة راعٍ على فمي!

سافرت في منتصف أيلول إلى فرايبورغ وقدمت امتحانات اللغة في الجامعة. نجحت بصعوبة بالغة في الامتحانات، لكن تم قبولي في المساق الذي سيبدأ في أيلول. ستكون أولويتي القصوى هي الانطلاق في حملة تصيد، للحصول على سكن للسنة الدراسية الكاملة. فقد كانت جميع مباني الإقامة الداخلية مشغولة بالطلبة الألمان، وكانت السياسة المتعلقة بالطلبة الأجانب تقضي بمعيشتهم مع العائلات الألمانية لتحسين طلاقتهم اللغوية. أرسلت الجامعة موظفاً إدارياً لمساعدتي في هذه المهمة: العثور على سكن في غرفة مستأجرة لدى عائلة ألمانية في المدينة.

حالفني الحظ في العثور على السكن في وقت قصير نسبياً. فقد بدأنا البحث في القسم الذي هدمته الحرب من المدينة المسمى ماتينشتراسه، لأنه سيكون على مسافة مشي من الجامعة. دخلنا إلى مخزن جزار حيث استعلمت هيلجا، مساعدتي، عن العائلات التي يحتمل أن تتوفر لديها غرف إضافية للتأجير. بينما انهمكت السيدة، صاحبة الملحمة في التفكير، دخلت زبونة لها لشراء بعض لوازمها، فسئلت عما إذا كانت تعرف عن توفر مثل هذا الوضع حيها. تفحصتني السيدة التي كانت في أواخر عشرينات عمرها، وترتدي ملابس غاية في البساطة، وعاينتني من رأسي حتى قدميَّ، ثم قالت أن لديها مثل هذه "المساحة" للإيجار. كان اسمها فراو كاسبر، ولم أكن قد قابلت إنسانة في مثل طيبة روحها حتى ذلك الحين. كانت تمتلك ابتسامة مشرقة معدية ونفسية دافئة. أصبحت هي وزوجها إيرنيست أقرب صديقين لي مدى الحياة. كانا من أطيب من قابلت: "ملح الأرض" وأصبح طفلاهما بمثابة عائلتي لبقية حياتي.

لم تكن هيلجا، مساعدتي، واثقة من وجوب قبولي السكن. لأن "المساحة" المعروضة للتأجير والتي تكلمت عنها السيدة كاسبر، لم تزد عن مجرد "مساحة". فهي عبارة عن زاوية محصورة في مطبخهما الصغير، استخدمت في الماضي كمنطقة طعام. حشرا فيها سريراً وعلّقا ستارة بيضاء، تفصلها عن المطبخ، لتعطي انطباعاً خادعاً بالخصوصية.

قبلت بالزاوية لأنني أعجبت بالناس ولأنني أدركت أن العائلة فقيرة نسبياً، ومثل معظم العائلات الألمانية في حينه، بحاجة إلى النقد الإضافي المتأتي عن التأجير. لم أندم على اتخاذ ذلك القرار أبداً. كانت السنة التي قضيتها مع عائلة كاسبر واحدة من أسعد فترات حياتي. كان ابنهما البكر يورجند في المدرسة، والأصغر، رالف، في الثالثة من عمره. لم تكن طفلتهما الثالثة، سابين، والتي سأقابلها بعد ذلك ببضع سنوات، قد ولدت بعد. أصبحت جزءاً من العائلة خلال الشهر الأول تقريباً، واهتمت السيدة كاسبر وسهرت على راحتي كما تفعل مع أطفالها. سرعان ما قابلت فتية الحي وفتياته وتم قبولي في عصابة ماتينشتراسه بعد وقت قصير.

في الطابق الواقع تحتنا، كانت تعيش عائلة ستوبانوس، التي كان نجلها الوحيد فريتز في مثل سني. كان لديه شغف بسيارات السباق الرياضية، وهو على ما يبدو بارع في ميكانيك السيارات، حيث يعمل في ورشة والده. انحصر حلمه في الحياة بتصميم سيارة سباق ليشارك بها في سباق التسلق لمنطقة شاوينزلاند. وهو الجبل القريب، موجود في الغابة السوداء ويحتوي على طريق يتلوى ويصعد نحو القمة مسافة عشرة كيلومترات. أصبح هذا الجبل موقعاً يحظى بشعبية واسعة لسباقات التسلق في ألمانيا. أخذني فريتز إلى أعلى التلة عدة مرات ليريني أسرار هذا السباق المثير، وبدأ يزرع مفهوم الانغماس في حلمه ببطء في ذهني. كنت بدوري مغرماً بالسيارات الرياضية السريعة

والبراقة، لكنني ما فكرت مطلقاً بأنني سأتمكن من شرائها ما دمت طالباً.

بعد ذلك بوقت قصير، اصطحبني فريتز إلى ورشة والده وعرض علي محركاً صغيراً جالساً فوق طاولة عمل في إحدى الغرف الخلفية. قال لي أنه محرك BRM، مخصص للسباقات وبسعة ١,٥ ليتر، وأنه حصل عليه في السنة الفائتة وأجرى عليه تعديلات ليتناسب مع حلبة سباق التسلق. ما يحتاج إليه هو هيكل سيارة ليثبته فيه ونصبح جاهزين! أغراني الوضع، أغراني بدرجة كبيرة. أرقت ليالي عديدة وأنا أفكر في الموضوع وأتخيل نفسي جالساً خلف المقود وأفوز في جميع السباقات لأصبح محبوب الفتيات الجميلات في الجامعة. كنت أمتلك المال اللازم لمساعدة فريتز في الحصول على هيكل السيارة. وافقت في نهاية المطاف على أن أصبح شريكاً لفريتز شريطة أن أقوم بالقيادة بينما يقوم هو بصيانة السيارة والمحافظة عليها في قمة أدائها في العمل الذي يجيده: الميكانيك. وافق، وهكذا انطلقت مهنتي القصيرة كسائق سباقات. على كل حال كانت مهنة لم تستغرق سوى عطلة نهاية أسبوع واحدة.

اشترينا الهيكل المصنوع من الألياف الزجاجية لسيارة رياضية أنتجت في إنجلترا وطلبنا شحنها إلى فرايبورغ. كان اسمها بيركلي، هيكل من الألياف الزجاجية خفيفة الوزن، على مقاس شاصي أصغر سيارة فيات يتم إنتاجها في ذلك الوقت. تم تركيب هذا الكوكتيل بسرعة ليشكل سيارة سباق من قبل فريتز، وانطلقنا على الطريق خلال شهرين، كانت السيارة خفيفة الوزن إلى درجة أن فريتز وأنا كنا نتمكن من رفعها عن الأرض لوحدنا.

عاد فريتز إلى البيت في أحد الأيام وهو يشعر بالإثارة. فقد سجلنا في سباق محلي مفتوح، سيجري في حقل طيران قريب مهجور لسلاح الجو الألماني. أراد أن يستعرض بسيارتنا مقابل السيارات الرياضية

التقليدية المعدلة والموجودة في المنطقة. ذهبنا إلى ذلك السباق، ولا يمكن أن تخمنوا، فقد فزت فيه بسهولة مقابل محركات أكبر بكثير. بات فريتز فخوراً بأدائنا إلى درجة أنه بدأ يبحث في مجلات السيارات عن أية سباقات في أي مكان من جنوب ألمانيا. حتى أننا عبرنا الحدود إلى سويسرا في إحدى المرات وربحنا سباقاً هناك أيضاً. أصبحنا بطلي ماتينشتراسه، وتنافست فتيات فرايبورغ الجميلات ليظهرن بصحبتنا. أصبح الأمر مصدر بهجة هائلة، إلا أن الغاية الرئيسة التي بنيت من أجلها السيارة هي المشاركة في حدث تسلق التلال في شاوينزلاند. سرعان ما وصل ذلك النهار في الربيع. طبعاً لم تعلم عائلتي أي شيء عن مغامراتي في ألمانيا، على الأقل ليس على الفور.

بقيت لنا بضعة أيام نتدرب فيها على تسلق التل، لنعرف منحنياته الخطرة والتواءاته، فبدأنا نعمل باجتهاد. اشتريت حزام أمان خاص بالسباق، يشبه حزام أمان طياري شركات النقل الجوي، وطلبت تركيبه قبيل السباق مباشرة، وجهزت نفسي لشوط تدريبي الأخير قبل السباق في اليوم التالي، بدون حزام الأمان.

أذكر أن اليوم كان السبت، صباحه غائم بارد والضباب يغشى كل شيء. قدنا السيارة حتى نقطة الانطلاق مع صديقتينا، ثم قمت بأحماء المحرك تمهيداً للانطلاق. ذهب فريتز إلى نقطة النهاية ليؤقت أدائي على ساعة توقيته ويعطيني إشارة البداية.

هطلت الأمطار في الليلة الفائتة وجلبت بعض الرمل والتراب من المنطقة العشبية المحيطة بالطريق الرئيس، الأمر الذي جعل التعامل مع المنعطفات حافلاً بشيء من الخطورة. أحسست بالعجلات تفلت من السيطرة مرتين وأدركت أن توقيت سرعتي في هذا المران لن يكون مثيراً للدهشة. وصلت إلى منتصف التسلق حيث صادفت منعطفاً يسيراً عريضاً إلى اليسار فزدت من سرعتي لأعوض عن الوقت الذي فقدته. لكنني أدركت لحظة دخولي المنعطف أنني قد دست بعض التراب

فارتكبت خطأ الدوس على المكابح لتخفيف سرعتي. انزلقت السيارة الصغيرة بكل بساطة جانبياً، خارجة عن السيطرة، واستطعت بالنظر إلى مرآتي الجانبية أن أرى أنني سأصطدم بقوة بالشجرة الوحيدة على الطرف البعيد من الطريق. خلف الشجرة، هناك وادٍ سحيق، حاد بعمق أكثر من مائة متر. التمعت تلك المعرفة في عقلي ببريق مبهر عندما ضربت الشجرة بقوة وانزلقنا، السيارة وأنا، باتجاه الجرف. حدث الأمر خلال ثوان، كنا نطير إلى الأسفل، بدون أية عوائق، ثم غبت عن الوعي.

حينما فتحت عيني للمرة الثانية، كنت ممدداً على حافة عشبية رطبة وضيقة. نظرت إلى أسفل، ورأيت سيارتنا الحمراء الصغيرة على مسافة ابعد في قاع الجرف، وقد تقطعت إلى أشلاء، وقد جلس محرك الـ BRM، ملتوياً حيث كان يفترض أن أجلس داخل السيارة. تصاعدت الأدخنة السوداء الخانقة من السيارة المدمرة إلى حيث رقدت. أذكر أنني نظرت إلى ساقيَّ الممدودتين واستغربت من أنهما تشيران إلى وجهتين متعارضتين. أدركت شيئاً فشيئاً ما حدث، وهاجم عقلي ألم مبرح، مصاحباً لذلك الإدراك. فتحت فمي لأصرخ طالباً النجدة، لكن لم يخرج من حلقي أي صوت. ذعرت لأنني أدركت أن أحداً لن يشاهدني ممدداً على هذه الحافة الضيقة، من الأعلى.

أخبروني لاحقاً أن فريتز قاد سيارته نازلاً مسرعاً حينما سمع صوت التحطيم، ولم يشاهد سوى السيارة في قعر الجرف. افترض أنني سأكون في مكان ما داخل الحطام، ربما تحت السيارة، فأسرع نازلاً التلة باتجاه أول هاتف وجده ليخابر طالباً المساعدة. توقف للحظة ليخبر الفتاتين عند الطرف السفلي أنني قد سقطت عن الطريق إلى أسفل الجرف. ركضت الفتاتان صاعدتين التلة لمسافة حوالي خمسة كيلومترات نحو موقع الحادث وبدأتا تناديان باسمي بصوت عالٍ. تمكنت من سماعهما تناديان. عثرت على صوتي أخيراً بين نوبات التشنج والدوار واستدلت

الفتاتان على موقعي بدون أن تتمكنا من رؤيتي. كان من المستحيل عليهما النزول نحوي بدون الاستعانة بالحبال أو المعدات.

استغرق وصول بعثة إنقاذي نحواً من الأبدية، حسبما اعتقدت. خالفني فريتز الرأي وأخبرني عن مدى كفاءة دائرة الإطفاء المحلية في إخراجي عن الحافة وأخذي بسرعة إلى مستشفى فرايبورغ الجامعي.

شعر بالامتنان لأن فريتز لم يكن قد ركّب حزام الأمان الجديد، وإلا لكنت تهشمت إلى أشلاء مع سيارتنا الرياضية الصغيرة الهالكة. وهكذا انتهت مهنتي القصيرة في التسابق فعلياً وحقيقة هناك في فرايبورغ، ولم أشعر أبداً بعدها بالدافع لإثبات براعتي على طريق السير السريع.

لم يتم إخبار عائلتي بحادثي. أخبرتهم لاحقاً أنني كسرت عظمة نتيجة حادث رياضة. إنني أتساءل عن رد فعل والدي لو أنه علم بأنشطتي. حتماً ليس ساراً جداً.

قيل لي مراراً وتكراراً عن مدى حظي لأن الحادث وقع لي في فرايبورغ، لأن الجامعة تتمتع بسمعة وجود أفضل أخصائيي العظام في أوروبا لديها. أصبت بالعديد من السحجات، ضلعين مكسورين وعدة كسور خطرة في ساقي اليمنى. كانت الكسور شديدة إلى درجة أن البروفيسور هونيكر احتاج إلى إدخال قضيب معدني مع أربعة براغي حتى يتمكن من إعادة تجميع ساقي بالوضع الصحيح. عدت إلى أمريكا على عكازتين وقضيت مدة طويلة وأنا أستعين بهما.

يمكنكم القول أنني امتلكت الساق الحيوية الالكترونية الأولى! فأنا أستطيع أن أجعل أنظمة الإنذار التابعة للتفتيش على المعادن تنطلق في كل مرة أمر فيها من خلال أحدها في المطارات. في الواقع أن الأمر تحول إلى نكتة لدى عائلتي وأصدقائي المقربين الذين يسافرون معي،

في البداية، كنت اشرح موضوع البراغي في ساقي، فيسمح لي معظم ضباط الأمن بالمرور. لكن في إحدى المرات وفي مطار فرانكفورت، التقيت بضابط ألماني غبي لم يستطع ولم يرغب في فهم السبب وراء انطلاق جهاز الإنذار، رغم أنه كاد أن يجردني من كل ملابسي في عمله. شرحت موضوع البراغي والقضيب في ساقي عدة مرات، لكنه رفض التفسير حتى جاء ضابط أمن برتبة رفيعة ليستعلم عن سبب التأخير. ببساطة، رفع جهاز الفحص المحمول ومرره على ساقي المعالجة، ثم سمح لي بالمرور مع عدة اعتذارات. منذ ذلك الحادث، أشير ببساطة إلى الإبزيم المعدني في حزامي وأخبرهم أنه السبب وراء الإنذار، وهم يتقبلون التفسير معظم الوقت.

عندما أوشكت على التخرج من كلية إيرلهام (ريتشموند، ولاية إيندیانا)، قرر والدي أن يحضر ليشارك في حفل تخرجي. لأن ذلك لا ينسجم مع شخصيته مطلقاً، أصابني القلق. فكرت أن والدي لم يصدق كلياً أنني تمكنت من الحصول على شهادة البكالوريوس خلال أربع سنوات. أو ربما كان الأمر مجرد فضول من قبله. لم يكن قد زار أمريكا من قبل، رغم أنه دعي مرات عديدة من قبل القادة العسكريين الأمريكان، للمجيء في جولة على المؤسسات العسكرية الأمريكية أو لمشاهدة أحدث الأسلحة أو المعدات التقنية. قبل في هذه المرة دعوة لحضور مساق لمدة أسبوع لكبار الضباط في فورت براغ. أعتقد حقيقة أنها كانت حجة استخدمها للمجيء إلى تخرجي. ذلك على الأقل هو ما كنت أحب أن اعتقده في ذلك الوقت.

استقبلته لأقله في سيارتي الجاكوار x١٢٠ التي اشتريتها مؤخراً، في مطار ريتشموند الصغير. كانت السيارة رياضية مستعملة، لكنها آلة جميلة، وقد عملت بكد واجتهاد كبيرين حتى حصلت على ما يكفي من المال لشرائها خلال سنتي الأخيرة في الكلية. بعد أن مشينا بالسيارة مسافة قصيرة، استدار نحوي وسأل: "لمن هذه السيارة؟" أخبرته أنها

ملكي. قال مغضباً "موحي، لا تكذب الآن. لم أرسل لك أية نقود لتشتري بها سيارة، أبداً".

"لا يا أبت، لم ترسل لي. لقد اشتغلت وكسبت ما يكفي لشراء هذه السيارة".

ظهر الشك في محياه وهز رأسه. واضح أنه لم يصدق كلمة قلتها. لذلك قررت أن أتحول عن طريقنا نحو الفندق الذي ينزل فيه، وقدت سيارتي بدلاً من ذلك إلى محطة قطارات ريتشموند. انحرفت إلى مؤخرة الخط الحديدي، نحو قسم شحن البضائع. تواجد هنا شابان أسودان، صديقان لي، يعملان في تحميل الصناديق الثقيلة على العربات. ناديت على أحدهما، جيمي، وبينما هو يتهادى في مشيته نحونا، أخبرت والدي أن ما شاهد الصبيين يفعلانه هو الوظيفة التي قمت بها معظم ساعات بعد الظهر للسنة الفائتة. كان جيمي ينوب عني هذا اليوم لأن لدي احتفال تخرج بعد الظهر. أكّد جيمي ما قلته. وللمرة الأولى منذ وصوله، رأيت والدي يبتسم بسرور ورضى. امتدح طريقة تعلمي كيفية الحصول على ما يسد الرمق وتعلم قيمة المال، حتى قبل أن أتخرج من الكلية. لم يعرف أن معظم الطلبة الآخرين في أمريكا يفعلون الشيء نفسه في سبيل إتمام تعليمهم. لكنني لم أخبره بذلك. فقد كنت أتمرغ في مجاملته النادرة ولم أرغب في إفسادها.

قبل أن يغادر ريتشموند، أراد والدي أن يشاهد المكان الذي عشت فيه وكيف عشت. لذلك أتيت به إلى غرفتي في المهجع. كانت الغرفة مؤثثة ومزينة بشكل بسيط ومريح، وبرأيي تشع بالدفء، حيث قضيت الجزء الأكبر من ثلاث سنوات. تأكدت من إخفاء كل الدلائل على ثقافتي الموسيقية لأنني علمت أنه لن يسر بذلك. خبأت كماني تحت السرير بعناية، ومعه كل النوطات الموسيقية.

جلس في المقعد الوحيد المريح في الغرفة، وجلست على السرير، ثم بدأ يتحدث عن المستقبل، مستقبلي. قال إنه يتفق مع خياري في الرغبة

باستكمال تعليمي في كاليفورنيا وحصولي على شهادة الماجستير، وربما الدكتوراه بعد ذلك. أخبرته عن المنحة الرائعة التي عرضت علي من مركز جامعة كليرمونت، فابتسم. أعتقد أنه فكر "قد يكون ذلك صحيحاً، لكنك ستظل بحاجة إلى بعض المال من العجوز لتتدبر أمورك" . لم أخبره عن مصدر دخلي الإضافي كمدرب كرة قدم في كلية بومونا. لأن ذلك كان سيعني إغاظته قليلاً، فقد أردت منه أن يستمر في الشعور بالمسؤولية عني لفترة أخرى. أعتقد أنه كان بحاجة إلى ذلك أكثر مني.

تحدث عن مستقبل مضمون لي في الخدمة المدنية بالأردن، وخاصة في وزارة الخارجية. كذلك قال أن جلالة الملك قد استفسر بنفسه عني وأراد أن يعرف متى سأعود إلى الأردن. كل ما علي هو "الدراسة بجد والحصول على علامات متقدمة!" استمتعت بوجوده معي في الغرفة وشعرت بدفئه وهالته، لم أحلم أبداً أن أحظى به جالساً في كرسيٍّ القش بالحرم الجامعي، يتكلم عن مستقبلي. أصغيت إليه باحترام، بدون أن أناقضه أو أختلف معه، رغم أن ما كنت قد خططته لمستقبلي يختلف كلياً عما كان يتصوره. بالنسبة لأبي، الذي قضى حياته كلها يعمل لبلاده الأردن، فإن الأمان يكمن في راتب ثابت مضمون ضمن الحكومة التي يعرفها والبلد الذي يحبه. لم يستطع أن يتخيل حياة أخرى بالنسبة لي. لم يستطع أن يفكر في خياري البقاء في أمريكا، أو بناء مهنة حياتيه لي في ميدان الأعمال. أفترض أنني سوف أتبع خطاه في خدمة السلالة الهاشمية وبلد مولدي.

لم أجرؤ على بحث مشاعري معه في هذه الحقبة المفصلية مخافة أن أشاهد خيبة الأمل في عينيه. اكتفيت بهز رأسي موافقاً على جميع خططه وأفكاره، وظننت أنه سيفهم نواياي عندما يحين وقت إخباره. ابتسم لي في دفء، معبراً عن سعادته بالتقدم الذي أحرزته، ثم نهض قائماً بشكل مفاجئ وخرج باتجاه سيارة الجيش الأمريكي التي تنتظر

لتعيده إلى فورت براغ. تدفقت موجات قوة شخصيته مثل الحرارة وتبعته إلى الخارج. أحسست بالغرفة وقد فرغت كلياً بعد أن عدت من توديعه. أحببته حباً جماً لكنني لم أجد طريقة لأخبره بذلك أو أجعله يشعر بعمق حبي له. فتلك ليست الطريقة الشركسية.

بدأت بحزم مقتنياتي القليلة استعداداً لرحلة القيادة الطويلة إلى كاليفورنيا ومركز جامعة كليرمونت.

سأكون مستقلاً من الناحية المالية للمرة الأولى في حياتي. لأن تكاليف تعليمي ومعيشتي ستكون مجانية بموجب منحة سخية. كذلك تم تعييني مدرباً لكرة القدم الأمريكية، لتدريب وتهيئة فريق كلية بومونا. الأمر الذي غفلت عن ذكره هو أن كرة القدم كانت لعبتي في الثانوية وكلية إيرلهام. وكنت بارعاً كقلب هجوم وهداف.

كانت بومونا واحدة من الكليات الخمس المرتبطة بمركز جامعة كليرمونت والوحيدة التي لديها أي نشاط رياضي. كانت تنتمي إلى مؤتمر جنوب كاليفورنيا، وقد بقيت في ذيل ترتيب المجموعة لمدة طويلة. وأصبحوا الآن يعتمدون علي في تغيير موقعهم ضمن المجموعة. عرضوا علي مقابل ذلك راتباً مجزياً إضافة إلى منحتي الدراسية المتقدمة. شعرت بأنني ثري للمرة الأولى في حياتي. بدأت أهاجم كتبي بنفس الحماس الذي أواجه فيه تدريب فريق كرة القدم. غيرت تشكيلة فريق كرة القدم كلياً بالبحث عن طلاب أجانب وإغرائهم بالانضمام إلى الفريق. لم يكن المتحمسون الأمريكان لاعبي كرة قدم بارعين حقاً. انتهى بي الوضع مع فريق يشكل فيه حملة الجنسية الأمريكية مجرد عشرة بالمئة. ضم الفريق العديد من مواطني أمريكا الجنوبية. من بين اللاعبين الأجانب كان هناك بعض الطلبة الذين سيصبحون شخصيات دولية مرموقة لاحقاً. فهناك الأمير سعود الفيصل، الذي أصبح لاحقاً وزيراً لخارجية المملكة العربية السعودية. كذلك هناك سعودي آخر هو فيصل البسام الذي أصبح نائباً أول لرئيس مجلس إدارة شركة أرامكو،

وأوشي تأكيدا الذي أصبح رئيساً لمجموعة ميتسوي في اليابان، وأورهان بيرزج، المصرفي التركي البارز في استنبول. قفز فريقنا في تلك السنة الأولى من تدريبي، من مؤخرة ترتيب مؤتمر كرة قدم كاليفورنيا إلى إحراز البطولة. فاستمتعت بكل دقيقة منها لأنني كنت "مدرباً لاعباً" على اعتبار أنني طالب دراسات عليا، وظفرت بوسام عموم أمريكا وجائزة مدرب العام.

أصبحت مضطراً إلى التخلي عن الموسيقى بسبب قلة الوقت، ولأن اتجاهي للدراسة اتخذ منحى أكثر جدية بكثير. إلا أنني تعرضت قبل وصولي إلى كاليفورنيا لتجربة أخرى، ستؤثر على نظرتي المستقبلية إلى الحياة والناس.

فقد كنت مسحوراً طيلة فترة طفولتي بالهنود الأمريكيين، الهنود الحمر كما كان يشار إليهم في أفلام رعاة البقر العديدة التي شاهدناها كأطفال. بدأت، منذ لحظة وصولي إلى أمريكا، أقرأ كل ما تصل إليه يداي عنهم: القبائل المتنوعة، مواقعها وشيء عن تاريخها. ثار فضولي بدرجة خاصة حول مصائر أمة التشيروكي التي شبهت مصيرها بمصير وقدر شعبي، الشراكسة. لم يختلف تهجيرهم القسري عن تلالهم التراثية الخضراء في كارولينا (الشمالية والجنوبية) وجبال القمم الزرقاء إلى صحاري أوكلاهوما، عن التهجير الكارثي للشراكسة من القفقاس إلى تركيا العثمانية.

فقد كان "طريق الدموع" الخاص بهم، شديد الشبه بـ "استنبولوقة" لدى الشراكسة، حيث غرق عشرات الآلاف من شعبنا في القوارب العثمانية العفنة نحو قعر البحر الأسود. كتبت أغانٍ وأنشدت قصائد شعبية تستذكر تلك الأحداث المأساوية في التاريخ الشركسي تماماً كما غنى التشيروكي مآسيهم عن "طريق الدموع".

لذلك، بات من الطبيعي أن أقضي الشهرين الفارغين المتبقين لي، قبل الانضمام إلى كلية الخريجين في كليرمونت، في البحث والاستقصاء

ودراسة وتعلم المزيد عن التشيروكي. فقد كانت مستوطناتهم، الأراضي القاحلة التي أعطيت لهم من قبل السلطات الأمريكية، مباشرة على طريقي المتجهة غرباً إلى كاليفورنيا.

الفصل العشرون

تزاحم عدد كبيرٍ من الناس على سطوح السفينة ليراقبوا البندقية وهي تختفي تدريجياً عن أنظارهم، لدرجة أن كريم بات يعجب إن كانت السفينة ستتمكن من الاستمرار في الحركة على الإطلاق. استطاع بفضل قامته الفارعة أن يشاهد الجزر المغلفة بالضباب وهيٍ تنداح من أمامه، بينما لم يتمكن العديد من المحيطين به أن يروا شيئاً بسبب حشد الرؤوس حولهم. كانت كل الفئات العمرية ممثلة: من المسنين المهيبين إلى صغار السن المرتبكين من شدّة شعورهم بالإثارة.

أدار كريم بصره في الوجوه التي تحيط به وأمكنه أن يرى أنه بين أناس عانوا من صعوباتٍ لا يمكن تخيلها. مع تحديقه في الرجال والنساء المسنين أدرك أن كثيراً منهم لم يكن مسناً على الإطلاق، لكن وجوههم قد تغضنت من سنوات الجوع والمعاناة. بدا كثير منهم مثل حيوانات تعرضت لضرب مكرر ومبرح، راغبين في الاستمرار بالسير نحو أي مصير ينتظرهم، مستسلمين لقدرهم وممتنين ببساطة لأن أحداً لا يضربهم في تلك اللحظة. أدرك أنه ينظر إلى اليهود والمضطهدين من أوروبا، الذاهبين إلى البحث عن بيوت في بلد شخص آخر. ربما تكون الحرب قد انتهت وتم تحرير معسكرات السجون، لكن هؤلاء الناس لن يشعروا بالأمان في عالم استطاع أن يؤذيهم بهذا القدر. لم يعرف أي منهم ما يحتمل أن ينتظرهم عندما يصلون إلى فلسطين. لم تكن لديهم أية فكرة عن إمكانية تسببهم بنفس المعاناة التي خبروها في أوروبا لسكان فلسطين. إن قدومهم سيخلق مصيبة أخرى لأمهات وأطفال

أبرياء، سيصبحون بدورهم لاجئين كما هو حالهم الآن، مطرودين ويعانون. لكن كريم نفسه لم يعرف ما ينتظره أيضاً. لم يختلف وضعه عنهم في تلك اللحظة، فهو لاجئ مشرد يبحث عن ميناء آمن لقومه.

ربّت على جيب سترته ليتأكد من أن الخطاب الذي أعطاه إياه الرائد ثومبسون ما يزال موجوداً. في عالم غير موثوق، أمر لطيف أن تمتلك شيئاً واحداً على الأقل، يتحدث عمن تكون وما تفعله في هذه الدنيا. تناوبته مشاعر الأمل واليأس وهو يراقب الحشد حوله. أحسّ بالأمل لأنه طالما أصبح بالإمكان حمل كل هؤلاء الناس على سفينة مغادرة لأوروبا، فلم لا يكون بإمكانه إجراء ترتيب لجعل بضع عشرات من الشراكسة يفعلون الشيء نفسه؟ ثم خطر له أن الأراضي التي يتجهون إليها قد لا تتحمل مثل هذا العدد غير المحدود من اللاجئين. ماذا لو كانت هذه السفينة آخر ما يبحر؟ ماذا، عند وصولهم إلى الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، إذا قوبلوا بالعداوة، وأعيدوا من حيث أتوا؟ ما هي الأرض التي تأمل بإعالة كل هذا الكم من الناس الذين ترفضهم أوطانهم نفسها؟

بينما كانت هذه الأفكار وأكثر منها تدور داخل رأسه وهو يراقب الأرض تختفي عن الأنظار، اتجه إلى داخل السفينة بحثاً عن الطعام.

السفينة يونانية، كما يمكن الاستدلال على ذلك من الطعام الذي تقدمه.

كان العديد من الركاب الآخرين يلاقي صعوبة في التعامل مع زيت الزيتون والبهارات، بعد تعودهم على أطعمة أوروبا الوسطى الأكثر بساطة، حتى قبل أن تصادر الحرب هذه المؤن القليلة منهم. نظر الأطفال إلى الطعام الغريب بتشكيك بينما تحاول أمهاتهم وجداتهم إغراءهم على تناوله، وقد تملكهن قلق دائم من الضرر الذي أصاب أجسامهم الصغيرة النامية سلفاً. عرف كريم سابقاً عن تشدد بعض اليهود في الطعام، الكوشر المباح والمحدد. لكنه لم يستطع أن يتخيل أن

هذه المجموعة لديها خيار كثير فيما تأكله، إلا بالنسبة لكبار السن. فقد نظر هؤلاء إلى أطباقهم وتمتموا ثم حركوا الطعام في أرجاء أطباقهم بطريقة شاردة ثم مضغوا قطعة خبز، مجرد ما يكفي لإبقاء الجسد والروح لأية عذابات مخبأة لهم.

كان الطاقم اليوناني مرحاً وأفراده يتكلمون بأصوات عالية، ما خلق تناقضا دراميا مع ركابهم. لم يكن أي أحد تقريباً، قادراً على التواصل معهم باليونانية، لذلك ابتسموا وضحكوا كثيراً للتعويض. مع مضي الوقت في الرحلة، لاحظ أن المزاج الحسن الذي لا يعرف التوقف للطاقم قد بدأ يذيب الجليد عن بعض الركاب، خاصة الفتيات الصغيرات. لم يقف حاجز اللغة حائلاً بين البحارة ومحاولات التغزل.

استغرقت الرحلة البحرية أربعة أيام، استطاع كريم خلالها أن يصادق بعض العائلات، خاصة أولئك الذين يفهمون منهم اللغات الألمانية أو السلافية. استطاع أن يتحدث ويمضي الوقت. أوى في المساء إلى مقصورة مع أربعة رجال آخرين، هي أشبه بزنزانة سجن، وتعاون نسيم البحر مع تأرجح السفينة على إيصاله إلى حالة سبات مريحة.

تعاظم التوتر بين الحشد مع اقتراب السفينة من وجهتها. لم يعرف أحد على وجه اليقين ما إذا كانوا سيتمكنوا من النزول هنا، أم أنهم سيرسلون إلى مكان آخر غير معلوم. انضم كريم إلى العديد الواقفين على السطوح يراقبون مع بروز اليابسة أمامهم مرة أخرى. كانت الشمس ساطعة وحارة وظهرت كأنها تضيء المستقبل. أحسّ بأن معظم الناس حوله غارقين في الصلاة. سمع بعضهم ينتحب وهم يقتربون من أرض الميعاد. أرادوا أكثر من أي شيء آخر، أن يسمح لهم بالبقاء هنا، أن يعيشوا بسلام ويحاولوا أن يعيدوا بناء عائلاتهم المشردة. لكنهم كانوا قد سمعوا بالحرب وإنشاء دولة إسرائيل الصغيرة. فهل ستتمكن هذه من استيعابهم والسماح لهم بالبقاء كلاجئين يهود. لم تكن لديهم أية وسيلة يعرفون بواسطتها أن الدولة الجديدة سوف ترحب باللاجئين

اليهود بأذرع مفتوحة.

منظر حيفا يفرح القلب، أبنيتها البيضاء تلتمع تحت أشعة الشمس لدى تجمعها عند سفح التلة، بعيداً عن أرصفة الميناء التي تعج بالحركة تحتها. خيم على الركاب صمت غريب مع اقتراب المدينة وتمكنهم من رؤية المباني والبيوت بشكل متفرد، ورؤية الناس يسيرون في الشوارع. رأوا أثواباً يهودية ترفرف مع النسائم الدافئة في جو من الغرابة والغموض الذي يلف المكان.

لم يعد الحشد المتكوم على السطح، بملابسهم الأوروبية السميكة، وقذارتهم وذكريات سنوات البرد التي ما زالت تجعل عظامهم تئن، يستطيع الكلام عند هذه اللمحة من الفردوس.

مع اقترابهم من الرصيف، رأى كريم جنوداً يتجمعون لمقابلتهم. أم أنهم موجودون لطردهم، لإصدار الأمر إلى القبطان اليوناني لكي يستدير ويعود من حيث أتى؟ لم يشبه منظرهم الجنود البريطانيين أو الأمريكان. ومع أن الضباط كانوا يرتدون الزي العسكري، إلا أن الأفراد العاديين بدوا مثل مقاتلي الصحراء.

قال رجل واقف إلى جواره "هذا هو الجيش الإسرائيلي الجديد. إنهم يهود مثلنا. سيرحبون بنا هنا". أدرك كريم أن الحشد قد اقترب من حالة الفزع. فهم لن يتحملوا فكرة إعادتهم من حيث أتوا، بعد كل ذلك التوق وتلك المعاناة. لن يحتاج قيام مظاهرة من نوع ما إلى جهد كبير، مما سيمنح الجنود العذر المثالي لمنعهم من النزول، أو حتى فتح النار. أصبح الحفاظ على الهدوء أمراً حيوياً.

بدأت بعض النسوة في النحيب، وأصبح من المستحيل معرفة ما إذا كانت الدموع نتيجة السعادة أم الخوف. مع خفض السلالم، حصلت دفعة من الأجساد، لكن الجنود كانوا قد بدأوا يركضون صاعدين إلى السفينة لمنع الناس من الاندفاع. تعالت الأصوات الغاضبة وحصل

بعض التدافع. أخذ طفل يبكي بعد أن داسته الأقدام. تحرك الحشد إلى الخلف وأخذ كريم يحشر نفسه إلى المقدمة وسط ضغط الأجساد، كانت الصرخات تحيط به من كل جانب، تتحدث بعدة لغات مختلفة، وكل صوت منها متحمس لإسماع قصته والحصول على معاملة تفضيلية. مع ارتفاع حرارة الشمس،كاد العمل الإداري المتضمن تفريغ الحمولة البشرية إلى اليابسة أن يتوقف. صعد المسؤولون إلى السفينة ووضعوا طاولات وكراسي، ثم جلسوا يستمعون بسلطة أقرب إلى الاعتداد، بينما سمح للحشد أن يتدفق من خلال شريط الجنود كل فرد أو اثنين على حدة ليعرض أية أوراق يحملها ويشرح قضيته. أخيراً حان دور كريم. قدم وثيقة مرور بريطانية والخطاب الذي أعطاه إياه الرائد ثومبسون، وسلمهما إلى الرجل الذي يبدو عليه الفضول، والجالس خلف الطاولة.

"ما هذا؟" سأل المسؤول الإسرائيلي،وهو يحدق في الخطاب بدون أن يكلف نفسه قراءته. نفض كريم كتفيه. لم يستطيع أن يفهم كلمات الرجل العبرية المبهمة. فقد كان يأمل أن يكون أي شيء كتبه الرائد ثومبسون في الخطاب كافياً. حدق فيه الرجل بكراهية لعدة لحظات، وعندما أدرك أنه لن يتمكن من إجراء محادثة مع كريم، نظر إلى الخطاب مرة أخرى ليضع لحظات.

"لا يمكنك النزول هنا. عد إلى السفينة". هذه المرة تكلم الرجل بالإنجليزية.

زمّ كريم عينيه، محاولاً أن يفهم ما كان الرجل يقوله. وصل ضابط على الفور ليرى ما الذي يعيق العملية. حاول الضابط بضع لغات: اليديش، الإنجليزية، ثم، بشكل مفاجئ، الروسية.

أضاء وجه كريم، فاستجاب رأساً بارتياح عظيم:

"أنا شركسي من جنوب روسيا. إنني بحاجة إلى الذهاب إلى الأردن. هل يمكنني النزول هنا؟"

نظر إليه الضابط بإمعان ثم تناول خطاب الرائد ثومبسون إضافة إلى وثيقة المرور التي أعطيت لكريم بدل جواز السفر.

"آسف، سيد، شيبزوكوف. لا يمكنك النزول هنا. إن حدودنا مع الأردن مغلقة. يجب أن تكمل سفرك إلى الإسكندرية. يمكنك أن تكمل سفرك إلى الأردن من هناك، الأفضل لك أن تعود إلى السفينة".

"لماذا هي الحدود مغلقة؟ لماذا لا أستطيع أن أعبر إلى الأردن. لا بد أنه قريب جداً"

"يا سيد شيبزوكوف. يجب أن تعرف أن لدينا حرباً قائمة. صحيح أن هناك هدنة قائمة، لكن الاشتباكات تحدث على مدى الحدود كل يوم. أنا آسف: لا يمكن السماح لك بمغادرة السفينة هنا. آمل أنك تفهم".

"ولكن، ما الذي ينبغي علي عمله؟" سأل كريم بقلق. لم يستطع أن يتخيل نفسه وقد عاد إلى أوروبا.

"هذه السفينة تستمر حتى الإسكندرية. ذلك هو أفضل خيار لك. من هناك يمكنك أن تجد طريقك إلى العقبة في الأردن". لم ينتظر الضابط حتى يحصل على المزيد من الأجوبة من كريم، فناوله أوراقه، واستدار لينصرف.

فهم كريم وعاد أدراجه إلى السفينة. لم يجد فائدة في الجدال مع السلطة طالما هي الحدود مغلقة. لم تكن لدى كريم أية فكرة عن جغرافية الإقليم. افترض أن فلسطين والأردن يكادان يشكلان بلداً واحداً لا يقسمه سوى نهر الأردن. لم يكن قد قرأ أي شيء يجدد معلوماته فيما يتعلق بالحرب العربية - الإسرائيلية، أو تأسيس دولة إسرائيل. استغرق تفريغ اللاجئين اليهود وقتاً أكثر بكثير مما كان متوقعاً، وأعيد الكثير من الركاب إلى السفينة، إما لأنهم لم يتمكنوا من إثبات يهوديتهم، أو لعدم حيازتهم على وثائق كافية. أخيراً، وبحلول

منتصف الليل، تحركت السفينة خارجة من الميناء وأبحرت باتجاه الإسكندرية.

"هل أنت شركسي؟" سأل الرجل بخشونة، وقد ازداد ضيقه، نتيجة لحجم الحشد الذي ينتظر تمام الإجراءات.

"نعم"، أطلق كريم ابتسامته. فقد بدآ يتواصلان. "نعم أنا شركسي، تشيركيس!" أعاد الرجل إليه الخطاب ونادى على جندي. "خذ هذا الرجل إلى الملازم محمد إسحق، في مكتب الفيلق العربي. إنه يتكلم الشركسية. يمكنه أن يتعامل مع الوضع".

لقد وصل إلى الأردن، في مدينة ميناء العقبة المتواضع الصغير، بعد أن نزل في الإسكندرية واستقل سفينة أخرى مبحرة عبر قناة السويس. كانت سفينة الشحن تنوي التوقف لمدة قصيرة في العقبة لتنزل بعض الركاب وحمولة من البضائع، ثم تستأنف إبحارها نحو ميناء جدة في المملكة العربية السعودية. صادف الحظ كريم في ميناء الإسكندرية حين التقى بمجموعة من الطلاب الأردنيين الذين أدركوا محنته، وعندما اكتشفوا أنه شركسي، اشتروا له تذكرة إلى الأردن.

طوى كريم الخطاب والوثائق وأعادها إلى جيبه. شعر بالخيبة لأنهم لم يفتحوا له باباً سحرياً إلى الأردن، لكنه سينزل عن السفينة على الأقل. بدون أن ينظر إلى الخلف، بدون أن يرغب في رؤية اليأس على وجوه المتبقين ينتظرون، تبع الجندي نازلاً السلم إلى الرصيف.

تابع الجندي إلى بناية صغيرة في الطرف النائي من الميناء حيث جلس المزيد من الرجال يشربون القهوة في الظل ويتبادلون أحاديث مملة. نظروا إليه بغير اهتمام أثناء مروره من خلال الأبواب إلى برودة الداخل. فهم يشاهدون الكثير من الناس يجيئون ويذهبون كل يوم، بحيث لا يعود هؤلاء يثيرون اهتمامهم. العالم كله في حالة غليان ولا أحد يعرف إلى أين هو ذاهب أو ماذا يفعل. على الأقل، هكذا كان الوضع

يبدو أحياناً بالنسبة لكريم. سادت العتمة في الداخل بعد سطوع الشمس في الخارج، لكن كريم استطاع أن يتبين شكل رجل قادم باتجاهه. ومع عودة عينيه إلى التركيز، استطاع أن يتعرف على ابتسامة ودودة ويدٍ ممدودة باتجاهه.

قال بالشركسية "اسمي هو محمد إسحق، أهلاً بك في الأردن". وهو يصافح بحزم.

"أشكرك" شعر كريم بنفسه وقد بدأ يسترخي. لأنٍ مجرد القدرة على التواصل بحرية بلغته الأم، أشعره بان حمله ثقيلاً قد أزيح عن قلبه. "هل أنت مع الفيلق العربي؟".

"نعم، صحيح. هل لديك جواز سفر أو أية وثائق سفر؟".

ناوله كريم الخطاب مرة أخرى وتصريح قوات الاحتلال البريطاني، فقرأها الملازم باهتمام كبير.

"أهلاً بك يا كريم. سوف أجهز الأوراق اللازمة لدخولك إلى الأردن".

للمرة الأولى منذ أكثر من عشرة أيام، استرخى كريم وانعكست على وجهه ابتسامة دافئة. فقد وصل بين أبناء قومه.

انصرف الجندي وجلس الرجلان ليتحدثا. قص كريم حكايته على إسحق وشرح عن وجود شراكسة في أوروبا، بحاجة إلى بدء حياة جديدة في الأردن.

قال "لقد سمعت عن وجود مجتمع شركسي في عمان منذ أمد بعيد. أنا واثق من أنهم سيكونوا راغبين في مساعدة هؤلاء الناس على الاستقرار وتأسيس أنفسهم، إذا استطعت فقط أن أتصل بهم".

سأل إسحق "كم هو عدد الناس الذين تريد أن تحضرهم إلى الأردن؟".

"ما بين ثمانين ومائة. إنهم جميعاً أشخاص صغار السن أقوياء البدن، وسيشكلون إسهاماً طيباً في بلد ناشيء. ليسوا أشخاصاً ينبغي مساعدتهم وإعالتهم لمدة طويلة".

"لقد فهمت". هزّ الملازم رأسه، واستطاع كريم أن يرى من عينيه، أن الرجل حليف له.

"دعني أرى ما يمكنني ترتيبه".

أمّن لكريم غرفة يستقر فيها وينام أثناء قيامه بالإجراءات. بعد عدة ساعات أيقظ كريم من نوم عميق وناوله وثيقة تسمح له بالدخول إلى الأردن. كانت سمة مؤقتة...

"هناك شاحنة عسكرية مغادرة إلى عمان بعد عشر دقائق"، قال له "هناك مكان محجوز لك فيها".

فقفز كريم واقفاً على قدميه وصافح الملازم بحرارة وقوة.

"عندما تصل إلى عمان، هناك منظمة تدعى "خاسا"، أو "الجمعية" بالعربية، هي الجمعية الخيرية الشركسية في عمان. يعرف السائق موقعها. سيوصلك إلى هناك. أولئك هم الناس الذين ستحتاج إلى الحديث معهم. أتمنى لك حظاً طيباً".

اسرع كريم نحو الشاحنة الواقفة خلف المبنى، تنتظره، والمحرك دائر. بقي مكان واحد شاغر بين الجنود المنتظرين. امتدت الأيدي من المؤخرة لتساعده على الصعود، فحشر نفسه بين رجلين بابتسامات مشرقة. قدم له أحدهم لفافة تبغ وزأر المحرك، طرقعت الغيارات وبدأت العجلات تتدحرج وتدور. أحسّ كريم بموجة ارتياح تغمر كيانه. عندما دارت بهم الطريق صاعدة التلة، استطاع أن يرى الميناء في الأسفل. كان سطح السفينة ما يزال يعج بأناس لم يتمكنوا من النزول بعد.

دخلت الشاحنة مترنحة إلى عمان مع غروب الشمس خلف الجبال. هبط الظلام فجأة واستطاع كريم أن يشاهد دواخل البيوت الصغيرة أثناء مرورهم، العائلات تستعد لتناول وجبة المساء. جلس رجال خارج البيوت، يدخنون ويراقبون مرور الشاحنة، بدون أن يعيروها انتباهاً زائداً. فقد خاض العالم كله حرباً لسنوات طويلة جداً بحيث أن أحداً لم يعد يتوقع أن تختلف الأمور، فقد أصبحت الجيوش جزءاً من الحياة اليومية.

أنزل معظم الجنود المتبقين عند تقاطع أحد الطرق الرئيسة في عمان، إلا أن السائق أشار إلى كريم بالبقاء جالساً. قاد الشاحنة مسافة أطول نحو خضرة حي المهاجرين وتوقف عند بناء أبقيت كل نوافذه وأبوابه مفتوحة لإدخال نسمات المساء وتحريكها. استطاع كريم أن يرى الجدول الصغير يتلوى نزولاً تحت ضوء القمر. رأى كريم في الداخل مجموعة من الرجال متحلقين حول طاولة. أمام كل منهم قدح من الشاي، وبدا عليهم أنهم يخوضون جدلاً حاراً، يلوحون بأيديهم ويهزون رؤوسهم، كأنما يئس أحدهم من غباء الآخر. صدرت صيحة من مقدمة الشاحنة، وأشار أحد الرجلين بجانب السائق إلى كريم بأن هذا هو المكان الذي يتوجب عليه النزول إليه. هؤلاء هم الناس الذين ينبغي عليه مقابلتهم. بمجرد أن لامست قدماه الأرض، زأرت الشاحنة مبتعدة، فالسائق بدوره متلهف على إنهاء الرحلة والاستقرار أمام وجبة عائلية أيضاً. اندفع الرجال الجالسون في المؤخرة إلى الأمام والخلف بدون شكوى، وقد تسمرت عيونهم، تحدق أمامهم في انتظارهم لنهاية الرحلة. اتخذ كريم طريقه نحو بوابة المبنى ونقر بأدب على هيكل الباب.

قال بالشركسية "أعذروني، أنا أبحث عن "الخاسا" التابعة لعمان".

توقف الرجال الجالسون إلى الطاولة عن الكلام واستداروا لينظروا

إليه.

"ومن يمكن أن تكون؟" سأله رجل ضخم جالس عند زاوية الطاولة، نيابة عن الآخرين.

"اسمي كريم: لقد سافرت إلى هنا قادماً من النمسا لأطلب الملاذ الآمن لعدد من أبناء قومي الذين كانوا أسرى حرب، أناس طيبون بحاجة إلى مكان يسمونه وطنهم".

حانت لحظة صمت بينما تشرّب الجمع كلماته، ولم تكن لدى كريم أية فكرة كيف ستجيء ردة فعلهم، ثم بدأوا كلهم يتكلمون في الوقت نفسه، نهضوا واقفين ورحبوا به إلى داخل الغرفة، أجلسوه بينهم إلى الطاولة وصبوا له الشاي، سألوه إن كان قد تناول طعامه، أحضروا له الطعام حين قال أنه لم يأكل. بعد أن اطمأنوا إلى أنه مرتاح، عادوا إلى الجلوس وبدأوا يطرحون عليه مليون سؤال في الوقت نفسه. اقترح الأكبر سناً بينهم أن يترك الضيف ليتناول طعامه براحة، ثم نهض أحد الرجال الأصغر سناً ليستدعي بعضاً من وجهاء "الخاسا" وكبارهم.

حضر خلال ثلاثين دقيقة اثنان من الكبار بصحبة رجل ذي مظهر متميز، ورحبوا بكريم مرة أخرى، مؤكدين استضافتهم له. في النهاية، بدأ كريم يخبرهم عن أسرى الحرب الذين ما زالوا جالسين في معسكر سجن نمساوي، يمكن تحريرهم غداً إذا توفر لهم مكان يذهبون إليه. أناس فقدوا كل شيء، لكنهم متلهفون إلى العمل بجد لبناء حياة جديدة.

لاحظ أنه يحظى بانتباههم الكامل، وأمكنه أن يرى أن كل واحد منهم يعتبر محنة هؤلاء الرجال الذين تركهم خلفه في النمسا، أمراً يهمه شخصياً. فقد عرفوا أنه إذا كان هناك شيء يمكنهم عمله لمساعدة كريم وقومه الذين يدافع عنهم، فيتحتم عليهم القيام به.

أول المتكلمين، كان أحد كبار السن، وهو الحاج حسن:

"كريم" أنت على الرحب والسعة بيننا. سنفعل بالطبع أي شيء ممكن للمساعدة، لكن يستحسن أن يترك هذا العمل لأناس آخرين من مجتمعنا، الذين يعملون لدى الحكومة أو الجيش. فهم سيعرفون أفضل الوسائل للمضي قدماً مع السلطات المختصة".

ابتسم كريم بتقدير وامتنان، مظهراً تفهمه. أحسَّ بالانفراج والارتياح لدى سماعه كلمات الترحيب من الوجيه المسن. شكره وشكر الجميع على كرم ضيافتهم.

قال كريم "كل دولة تغسل يديها من بني قومي. إذا عادوا إلى مسقط رأسهم في روسيا. فسوف يقتلون. إن الأردن هو أملهم الوحيد لتجنب السجن أو الإعدام. لكنهم لن يتمكنوا من الوصول إلى هنا إلا إذا أمكن مساعدتهم، ولن يتمكنوا من النجاة بأرواحهم إلا إذا قام المجتمع الشركسي الموجود هنا بدعم قضيتهم". توقف ليشاهد تأثير كلماته المتوسلة على سامعيه. واختتم كلامه قائلاً "حتى يتمكنوا من دخول الأردن بطريقة قانونية، ينبغي ليهم الحصول على سمات دخول حكومية. وهذا ما جئت إلى هنا لأنظمه".

قال الوجيه الثاني "لن تقبل الحكومة بدفع تكاليف نقلهم إلى هنا. لأن لديها أولويات أخرى حالياً".

طمأنه كريم "لن يضطروا إلي دفع أي شيء. سوف توفر الأمم المتحدة النقل. وستكون سعيدة جداً في عمل ذلك إن كان يعني أن بعضاً من مشاكلها قد اختفى.

سأل المسن "ما هو الذي تريده منا؟".

قال كريم "أنا غريب في هذه البلاد. سأصل في نهاية المطاف إلى أصحاب الشأن لأنني لن أستسلم حتى أحقق ذلك، لكن إذا توفر لي شخص ذو منصب رفيع هنا ليساعدني في التعرف على أصحاب النفوذ: شخص يضمن مصداقية قومي ويشرح أنهم لن يشكلوا عبئاً

على الحكومة الأردنية، فإن ذلك سيساعدني بدرجة هائلة".

خيّم صمت طويل والرجال يهزون رؤوسهم دلالة التفهم وينقّلون أبصارهم فيما بينهم. ثم نهض أحدهم وجاء إلى كريم. كان هذا هو الشخص المتميز، حسن الهيئة والهندام الذي وصل مع الوجهاء. هو في منتصف العمر، بوجه عطوف ذي ملامح تتارية وعينان تلتمعان تحت حواجب سميكة. مد يده فتناولها كريم. جاءت قبضته جافة وقوية حازمة. قدَّم نفسه قائلاً "اسمي وصفي ميرزا، وسأكون سعيداً بعمل كل ما أستطيعه لك ولقومك".

"أشكرك" شدَّ كريم بدوره على يد الرجل، لكنهم ليسوا قومي. إنهم قومنا".

"أعرف" هزَّ وصفي رأسه "ولذلك نحن جميعاً راغبون في عمل كل ما بوسعنا".

بان على الآخرين أنهم يعتقدون بأن هذه نتيجة مرضية، وكأنهم يحضرون أنفسهم للعودة إلى عائلاتهم لقضاء الليلة. أعاد وصفي ملء كوب الشاي لكريم وجلس إلى جانبه.

"أفضل شخص يمكننا البدء بالاتصال به هو السيد سعيد المفتي حبجوقه".

"ومن هو؟"

"إنه المسؤول الشركسي الأعلى منصباً في البلاد حالياً".

سأل كريم "وماذا يعني ذلك؟".

"حسناً، إنه عضو بارز في مجلس النواب. لكنه إلى جانب ذلك يمتلك نفوذاً قوياً في بلاط الملك عبد الله. لديه طموحات عالية، والتفكير فيه جارٍ حالياً لاستلام منصب وزاري في الحكومة".

لم يستطع كريم أن يغالب الابتسامة التي انتشرت على وجهه. فهذه

فرصة أفضل مما كان يأمل. كان سيستغرقه الوصول إلى شخص مثل هذا الموقع لوحده، شهوراً. أدرك أنه ما زال بعيداً عن تحقيق غايته، لكنها على الأقل تبدو ممكنة الآن. أجبر نفسه على أن يظل واقعياً. فمن المحتمل أن تحدث تأخيرات لا نهاية لها، أو أن هذا الرجل، المفتي، سيثبت أنه غير مهتم بمساعدتهم، أو سينكشف أمره على أنه يمتلك نفوذاً أقل مما هو ضروري لتحقيق النتائج المرغوبة.

في اليوم التالي، نفذ وصفي وعده وخابر سعيد المفتي هاتفياً. وقد بات كريم ضيفاً عليه في بيته الليلة الفائتة،وكان متواجداً في الغرفة، يصغي، رغم أنه تظاهر بالانشغال في تصفح مجلة عربية. استطاع أن يستنتج من نبرة صوت وصفي أنه خائب الأمل بالاستجابة التي يحصل عليها، فشعر بقلبه وقد بدأ يغور في أعماقه. عندما أنهى وصفي المكالمة، أجبر كريم نفسه على أن لا يطلب معرفة ما قيل على الفور. عاد وصفي وجلس إلى جواره "إنه يقترح أن أذهب إليه لشرح له الموقف".

"ألن يكون من الأفضل لو أتحدث إليه؟" هو واثق من أن وصفي سيفعل أفضل ما بوسعه، لكن لو طرح المفتي أية أسئلة صعبة، فقد يضطر وصفي إلى العودة لكريم بكل الاحوال. بدا منطقياً له أنه يجب أن يكون الشخص الذي يطرح القضية. "ممكن" أشاح وصفي ببصره "أعتقد أنه يريد أن يتأكد من أنه لا يسيء إلى وضعه الشخصي قبل أن يتعرف على الحقائق كاملة".

أراد كريم أن يعرف "كيف يمكن لهذا الأمر أن يسيء إلى مركزه؟".

"لا أدري. أنا واثق من أنه سيوافق بعد أن اشرح له الموقف بمزيد من التفصيل. إنه فقط يتصرف بحذر. لا يحب السياسيون أبداً أن يتبنوا موقفاً أو قضية شخصياً إلا إذا باتوا مضطرين".

استغرق الرجلان في حلم يقظة رفاقي وهما يقلبان أفكارهما المنفصلة حول مساوئ السياسيين. وصل وصفي في وقت لاحق من ذلك

اليوم إلى مكتب سعيد المفتي، وأدخل إلى حضرة الرجل العظيم. أصغى المفتي، واضعاً مرفقيه على مكتبه وقد اتخذت أصابعه أمام وجهه شكل برج، وكأنه يصلي. ظل يهز رأسه بين الفينة والأخرى علامة التفهم، وتقفز عيناه بين الفينة والأخرى من فوق كتفي وصفي نحو الباب المفتوح خلفه، متفقداً احتمال مرور شخص أكثر أهمية، أو وقوفه منتظراً الدخول.

بعد أن أنهى وصفي كل ما يمكنه قوله، سحب المفتي نفساً عميقاً، وقد تأثر بما سمعه.

"أتمنى لو كان هناك شيء بوسعي أن أفعله لإسعاد هؤلاء الناس المساكين". قال وهو يهز رأسه بحزن. "لكنني أشعر أنني لا أستطيع أن أتدخل فعلياً".

"لماذا بالله عليك؟" شعر وصفي بالانزعاج، لكنه أجبر نفسه على الاحتفاظ بالأدب. "المطلوب هنا هو لقاء مباشر مع الملك عبد الله للحصول على مباركته للسماح بدخول المزيد من المهاجرين الشراكسة إلى البلاد".

سأل وصفي "هل يمكنك أن تساعدنا في الحصول على هذا اللقاء؟".

مال سعيد المفتي إلى الأمام، للتشديد على مدى صدقه في الرغبة بالمساعدة، "سيكون ذلك في غاية الصعوبة. فهؤلاء السجناء شيوعيون من روسيا. لن يبدو الأمر جيداً في عيني صاحب الجلالة المعادي للشيوعية بصلابة".

"على العكس من ذلك". تقدم وصفي إلى الأمام، وقد دبت فيه حماسة مفاجئة، إذ اعتقد أنه قد رأى وسيلة للتقدم "لقد حارب أولئك ضد الشيوعيين في القفقاس. لقد انخرطوا في الجيش الألماني. هذا هو سبب وجودهم كسجناء لدى الحلفاء".

طرقع المفتي بلسانه بعدم الموافقة، وهز إصبعه في وجه وصفي. "ذلك حتى أسوأ. نحن فعلياً خاضعون للحكم البريطاني. كيف سيكون شعورهم إذا شوهدنا ونحن نساعد النازيين السابقين؟" .

استند وصفي في مقعده، وهو يعض على لسانه. فالرجل يتصرف مثل سياسي نموذجي: يرفض أن يتخذ موقفاً خوفاً من أن يغضب شخصاً ما. نهض واقفاً، قبل أن يفقد السيطرة على لسانه فيقول شيئاً قد يندم عليه، ثم غادر الغرفة بعد مصافحة ووداع قصيرين.

لم تكن لدى وصفي أية إمكانية ليعرف الصراعات التي نشبت داخل ذهن سعيد المفتي. طبيعي أنه راغب في مساعدة قومه الشراكسة، لكنه أيضاً مضطر إلى أخذ الأولويات الأخرى التي تدور في ذهنه بقوة، بنظر الاعتبار. لقد كانت تلك صراعات ستؤثر سلباً على معظم السياسيين الشراكسة وهم يتولون مسؤوليات أكثر جسامة في هذه المملكة الفتية.

إن الشراكسة هم الأردنيون الأصليون فعلاً في هذا البلد. فقد جاؤوا للتعايش مع البدو الرحل قبل مجيء السياسيين إلى الأردن قادمين من تركيا أو سوريا أو فلسطين بوقت طويل. لكنهم في نفس الوقت أحسّوا أنهم ضيوف في هذا المحيط العربي المتفرد. لذلك، ستكون معضلة مكررة الحدوث كلما حاول مسؤول شركسي أن يساعد شركسياً آخر، إلى الحد الذي سيجبر بعضهم على الذهاب إلى الحد الأقصى لإثبات إخلاصه وولائه للأمة العربية، بأن يفضل على الدوام أن يساعد أردنياً عربياً على مساعدة الشركسي. عرف وصفي أن بعضاً من هذه الصراعات موجود وقائم، لكنه في هذه الحالة، بات منزعجاً لأنه شعر بالالتزام المطلق لمحنة كريم.

بقي كريم جالساً ينتظر في بيت وصفي، وشعر الرجل بالإحراج لاضطراره إلى إخباره بدرجة التخلي التي أحسها من ناحية المفتي. فقد رأى الخيبة مرتسمة في وجه كريم.

قال "ولكن لا تيأس، ما زال في البحر أسماك أخرى. سوف أفكر

بشيء ما. سنحصل على بعض النتائج: ينبغي عليك فقط أن تكون صبوراً".

تنهد كريم وابتسم بشجاعة. فهو أكثر امتناناً لوصفي مما يمكنه القول، لكنه يستطيع الآن أن يرى بأن الأمور لن تكون بالسهولة التي كان يأملها.

تنقل خلال الأسبوع التالي من اجتماع أو دعوة عشاء إلى التالي، وفي كل منها أصغت الوجوه المهتمة إلى ما لديه ليقوله وقدمت الاقتراحات. اتفق الجميع على أنه بحاجة إلى المساعدة لكن لم يتبرع أحد فعلياً ليقدم تلك المساعدة. فتلك مسألة رسمية وبحاجة إلى التعامل معها رسمياً. قرر كريم في النهاية أنه يتوجب عليه أن يجرب حظه في سوريا، فسافر إلى دمشق بمساعدة من وصفي. لكنه عاد بعد ثلاثة أيام والفزع مرتسم على محياه. فقد اشترطت السلطات السورية للسماح بإدخال الشراكسة إلى سوريا، أن ينخرطوا في الجيش على الفور. لم يكن بوسع كريم أن يفرض هذا الشرط على قومه الذين انتهوا لتوهم من المعاناة الرهيبة على الجبهات الأوروبية الروسية.

إن قومه بحاجة إلى الأمن والهدوء في محيط شركسي مثل ذلك الذي ينعم به شراكسة الشتات في الأردن.

أكّد له وصفي أنه سيستمر في المحاولة بالأردن. استطاع كريم أن يلاحظ بأن وصفي قد بدأ يعتوره القلق. كره أن يجعل هذا الرجل الفاضل يحس بأنه قد خذله، لكنه في الوقت نفسه لم يستطع أن يحتمل فكرة التخلي عن البحث عن شخص يمكنه أن يساعد. بدأ يفكر في البدائل: ربما تكون تركيا مكاناً أسهل للبحث عن المساعدة فيه. ففي نهاية المطاف، قيل له أن تركيا تضم أكثر من مليوني شركسي يعيشون فيها.

أثناء جلوسهما سوية صامتين في إحدى الأمسيات، ولا يستطيع أحد منهما أن يفكر فيما يتوجب عليه قوله، سحب كريم خطاب الرائد

ثومبسون من جيبه.

قال متفكراً "كم كنت مخطئاً إذ فكرت حينما أعطيت هذا الخطاب أنه سيحل جميع مشاكلي".

سأل وصفي "ما هو؟".

إنه كتاب تقديم من رائد بريطاني إلى ضابط في الفيلق العربي. لقد كنت واثقاً من أنه سيكون المفتاح لكل شيء، لكنني أدركت بمجرد وصولي إلى هنا أنه أسوأ من العدم".

"هل تسمح لي برؤيته؟" سأل وصفي فألقاه كريم باتجاهه وكأنه لا يعبأ بما سيحصل له بعد الآن.

قرأه وصفي بصمت لعدة لحظات.

قال بعد لأي "أتمنى لو أنك أريتني هذا الخطاب قبل أسبوع. إن عزت حسن يحظى باحترام كبير في الجيش، وداخل المجتمع الشركسي. يجب علينا أن نتصل به على الفور. لا أعرف لماذا لم أفكر فيه بنفسي".

في اليوم التالي، وجد كريم نفسه في غرفة ضمته مع وصفي وعزت حسن في بيت الأخير بحي المهاجرين بعمان.

قال عزت بعد أن استمع إلى القصة "الأمر بسيط. أنتم بحاجة إلى ترتيب لقاء مع الملك".

قال وصفي "نحن نعرف ذلك، ولكن قيل لنا أنه سيكون أقل تعاطفاً مع قضية أناس من بلد شيوعي قاتلوا مع النازيين".

ضحك عزت "عندما تصيغ الأمر بهذه الصيغة، فأنا أتفق معك. ربما إذا شرحنا ببساطة أنهم شراكسة واقعون في محنة، وأنهم يمكن أن ينفعوا الأردن إذا سمح لهم بالمعيشة هنا". لم يستطع كريم أن يمنع نفسه من الضرب بيده المفتوحة على الطاولة، مما جعل الرجلين الآخرين يقفزان مجفلين. صاح بمرح "ذلك بالضبط ما كنت أقوله

دوماً. إذاً، هل يمكنك أن ترتب هذا الاجتماع؟".

"لدي صديق، سمير الرفاعي، ربما يتمكن من المساعدة".

انهار كريم إلى الخلف في مقعده. "صديق" يحتمل أن يمررهم إلى آخر وآخر وسيقضي بقية أيامه ذاهباً من بيت إلى الثاني، من مكتب إلى الآخر.

"هل نستطيع أن نقابله؟" سأل وصفي، وقد رأى خيبة أمل كريم فأصبح تواقاً إلى إبقاء معنوياته عالية.

سأل كريم بوجوم "من هو؟ هل هو شخص مهم؟"

قال عزت "نعم، يمكنك أن تقول ذلك. أنه سكرتير جلالة الملك، مثل رئيس تشريفات في القصر".

مساء ذلك اليوم نفسه، كانوا كلهم في منزل سمير الرفاعي، يقصون عليه حكايتهم مرة اخرى. قال الرفاعي "اترك المسألة معي" فغادروا الاجتماع مرة أخرى، بدون أن تكون لديهم أية فكرة عما إذا كانوا قد خطوا خطوة ولو واحدة أقرب إلى هدفهم.

جاءت المخابرة في اليوم التالي. لقد رتب الرفاعي اجتماعاً لوصفي، كريم، وعزت في البلاط الملكي. فرح كريم كثيراً، لكنه عرف أيضاً أنه إذا اخفق في إقناع الملك بقضيته، فلن يتمكن أبداً من الحصول على سمات الدخول. لانه لم تعد توجد سلطة أعلى يمكنه الالتماس منها. فكر عزت أنه سيكون من باب الادب واللياقة دعوة سعيد المفتي حبجوقه لمرافقتهم. ففي نهاية المطاف هو "وجيه" المجتمع الشركسي في عمان. قام عزت بمخابرة سعيد الذي وافق على مرافقتهم على الفور إلى الاجتماع مع جلالة الملك. طبيعي أن هذا الأمر فاجأ كريم، لكنه أدرك كيف تلعب السياسة أدوارها في كل المجتمعات. وليس الاردن استثناءاً. تأثر كريم في البداية بمنظر الحرس الشركسي الخاص الواقفين في البلاط الملكي، مرتدين زيهم التشيركيسكا بفخر واعتزاز. اعتبرها

بادرة طيبة، وتعني أن الملك ميال إلى الشراكسة.

حتى أنه توقف وتكلم مع القائد، وهو رجل مسن محترم اسمه ماميلا، معبراً له عن إعجابه بمظهره. دعاه ماميلا على الفور إلى تناول طعام العشاء في منزله، مع القادة الشراكسة الثلاثة الذين بصحبته. ترسخ لدى كريم انطباع بأن المجتمع الشركسي في عمان متماسك بقوة ففرح لذلك واطمأن. بعد ذلك، وحينما دخلوا حضرة الملك، انبهر من تجمع الوزراء الواقفين حوله. فهل سيقوم جلالته بالتشاور مع كل هؤلاء الناس قبل أن يتخذ قراراً، أم أنه سيلقي بالفكرة كلها جانباً بدون أن يمنحها لحظة تفكير أخرى؟ لكن سمير الرفاعي كان واقفاً إلى جانب جلالته، يبتسم، ويمنحهم تطميناً ضمنياً.

أصغى الملك وكل مستشاريه بينما أعاد كريم رواية حكايته مرة أخرى من خلال مترجم شركسي شاب، وشرح ما يحتاج إليه. بعد أن أنهى كريم كلامه، جلس الملك صامتاً لبضع لحظات.

"هؤلاء الناس محظوظون لأن لديهم متحدث عنهم بمثل هذه الفصاحة ليدافع عن قضيتهم". قال بعد وهلة "يبدو أنك تقدرهم عالياً في رأيك".

قال كريم "ذلك صحيح، يا سيدي".

"إذاً، سيكونوا على الرحب والسعة في الأردن". استدار نحو سمير الرفاعي الواقف قربه "أرجو أن تتأكد من حصول ضيفنا على كل السمات التي يحتاج إليها".

طأطأ الرفاعي برأسه موافقاً ورافق كريم خارجاً إلى مكتب، حيث بدأ يجري منه مكالمات هاتفية. بعد يومين، كان كريم في طريقه عائداً إلى النمسا، حاملاً طرداً يحتوي على مائة وثيقة سمة للهجرة إلى الأردن، مع يقين في قلبه بأن هذا بلد يستطيع الرجال فيه أن يبنوا لأنفسهم حياة جديدة.

الفصل الحادي والعشرون

عام ١٩٦٢ كانت نيويورك مدينة صاخبة، ملأى بأبناء الشتات الذين كان بعضهم من الشراكسة. ضمت المدينة بعض الشراكسة الذين قدموا إليها من أقطار شرق أوسطية مختلفة للعمل، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. كذلك سكن فيها بعض شراكسة الشتات الأقدم، والذين طلبوا الملاذ في هذه المدينة العالمية المتحررة في أعقاب الثورة الروسية عام ١٩١٨.

إحدى هذه العائلات هي عائلة السيدة فاطمة ناتربوف.

فاطمة أديغه حقيقية، امرأة شركسية تتكلم اللغة بطلاقة وتحب كل ما هو شركسي. هربت عائلتها من الثورة بصحبة أفراد آخرين من الارستقراطية الروسية وأسست لنفسها مقاماً اجتماعياً كسيدة شركسية مرموقة هناك.

بعد أن أنهيت دراستي على الساحل الغربي، عثرت فوراً على عمل في نيويورك عام ١٩٦٢، مع واحدة من أكبر شركات الدعاية في المدينة، وهي شركة والتر ثومبسون. بحثت بسرعة عن صديقي الشركسي من الأردن، وليد طاش، الذي كان يعمل على شهادة الدكتوراه في جامعة كولومبيا، وتعرفت من خلاله على صديق أردني آخر، هو مروان القاسم، الذي كان وقتها يشغل منصب القنصل الأردني في المدينة. سرعان ما انضم إلى مجموعتنا وأصبحنا أصدقاء مقربين، نلتقي في الأمسيات لتناول العشاء أو لعب الورق. والدة مروان سيدة شركسية لذلك تبنيناه كأحد أفراد الشتات، مثلنا.

دأبت فاطمة منذ زمن طويل على دعوة جميع شراكسة نيويورك إلى تجمع في شقتها بحي مانهاتن، كلما زار ضيف شركسي مدينة نيويورك. كنت قد حضرت العديد من حفلاتها بصحبة وليد، لذلك لم يكن مستغرباً أن تتصل بنا فجأة وتطلب حضورنا إلى أحد تجمعاتها.

أقول "تطلب" بدلاً من "تدعو" لأننا ما كنا لنجرؤ على رفض دعواتها.

كنا جميعاً في شقتي بشارع ليكسينغتون عندما رن الهاتف. تحدثت مع وليد طالبة منه حضورنا إلى شقتها في نفس ذلك المساء لمقابلة ضيف شركسي جديد. طبعاً قال وليد أننا سنحضر، فقررنا أن نسحب مروان نصف الشركسي معنا. انحشرنا على الفور في سيارتي اللنكولن القديمة وانطلقنا إلى شقة فاطمة في الشارع الثاني والأربعين العلوي.

وجدنا الحفلة في أوجها، الفودكا والويسكي يتدفقان بكثرة بحضور العديد من الشراكسة الآخرين.

فوجئنا بأن الضيف الشركسي الجديد شخصية مرموقة من عائلة شوجن، من إسرائيل.

كان عام ١٩٦٢ هو قمة التوتر والأزمة بين الأردن وإسرائيل وقد حدثت عدة اشتباكات على الحدود، وسط أنشطة دبلوماسية كبيرة ومكثفة، لتهدئة الوضع. أبقينا الهوية المحددة للضيف الإسرائيلي سراً عن مروان حتى لا نعرض موقعه الدبلوماسي للمساءلة. إذ لا يفيده أن يخالط شخصية إسرائيلية رفيعة في هذا الوقت وفي أكثر المدن يهودية في أمريكا.

سارت الأمسية على نحو رائع بينما انخرط صديقاي والضيف في الشرب بكثرة، وفي الواقع كنا آخر الضيوف في شقة فاطمة بعد أن انصرف كل الآخرين.

عندما بدأنا في النهاية نصدر أصواتاً تنم عن قرب مغادرتنا، طلبت فاطمة منا توصيل ضيفها الإسرائيلي إلى فندق والدورف استوريا. وصل مروان، وليد وشوجن في هذه الأثناء إلى مرحلة الانتشاء وأخذوا يضحكون بسعادة. لم أتناول أية مشروبات كحولية في تلك الأمسية بطولها لأنني كنت السائق. توقفت للحظة لأفكر في عواقب جلوس شخص إسرائيلي مع دبلوماسي أردني في سيارتي، لكنني سرعان ما أهملت الفكرة على أنها غير ذات أهمية، فقد استمريت في الإحساس بالنشاط والخفة على أثر أمسية شركسية مشحونة بالعواطف، بعد أن رقصت وتحدثت طيلة الليل بلغتي الأصلية.

أرسلتني النشوة نفسها نزولاً في شارع بارك افينو بسرعة الطيران. كان الوقت قرابة الثانية بعد منتصف الليل والشوارع شبه خالية. لكنني كنت متوتراً لحملي ركابي السريين، وقدت السيارة بسرعة في محاولة للوصول إلى الفندق قبل أن ينكشف أمري. ولكن، كما يشاء الحظ، فقد كدت أبلغ منتصف الشارع العريض حين لاحظت الأضواء الحمراء تغمز لي وسمعت صفارة الشرطة تلاحقني.

كان الشرطي الذي تمشى نحو شباك سيارتي بخيلاء إيرلندياً بديناً منزعجاً.

"هل تعرف مدى السرعة التي كنت تقود بها يا صديقي؟" سأل وقد تبرم من مدى سرعتي.

"أعرف أيها الضابط، لكنني كنت أفكر أن الوقت متأخر جداً".

"رخصة قيادتك وأوراقك لو سمحت" قال لي بلهجة آمره، مقاطعاً. كان قد بدأ يخرج دفتر مخالفاته ليحرر لي "تذكرة".

سأل مرة ثانية "من هم ركابك؟".

نظرت إلى المقعد الخلفي لأجد كلاً من مروان وشوجن غارقين في

النوم. كذلك، كان وليد الجالس إلى جانبي، يكاد يغط في النوم. لم ارد على الشرطي فوراً. خشيت ان اقول انهم دبلوماسيون وخشيت من عواقب الكذب. لاحظ الشرطي ترددي فطلب رؤية وثائقهم ايضاً. يحتمل انه ارتاب في كوننا رجال عصابات عائدين من عملية إجرامية شريرة. فعلى ما يبدو، كانت سيارات اللنكولن كونتيننتال هي المفضلة لدى عصابات المافيا في نيويورك. شعرت بالارتباك، لكن تحديق الشرطي الحاد أجبرني على طلب الوثائق من أصدقائي النائمين. مدّ وليد يده إلى جيبه واخرج جواز سفره. لم يتجاوب الاثنان الآخران، لذلك مددت يدي واخرجت وثيقتيهما، جواز السفر الدبلوماسي الاردني من احدهما، وجواز السفر الدبلوماسي الإسرائيلي من الآخر.

نظر الشرطي إلى الوثائق ثم أعاد النظر إليَّ. لا أعرف ماذا دار بخلده، لكنه همَّ بالعودة إلى سيارته للإبلاغ عن الحادثة إلى ضابط إرسال المخفر، كما اعتاد الشرطة أن يفعلوا بشكل روتيني للتدقيق في تسجيل السيارات وركابها.

"أرجوك يا سيدي. أتمنى لو أنك لا تذكر الأسماء. الأمر هو أن هذين الرجلين كانا في اجتماع دبلوماسيي سري، وقد يسبب اي إعلان او ذكر له إحراجاً دبلوماسياً. هذا هو السبب الذي اجبرني على القيادة بسرعة لأعيدهما إلى فندق والدورف استوريا" .

يتواجد في أقسام الشرطة بنيويورك مراسلو أنباء على الدوام، ينتظرون أخبار الحوادث ليبلغوها إلى صحفهم، واي ذكر لدبلوماسيين اردني وإسرائيلي جالسين في سيارة واحدة كان سيشكل مادة دسمة للتكهنات. لكن الشرطي الإيرلندي الاصل فهم الصورة التي رسمتها. لا بد وانه سمع او شاهد الأخبار على التلفاز ليدرك حساسية الموقف بين الاردن وإسرائيل. لذلك أعاد إليَّ الوثائق على عجل، وهو يهز رأسه متفهماً، ونسي موضوع كتابة المخالفة. قال انه سيرافقني إلى الفندق وقاد أمامي بسرعة بينما كانت أضواؤه الحمراء تومض.

• • •

صدفة غريبة هي التي قادتني إلى مقابلة أحد أكثر شراكسة الشتات طرافة. اسمه هو سلطان كامبييف وقابلته في المغرب.

كنت قد أمضيت سنتين أعمل في هيولوود عام ١٩٧٣، حينما خابرني وكيل أعمال الممثل المعروف أنتوني كوين من لندن بعرض، كان ببساطة دعوة من الممثل للطيران إلى المغرب لقضاء عشرة أيام كضيف عليه في مراكش لإعادة صياغة مشروع سيناريو لأجله. كنت قد قابلت كوين قبل ذلك ببضعة أشهر في روما، حيث كان يعيش وقتها، وقد أعجب يومها بتعاملي مع سيناريو روايتي "الصدع". كان أنتوني كوين يعمل في فيلم "الرسالة" مع مصطفى عقاد، وقد حجز لي غرفة في فندقه "هوليدي إن" في مدينة مراكش.

قضيت أسبوعين ممتعين برفقة الممثل الشهير، حللنا خلالهما بعض المشاكل الكتابية في مشروع خاص به، وقد قابلت السيد العقاد والعديد من الممثلين السوريين واللبنانيين الذين تعرفوا عليَّ من أيام إقامتي في بيروت. كان العمل الفعلي الذي قمت به صفيراً إلى درجة انني شعرت بالحرج من قبولي دفعة من كوين مقابل المهمة. فقد شعرت بالسرور من مجرد اعتبار إقامتي في مراكش كإجازة لي لأنه كان يدفع جميع نفقاتي. تأثر كوين وأعجب بموقفي بعمق. فهو لم يكن معتاداً على أناس يرفضون ماله، خاصة كتاب هوليوود المحترفين.

قبل موعد عودتي إلى هوليوود بيومين، اقترح كوين أن يدعوني إلى عشاء خاص جداً، افترضت انه دفعة جزئية مقابل جهودي. أعتقد أن الأمر سيحمل مفاجأة لطيفة، واقترح أن أقوم بدعوة ثلاثة من الممثلين العرب العاملين معه في البلاتوه. شعرت طبعاً بالإطراء، خاصة عندما اصطحبونا إلى المطار بسيارة لنكتشف أن أنتوني كوين قد استأجر طائرة صغيرة لتحملنا إلى الدار البيضاء. بلغ مجموعنا عشرة أشخاص بمن فيهم مضيفنا. كان كوين قد أخبرني مسبقاً أنه سيدعونا إلى العشاء في مطعم متميز سيشعرني بالحنين إلى الوطن حتماً. الحقيقة هي أنه

ظل على الدوام يعتقد أنني روسي، ربما لأنني ذكرت سابقاً أن اصولي تعود إلى جنوب روسيا. فقد ظل صعباً علي أن أقول بأنني شركسي في هوليوود لأن أحداً لم يكن قد سمع بنا. لذلك كنت اشير إلى أصولي على أنها روسية جنوبية باستمرار. لو أنني قلت بأنني من الاردن، لما حصلت على عمل ولا حتى في مدينة الأشرطة اللماعة التافهة. تواجد صانعو أفلام عرب آخرون أو مشاركون مع منتجي الأفلام، لكنهم كانوا جميعاً ينتمون إلى الدين الملائم، سواء كانوا مصريين أم مغاربة.

المطعم يدعى "راسبوتين" وهو قريب من ميناء المدينة، وهو بالطبع مطعم روسي. لدى دخولنا إلى المكان، اقترب المالك منا ورحب بنجم الأفلام الهوليوودية بحرارة واضحة، حيث قادنا إلى طاولتنا الكبيرة المحجوزة بكثير من البهرجة والاحتفال.

جلسنا إلى المائدة الكبرى بينما كانت فرقة غجرية تعزف ألحانها، نستمتع بالجو والاهتمام الكبير الذي نحصل عليه لأننا. في نهاية الأمر، بصحبة أنتوني كوين العظيم. مع إحضار المشروبات إلى المائدة، خاطب كوين المالك بقوله "انظر، لقد جئتك برجل من موطنك". ثم أشار إليّ. نظر المالك، وهو رجل مائل إلى البدانة أصلع، في أواخر خمسينات عمره، إليّ مستغرباً ثم عاد بنظره إلى كوين. ثم سألني:

"هل أنت شركسي؟" بأدق وأنقى لهجة قباردية سمعتها على الإطلاق. صدمت إذ سمعت لغتي الأم، يخاطبني أحد بها. تلعثمت قليلاً ثم نهضت بشكل غريزي.

أجبته باللغة الشركسية "طبعاً أنا شركسي". دار المالك وجاء نحوي ليتحضنني بقوة وترحاب بالغين وهو يضحك طرباً وفرحاً. نادى فوراً على أحد الندل وطلب إحضار زجاجة غالية جداً من النبيذ الجورجي على الفور للاحتفال بالمناسبة. قال أنه يحتفظ بهذه الزجاجة لمناسبة خاصة جداً وأن هذه المناسبة قد تحققت لتوها.

الذي حدث هو أن أنتوني كوين قد افترض بأن سلطان، صاحب المطعم روسي بدوره. وبما أنه يفترض سلفاً أنني روسي، فقد ظن أنه يجمع بين مواطنين روسيين سوياً. لكن سلطان فهم موقف كوين بطريقة مختلفة، أو ربما أحسَّ فقط أنني شركسي قباردي مثله. لقد كان فرحه برؤيتي أمراً لا يمكن وصفه.

ما حدث بعد ذلك كان أكثر مدعاة للمرح لأن سلطان، صاحب المطعم، نسي أمر ضيفه نجم الأفلام الشهير وبدأ يغدق علي انتباهه وعنايته الكاملين. سحب كرسياً وجلس إلى جانبي راغباً في الاستمرار بالمحادثة الشركسية، وطفق يسألني عن نفسي وعن المكان الذي أتيت منه وكم من الوقت سأبقى في الدار البيضاء. أراد أن يدعوني إلى النزول في بيته ومقابلة زوجته. أظن أن أنتوني كوين قد فوجئ وأحس بالغيرة إلى حد ما من كل الاهتمام الذي أحصل عليه لأنه سرعان ما هتف بعبارته الشهيرة "يا أيها الشباب، أنا النجم هنا!".

استعاد سلطان على الفور شخصيته العملية واستدار نحوه معتذراً.

"لا أستطيع أن اقول لك كما أنا ممتن لك على إحضار هذا الرجل إلى مطعمي. أنا لم أتحدث بلغتي الأصلية لحوالي ثلاثين سنة على ما أعتقد، منذ انتهاء الحرب".

فوجئ كوين "لكنني كنت أظنكما روسيين. ما هي اللغة التي كنتما تثرثران بها قبل ثوانٍ".

شرحت للمثل الشهير عن الشراكسة وأخبرته القليل حول تاريخنا. عدنا في ذلك المساء إلى مراكش، لكنني بالطبع طرت عائداً في اليوم التالي لأبقى مع سلطان وقضيت برفقته ٤٨ ساعة قبل عودتي إلى هوليوود.

روى لي سلطان كامبييف قصة مثيرة للاهتمام لكنها لم تكن فريدة حقاً. لأنني علمت فيما بعد عن قبارديين كثيرين آخرين قاتلوا مع

المقاومة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية. قتل معظمهم إما من قبل الألمان النازيين أو من قبل الشيوعيين الروس أنفسهم بعد عودتهم من الجبهة عند نهاية الحرب. لم يثق ستالين بأي من الروس الذين عاشوا أو خدموا في الغرب، فأصبح مصيرهم إما ارخبيل الجولاج أو الإعدام الفوري من قبل مجرمي بيريا.

كان سلطان يقاتل على الجبهة الروسية حينما أخذ أسيراً من قبل الجيش الألماني الزاحف على روسيا. شحنوه إلى أوروبا ووضع في العمل الاستعبادي بمصنع فرنسي قريب من ليون، فرنسا. وفي أثناء إحدى الغارات الجوية من قبل الحلفاء، هرب من المصنع ووجد طريقه إلى المقاومة الفرنسية لأنه لم يجد سبيلاً للعودة إلى موطنه. خدم في المقاومة أشهراً عديدة، وشارك خلالها في أنشطة إيقاع الفوضى المتنوعة للمجموعة في ليون وما حولها.

طلب منه في إحدى المهمات المحددة السفر إلى باريس مع رجال مقاومة فرنسيين آخرين لتدمير مركز اتصالات ألماني. فشلت العملية وهرب سلطان هائماً على وجهه في شوارع باريس. علم الألمان بوجوده في المنطقة وبدأوا يمشطونها من أجل القبض عليه، كان سلطان يركض ليلاً في منطقة ماراي حينما حاصره عناصر الجستابو. بدأ يحاول الحصول على الملاذ بيأس في العديد من البيوت على شارع دي روزييه، يدق بجنون على الأبواب ليختبئ بداخلها، إلى أن اشفقت عليه سيدة وفتحت بابها له. أخذته السيدة الفرنسية، وهي في أوائل ثلاثينات عمرها ذلك الحين، إلى الدور السفلي للمنزل وخبأته في قبو سري للنبيذ على شكل زاوية مغلقة ليومين. استمر الألمان في بحثهم عنه وعن رفاق المقاومة الآخرين ليومين آخرين ثم توقفوا وقد اقتنعوا واكتفوا بالقبض على اثنين من رفاقه.

استطاع سلطان، الذي تعلم كمية صغيرة من الكلمات الفرنسية أثناء عمله في المصنع، أن يتفاهم مع مدام دوبوا، منقذته. فهي امرأة

ذات مظهر حسن، في بداية ثلاثينات عمرها، أعدم الألمان زوجها قبل ذلك بسنة على خلفية الاشتباه بأنه متعاطف مع المقاومة. كانت ستشعر بسعادة أكثر لو أن سلطان غادرها حينما كانت المغادرة ممكنة. لكنها علمت أن الاحتمال الأكبر هو أنه سيقبض عليه، لأنه لا يمتلك إية وثائق ولغته الفرنسية غير كافية مطلقاً. نصحته بالبقاء مختبئاً في البيت لفترة أطول قليلاً. أطعمته واعتنت به، وأعطته من ملابس زوجها السابق، وهكذا وقع القلبان التائهان في الحب على الرغم من فارق السن بينهما. عندما تحررت فرنسا، تزوجا وخرجا إلى العلن كزوجين.

كان السيد دوبوا صاحب مطعم قبل إعدامه، ويمتلك عقارات في المغرب، ولذلك انتقلا إلى الدار البيضاء وافتتحا المطعم الذي سمياه "راسبوتين".

لم يعرف سلطان كامبييف أي شيء عن الشراكسة الآخرين الذين انضموا فعلياً إلى الألمان وقاتلوا ضد بلادهم أثناء الحرب. حينما أخبرته القصص عن أناس مثل ألوشا وكريم، عبر عن صدمته وذهوله، من إمكانية خيانتهم لوطنهم الأم أثناء الحرب. حاولت أن أشرح مشاعر هؤلاء الرجال تجاه ظالميهم الشيوعيين ورغبتهم في السعي إلى الحرية، لكنه ببساطة لم يقتنع. فقد تعرف على النازيين الألمان ولم يكن بمقدوره أبداً قبول فكرة أن الدكتاتورية النازية يمكن أن تكون أكثر تفهماً وإحساناً من النظام الشيوعي. سألته إن كان يفكر مطلقاً في العودة إلى روسيا الشيوعية. ابتسم وأخبرني أنه قد قرأ عن كيفية الترحيب بزملائه أسرى الحرب الآخرين في روسيا بعد الحرب. قال أنه يفضل أن يعيش لفترة أطول قليلاً!

دعوته لزيارة الأردن ومقابلة قبارديين آخرين من الشتات فوعد بأن يفعل. كان أكثر اهتماماً برؤية الشتات الأمريكي أولاً، فأعطيته أسماء وعناوين لبعض المهاجرين القبارديين القاطنين في باترسون،

نيوجيرسي، واخرين يعيشون في لونغ بيتش بكاليفورنيا. تلك كانت المرة الأخيرة التي رأيت سلطاناً فيها، لأنني حين زرت الدار البيضاء بعد حوالي عشر سنوات للمرة الثانية، وذهبت إلى مطعم "راسبوتين"، كان إسمه قد تغير وأصبح له مالكين جدد. قيل لي أن سلطان وزوجته قد تقاعدا وعادا إلى باريس.

الفصل الثاني والعشرون

عشت قصة حب مع روسيا والثقافة الروسية منذ سنوات طفولتي الباكرة. أحببت الموسيقى الروسية، خاصة الرومانسية والكلاسيكية منها، وقرأت تراجم لكل التحف الأدبية الكلاسيكية، من جوجول إلى بوشكين وتولستوي، وباسترناك الأكثر حداثة. أحببت الشعر الروسي وتأثرت بأعمال يسينين وأختاموفا الحادة اللاذعة. ومع ذلك لم أستطع أن أقول بأنني عرفت أياً من الروس الحقيقيين أو أنني قد زرت روسيا. على العكس، فقد غمرتني الدعاية السلبية حول الشيوعية وحول الروس بشكل عام، أثناء معيشتي في أمريكا وإنجلترا.

لذلك، وعندما سنحت لي الفرصة لزيارة الاتحاد السوفييتي والقفقاس، قفزت إليها بحماس عظيم. حدثت زيارتي الأولى للاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٠. كنت أعمل من لندن في تلك السنة، حينما خابرني والدي ليعلمني أنه يقوم بتنظيم رحلة إلى القفقاس، انطلاقاً من عمان، الاردن، وأنه قد تسنح احتمالية لزيارة جمهورية قباردينو بلقاريا. أثارتني فكرة القيام بمثل تلك الرحلة فطرت عائداً إلى عمان لأنضم إلى المجموعة الصغيرة في أول رحلة من مثيلاتها إلى الاتحاد السوفييتي. أقنع والدي سلفاً، صديقين له مع زوجتيهما للانضمام إليه. في نهاية المطاف، تكونت المجموعة من سبعة أشخاص بمن فيهم صديقي وليد طاش. عندما دققت برنامج الرحلة مع وكالة السياحة التي تقوم بعمل الحجوزات، قيل لي أن طريق السفر سيأخذنا إلى يريفان، ارمينيا، ثم إلى موسكو وعودة إلى مطار مينارالني فودي في

القفقاس، وهي طريق طويلة وغاية في الغرابة للوصول إلى القفقاس. لم يتضمن البرنامج نالتشك أو قبارادينو بلقاريا، على أية حال، أكد لي والدي أنه بمجرد وصولنا إلى بياتيجورسك، سيرسل خبراً إلى نالتشك، وأنهم سيحضرون لأخذنا بالسيارة للقيام بزيارة قصيرة. كان والدي قد تقاعد لتوه من منصبه كمدير للأمن العام في الأردن وأصبح بحلول هذا الوقت وجيهاً شركسياً يحظى باحترام كبير في المجتمع. اعتقدت أن السلطات في نالتشك سوف تدعوه من باب الاحترام لمنصبه. أكثر من ذلك، فإن السيد جموخه، أحد أصدقاء والدي، والذي يسافر معنا، يعرف مسؤولاً في نالتشك اسمه حموقوف، وأنه سيطلب منه التوسط لدعوتنا أيضاً.

سافرنا أولاً إلى دمشق وركبنا طائرة الإيروفلوت من هناك إلى يريفان. تعرضنا للتجربة الشيوعية الأولى. لا بد أن تفهموا أنه في عام ١٩٧٠، لم تكن لدى السوفييت خبرة كثيرة بالسياح الأجانب الزائرين، وبان كل أجنبي كان يعتبر موضع ريبة. ربما كان الوضع أكثر تهذيباً وتمدناً لو نزلنا في موسكو، ولكن ليس في يريفان، أخضعتنا "التاموجنا" أو ضباط الجمارك، إلى تفتيش غاية في الدقة والتمحيص. كان إخضاع والدي، جنرال الجيش المتقاعد والذي يحمل جواز سفر دبلوماسياً خاصاً إلى تلك المعاناة أمراً محرجاً إلى حد ما، لكنه تقبل الوضع بكرم وصبر انيقين، لم يكن أحداً منا قد تعرض قبلاً بداً لمثل هذه التجربة المهينة، رغم أن جميعنا تقريباً قد سافر في العالم مرات عديدة. أكملت طائرتنا رحلتها من يريفان إلى موسكو. لم أستطع أن أفهم لماذا لم نستطع أن نطير نصف ساعة أخرى ببساطة، من يريفان إلى وجهتنا في مينارالني فودي بدل رحلة الطيران الطويلة لمدة ثلاث ساعات شمالاً إلى موسكو، وهناك، نعود أدراجنا إلى القفقاس. هكذا كانت تعقيدات ترتيبات السفر السوفييتية، والتي لا يمكن للعباد البسطاء غير المخلدين مثلنا، أن يفهموها.

هبطنا في موسكو في المساء نفسه، وأخذنا إلى فندق اسمه أوكرانيا. صباح اليوم التالي، ابلغنا مكتب إنتوريست في الفندق أنه لن تكون أية رحلات طيران متاحة لنا إلى ميناراالني فودي لأربعة أيام قادمة. توفر لنا خيار هو إما البقاء في موسكو للمدة او السفر بالقطار إلى القفقاس. اختار الجميع رحلة القطار. فقد فكرنا كلنا بأن ذلك سيتيح لنا إلقاء نظرة على الريف الروسي خلال الرحلة التي تستغرق يومين. تقرر أن تكون وجهتنا الأولى في القفقاس هي كراسنودار.

سيكون من الصعب وصف رحلة القطار بإسهاب وتفصيل لأنها كانت، بكلمة مختصرة، كئيبة. سافرنا عبر منطقة مسطحة لا نهاية لها وقرى فقيرة بشكل واضح. الفلاحون الذين رأيناهم بدوا يرتدون أسمالاً بالية والبيوت أكواخ متداعية مغطاة بسقوف من الألواح المعدنية المضلعة. لم تكن هذه رحلة ذات مناظر تصلح للتصوير قد ترغب في الدعاية لها ضمن كتيب سفر سياحي. لكن المناظر تغيرت بدرجة أساسية مع اقترابنا من القفقاس. شاهدنا مناطق حرجية جميلة وتلال متموجة تخترقها جداول متعرجة، ولاحت على البعد جبال القفقاس ذات القمم المكسوة بالثلوج. استطعت وقتها أن أفهم ما شعر به المسافرون الروس وهم يقتربون من هذه البلاد الجميلة: روس مثل الشعراء والكتاب المشاهير: بوشكين، ليرمونتوف، وتولستوي، ولماذا وقعوا في حب هذا الإقليم وكتبوا عنه بكل ذلك الشغف.

في كراسنودار، أراد والدي أن يكتشف ما إذا كان لنا أقارب يعيشون في هذه المنطقة، يحملون اسم عائلتنا. قلبنا دليل الهاتف بمساعدة دليل إنتو ريست وعثرنا على ثلاثين مدخلاً باسم قندوروف. سيكون ذلك اسمنا محولاً إلى الروسية بإضافة "وف" إلى نهاية الاسم. شعر والدي بالإثارة لأن الفرع الأصلي من العائلة جاء من لاشابسينا، قرية تبعد عن المدينة حوالي خمسين كيلو متراً.

بدأت مع دليل "إنتو ريست" الودودة بمهاتفة هذه الأرقام. ولكن

ثبت أن كلها عائلات روسية، وليست شركسية. وهو أمر محير فعلاً. أصر والدي على أن نستمر في البحث حتى عثرنا على شخص كبير في السن يريد أن يعرف ما نبحث عنه.

شرحت دليلة إنتوريست غايتنا بشيء من الإفاضة، فأخبرها العجوز أنه يستطيع أن يساعدنا لكن يجب علينا أن نذهب إليه. لأن المعلومات لا يمكن أن تعطى عبر الهاتف. أثار هذا الأمر فضولنا، بعد أن وعدنا الدليلة ببعض المال لقاء مجهودها، وافقت على أخذنا إليه. كان الرجل العجوز قندوروفاً حقيقياً مع أنه قندوروف روسي بعينين زرقاوين نفاذتين.

استقبلنا بحرارة في كوخه المتواضع ذي الطابق الواحد وقدم لنا عصير تفاح طيب المذاق من صنع بيتي. لم يكن البيت أياً من الأكواخ الفقيرة التي شاهدناها أثناء رحلتنا بالقطار. فقد احتوى على أثاث مصنع بطريقة لائقة، إضافة إلى السجاد. كذلك رأينا فيه بعض اللوحات الزيتية القديمة، معظمها مناظر للجبال الجميلة. جلست أيقونتان قديمتان فوق الموقدة التي تعمل على الحطب. تعجبت من السبب الذي يجعل شيوعياً قديماً مثل هذا يحتفظ بمثل هذه الرموز الدينية. لكن أيضاً، فإن كل نفس بشرية بحاجة إلى بعد روحي، وإلا فإن الحياة لا تكتمل. حامت حفيدته، وهي مراهقة حسناء، حولنا لتنفذ رغبات وأوامر جدها. بعد أن أجلسنا بحفاوة، اخبرنا العجوز قصة غريبة، لم يسمعها والدي ولا أنا من قبل. فقد كان العجوز يوري سيميونوفيتش قندوروف، في أوائل تسعيناته، ظهره محدودب قليلا وبقليل من الشعر الخفيف موزع بغير نسق على رأسه المائل إلى الصلع. لكنه ابتسم مثل ملاك وكانت حركاته سخية ولطيفة.

قال أننا لن نعثر على أي شركسي من عائلة قندوروف في كراسنودار، لأنهم جميعاً من عائلات روسية. أكثر من ذلك، فهذه العائلات، لا تمت إلى بعضها بصلة القربى في أكثر الاحتمالات. نظر إلى وجوهنا الحائرة

ثم ابتسم. بعد ذلك سألنا عما إذا سمعنا باسم عزمات قندوروف، فأكد له والدي أنه عم جدنا.

"نعم، ولكن هل تعرفان أنه كان أميراً، ارستقراطياً قبل الثورة؟".

أجابه والدي "لقد سمعت مثل هذه المعلومات من جدي".

"وهل تعرف أن بلدة قندوراي ما زالت قائمة في منطقة لاشابسينا، غير بعيد عن نهر لابا؟"

هزَّ والدي رأسه نفياً.

"حسناً إذاً، الأمر هو هكذا: قبل الثورة، عاش كثيرون وعملوا على أراضي الأمير قندوروف، وفي نهاية المطاف، تبنى معظمهم اسم عائلة الشخص الذي يعملون لديه. فهل فهمتهم الآن لماذا توجد عائلات روسية تحمل اسم عائلتكم؟".

استطرد بعد ذلك ليخبرنا عن وصول الثورة وكيف ذبحت عائلة الأمير بكاملها. كان مجرد طفل في حينها لكنه رأى كل شيء بعينيه. قال أنه سمع بأن مربية الأطفال الشركسية التي تعتني به أنقذت طفلاً صغيراً، لكنه لم يعرف المزيد عنه.

بعد سنوات عديدة، سأذهب باحثاً عن هذا الصبي الصغير، واعثر عليه في صورة عقيد متقاعد من الجيش السوفييتي، يعيش في البيت الذي تركته له مربيته في انزوراي، وهي قرية تبعد عن مسقط رأسه بحوالي عشرة كيلومترات. اسمه هو سلطان قندوروف، وهو صورة طبق الأصل عن والدي.

تركت زيارتنا لهذا الروسي العجوز انطباعاً إيجابياً عن الروس في نفوسنا بشكل عام. كثيراً ما استذكر والدي في سنوات لاحقة، زيارتنا واللطف وكرم الضيافة الذي وجده لدى بيت روسي في كراسنودار.

نقطة توقفنا التالية في الرحلة كانت بياتيجورسك، وهي مدينة قابعة عند سفوح جبال القفقاس الهائلة. عرفت هذه المدينة من دراساتي البحثية وقراءاتي عن القفقاس، وقد أخبرت مجموعة الأصدقاء عن الشاعر الروسي الشهير ليرمونتوف الذي أدى خدمته العسكرية خلال حروب القرن التاسع عشر الروسية – القفقاسية، وعن موته في مبارزة هنا في بياتيجورسك.

زرنا المتنزه الذي قتل فيه أثناء تلك المبارزة وشاهدنا نصبه التذكاري، لكن أهم نقطة في رحلتنا كانت جبل إلبروز.

إن التسلق نحو أعلى قمة في أوروبا داخل مقصورة تلفريك واسعة، تجربة تبهر الأنفاس. صعد معنا سيد بلقاري قال أنه من نالتشك. عندما أدرك من نحن، أخبرنا أن السكرتير الأول ملباخوف موجود عند القمة بصحبة ضيف مهم، رجل الفضاء رومانوف. لدى خروجنا من المقصورة عند القمة، لاحظنا وجود مجموعة كبيرة من الشخصيات والوجهاء واقفين حول شخص يرتدي بزة عسكرية روسية أنيقة، يشير إلى المواقع ويثرثر بحماس. ذهب الرجل البلقاري إلى المجموعة وهمس شيئاً لأحد المسؤولين الذي اتجه إلينا على الفور وكلمنا باللغة الشركسية، راغباً في معرفة المكان الذي جئنا منه. اخبره والدي أننا شراكسة من الأردن وعرّف بالمجموعة الكاملة، بمن فيها نفسه. تعرف هذا الرجل على والدي فوراً وأخبره أنه من قباردينو بلقاريا، وأن السكرتير الأول ملباخوف يدل ضيف الجمهورية، على جبل البروز. ثم استدار نحو الشخص القصير القامة الواقف إلى جانب رائد الفضاء رومانوف وهمس في أذنه.

ما حدث تالياً بقي في ذاكرتي لوقت طويل. حضر ملباخوف إلينا على الفور وصافح والدي، معرفا بنفسه، ثم دعانا إلى التعرف على رائد الفضاء الكوني الذي يرتدي شارة رتبة عقيد في سلاح الجو الروسي. عندما قدم ملباخوف والدي على أنه الجنرال قندور، اتخذ

رائد الفضاء على الفور هيئة الاستعداد وقدم لوالدي التحية العسكرية. ابتسم الوفد المرافق كله استحساناً للحادثة. أدركت وقتها أن الاحترام وأصول اللياقة والنظام العسكري ليس له حدود ولا قوميات. دعانا السكرتير الأول لاحقاً للسفر إلى نالتشك في زيارة قصيرة.

وعد ملباخوف، الذي كان وقتها السيد المطلق للجمهورية، تماماً مثل رئيس، بأن يرسل لوالدي سيارة إلى فندقه في صباح اليوم التالي لإحضاره إلى نالتشك مع أصدقائه.

في اليوم التالي، رفضنا كلنا جولة مشاهدة المناظر التي نظمتها لنا انتوريست وانتظرنا وصول السيارة من نالتشك. لم تحضر. لاحقاً، خابر جموخه، عضو مجموعتنا، نالتشك وأخبر الشخص الذي يعرفه، حموقوف، عن وجودنا في بياتيجورسك. كذلك كان وليد طاش قد قابل شخصاً شركسياً وعده بمخابرة نالتشك وإعلام بعض أبناء عائلة قندور عن وجودنا. في اليوم التالي، حضر كازبك، أحد كبار عائلة قندور بصحبة نجله أنور وابنته المهندسة لوسا.

أثناء جلوسنا إلى مائدة الغداء مع ضيوفنا في مطعم الفندق، وصل حموقوف مع زوجته الروسية أيضاً، واعترضنا جميعاً على عدم السماح لنا بالسفر إلى نالتشك. كان حموقوف مسؤولاً شيوعياً متصلباً، ولا يتقبل أي انتقاد للنظام. على أية حال، فقد أكد لنا أنه ما دام ملباخوف قد وعدنا بسيارة، فإن السيارة سوف تحضر حتماً. سررت مع والدي بمقابلة ثلاثة أفراد من عائلتنا وقضينا عدة ساعات نستفسر عن بقية أقربائنا في قباردينو بلقاريا.

انتظرنا ثلاثة أيام لأن يفي السكرتير الأول بوعده، وظل أبي يخترع الأعذار لنا بأن السكرتير الأول ربما يكون مشغولاً بضيفه الخ، لكن الأمر لم يحدث أبداً.

عدنا جميعاً بالطائرة إلى موسكو ثم إلى الأردن بخيبة شديدة لعدم

حصولنا على فرصة لزيارة قومنا في جمهورية قباردينو بلقاريا. بعد سنوات عديدة، عندما تمكنت من زيارة قباردينو بلقاريا، فهمت لماذا لم يتمكن ملباخوف من إرسال سيارته للوفاء بوعده. فقد كان بحاجة إلى تصريح من موسكو للسماح لنا بدخول الجمهورية، ومثل هذه التصاريح لم تكن تصدر بسهولة أو بسرعة. فهمت أنه على الرغم من كونه الزعيم الشيوعي الحقيقي في قباردينو بلقاريا، فهو يكاد يكون بلا سلطة وبصلاحيات محددة جداً بدون موافقة موسكو.

حدثت زيارتي التالية إلى الاتحاد السوفييتي خلال صيف العام ١٩٧٦، في شهر أيلول تحديداً. كنت قد تعاقدت مع تيلي هاشيت فرنسا لإنتاج مسلسل تلفزيوني عن الخيول والخيالة في العالم. كان يفترض فينا، ضمن هذا المشروع، أن نغطي كل القارّات ونعرض ثقافات الخيول الحية في العالم. قبلت بالمهمة على شرط أن يكون القفقاس مشمولاً ضمن المشروع. اردت أن أعرض حصاننا القباردين الشهير، والشهير على أية حال بالنسبة لنا نحن القفقاسيين وربما داخل الاتحاد السوفييتي. لم يكن القباردين معروفاً بشكل واسع خارج الجمهوريات الروسية، وأردت أن أغيِّر ذلك الواقع. ففي النهاية، فهو الجواد الأسطوري عند الشراكسة، والذي طالما تحدث عنه جدي وجدتي طيلة أيام شبابي. وافقت تيلي هاشيت على شرطي، رغم أنهم أدركوا أن الحصول على تصاريح السفر والتصوير في الاتحاد السوفييتي قد تكون صعبة، وهكذا انطلقنا نعمل على مشروع عزيز جداً على قلبي. كنت أسكن في لندن تلك الأيام، وتم التخطيط للرحلة وتنظيمها انطلاقاً من باريس.

وصلت إلى موسكو مع فريق إنتاجي الصغير: عامل كاميرا، مهندس صوت، مدير إنتاج ومساعدين اثنين. كانت تلك ول رحلة عمل لي داخل أي بلد شيوعي وطبيعي أنني كنت اشعر بالتوجس. أقول متوجساً لأنني عشت في أمريكا أكثر من عشرين سنة بحلول ذلك الوقت، وقد كانت الدعاية السلبية التي أصغيت إليها عن الشيوعية طاغية. تذكرت كذلك

تجاربي في رحلتي السياحية السابقة مع والدي في القفقاس.

جاءت تجربتنا الأولى في مطار شيريميتيوفو غير سارة، وهذا أقل ما يقال عنها. فقد أخضعنا إلى تفتيش حازم جداً من قبل شرطة الجمارك، لم يكن أفضل بأي شكل من التفتيش الذي أخضعت له في يريفان قبل حوالي ستة أعوام. كل قطعة أمتعة، كل قطعة صغيرة حتى تلك الموجودة في جيوبنا، جرى فحصها بعناية، وجرى استجوابنا بلا نهاية حول الغاية من زيارتنا إلى الاتحاد السوفييتي. تم التدقيق في خطابات انتوريست، التصاريح والموافقات على التصوير في القفقاس، وثائق السمات، بدقة متناهية، كما لو أنها مزورة!

أدخلونا في النهاية لحمل أمتعتنا. أعتقد أنهم ذكّروني في مرة أخرى بأن الاتحاد السوفييتي حتماً ليس راغباً في السياحة. لأن طريقتهم في الترحيب بالأجانب لم تكن باعثة على الإبهار، وعرفت -تقريباً- ما يتعين علي أن أتوقعه منذ تلك اللحظة فصاعداً. هدأت من غضب جاك فلوري، رجل الكاميرا ذي المزاج الحاد برفقتي، الذي بات مستعداً لركوب طائرة الأيرفرانس العائدة إلى باريس. فقد كنا بحلول هذا الوقت قد أتممنا التصوير في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، وعوملنا بطريقة أفضل من قبل ما يسمى بدول العالم الثالث.

تلقيت مفاجأتي السارة الأولى للرحلة عند بوابة الخروج. فقد استقبلتنا فتاة شقراء، ذات عينين زرقاوين وجمال أخاذ، اسمها ناتاشا، وهي دليلتنا من أنتوريست. ويفترض أن تبقى معنا طيلة الرحلة. هي سيدة ليثوانية طويلة القامة، بهية الطلعة في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، تتكلم الإنجليزية بطلاقة تامة، وقد طمأنتنا على اهتمامها الدائم بنا. طبيعي أنني كنت حذراً جراء تجربتي السابقة في المطار، لذلك شككت بأنها ربما تكون عميلة أو جاسوسة لدى الـ KGB. في وقت لاحق، بعد مرور وقت طويل، ثبت أن شكوكي في محلها. فإن وظيفتها هي التيقن من أن لا نصور أو حتى نشاهد اي شيء لا ترغب السلطات

في أن نصوره.

استجوبتنا كذلك بلا هوادة، وأرسلت تقريراً كل ليلة عن طريق الهاتف إلى مسؤوليها. وهذان رجلان متخفيان في معطفين أسودين واقيين من المطر، يتبعاننا أينما ذهبنا.

بعد تبادل المجاملات والتعريف والتقدمات، حشرنا في عربة فان سوفييتية الصنع، أشبه بمركبة فان فولكس واجن يسمونها "رافيك" وسرنا بها إلى موسكو.

حجزت لنا غرف في فندق راسيا الهائل، الذي بني على ضفة نهرٍ موسكو، يكاد يكون ملاصقاً لجدران الكرملين. لم يكن الوقت متأخراً كثيراً في المساء حينما دفعنا الباب الزجاجي الدوار ودخلت البهو. ومع ذلك فقد بدا البهو مهجوراً كلياً. مثل معظم الأمكنة، وكما سأكتشف لاحقاً، فقد كانت تدفئته زائدة.

تلفتُّ حولي أتفحص زينة البهو بالكثير من الفضول. فهو لا يشبه بهو أي فندق اخر رأيته في أي مكان آخر. فهو على الأغلب مشيد من الحجر الرمادي والألمنيوم. امتد طابق الميزانين بين الأرضي والأول من إحدى زاويتي البهو المستند إلى الأعمدة، إلى الزاوية الأخرى بدون أي تزويق لوني أو زخرفة فنية. لم يكن هناك مشرب، لا كشك صحف ومجلات، لا متاجر، لا خدمات، في الواقع، لم تكن هناك أية خدمة مما يعتاد المرء رؤيته في أبهاء الفنادق.

لم يكن هناك أي شيء فعلاً يقترح أن هذا بهو فندق ما عدا ما يشبه شباك تذاكر في الجدار الأيسر، والذي افترضت أنه نضد الاستقبال! سارت دليلتنا ناتاشا فوراً إلى هذا الثقب في الجدار وسلمت جوازات سفرنا وسمات دخولنا.

استدرت بقلق إلى فلوري، عامل الكاميرا، وأشرت إليه أن يذهب لإحضار معداته وأمتعته من الفان الصغيرة، واقترحت على كل

المجموعة أن تفعل الشيء نفسه. لأن البواب الذي يغالبه النعاس عند المدخل لم يقم بأية محاولة لإدخال أمتعتنا. أخبرت الجميع أنه في الاتحاد السوفييتي، سنطبق نظام إخدم نفسك منذ الآن فصاعداً. فنحن الآن، طبعاً، في ديمقراطية اشتراكية حيث المساواة هي الكلمة المفتاح، والخدمة تعبير وسخ محجوز للرأسماليين الفاسدين! ناولت ناتاشا كل واحد منا بطاقة صغيرة، شرحت لنا أنه "البروبوسك" الخاص بكلٍ منا. وأننا بحاجة إلى إبقاء هذه الوثيقة معنا في جميع الأوقات بدلاً من جوازات سفرنا.

بعد أن تم إيداعنا في غرفنا بأمان، فكرت في الخروج للعثور على مشرب. كنت بحاجة إلى كأس قبل أن أنهي الأمسية. أخذت حماماً طويلاً ساخناً وارتديت ملابس غير رسمية للمساء. لا بد لي من الإشارة إلى أن كل طابق له بوابة اسمها "ديجورنايي" هي ربما تكون مشرفة من نوع ما، ربما على الأخلاق العامة، حتى لا تسمح بدخول العاهرات أو الضيوف الإناث غير المسجلات إلى غرف الفندق.

أو ربما هي جاسوسة KGB.

على أية حال، فعندما نأخذ مفاتيح غرفنا منها، فإننا نسلمها "البروبوسك". اضطررت الآن إلى العودة إليها، اسلمها مفاتيحي وأستعيد "البروبوسك" ثم سألتها أين يمكن للمشرب أن يكون. فهمت ما أنا بحاجة إليه وقالت لي بإنجليزية سيئة أن المشرب بداخل المطعم على الطابق العلوي. تناولت مفاتيحي وانتظرت إلى الأبد، قدوم المصعد. لم ترفع الـ "ديجورنايي" عينيها عني طيلة الوقت الذي قضيته انتظر المصعد. بدأت افهم معنى السيطرة والرقابة في موسكو. سوف تسيطر السلطات على جميع تحركاتنا، داخل الفندق أو خارجه، تماماً مثل ما افترضت، أنهم يسيطرون على حياة كل مواطنيهم.

اهتديت إلى المشرب، وفوجئت بوجود بضعة غربيين موزعين في الأنحاء. بعضهم يتحدث بالفرنسية، اثنان أو ثلاثة بالإنجليزية

والألمانية. افترضت أنهم رجال أعمال بالضرورة، وليسوا سائحين. تحسن مزاجي فجلست إلى النضد لأطلب مشروبي. بمجرد أن أخرجت سيجارة مارلبورو، وأنا أنتظر مجيء النادل، شعرت بشخص يلمس كتفي، وهاجم خياشيمي عطر قوي نفاذ. هي ناتاشا، دليلتنا. جلست على مقعد إلى جواري وسألت عما أشربه. تغير مظهرها إلى الأجمل، إن كان ذلك ممكناً. فقد أسدلت شعرها الحريري الأشقر وارتدت سترة صوفية حمراء ضيقة أبرزت جمال نهديها الرائعين.

"ألم تتمكني من النوم أنت الأخرى؟" سألت، وأنا أشعل لها لفافتها.

"لا، أفترض ذلك. ولكن يجب أن لا تكون بمفردك فعلاً".

"ولا حتى في مشرب الفندق؟".

"أعني أنك يجب أن تتصل بي. لقد أعطيتك رقم غرفتي".

شربنا عدة كؤوس من الفودكا، وفوجئت بمدى تحملها للشراب وقدرتها عليه. شعرت بالنعاس والاسترخاء بعد كأسين أما ناتاشا، فأظن أنها لم تشعر بشيء على الإطلاق.

حان وقت نزولنا إلى غرفتينا، لذلك مشينا خارجين من المشرب سوية. عند وصولنا إلى باب الدخول، لاحظت كلبي الحراسة جالسين إلى طاولة غير بعيدة عن حيث كنا جالسين يحتسيان من زجاجتي جعة محلية. تظاهرت ناتاشا بأنها لم ترهما وعدنا إلى طابقنا. لا بد لي من القول أنه لازمني شعور واضح: لو أنه توفرت لدي الشجاعة لأدعوها، لانضمت إليَّ ناتاشا في غرفتي. لكن وجود الـ "ديجورنايي" أحبطني.

قيل لنا أن رحلتنا الجوية إلى مطار مينارالني فودي في القفقاس لن تحدث إلا بعد يومين. لذلك قدمت لنا ناتاشا عدة خيارات حول الأمكنة التي يمكننا رؤيتها في موسكو. أراد معظم الشباب القيام ببعض التبضع وشراء التحفيات التذكارية، وكنت بحاجة ماسة إلى ملابس دافئة. إذ

لم أتوقع أن يكون شهر أيلول بهذه البرودة في موسكو. ولم أكن مهتماً بأية تحف تذكارية في هذا الوقت حتماً. فخلق لنا هذا الأمر مشكلة تعبوية على الفور. لأن ناتاشا مضطرة لملازمتنا كلنا، لذلك لم تسمح لي بالذهاب وحدي لشراء الملابس. أكدت لي في النهاية أنني سأبقى جالساً في غرفتي حتى تعود من تسوق التحفيات مع الشباب. ستتمكن بعدها من اصطحابي لشراء بعض الملابس الدافئة. كنت بحاجة إلى كتابة بعض التعليق على الفيلم الوثائقي الذي سنصوره بكل الأحوال، لذلك فرحت بحصولي على بضع ساعات إضافية من العمل.

انطلقت ناتاشا وبقيت صبياً عاقلاً لساعة على الأقل، قبل أن أخرج وأبدأ في الرغبة باستكشاف هذا الصرح الهائل المسمى فندق راسيا. جلست في البهو عند الزاوية البعيدة من القاعة لأتفرج على المناظر في الخارج. خلال وقت قصير جيداً، وبدون أن ألاحظ الجهة التي قدم منها، اقترب مني شخص عليه ملامح الفطنة. خمنت أنه لا بد أن يكون أرمنياً، لأنني رأيت الأرمن وعشت معهم في الأردن وكاليفورنيا على السواء. لذلك عرفت ميزاتهم البدنية جداً. عرض علي أن يصرف لي الروبلات مقابل الدولارات بعصبية، بينما ظل ينظر خلفه وحوله باستمرار، باحثاً عن أية علامة للخطر. فوجئت بمدى إتقانه للإنجليزية. علمت من ناتاشا أن سعر الصرف الرسمي كان حوالي ٨٠, ٠ روبل (٨٠ كوبيك) للدولار. سألته عما يعرضه علي فقال ثلاثة روبلات للدولار. وذلك أكثر من ثلاثة أضعاف السعر الرسمي. تظاهرت بعدم الاهتمام، بينما في الحقيقة كنت قلقاً من أن ينكشف أمري. لم يفهم سبب ترددي الصحيح وقال "أربعة روبلات هو أفضل ما يمكنني إعطاؤه. كم تريد؟".

"ليس بهذه السرعة. ألا يشكل هذا خطورة علي؟ ألن يطلبوا مني إيصالات أو شيء من هذا القبيل؟".

"كلا، إلا ذا اشتريت أشياء كثيرة من مكان واحد. اسمع، كم

تريد؟ إذا اشتريت بأكثر من مائة دولار، سوف أعطيك إيصالات قديمة. ما ستفعله هو صرف عشر دولارات من الشباك الرسمي في الفندق ثم تقوم بإلصاق ذلك الإيصال فوق الإيصالات الأخرى. لن يلاحظ أحد، صدقني، كم تريد؟".

بدا الوضع مقنعاً ومغرياً. أخبرته أنني سأبدل ٣٠٠ دولار، فهل يحمل ذلك المبلغ؟ قال لي كلا ولكنه سيحضر المبلغ إلى غرفتي خلال ساعة واحدة. فما هو الطابق الذي أنزل فيه؟ أخبرته برقم غرفتي وطابقي. ابتسم. قال لي ذلك الطابق سهل عليه لأن أرمنيه أخرى ستجلس فيه اليوم بصفة "ديجورنايي". لذلك يجب أن لا أقلق، فسيكون الأمر على ما يرام. نهض على الفور وغادر الفنادق وقد أحنى رأسه، وكأنه غارق في تفكير عميق، بينما تتناوب قدماه المشي السريع.

أمضيت الساعة أتمشى في المبنى الهائل، وعيون الحراس تراقبني طيلة الوقت. لم يكن في موقف السيارات الهائل المجاور للفندق سوى سيارتين. اكتشفت أن للفندق أربعة مداخل منفصلة. أخبرتني ناتاشا لاحقاً أنه يضم في الواقع أربعة أجنحة منفصلة تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف غرفة، متصلة لتشكل مربعاً حول ساحة مركزية. الجناح الشرقي الذي نقيم فيه هو فندق إنتوريست، الجناح الغربي للرعايا السوفييت ومواطني الكتلة الشرقية فقط، بينما خصص الجناحان الشمالي والجنوبي لإقامة الشيوعيين ذوي الأفضلية. افترضت طبعاً أن الأجنحة الأربعة غير متصلة ببعضها بعضاً. لأن إبقاءهم منفصلين طريقة أكثر كفاءة. السيطرة!

اصطحبتني ناتاشا إلى مخزن جوم الهائل حيث شاهدت تشكيلة جيدة من البذلات الدافئة. اخترت إحداها على مقاسي وبدت ملائمة. عندما توجهت للدفع، تلقيت صدمة أخرى، فالسعر مجرد خمسة عشر روبل، والذي هو أقل من أربعة دولارات حسب سعر صرفي. طبيعي أنه أصابني الطمع وأردت أن أشتري بذلة أخرى، لكن ناتاشا قالت لي

لا. فذلك غير مسموح. إذ يسمح لي بشراء بذلة واحدة فقط. حسناً، القواعد هي القواعد. اشتريت "القطعة الواحدة فقط" المسموح بها وهي كنزة كبديل. ستنفعني في جبال القفقاس.

جاءت رحلتنا إلى مين –فودي خالية من الأحداث. ذهبنا مباشرة إلى فندق في بياتيجورسك، وهو الماشوكا، الذي جعلنا منه مقر إقامتنا الرئيس. كان هذا هو الفندق نفسه الذي أقمت فيه قبل ست سنوات. يمكنني القول أن علاقتي بناتاشا تطورت نحو مزيد من الدفء، مع مرور الزمن، وعندما اكتشفت أنني قباردي أصبحت العلاقة أكثر دفئاً. وهنا اعترفت لي بأنها نفسها ليست روسية. أخبرتني عن بلادها، ليثوانيا واقترحت أنني إذا سافرت في يوم ما إلى فيلنيوس، أنها ستسر كثيراً لأن تكون دليلتي. طرحت العديد من الأسئلة حول عملي كمخرج أفلام. أدركت وقتها درجة الاحترام التي يكنها الشعب السوفييتي لمخرجي الأفلام وكل الذين يعملون في مجال الفنون.

قابلت في الجبال العديد من الخيالة الشراكسة الذين يعتنون بعدة قطعان من جياد القباردين الشهيرة. تحدثت إليهم مطولاً، على الرغم من النظرات المقلقة التي ظلت ناتاشا ترمقني بها. لحسن حظنا، فقد بقي كلبا الحراسة المرتدين معاطف المطر في الفندق أثناء تأديتنا لعملنا في الجبال. أعتقد أنهما تركا عمل الرقابة كله على ناتاشا، والتي لا بد وأنهما أصبحا يثقان بها بحلول هذا الوقت.

منحنا هذا الوضع مقداراً كبيراً من الحرية للتصوير على سجيتنا وتجميع المعلومات حول الجياد وتدريبها. جمعت كذلك معلومات حول الأوضاع في قباردينو بلقاريا بالتحدث باللغة الشركسية مع الخيالة المتشوقين للكلام، طيلة الوقت. اكتشفت على سبيل المثال، أن بعض أقاربنا الذين يحملون نفس اسم عائلتنا، ما زالوا يعيشون في الجمهورية.

أخبرني أحد الفرسان، وقد أدى الخدمة العسكرية، أن قائد لواءه

كان عقيداً يحمل نفس اسم عائلتي. اعتقدت أن حقيقة اختيار معظم ذكور عائلتي في الشتات العسكرية كمهنة لهم أمر غريب.

تمكنت، وأنا واقف على حافة صخرية، في مكان عالٍ مشرف على النجد القباردي، من رؤية انعكاس نور الشمس عن نهرين: الشيجيم والباقسان، اللذين ظهرا مثل ثعبانين فضيين يتلويان باتجاه الشرق. أمكنني كذلك رؤية بعض القرى والمستوطنات عند سفوح الجبال.

تشوقت للنزول إلى هناك ورؤية أهلي. كان قلبي يؤلمني لشدة الشوق، لكن ناتاشا ظلت مصرة على أنه لن يسمح لي بذلك أبداً. لأن ذلك يتطلب سمة دخول من موسكو وذلك يستغرق عدة أسابيع، إضافة إلى أن الرد سيكون سلبياً حتماً.

لاحظت أن تعاطف ناتاشا يتزايد باتجاهي تدريجياً. في أحد الأيام، وأثناء عودتنا من الجبال بالسيارة، همست في أذني قائلة أنه يتوجب علي الحذر مما أقوله في الغرفة وعلى الهاتف. فالأجهزة كلها مرصودة. عندما سألتها ما إذا كانت جاسوسة، أمالت رأسها قليلاً وابتسمت بدون أن تجيب. اعتبرت ذلك جواباً إيجابياً.

صورنا الخيالة القبارديين لعدة أيام ثم انتقلنا لعمل الشيء نفسه مع البلقار الذين يشتركون مع الخيالة الشراكسة في الجبال. ولكنهم يعيشون على ارتفاع أقل في المنحدرات لأنهم رعاة أغنام على الأغلب، ولا تستطيع أغنامهم أن تتسلق إلى ارتفاع الحصان القباردين. كان البلقار شعباً معروفاً بالنسبة لي في ذلك الوقت، ووجدتهم أناساً كرماء ومتشوقين لتقديم العون. هم جنس تركي ولغتهم قريبة جداً من التركية القديمة. فوجئت إذ وجدت أن بعضهم مسلمون يؤدون الفرائض الدينية كاملة تحت أنوف الشيوعيين. اتخذوا معظم تقاليد القبارديين في الملبس والموسيقى وحتى في أطعمتهم. لكنهم على أية حال، احتفظوا ببعض تقاليدهم التركية أيضاً، كما في أغانيهم التركية القديمة التي هي شرقية في طبيعتها. بعد إجراء القليل من الاستقصاء أدركت أن هؤلاء

الناس هم بقايا الحشود التركية التي تخلفت عندما خرج العثمانيون من الهضاب الشرقية لغزو تركيا واحتلالها. لم يكونوا من سكان شمال القفقاس الأصليين مثل الشراكسة والأوسيتيين.

مررت بتجربة جديرة بالتذكر أثناء وجودي في الجبال، لا بد لي من ذكرها. أخبرنا في أحد الأيام، فارس شركسي عن عجوز قباردي، يعيش لمدة ستة أشهر من كل سنة في أمكنة عالية من الجبال، لوحده. عندما سألت عن عمره، قيل لي أنه تجاوز المائة، لكن أحداً لم يكن يعرف على وجه الدقة. أثار فضولي، فسألت عن الاتجاهات حتى عثرت على القمة الصخرية الجبلية التي يعيش عليها هذا الرجل العجوز. بدا التسلق معجزاً، لكننا نجحنا، حاملين كل معدات أفلامنا على ظهورهنا. تعجبت كيف يستطيع رجل عجوز في قرابة المائة عام، أن يتسلق مثل هذا الانحدار. الرجل العجوز قباردي من قرية على المنحدرات إلى الأسفل. يقوم برعي بضع بقرات من كولخوز قريته، وقد سرَّ لرؤيتنا كثيراً. رحب بنا وقدم لنا بعض الطعام والشراب حسب التقاليد الشركسية الأصلية.

كان الشراب من اللبن الرائب في معظمه، وهو يصنعه بنفسه، أو حليباً دافئاً. أخبرنا أثناء جلوسنا في مغارته الصغيرة عن المتع التي يجدها في وحدته على هذا الارتفاع وقص علينا العديد من الحكايا، مثل عندما تأخر في النزول عن الجبل في أحد الفصول، وعلق في عاصفة ثلجية. تجمدت بضع من بقراته حتى الموت، ولم ينجُ إلا حين شق بطن إحدى البقرات الميتة وزحف إلى داخلها طلباً للدفء، حتى انتهت العاصفة.

أصر على بقائنا لتناول وجبة محترمة، بدأ بتحضيرها. كان لديه كثير من اللحم، فقام بوضع كمية من الماء على النار لغليها ثم ألقى بقطع كبيرة من لحم البقر فيها. أدركت لحظتها مدى الصعوبة التي لا بد وأنه يعانيها في إحضار الماء من الجدول الذي تحته. سألته كيف

يفعل ذلك. قال أنه يقوم كل صباح بجلب ملء دلوين مربوطين إلى عصا يحملها فوق كتفيه.

"لكن ذلك لا بد وأنه يشكل صعوبة عليك، أليس لديك أي شخص ليساعدك؟ أليس لديك أبناء؟"

ابتسم وقال "أوه، لدي ابنان، لكنهما كبرا في السن كثيراً وما عادا يغادران بيتهما!".

ضحكنا جميعاً على قوله. هذا رجل في سن المائة، إن لم يكن أكثر، لائق جسدياً مثل كمان، ومع ذلك، فقد أصبح ولداه أكبر من مغادرة البيت! ذكرني العجوز بجدي، الذي عاش بلياقة تامة حتى قرابة المائة سنة (لم يعرف أحد عمره بالضبط) كانت طريقة كلامه ومفرداته، فخره بعمله وحتى ابتسامته الماكرة شبيهة جداً بدادا (جدي). فكرت بجديّ الراحلين اللذين حدثاني كثيراً عن موطنهما، القفقاس، واللذين تشوقا إلى رؤيته مرة أخرى، ولم يستطيعا. بل ماتا بدلاً من ذلك في أرض غريبة ودفنا تحت تراب غريب. سيكون ذلك هو مصير كل المغادرين.

بعد ساعتين من المحادثة، استأذنّا العجوز ونزلنا عن جبله.

الفصل الثالث والعشرون

جرى توزيع المهاجرين بين العائلات الشركسية في الأردن بواسطة "الخاسا" : الجمعية الخيرية الشركسية، لتقديم الإيواء لهم حتى يتسنى لهم ما يكفي من الوقت للحصول على وظائف وبيوت خاصة بهم، ليتزوجوا ويستقروا في المنطقة، ثم يصبحوا جزءاً من المجتمع المقيم.

بسبب وجودهم ضمن ثقافة غريبة عليهم، ظلوا بحاجة ماسة إلى قيادة كريم الصلبة لمساعدتهم وهم يكافحون للتأقلم مع الحياة الجديدة والإمكانيات المحدودة المتاحة لهم.

لعب والدي، الذي كان ضابطاً برتبة رفيعة في الجيش في ذلك الوقت، دوراً مهماً في مساعدة كريم علي توطين مجموعته في زاويتهم التي اختاروها في الشتات، لكن بات جلياً أن الانخراط سيكون صعباً. لم يتمكن أحد في التفكير بما ينبغي عمله لتمكينهم من أن يصبحوا جزءاً منتجاً من المجتمع.

كانت حرب فلسطين لعامي ١٩٤٧-١٩٤٨ قد انتهت، واقترح العديد من الناس أن القادمين الجدد يمكن أن يكونوا مفيدين كجزء من الجيش الأردني، بوجود كل تلك الخبرات التي اكتسبوها في القتال خلال حياتهم السابقة، والمهارات التي أظهروها. فقد كان كل شخص يتوقع مزيداً من الصراع مع الدولة الصهيونية الجديدة.

"كلا" جاء رفض أبي قاطعاً "لقد قاتلوا ما يكفيهم لكل حياتهم.

لقد حان وقت استقرارهم. فهذه ليست معركتهم".

رغم أن شراكسة الأردن فعلوا كل ما بوسعهم للترحيب بالقادمين الجدد، إلا ان كريم رأى أن الفرص المتاحة أمامهم محدودة جداً. فالبلد ببساطة لم يكن لديها ما يكفي من الوظائف لتقدم كل ما يحتاجه أبناؤه. لان فهمهم للغة لم يكن جيداً بما يكفي للسماح لهم بالعمل في الوظائف الحكومية، فقد ظل الجيش واقعياً مصدر العمل الوحيد للعديد منهم. لم توجد مصانع أو صناعات يمكنهم الذهاب للعمل فيها، ولا أراض يمكنهم فلاحتها. بدأ كريم يتلفت حول العالم بحثاً عن مراعٍ أخرى، اكبر، يستطيع أن يقودهم إليها. سافر إلى سوريا مرة أخرى ليرى الإمكانيات القائمة في ذلك البلد، لكنه سرعان ما أدرك أن الشراكسة لا يحظون بنفس المرتبة المماثلة للأردن هناك. فهم يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية. وقد فوجئ في الواقع بدرجة انصهار شراكسة سوريا في الثقافة العربية حتى يتمكنوا من تحصيل قوتهم.

كان قد سمع بمنظمة تدعى مؤسسة تولستوي في أمريكا، من خلال رجل شركسي أجرى بعض الاتصالات معها. بدا لكريم أن أمريكا أرض سيتمكنون فيها من بناء حياة طيبة لأنفسهم ولعائلاتهم، فبدأ يجري الاستفسارات.

قوبلت اتصالاته الأولية بالجدار المعروف من عدم الاهتمام البيروقراطي، لكن كريم كان قد تعلم من سنوات عديدة سابقة أن المثابرة ستؤتي ثمارها على الدوام ورفض الاستسلام في نهاية المطاف، استسلمت مؤسسة تولستوي، التي أنشئت في الأصل لمساعدة الروس البيض على الهروب إلى السلامة وإلى حياة جديدة في أمريكا بعد الثورة، ووافقت على رعاية شراكسة كريم ومساعدتهم في الحصول على سمات الدخول والنقل إلى أمريكا. على مدى فترة سنتين في أوائل خمسينات القرن العشرين، شقت أغلبية المائة مسافر متعب طريقها نحو ملاذها النهائي في باترسون، بولاية نيوجيرسي، على مسافة قريبة

من مدينة نيويورك.

أثناء إقامة الشراكسة في الأردن، قام رجل أديب مثقف اسمه كوبا شعبان، وهو أحد مهاجري كريم، بالمساعدة على تأسيس نادي للشباب، لتعليم اللغة التقليدية والبدء في عمل مسرح شركسي بهدف المحافظة على الثقافة وإبقائها حية في أذهان الشباب في الشتات. نظم عدة مسرحيات وعرضها، وألقى محاضرات مطولة حول الميثولوجيا الشركسية. سرعان ما رحب الناس، الذين كانوا سابقاً يخشون ضياع اللغة في الشتات، بأعماله. أثبتت هذه التجربة المسرحية أنها الأولى التي يحظى بها الأردن، وبرهنت أنها رائد مفيد لتجارب مسرحية لاحقة في هذا البلد الناشئ.

على أية حال، عندما أبحر الآخرون باتجاه أمريكا، قرر كوبا شعبان أن يذهب إلى فرنسا كبديل، حيث يوجد لديه أصدقاء، يعتقدون أن فرنسا هي المركز الثقافي للعالم كله.

سكن لدى صديق في باريس وعمل على بحث علمي مع البروفيسور بيننجسين في جامعة السوربون. انتقل لاحقاً إلى نيس وأقام لدى صديق إلى أن داهمته صعوبات مالية بعد سنة، فاضطر إلى الاتصال بكريم وطلب مساعدته في الانتقال مع صديقه إلى أمريكا.

فرح كريم بمساعدة شخص على هذه الدرجة من الشهرة والمكانة الأدبية المتميزة، وعندما قابلت كوبا شعبان عام ١٩٥٨ في أمريكا، وجدته قد استقر بدرجة طيبة، لكن سرعان ما ستسوء ظروفه.

كان كريم آخر من غادر الأردن والتوجه إلى أمريكا، بعد أن تيقن من انتظام أمور الآخرين كلهم قبل أن يقلق على نفسه. بعد وصوله، اتجهت كل جهوده إلى إقناع أصحاب الوظائف والمستخدمين بإعطاء الوظائف لقومه. ذهب مباشرة إلى مكاتب رجال الكونجرس المحليين، واستغل قدرته على التحدث بالإنجليزية أكثر من معظم أفراد قومه،

طالباً العون، وصادق كل من استطاع الوصول إليه من أصحاب النفوذ والقدرة على المساعدة، سواء كان أولئك سياسيون م قادة نقابات عمالية، بحيث اتسعت قاعدة نفوذه الشخصية بسرعة. كانت السلطات الأمريكية في حينها سعيدة جداً بمساعدة أي شخص هرب من روسيا، البلد التي يرون فيها التهديد الأعظم لقوتهم المستقبلية، وأصبح كريم أداة سياسية مفيدة لهم. فقد كانت تلك حقبة المكارثية وقمة الجنون المعادي للشيوعية في الولايات المتحدة. أسس المجتمع الشركسي جذوراً له بسرعة في باترسون، نيوجيرسي: وجد افراده وظائف في المصانع واشتروا بيوتاً، أنشأوا نوادي وأنجبوا الأطفال.

أصبح نمط معيشتهم يتسم باليسر والسهولة، نمط من الحياة لم يكن كثير منهم يجرؤ حتى على أن يحلم به عندما كانوا عالقين وسط حروب وفظاعات نصف القرن الماضي.

بعد استيلاء الإسرائيليين على مرتفعات الجولان، أصبح بعض الشراكسة السوريين الذين كانوا يعيشون في القرى هناك. نازحين، وبدأوا يصلون إلى أمريكا بدورهم، ويتجهون للاستقرار في نيوجيرسي. ولكن رغم أنهم كان لديهم دم شركسي، إلا أنهم كانوا يختلفون عن مهاجري الشتات الجدد. احد القادمين الجدد كان طبيباً، صادق كويا شعبان، الشاعر القادم من فرنسا، وأصبح فاعلاً في نشر الثقافة واللغة الشركسية. أنشأ الرجل عيادة سرعان ما ازدهرت في الأحياء الفقيرة لنيويورك العليا، إلا أنه اهتدى إلى فرصة أعظم للنجاح على مستوى مختلف في المجتمع.

كان كويا شعبان قد كتب مجلدات غير منشورة عن النارتيين والشخصيات الأسطورية الأخرى في التاريخ الشركسي، وقد أراني إياها في المرة الأولى التي قابلته فيها. كان قد عمل عليها لسنوات طويلة، ويأمل في العثور على شخص ليترجم له العمل من الروسية إلى الإنجليزية. وعد الطبيب السوري السيد كويا شعبان بالعثور على شخص

ليتولى المهمة نيابة عنه، وأخذ كل المواد معه إلى بيته.

أدرك كوبا شعبان، المفعم بالامتنان أن العثور على مثل ذلك الشخص سوف يستغرق بعض الوقت، ومزيداً من الوقت ليتولى العمل، لذلك انتظر بصبر وأناة شهوراً عديدة. وعندما سأل الطبيب في نهاية المطاف ما إذا أسعفه الحظ في العثور على شخص يتولى الترجمة، تظاهر الطبيب بأنه لا يعرف ما يتكلم عنه كوبا شعبان، وأن المخطوطات لم تصل إلى حوزته على الإطلاق.

أصيب بحزن قاتل مما حدث للأعمال التي استغرقته حياته، وطلب من عدد منا التوسط نيابة عنه لدى الطبيب. استمر الطبيب في إنكار معرفته بأي شيء حول المخطوطات، ملمحاً في الوقت نفسه إلى أن عقل كوبا شعبان قد بدأ يدركه الوهن مع تقدم سنوات العمر. أدرك الجميع ما حصل، لكن أحداً لم يتمكن من تقديم الإثبات وتحول الأمر إلى فضيحة تحدث العديد عنها بدون التوصل إلى أية نتائج.

أدرك الطبيب أنه لن يتمكن من نشر الكتابات بسبب حجم الجدل الخلافي الذي أثير حولها، ما دام كوبا شعبان حياً، فقد عرفنا أنه غير قادر على ابتداع مثل هذه المواد بنفسه، وأنه سرعان ما سينكشف أمر لصوصيته.

التقيت بكوبا شعبان قبل وفاته بخمسة شهور، حينما كنت أعمل على تنظيم وتسجيل اسطوانة موسيقى شركسية راقصة لحساب شركة تسجيلات مودينا في كاليفورنيا، تحتوي على أربع معزوفات من تأليفه. كسب التسجيل قدراً جيداً من المال، احتفظت ببعض منه، إلى جانب خمسة صناديق من الاسطوانات، حملتها إلى الشاعر العجوز لأعطيها له. بكى عندما أخبرته بأن النقود له، غير مدرك أنه يمكن في أمريكا أن تدفع له جعالة عن أعمال لا تكسبه شيئاً في بلدان أخرى. أعال نفسه طيلة الأشهر الأخيرة من حياته ببيع الاسطوانات إلى آخرين في المجتمع.

بعد وفاة كويا شعبان بوقت قصير، توفي الطبيب السوري بدوره نتيجة إصابته بجلطة قلبية، رغم أنه كان ما يزال رجلاً فتياً، صحيح الجسم، فقال كثير من الناس أن ذلك برهان على وجود رب يراقب ويحمي أولئك الذين يهتم لأمرهم.

على أية حال، لم يتم العثور على مخطوطات كويا شعبان أبداً، ولكن ربما، في يوم ما، بعد أن يموت كل شخص كانت له علاقة، ستظهر إلى النور مرة أخرى ويتم نشرها في نهاية المطاف. ستذكر أجيال عديدة من شراكسة الشتات في الأردن كويا شعبان على العمل الرائع الذي أنجزه مع شبابهم. نشر عمل البروفيسور بينينجسون البحثي في باريس، وقد ظهر عليه اسم شعبان.

أصبحت الحياة في أمريكا ملائمة لكريم. مع استمراره في تحمل مسؤولياته ضمن المجتمع، استطاع أيضاً أن يحصل على وظيفة مشرف عمال في أحد المصانع، ويكسب نقوداً أكثر من أي شخص آخر في المجتمع. كذلك نشط سياسياً، وأسس نفسه كصديق لعضو الكونجرس المحلي. بدأ يتحدث عن ترشيح نفسه للمنصب. لأن أي شخص في المجتمع يواجه مشكلة، ظل يأخذها ويعرضها على كريم، وينظر إليه كقائد تقليدي للمجتمع.

لم يتفق السوريون، الذين تحدرت أصولهم من قبائل مختلفة مع هذه الرؤية ولم يرغبوا في التعاون مع كريم أو الاعتراف بزعامته. عندما قرر المهاجرون الشراكسة من روسيا أنهم يريدون أن يبنوا مسجداً في البلدة، على سبيل المثال، قرر السوريون أن يبنوا مسجدهم الخاص بهم على مسافة قريبة ليخدم حوالي ثلاثين عائلة من سوريا.

لم يكن القرار منطقياً من الناحية المالية، وأسهم في زيادة الانقسام داخل المجتمع. كان العديد من السوريون قد تلقوا تعليماً عالياً وشغلوا وظائف مرموقة في سوريا، ولذلك باتوا ينظرون إلى المهاجرين من روسيا والأردن على أنهم مواطنين من الدرجة الثانية، بمن فيهم كريم

نفسه. لم يستطيعوا أن يفهموا كيف يستطيع رجل لا يقيمونه بأكثر من فلاح، أن يصبح صديقاً لرجل الكونجرس. كذلك أصابتهم فكرة ترشحه للعضوية بالرعب فبدأوا يخططون ويتآمرون لإسقاطه. بدأت الهمسات تنتشر، كتبت رسائل وأجريت مكالمات هاتفية. لم يجرؤ أحد على ربط اسمه بالإشاعات، لكنها رغم ذلك كانت حقيقية. الشائعة التي أطلقت هي أن كريم كان عضواً في الجستابو أثناء سنوات الحرب. تلك حقيقة لا يمكن إنكارها ولم يفكر كريم بمجرد إنكارها. لكن في أمريكا، حيث يمتلك اليهود نفوذاً هائلاً، لا يوجد شيء أكثر إضراراً بالفرد من أن يتهم بأنه جزء من الحركة التي حاولت أن تبيد الجنس اليهودي من خلال معسكرات الاحتجاز والإعدامات الجماعية. رغم أن كريم انضم إلى الجيش الألماني لمحاربة الشيوعيين فقط، ولم تكن له أبداً اية علاقة بأي برنامج يهودي، إلا أن الاستدلال تجذر.

سيخلق أي رجل قوي أعداءاً له في الحياة إذا رغب في إنجاز أي شيء، وهؤلاء الأعداء موجودون على الدوام لانتهاز الفرص لإسقاط ذلك الرجل.

لم تستطع المنظمات اليهودية التي تتعامل مع مسألة المعاقبة على جرائم الحرب أن تمتنع عن سماع الإشاعات، فبدأت تجري التحريات في ماضي كريم. أين كان بالضبط أثناء الحرب؟ ماذا كان دوره تحديداً في الجيش الألماني؟ استنتجوا أن حرفي SS الدالين على الجستابو البغيض، غير بعيدين عنه.

جيرالد غولدبيرغ رجل تحري كبير السن في نيوجيرسي، يهوى جمع المعلومات حول مجرمي الحرب. تلك كانت هوايته إضافة إلى كونها مهنته، فتحول عقله إلى مكتبة من المعلومات. أحياناً، تنصهر معلومتين من مصدرين مختلفين سوية، لتنتج عن انصهارهما شرارة تقوده إلى ممر درب جديد من التحقيق والاستقصاء.

حينما قرأ في صحيفته المحلية، أخبار باترسون، أن كريم شيبزوكوف قد تلقى جائزة من رئيس دائرة اتحاد الحرفيين، قرع الخبر جرساً داخل ذهنه. بحث عن الاسم في ملفاته حول جرائم الحرب واكتشف العلاقة بالجستابو، فبدأ بدوره يطرح الأسئلة. كان كريم قد أوحى بالعديد من الحكايات والخرافات عبر السنوات، ما يكفي لجعل اي تحقيق في ماضيه مادة مثيرة للاهتمام. فقد رويت حكاية كيفية انتقامه من الشيوعيين الذين قتلوا أعضاءً من عائلته وأعيدت روايتها مرات عديدة، إلى جانب قصص حول شجاعته في المعارك أثناء الحرب. ظهر له أن كريم لم يكن أسمى من التباهي بماضيه الشخصي أيضاً، فقرر التحري غولدبيرغ أن يأخذ تحقيقاته إلى مستوى أعمق وأبعد.

طلب من دائرة التحقيقات الفدرالية FBI المساعدة. جرى التعمق والإفاضة في سجلات الأرشيف، فخرجت وثيقة من أحد الملفات. أثبتت الوثيقة التي تحمل صورة كريم كشاب يافع أنه قد انضم إلى الجستابو، وترفع إلى رتبة ضابط بعد دورة تدريبية مدتها ثلاثة اشهر في برلين. تبين فجأة أن الهمسات هي أكثر من مجرد شائعات، وأن هناك بعض الحقيقة في قلب الحكايات، حتى كريم نفسه لم ينفِ الوقائع أبداً.

استدعي كريم للتحقيق والاستجواب من قبل الـ FBI. إلا أن الذين استجوبوه توصلوا إلى استنتاج مفاده أنه لا يوجد في ملفهم ما يشير إلى أنه كانت له أية علاقة بجرائم الحرب. ورغم ذلك، لم يقم بأية محاولة لنفي أو دحض مصداقية الوثائق التي عثروا عليها.

شرح قائلاً "لقد كنا نحارب الشيوعيين في بلادنا. كنت مستعداً للانضمام إلى الشيطان نفسه، لو أنه ساعدنا في الوصول إلى ذلك الهدف". مراراً وتكراراً.

رسمت كلماته المفعمة بالثقة الابتسامات على وجوه مستجوبيه في ال FBI. فهم قادرون على فهم ذلك. أليس الشيوعيون أكثر الناس شروراً؟ أليست واقعة طرد أناس من نوعية وسحر كريم الشخصي من

بلادهم على يد أمثال هؤلاء الناس، مأساة مؤلمة؟

لم يروا اي سبب يدعوهم إلى معاقبته اليوم على قرار اتخذه عندما كان شاباً أثناء حماة وطيس الحرب ضد الشر.

مع تنامي نفوذه وتاثيره، أصبح كريم ميالاً إلى الإفراط في الثقة بنفسه وبات يؤمن أنه لا يمكن المساس به. لم يدرك مدى قوة وقسوة أعدائه، وكيف أنهم ينتظرون حلول السانحة المثالية.

كلما زار الملك الحسين مدينة نيويورك، كنت أذهب إلى فندق والدورف استوريا حيث يقيم، لأقدم له احترامي.

فقد علمني والدي أنه يتوجب علي عمل ذلك دائماً من باب الاحترام.

اتصل بي كريم في إحدى هذه الزيارات، وسألني ما إذا كان بإمكانه القدوم معي. فقد كان راغباً بشدة في مقابلة جلالته، والتباهي بذلك أمام أصدقائه الأمريكان. لم استطع أن ارى سبباً يمنع ذلك، فاتصلت برئيس التشريفات الملكية السيد ينال حكمت، وهو شركسي مثلنا، الذي أكد لي الموعد بدوره.

قضينا، كريم وأنا، قرابة ربع الساعة مع جلالته، قبل أن نتخذ طريقنا عائدين إلى المصعد.

كان الرجل المسن الذي يدير المصعد يهودياً بشكل واضح. أثناء اصطحابه لنا نزولاً إلى الطابق الأرضي، أخذ كريم، المنتشي إلى حد كبير لأنه قد قضى لتوه بعض الوقت مع الملك، يتعالى على الرجل العجوز، مستمتعاً بفكرة تخويفه.

طرح على العجوز السؤال "هل تعرف ماذا أكون؟".

أجاب الرجل العجوز "لا يا سيدي، لا أعرف".

صاح به، نصف ضاحكاً "أنا العقيد، قائد الجستابو" خفض الرجل

العجوز رأسه، وكأن المعلومة لا تعنيه بشيء، لكنني استطعت أن ارى من النظر إلى وجهه، انه غير مرتاح.

أحسست بانزعاج شديد من الحادثة في المصعد. أردت أن أوبخ كريم، لكنه شركسي وجيه كبير السن، فلم أستطع أن أمنح نفسي ذلك الامتياز.

قلت لكريم أثناء خروجنا إلى الشارع "إنك تتصرف بحماقة. وأنك تتكلم مثل فاشي. لماذا تتباهى بهذه الطريقة؟ ألا تدرك ما هي هذه المدينة؟".

قال معتذراً "كلا، لست فاشياً يا محي الدين. أنا فعلاً لست كذلك. أتفق معك، كانت حماقة مني أن أفعل ذلك. الأمر أنني فقط شعرت بقليل من التفاخر بعد مقابلة جلالته".

إلا أن الحادثة تركت في نفسي أثراً مريراً، فأحسست بالقلق عليه وصارحته بذلك. اكتفى بالضحك، قائلاً "أنا أعرف الكثير جداً من الناس المتنفذين. لن يجرؤ أحد على المساس بي". بقيت أعتقد مقتنعاً أن جماعة كريم لم تنضم إلى الألمان إلا للقتال ضد الشيوعية وتحرير قفقاسهم من السيطرة الشيوعية. تكلمت مع العديد منهم ولم أصدق أبداً أنهم قد اعتنقوا الفاشية. فنحن كشراكسة، قد ذقنا ما يكفي من الفاشية كأمة، في البداية مع روسيا القيصرية، ثم الشيوعية والأتراك، بحيث بقينا نعامل كمواطنين من الدرجة الثانية. لذلك لم أستطع أن أصدق بأن كريم او اي من شراكسته يرضى أن يصبح فاشياً أو يظهر اية ميول باتجاه الفاشية. عندما أدرك أعداء كريم أن دائرة الـ FBI لن تقوم بعملهم نيابة عنهم، بدأوا يبحثون عن سبل أخرى. صاروا ينشرون مقالات مليئة بالاتهامات والتلميحات حول ماضيه، لكن ذلك لم يكن كافياً لإسقاطه. شرح لي ما حدث بعدها نجله كازبك الذي كان في السابعة او الثامنة حينها، بعد سنوات طويلة.

"شرب والدي الشاي في ذلك الصباح كالمعتاد. كنا جالسين إلى مائدة الإفطار. قال إنه سيشتري لي هدية في ذلك اليوم. ذهبت إلى الشباك لألوح له مودعاً حين ينطلق بسيارته. فذلك ما كنت أفعله على الدوام. دخل إلى السيارة، كالعادة، ولوحت له. لكن فجأة، انفجرت السيارة وقفزت إلى الأعلى. ركضت خارجاً لأحاول أن أساعده، فاستطعت أن أرى من خلال الدخان والفوضى، أن ساقيه قد اختفتا وأنه ينزف بدرجة رهيبة. فقد أنقذف إلى خارج السيارة. حضرت قوة الإطفاء والشرطة أيضاً. لكن جميع رجال الشرطة كانوا من اليهود. بقي والدي ملقى هناك، وسط الطريق، وهو ينزف، لكنهم لم يستعجلوا. تمهلوا قبل أن يوصلوه إلى المستشفى، وعندما أوصلوه إلى هناك في نهاية المطاف، كان قد فارق الحياة.

مع غياب كريم، فقد المجتمع الكثير من معنوياته. وبدأ يتفكك مع مرور السنين. أو ربما انصهر في النهاية داخل ثقافة بلاده المتبناة. رحل بعض الناس، على الأغلب باتجاه كاليفورنيا. بينما تحول الآخرون إلى مجرد أعضاء في المجتمع المحيط بهم. تفكك مجتمع الشتات الأصلي، في نيوجيرسي على الأقل. لكن القصص ما زالت تروى وما زالت الأحقاد في الصدور. ستمر أجيال عديدة قبل أن تشفى آثار الجراح والآلام التي أوقعت بالناس.

استقر كل من ألوشا، عسكربي وألبرت الذين انتقلوا إلى كاليفورنيا بعد وصولهم إلى أمريكا بوقت قصير، في مقاطعة أورانج، حيث افتتحوا مطعماً رائعاً سموه "الفصول الأربعة" وجعلوا منه نقطة التقاء جميع شراكسة الشتات في الساحل الغربي.

تزوج الرجال الثلاثة وعملوا في إدارة المطعم حتى بلغوا مرحلة التقاعد.

الفصل الرابع والعشرون

كان ذلك عام ١٩٩٢. وصلت بالطائرة إلى عمان، الأردن، في طريقي إلى الشرق الأقصى برحلة عمل. وكان قد مر حوالي شهرين على رؤيتي لوالديَّ، فأردت أن أقضي بضعة أيام في زيارتهما. الوقت أواخر الربيع، وهذا الوقت من السنة رائع في الأردن، حين تتحول الصحراء كلها إلى لون الخضرة وتزدهر تلال عمان بالأعشاب الخضراء والأزهار البرية. كنت متشوقاً إلى إجازة قصيرة مريحة ومرحة مع عائلتي. لكنني حين رأيت والدي، صدمتني حالته.

فهذا هو الرجل الذي رافقني في ركوب الخيل في بيركشاير، إنجلترا، قبل مجرد أشهر قليلة: رجل يبدو بحالة رائعة بالنسبة إلى سنه، ممتلئ بالطاقة الحيوية، بنفس الهيئة العسكرية، ظهره مستقيم مثل مدك البندقية، بوسامة جريئة، مرتدياً بنطاله المخطط وحذاء الركوب الطويل الرقبة.

يبدو الآن هزيلاً. لقد فقد الكثير من وزنه خلال فترة الشهرين القصيرة، ويبدو اليوم أكبر سناً بكثير من سنواته الاثنين والثمانين. سألت والدتي مازحاً ما إذا كان والدي يتبع حمية سخيفة من نوع ما!

أجابت والدتي والتوجس القلق ينهش وجهها الملائكي. "لا، لا شيء من ذلك، لكنه لا يستطيع أن يحتفظ بأي طعام يتناوله".

عندما واجهت والدي باهتمامي وقلقي، قال أنه لديه مجرد مشكلة في حلقه. "لا أستطيع أن أبلع بالشكل الصحيح". هذا ما قاله.

سألته "وهل عرضت نفسك على الأطباء؟".

"نعم، فعلت. يقولون لي أنه ما من خلل في حلقي. يعتقدون أن لدي حساسية من نوع ما. ولكنني لست قلقاً". قال ذلك بأسلوبه الرجولي النموذجي.

"ولكن أنا أشعر بالقلق. يجب أن نعرضك على طبيب آخر" شدّدت على كلماتي. عرفت أنه سيرفض الفكرة، فلم أنتظر سماع ردة فعله. غادرت الغرفة فوراً وهاتفت جارنا، الدكتور نزال. لقد ظل الدكتور العجوز طبيب العائلة منذ وعته ذاكرتي. على كل حال لم يكن والدي يؤمن إلا بأطباء الجيش في المستشفى العسكري، ونادرا ما استشار جارنا. فحص الدكتور نزال والدي بعد ظهر اليوم نفسه وانتحى بي ركناً للتشاور. أخبرني بحذر أنه يشك بوجود عارض أشد خطورة بكثير لدى والدي. اقترح علي أن آخذه إلى إنجلترا وأجري له فحوصاً ملائمة ومتعمقة، خاصة وأنه ربما يحتاج إلى عملية جراحية عاجلة. فهمنا من كلامه أنه يتكلم عن الـ "سين" الرهيبة.

ألغيت خطط سفري إلى الشرق الأقصى على الفور، وقررت أن اقنع والدي، عزت حسن بأن ينفذ ما أطلبه للمرة الأولى في حياتي. كانت معنوياته عالية إلى درجة مفاجئة، فاقترحت عليه أن يسافر معي إلى إنجلترا لإجراء الفحوصات الملائمة. عرفت أنه سيعارض في البداية، وهذا ما حدث. لكنني بعد ذلك وعدته بعطلة نهاية أسبوع مريحة في منتجع يسمى غريشوت هول، تعودت على ارتياده كل سنة. وافق على مضض. لم استطع أن أخبره بشكوك الدكتور نزال. فقد بقيت أدعو الله أن لا تكون مبررة، وأن نتمكن من حل مشكلته الصحية بسهولة وبدون أية عمليات جراحية.

فكرت في احتمال اصطحاب والدتي لتوفر له الرفقة، لكنها ترددت. أظن أنها فكرت أننا معشر الرجال، يجب أن نحل قضايانا بأنفسنا ولوحدنا. لكنني تبينت من ملامحها وتعابير وجهها أنها قلقة عليه

بعمق. كانت والدتي سيدة شركسية رقيقة، تتكلم بهدوء ولم ترفع ضغط دمها مطلقاً. لا أذكر أنني سمعتها تنطق بكلمة نابية لأحد ما بكل ما تعيه ذاكرتي. اكتفت بأن انتحت بي جانباً وقالت لي أنها تشك في أن والدي مريض بدرجة خطرة وأنني سأتمكن من العناية به بشكل أفضل بدون وجودها الذي سيعيق تحركي. كذلك كانت هي واهنة وستحتاج إلى الكثير من الرعاية في مثل تلك الرحلة الطويلة. هبطنا في لندن لنجد الليموزين القادمة من غريشوت هول تنتظرنا في المطار بشكل ملائم. قضينا أربعة ايام في المنتجع بينما أنا ابحث عن مستشارين ليفحصوا والدي. كان الدافع الأسمى الآخر لدي في توقفنا بغريشوت هول، هو تدعيم طاقة والدي وبناءها بالطعام المناسب، في حالة الحاجة إلى عملية جراحية. شرحت لطاقم العاملين في المنتجع ما نحن بحاجة إليه، فقاموا بتحضير حمية خاصة له تحتوي على الأطعمة الطرية والعصائر التي يتمكن من بلعها بسهولة. أمضينا ساعات بعد الظهر في مسيرات قصيرة ممتعة حول أراضي المنتجع الواسعة. كان ذلك علاجاً جيداً لي أيضاً لأنني كنت متشوقاً إلى حكمة والدي وحكاياته عن السنوات الماضية أثناء الأيام العنيفة لبناء الدولة في الاردن.

حجزت مواعيد في مستشفى ببريستول، حيث أخبرني طبيب صديق في هارلي ستريت، عن وجود أخصائي حاذق يقيم هناك. أكدت الصور الشعاعية وصور الرنين المغنطيسي التي التقطت بعد وصولنا مباشرة إلى بريتسول، اسوأ مخاوفي. وهي ان والدي يعاني من ورم يسد مجرى امعائه، وقد وصل إلى مرحلة متقدمة، بحيث انتشر إلى المعدة. قال الأخصائي أنه يتوجب عليه إجراء العملية على الفور، لإزالة جزء كبير من معدة والدي، ثم لتحويل بعض من الأمعاء المتبقية لتعمل بدلاً عن المعدة. بدا لي الوضع فظيعاً ومخيفاً.

اضطررت بعد ظهر ذلك اليوم، أثناء وجودنا في الفندق ببريستول، إلى أن أخبره بالنتائج وبالحاجة إلى إجراء عملية عاجلة. تلقى والدي

الخبر برزانة الجندي العجوز الذي يجسده، وافق على العملية، قائلاً أن الأمر كله بيد الحق سبحانه وتعالى.

حجزت له موعداً في المستشفى مساء اليوم نفسه، وأجرى الجراح العملية قرابة الساعة الواحدة صباحاً.

ألمح الجراح إلى أن العملية سارت على ما يرام، وأن والدي لم يعاني من أية عوارض جانبية نتيجة لسنه المتقدمة. في الواقع، اذكر انه أخبرني بأن عزت لديه قلب شاب وأنه تحمل العملية التي استغرقت خمس ساعات بشكل ممتاز.

أفاق والدي في اليوم التالي تدريجياً وببطء من نومه الطويل، فتحدثنا بشكل متقطع لبقية ذلك النهار. كنت قد قررت البقاء إلى جانبه ليلاً ونهاراً، ورفضت الغرفة التي قدمها المستشفى لي. طبيعي أنه كان واهناً نتيجة العملية الطويلة، ولكنه أخذ يستعيد قوته بسرعة جيدة. خابرت والدتي مساءً في البيت وتكلم عزت معها، وطمأنها إلى أنه في طريقه إلى الشفاء. اضطررت ساعتها إلى الاعتراف لها بأن والدي كان يعاني من السرطان وأن العملية التي أجريت له طويلة، متعبة ومعقدة. لكنني أكدت لها بأن عمليته ناجحة وأنني سأعود به إلى البيت خلال أسبوعين. شعرت والدتي بالانفراج والارتياح وكذلك بقية العائلة بمن فيها شقيقاتي الذاهلات. كانت اثنتان منهما تعيشان في أمريكا في ذلك الوقت، فاضطررت إلى إخبارهما عن العملية أيضاً.

استمرت نقاهة والدي وتعافيه ليومين آخرين بشكل ممتاز. اقترح في اليوم الثالث أن أطلب من شقيقتي الكبرى كرمه أن تحضر بالطائرة لتريحني من رقابتي اليقظة المسترمة: إذ لا بد وأنه لاحظ حالتي الزرية بحلول ذلك الوقت. طارت كرمه من أمريكا في اليوم التالي وحجزت غرفة في فندق قريب. بعد ذلك طلب مني والدي أن آخذ قسطاً من الراحة، لأن كل شيء يسير على ما يرام، وبما أن كرمه موجودة للاعتناء به في الليل.

أعترف بأنني كنت بحاجة إلى نوم ليلة كاملة مريحة لأنعش نفسي، فأخبرت شقيقتي أنني سأقود سيارتي عائداً إلى شقتي في لندن. فكرت في ضرورة تفقد بريدي وأن أحظى باستراحة ليلة كاملة. أخبرتها بأنني سأعود بالسيارة حوالي ظهيرة اليوم التالي. غادرتها بعد ان اعطيتها رقم هاتفي، وطلبت منها أن تتصل بي إذا حصل اي طارئ.

في الليلة نفسها، وقرابة الثانية صباحاً، ايقظني صوت شقيقتي القلق، تطلب مني العودة على الفور. فقد أصيب والدنا بنكسة، وقد أخبر المستشفى طبيبه الذي كان في تلك اللحظة عائداً من بلدة في شمال إنجلترا. عدت باسرع ما أمكنني، وأنا ألقي باللائمة على أنانيتي لمغادرتي إياه في ذلك الوقت المبكر: ليس لأن وجودي كان سيشكل اي فارق، ولكن على الأقل، كنت سأريح شقيقتي الكبرى من القلق الرهيب الذي ألفيتها عليه في المستشفى.

فحص الجراح والدي بمنتهى الدقة، لكنه لم يستطع أن يفهم ما يحدث له. فقد تعرض كامل جسمه لتسمم حاد، وأخبرني ان الطريقة الوحيدة التي سيتمكن فيها من معرفة ما سيتوجب عليه عمله هو إذا فتح مكان العملية مرة أخرى في غرفة العمليات.

فهناك احتمالية ضئيلة لإنقاذه إذا أجرى العملية على الفور. وقع علي هذا الأمر وقوع الصاعقة. فهل سيتمكن والدي المتقدم في السن من تحمل عملية جراحية أخرى؟ هل سيقدر قلبه على الصمود أمام مبضع الجراح بعد هذا الوقت القصير من العملية الأولى؟ لكن في الحقيقة، لم يكن هناك خيار في المسألة. فهو يخسر طاقاته وحالته تتردى بسرعة. واجهت والدي بالأخبار، فاكتفى بأن يبتسم بوهن:

قال بصوته "لا تقلق يا محيو"، كان هذا هو الاسم الذي طالما ناداني به. "إذا شاء الله سبحانه وتعالى، فسوف أنجو من هذه أيضاً. فقط اطلب منهم التعجيل. إنني افقد قواي سريعاً". بدأ لون وجهه يتحول إلى الزرقة وحبيبات التعرق تتشكل فوق جبينه. لاحظ دموعي فمد يده

ليمسك بيدي.

"إذا لم تسر الأمور على ما يرام... اعلم فقط أنني فخور بك وأباركك يا ولدي. ستكون ماما مسؤوليتك. لا تترك مصيرها لشقيقاتك أو لأي شخص آخر".

ثم شد على يدي، أغمض عينيه واستسلم لغيبوبة عميقة.

توفي والدي صباح نفس اليوم، بعد أن أعيد من غرفة العمليات. وصل إلى مرحلة نصف وعي للحظات قليلة في سريره بالمستشفى، لكن عينيه بقيتا مغمضتين. لم اشعر بشيء سوى ضغط يده الخفيف على يدي حين غادرت روحه هذا العالم. سوف نمر جميعنا بتجربة فقدان والد في وقت أو آخر، لأن الموت هو قاعدة مطلقة وملائمة للحياة. لكن هذه التجربة الإنسانية الجمعية وإدراكها لا يسهلان الأمر على الأبناء الذين يبقون على قيد الحياة. لقد كانت وفاة والدي أشبه برحيل حقبة من الرجال العمالقة، رجال أمجاد عاشوا في فترة من التاريخ حددت مستقبل جميع أبناء الشتات والأمم التي خدموها.

أخذت جثمانه معي بالطائرة إلى عمان، وقوبلت في المطار على الفور بثلة من ألوية وضباط الأركان العامة للقوات المسلحة الأردنية. حضر القائد العام إلي لتقديم تعازيه وقال لي بلطف.

"إنه ينتمي إلينا الآن. سوف نتولى الأمر من هنا".

أصبت بالذهول ولم أعرف ما ينبغي علي قوله. فلم يدر بخلدي أنني سأتخلى عن والدي للغرباء. فقد خططت وفكرت في عملية الدفن في مقبرة عائلتنا، وأنا أعلم تمام العلم أن جميع شراكسة الشتات في الأردن سيحضرون الجنازة العائلية. تسبب ترددي في قدوم أحد الجنرالات القدامى نحوي.

"موحي، لقد كان رجلاً عظيماً، وهو أحد القلة الذين ساعدوا في بناء هذه الدولة. سوف يتم دفنه بمراسيم كاملة واحتفال يقام لأبطال

بلدنا. أرجوك أن تتركه لنا. سوف نحيطك علماً بخططنا لاحقاً".

مشيت مبتعداً عن التابوت، وأنا أحاول أن أفكر في الكلمات التي سأقولها لوالدتي، زوجته، ولماذا لم أتمكن من إحضار زوجها إلى البيت كما وعدت.

دفن عزت حسن كبطل وطني باحتفالية وتكريم عسكري كامل. مشت فرقة موسيقات الجيش أمام عربة مدفع تجرها الجياد، وصاحبت فئة عسكرية بلباسها العسكري الكامل، موكب الجنازة كامل الطريق من مسجد الجيش إلى مقبرة العائلة. حضر الجنازة ممثلون عن البلاط الملكي والعديد من الأمراء الهاشميين، القوات المسلحة، وزراء في الحكومة وقادة الأمن العام. كذلك حضرها قطاع كبير من شراكسة الشتات في الأردن وبعض من رفاق السلاح الذين خدموا معه. بينما كان النعش يحمل مروراً بهؤلاء الجنود القدامى، رأيت صديقه القديم المشير حابس المجالي يؤدي التحية للنعش الملتف بالعلم الأردني والدموع تترقرق فوق خديه: جندي مسن يودع صديقاً قديماً. عندما صافحته لاحقاً أثناء تقديم العزاء، قال لي حابس بصوت مضطرب:

"أتعلم يا محيي الدين، لقد كان عزت البطل الحقيقي لمعركة باب الواد. ما كتبوه عن المعارك لم يكن صحيحاً". انسابت دموعه مرة أخرى فضممته إلى صدري وشكرته على قدومه. فقد كان يمشي بصعوبة بالغة بمساعدة عصا للمشي. يمثل حابس بالنسبة لي روح الفروسية للأردنيين الحقيقيين، أردنيي الصحراء. عندما انتقل حابس المجالي إلى دار الآخرة بعد مجرد شهور قليلة، حضرت جنازته التي قدمت له فيها نفس طقوس تكريم والدي. كذلك مثل رحيله النهاية الحقيقية لحقبة مهمة في التاريخ الأردني.

الخاتمة

الأردن ٢٠٠٧

أخبرني وليد طاش، صديقي الشركسي منذ القدم من الأردن "سيصل الرئيس بوتين بعد ثلاثة أيام" . وهو يتصفح جريدة يحملها بتراخ بين يديه. كنت أزوره في بيته، ونحن نحتسي الشاي بعد ظهر يوم شباطي لطيف في عمان.

قلت له "نعم، لقد سمعت ذلك، وأظن كذلك أن الرئيسين الشركسيين الجديدين للقفقاس قادمين معه في نفس الزيارة" .

في الواقع أنني عرفت عن الزيارات الرسمية المنوي القيام بها قبل حوالي شهر من السفير الروسي في الأردن. كان ذلك أمراً مثيراً لشراكسة الشتات في الأردن، وعلمت أنهم سيخططون لاحتفالات ترحيب "أديفه" لائقة بهما.

"هل علمت أن "الخاسا" سوف تطلب من بوتين أن يمنح جميع شراكسة الشتات في الأردن جواز السفر الروسي؟" .

ذلك امر لم أكن أعرفه قطعاً. بدا مستغرباً لي أن يطلبوه الآن. فأنا أعلم يقيناً أن قلة قليلة من شراكسة الأردن ستقبل بالعودة النهائية إلى روسيا، ومن بين أولئك العائدين، لن يصمد معظمهم هناك طويلاً.

لأن الشراكسة يتمتعون بموقع متميز وحياة ممتازة في هذا البلد، وقلما شعروا بأنهم أجانب في الأردن. فالشراكسة جزء من مؤسسي البلاد. اعتقدت أن ذلك مطلب غير عادي، وقلت ذلك.

لم يتفق وليد معي في أنه مطلب مستغرب.

"الأمر يا موحي هو هكذا: اتفق معك في أن مواطنينا قد لا يعودون إلى روسيا. حتى لو عاد بعضهم، فربما يستديرون ليعودوا إلى الأردن. لكن مجرد حقيقة أن روسيا ستمنحهم الحق في العودة، وتعطيهم جواز السفر، يعني أنهم أعيد لهم الاعتراف بأنهم انتموا إلى ذلك البلد في يوم ما".

"إنها قضية نفسانية بالنسبة إليهم. إنها تعبير عن انصاف طال انتظاره"

"وليد، لو فرضنا أن بوتين أعطاك جواز سفر اليوم، فهل تعود للمعيشة في روسيا؟".

ظهرت على وليد السكينة بينما انزلقت نظارته فوق أنفه قليلاً، وندت عنه تلك الابتسامة التي تنم عن الفهم الممتزج بالحكمة، والتي عرفتها للسنوات الخمسين الماضية.

"لا يا موحي، لن أعود، لكنني سأموت هنا في الأردن وأنا أحمل الطمأنينة في قلبي".

لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة أبداً. لأن وليد وأنا من ابناء شتات قديم، لكن قلبينا بقيا على الدوام مع أخوتنا وأخواتنا في شمال القفقاس. ظل ولاؤنا لبلد اقامتنا المؤسس فوق أي شك، وقد أثبت أجدادنا وآباؤنا تلك الحقيقة المرة تلو الأخرى. سيفعل أبناؤنا الشيء نفسه. لقد تم استيعاب الشراكسة وتآلفهم بدرجة ممتازة في المجتمع الجديد، المتعدد الثقافات، المتعدد الأصول للملكة الهاشمية، خلافاً لأخوتهم في سوريا، تركيا أو إسرائيل. فلماذا إذاً انعدام اليقين النفسي أو ربما يجب أن أسميه... انعدام الأمان؟

غادرت بعد ظهر ذلك اليوم، وأنا أفكر في المعضلة وأتساءل كيف سينظر الروس إلى الطلب، لو أنه قدم إليهم فعلاً. طبعاً، على الصعيد

الفردي، فإن أي شركسي سيتقدم بطلب للهجرة العكسية باتجاه روسيا. تلك كانت سياسة اقترحها بوتين نفسه لتشجيع أحفاد جميع المهاجرين الروس في الخارج على العودة إلى وطنهم الأصلي. لكن "الخاسا" تقترح منح جوازات عشوائي لجميع شراكسة الأردن، متجاوزة بذلك الإجراءات والطلبات المعتادة. فهل ذلك ممكن أو حتى قانوني ضمن الدستور الروسي؟ ليس لأن ازدواجية الجنسية يمكن أن تسبب مشاكل: لأن الأردن في الحقيقة هو البلد العربي الوحيد المتفهم في هذا المجال، والفدرالية الروسية تسمح بازدواج الجنسية للماهاجرين. المسألة أعمق من ذلك حتماً. تذكرت كلمات مقدمتي لهذه السلسلة من ستة كتب، عن رغبتي في "الصراخ من فوق سطوح البيوت، لجعل الدنيا تعرف أنني شركسي". فهل هو ذلك الارتباط الغامض العصي على التفسير بالوطن الأم، هو الذي أبقانا متماسكين ثقافياً وآملين في أن نظل مرتبطين عاطفياً بالقفقاس، بروسيا وبالحق السلفي بوطن تاريخي؟

فكرت أحياناً بأن هذا عبارة عن مفهوم خيالي حالم، كشف عنه الرومانسيون ودافع عنه مؤلفون يشابهونني كثيراً. لكن ما قاله لي صديقي وليد ظل يتكرر داخل عقلي، يطرح العديد من الأسئلة التي لم أتمكن من العثور على أجوبة بسيطة لها. تذكرت كذلك أن اليهود الروس والألمان قد منحوا امتياز الحصول على جوازي سفر عندما هاجروا إلى مواطنهم الأصلية في ألمانيا وإسرائيل. إنهم يتمتعون بحق العودة إلى روسيا في أي وقت يختارون فيه ذلك. لماذا إذاً لا يتمتع شراكسة الشتات بنفس الامتياز؟.

بدا لي الأمر بعيداً عن الإنصاف.

أنا أعرف أمراً واحداً حق المعرفة واليقين. إن مفهوم الانتماء والأمان تجاه معرفة من أنت ومن أين أتيت أمر لا يقرره جواز السفر الذي تحمله. لكنني أعتقد أن شراكسة الشتات يجب أن يمنحوا نفس الامتيازات الممنوحة إلى الأقليات العرقية الأخرى في روسيا.

يتحدر محي الدين عزت قندور من أصول شركسية، هاجر أجداده خارجين من القفقاس (روسيا الجنوبية) إلى الشرق الأوسط في أوائل القرن العشرين. ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية كمراهق وأنهى دراسته الجامعية الأولى والعليا في ولايتي انديانا وكاليفورنيا وحصل على شهادة ماجستير في الدراسات الدولية والدكتوراه في التاريخ والاقتصاد.

عمل قندور في مجال إدارة الأعمال مع شركات متعددة الجنسيات في نيويورك ولندن حوالي خمسة وثلاثين عاماً كمدير تنفيذي و/أو كمستشار. في بداية السبعينات أمضى أربع سنوات ككاتب سيناريو ومنتج/مخرج أفلام في هوليوود.

كتب العديد من الأعمال غير الروائية واثنتي عشرة رواية تاريخية منشورة بما فيها "ثلاثية القفقاس" ذات المبيعات العالية و"الثورة" كذلك، فإن قندور مؤلف موسيقى كلاسيكية، ويتم عزف العديد من مؤلفاته في روسيا، إنجلترا، اليابان وبلدان أخرى. يوم ٣١ أيار عام ٢٠٠٥ منح قندور ميدالية الصليب الذهبي (فوزرويدينيي روسيٌ) النفيسة، في موسكو، لمساهماته في "ثقافة الوطن الأب". كذلك منح الدكتور محي الدين قندور لقب وميدالية "كاتب الشعب" (نارادني بيزاتل) بتاريخ ٥ / ٤ / ٢٠٠٨ وهو أعلى لقب يمنح لكاتب في روسيا الاتحادية. يسافر قندور كثيراً كل سنة، حيث يقوم بالأبحاث لرواياته، لكنه يقيم مع زوجته وطفليه في وندسور، إنجلترا.

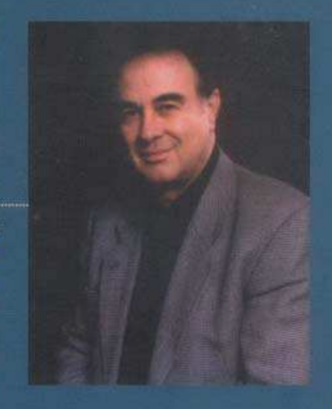
جزر قناة جيرسي

Info@jpcpress.co.uk

هذه هي الحلقة الأخيرة من سلسلة حول الشراكسة، توفر قراءة مؤثرة وساحرة، مفعمة بالمحيط، تجمع بين ملاحظات السيرة الذاتية والأحداث التاريخية للقرن العشرين. هل سيستمر الشراكسة في الحياة كجنس إثني متفرد، يحافظ على لغته وثقافته، أم أنهم سيتفرقون ويذوبون في ثقافات أخرى كما حدث مع السلالات المملوكية الكبيرة في الماضي؟ هذا تصوير قوي وصادق لشعب عانى من خصوصياته الثقافية بقدر معاناته على أيدي أعدائه ومنتقصي حريته.

أبناء الشتات

الجزء السادس من ملحمة القفقاس



أبناء الشتات

هذا هو الجزء الأخير من سلسلة الروايات التاريخيّة، الّتي توفّر قراءة مؤثّرة وساحرة مفعمة بالمعلومات التاريخيّة حول الشراكسة، وتجمع بين ملاحظات السيرة الذاتيّة والأحداث التاريخيّة للقرن العشرين.

هل سيستمرّ الشراكسة في الحياة كجنس إثنيّ منفرد يحافظ على لغته وثقافته، أم إنّهم سيتفرّقون ويذوبون في ثقافات أخرى كما حدث في مصر مع السلالات المملوكيّة الكبيرة في الماضي؟

هذه القصّة التاريخيّة تصوير قويّ وصادق لشعب عانى من خصوصيّاته الثقافيّة بقدر معاناته على أيدي أعدائه ومنتقصي حرّيّته.

محي الدين عزّت قندور

عمل في مجال إدارة الأعمال مع شركات متعدّدة الجنسيّات في نيويورك ولندن لحوالي خمسة وثلاثين عامًا كمدير أعمال تنفيذيّ و / أو مستشار.

عمل أربع سنوات، في بداية السبعينات، كاتب سيناريو ومنتجًا / مخرجًا للأفلام في هوليوود. كتب عدّة أعمال غير روائيّة وثلاث عشرة رواية تاريخيّة منشورة. في ٣١ أيار ٢٠٠٥ تلقّى قندور ميدالية الصليب الذهبيّ القيّمة (فوزراجدينيي روسي) في موسكو عن إسهاماته في «الثقافة في روسيا الفيدراليّة». تلقّى كذلك لقب وميدالية مؤلّف الشعب (نارودني بيزاتل) في ٥ نيسان ٢٠٠٨ في الفيدراليّة الروسيّة.


ISBN 978-9953-36-259-9


المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com